84 وأخيه ومن كان معهما أو على جعل الاثنين جماعة مستمعون لفظه جمع وورد مورد تعظيم الله تعالى ويحتمل أن تكون الملائكة هي التي تسمع بأمر الله لأن الله لا يوصف بالاستماع وإنما يوصف بالسمع والأول أحسن وتأويله أن في الاستماع اعتناء واهتماما بالأمر ليست في صفة سامعون والخطاب في قوله معكم لموسى وهارون وفرعون وقومه وقيل لموسى وهارون خاصة على معاملة الاثنين معاملة الجماعة وذلك على قول من يرى أن أقل الجمع اثنان إنا رسول ربك إن قيل لم أفرده وهما اثنان فالجواب من ثلاثة أوجه الأول أن التقدير كل واحد منا رسول الثاني أنهما جعلا كشخص واحد لاتفاقهما في الشريعة ولأنهما أخوان فكأنهما واحد الثالث أن رسول هنا مصدر وصف به فلذلك أطلق على الواحد والاثنين والجماعة فإنه يقال رسول بمعنى رسالة بخلاف قوله إنا رسولا فإنه بمعنى الرسل أن أرسل معنا بني إسرائيل أي أطلقهم قال ألم نربك فينا وليدا قصد فرعون بهذا الكلام المن على موسى والاحتقار له وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين قصد فرعون بهذا الكلام توبيخ موسى عليه السلام ويعني بالفعلة قتله للقبطي والواو في قوله وأنت إن كانت للحال فقوله من الكافرين معناه كافرا بهذا الدين الذي جئت به لأن موسى إنما أظهر لهم الإسلام بعد الرسالة وقد كان قبل ذلك مؤمنا ولم يعلم بذلك فرعون وقيل معناه من الكافرين بنعمتي وإن كانت الواو للاستئناف فيحتمل أن يريد من الكافرين بديني ومن الكافرين بنعمتي قال فعلتها إذا وأنا من الضالين القائل هنا هو موسى عليه السلام والضمير في قوله فعلتها لقتله القبطي واختلف في معنى قوله من الضالين فقيل معناه من الجاهلين بأن وكزتي تقتله وقيل معناه من الناسين فهو كقوله أن تضل إحداهما وقوله إذا صلة في الكلام وكأنها بمعنى حينئذ قال ذلك ابن عطية ففررت منكم أي من فرعون وقومه ولذلك جمع ضمير الخطاب بعد أن أفرده في قوله تمنها علي

أن عبدت
وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل معنى عبدت ذللت واتخذتهم عبيدا فمعنى هذا الكلام أنك عددت نعمة على تعبيد بني إسرائيل وليست في الحقيقة بنعمة إنما كانت نقمة لأنك تذبح أبناءهم ولذلك وصلت أنا إليك فربيتني فالإشارة بقوله تلك إلى التربية وأن عبدت في موضع رفع عطف بيان على تلك أو في موضع نصب على أنه مفعول من أجله وقيل معنى الكلام تربيتك نعمة على لأنك عبدت بنى إسرائيل وتركتنى فهي في المعنى الأول إنكار لنعمته وفي الثاني اعتراف بها قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين لما أظهر فرعون الجهل ... 478

---

85 بالله فقال وما رب العالمين أجابه موسى بقوله رب السموات والأرض فقال ألا تستمعون تعجبا من جوابه فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ربكم ورب آبائكم الأولين لأن وجود الإنسان وآبائه أظهر الأدلة عند العقلاء وأعظم

البراهين فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم فيستدلون بها على وجود خالقهم فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطة منه وأيد الازدراء والتهكم في قوله رسولكم الذي أرسل إليكم فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله رب المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن أحدا جحدها ولا أن يدعيها لغير الله ولذلك أقام إبراهيم الخليل بها الحجة على نمروذ فلما انقطع فرعون بالحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فهدده بالسجن فأقام موسى عليه الحجة بالمعجزة وذكرها له بتلطف طمعا في إيمانه فقال أولو جئتك بشيء مبين والواو واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام وتقديره أتفعل بي ذلك ولو جئتك بشيء مبين وقد تقدم في الأعراف ذكر العصا واليد وماذا تأمرون وأرجه وحاشرين فإن قيل كيف قال أولا إن كنتم موقنين ثم قال آخرا إن كنتم تعقلون فالجواب أنه لاين أولا طمعا في إيمانهم فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله إن كنتم تعقلون وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون إن رسولكم لمجنون لميقات يوم هو يوم الزينة نتبع السحرة أي نتبعهم في نصرة ديننا لا في عمل السحر لأن عمل السحر كان حراما بعزة فرعون قسم أقسموا به وقد تقدم في الأعراف تفسير ما يأفكون وما بعد ذلك لا ضير أي لا يضرنا ذلك لأننا ننقلب إلى الله أسر بعبادي يعني بني إسرائيل إنكم متبعون إخبار باتباع فرعون لشرذمة قليلون الشرذمة الطائفة من الناس وفي هذا احتقار لهم على ... 479

---

86 أنه روي أنهم كانوا ستمائة ألف ولكن جنود فرعون أكثر منهم بكثير فأخرجناهم من جنات وعيون يعني التي بمصر والعيون الخلجان الخارجة من النيل وكانت ثم عيون في ذلك الزمان وقيل يعني الذهب والفضة وهو بعيد ومقام كريم مجالس الأمراء والحكام وقيل المنابر وقيل المساكن الحسان كذلك في موضع خفض صفة لمقام أو في موضع نصب على تقدير أخرجناهم مثل ذلك الإخراج أو في موضع رفع على أنه خبر ابتداء تقديره الأمر كذلك وأورثناها بني إسرائيل أي أورثهم الله مواضع فرعون بمصر على أن التواريخ لم يذكر فيها ملك بني إسرائيل لمصر وإنما المعروف أنهم ملكوا الشام فتأويله على هذا أورثهم مثل ذلك بالشام فأتبعوهم أي لحقوهم وضمير الفاعل لفرعون وقومه وضمير المفعول لبني إسرائيل مشرقين معناه داخلين في وقت الشروق وهو طلوع الشمس وقيل معناه نحو المشرق وانتصابه على الحال تراء الجمعان وزن تراءى تفاعل وهو منصوب من الرؤية والجمعان جمع موسى وجمع فرعون أي رأى بعضهم بعضا فانفلق تقدير الكلام فضرب موسى البحر فانفلق كل فرق أي كل جزء منه والطود الجبل وروي أنه صار في البحر اثني عشر طريقا لكل سبط من بني إسرائيل طريق وأزلفنا ثم الآخرين يعني بالآخرين فرعون وقومه ومعنى أزلفنا قربناهم من البحر ليغرقوا وثم هنا ظرف يراد به حيث انفلق البحر وهو بحر القلزم ما تعبدون إنما سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبين لهم أن ما يعبدونه ليس بشيء ويقيم عليهم الحجة قالوا نعبد أصناما إن قيل لم صرحوا بقولهم نعبد مع أن السؤال وهو قوله ما تعبدون يغني عن التصريح بذلك وقياس مثل هذا الاستغناء بدلالة السؤال كقوله ما أنزل ربكم قالوا خيرا فالجواب أنهم صرحوا بذلك على وجه الافتخار والابتهاج

بعبادة الأصنام ثم زادوا قولهم فنظل لها عاكفين مبالغة في ذلك بل وجدنا آباءنا اعتراف بالتقليد المحض إلا رب العالمين استثناء

منقطع وقيل ... 480
87 متصل لأن في آبائهم من عبد الله تعالى وإذا مرضت فهو يشفين أسند المرض إلى نفسه وأسند الشفاء إلى الله تأدبا مع الله أن يغفر لي خطيئتي قيل أراد كذباته الثلاثة الواردة في الحديث وهي قوله في سارة زوجته هي أختي وقوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم وقيل أراد الجنس على الإطلاق لأن هذه الثلاثة من المعاريض فلا إثم فيها لسان صدق ثناء جميلا يوم لا ينفع وما بعده منقطع عن كلام إبراهيم وهو من كلام الله تعالى ويحتمل أن يكون أيضا من كلام إبراهيم إلا من أتى الله بقلب سليم قيل سليم من الشرك والمعاصي وقيل الذي يلقى ربه وليس في قلبه شيئا غيره وقيل بقلب لديغ من خشية الله والسليم هو اللديغ لغة وقال الزمخشري هذا من بدع التفاسير وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون متصلا فيكون من أتى الله مفعولا بقوله لا ينفع والمعنى على هذا أن المال لا ينفع إلا من أنفقه في طاعة الله وأن البنين لا ينفعون إلا من علمهم الدين وأوصاهم بالحق ويحتمل أيضا أن يكون متصلا ويكون قوله من أتى الله بدلا من قوله مال ولا بنون على حذف مضاف تقديره إلا مال من أتى الله وبنوه ويحتمل أن يكون منقطعا بمعنى لكن وأزلفت الجنة أي قربت للغاوين يعني المشركين بدلالة ما بعده فكبكبوا فيها كبكبوا مضاعف من كب كررت حروفه دلالة على تكرير معناه أي كبهم الله في النار مرة بعد مرة والضمير للأصنام والغاوون هم المشركون وقيل الضمير للمشركين والغاوون هم الشياطين نسويكم برب العالمين أي نجعلكم سواء معه وما أضلنا إلا المجرمون يعني كبراءهم وأهل الجرم والجراءة منهم حميم أي خالص الود قال الزمخشري جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الأصدقاء كذبت قوم نوح المرسلين أسند الفعل إلى القوم وفيه علامة التأنيث لأن القوم في معنى الجماعة والأمة فإن قيل كيف قال المرسلين بالجمع وإنما كذبوا نوحا

وحده فالجواب من وجهين أحدهما أنه أراد الجنس كقولك فلان يركب الخيل وإنما لم يركب إلا فرسا واحدا والآخر أن من كذب نبيا واحدا فقد كذب جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن قولهم واحد ودعوتهم ... 481
88 سواء وكذلك الجواب في كذبت عاد المرسلين وغيره واتبعك الأرذلون جمع أرذل وقد تقدم الكلام عليه في قوله أراذلنا في هود وما أنا بطارد المؤمنين يعني الذين سموهم أرذلين فإن الكفار أرادوا من نوح أن يطردهم كما أرادت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد عمار بن ياسر وصهيبا وبلالا وأشباههم من الضعفاء المرجومين يحتمل أن يريدوا الرجم بالحجارة أو بالقول وهو الشتم فافتح بيني وبينهم أي احكم بيننا في الفلك

المشحون أي المملوء بكل ريع الريع المكان المرتفع وقيل الطريق آية يعني المباني الطوال وقيل أبراج الحمام مصانع جمع مصنع وهو ما أتقن صنعه من المباني وقيل مأخذ الماء أمدكم بأنعام الآية تفسير لقوله أمدكم بما تعلمون فأبهم أولا ثم فسره خلق الأولين بضم الخاء واللام أي عادتهم والمعنى أنهم قالوا ما هذا الذي عليه من ديننا إلا عادة الناس الأولين وقرىء بفتح الخاء وإسكان اللام ويحتمل على هذا وجهين أحدهما أنه بمعنى الخلقة والمعنى ما هذه الخلقة التي نحن عليها إلا خلقة الأولين والآخر أنها من الاختلاق بمعنى الكذب والمعنى ما هذا الذي جئت به إلا كذب الأولين أتتركون تخويف لهم معناه أتطمعون أن تتركوا في النعم على كفركم ونخل طلعها هضيم الطلع عنقود التمر ... 482

---

89 في أول نباته قبل أن يخرج من الكم والهضيم اللين الرطب فالمعنى طلعها يتم ويرطب وقيل هو الرخص أول ما يخرج وقيل الذي ليس فيه نوى فإن قيل لم ذكر النخل بعد ذكر الجنات والجنات تحتوي على النخل فالجواب أن ذلك تجريد كقوله فاكهة ونخل ورمان ويحتمل أنه أراد الجنات التي ليس فيها نخل ثم عطف عليها النخل وتنحتون ذكر في الأعراف فارهين قرئ بألف وبغير ألف وهو منصوب على الحال من الفاعل في تنحتون وهو مشتق من الفراهة وهي النشاط والكيس وقيل معناه أقوياء وقيل أشرين بطرين من المسحرين مبالغة في المسحورين وهو من السحر بكسر السين وقيل من السحر بفتح السين وهي الرؤية والمعنى على هذا إنما أنت بشر لها شرب أي حظ من الماء فأصبحوا نادمين لما تغيرت ألوانهم حسبما أخبرهم صالح عليه السلام ندموا حيث لا تنفعهم الندامة فأخذتهم الصيحة التي ماتوا منها وهي العذاب المذكور هنا من القالين أي من المبغضين وفي قوله قال ومن القالين ضرب من ضروب التجنيس مما يعملون أي نجني من عقوبة عملهم أو اعصمني من عملهم والأول أرجح إلا عجوزا يعني امرأة لوط في الغابرين ذكر في الأعراف وكذلك أمطرنا أصحاب الأيكة قرئ بالهمز وخفض التاء مثل الذي في الحجر وق ومعناه الغيضة من الشجر وقرىء هنا وفي ص بفتح اللام والتاء فقيل إنه مسهل من الهمز وقيل إنه اسم بلدهم ويقوي هذا القول بأنه على هذه القراءة بفتح التاء غير منصرف يدل على ذلك أنه اسم علم وضعف ذلك الزمخشري وقال إن الأيكة اسم لا يعرف إذ قال لهم شعيب لم يقل هنا أخوهم كما قال في قصة نوح وغيره وقيل إن شعيبا بعث إلى مدين وكان من قبيلتهم فلذلك قال وإلى مدين أخاهم شعيبا وبعث أيضا إلى أصحاب الأيكة ولم يكن منهم فلذلك لم يقل أخوهم فكان شعيبا على هذا ... 483

---

90 مبعوثا إلى القبيلتين وقيل إن أصحاب الأيكة مدين ولكنه قال أخوهم حين ذكرهم باسم قبيلتهم ولم يقل أخوهم حين نسبهم إلى الأيكة التي هلكوا فيها تنزيها لشعيب عن النسبة إليها من المخسرين أي من الناقصين للكيل والوزن

بالقسطاس الميزان المعتدل والجبلة يعني القرون المتقدمة عذاب يوم الظلة هي سحابة من نار أحرقتهم فأهلك الله مدين بالصيحة وأهلك أصحاب الأيكة بالظلة فإن قيل لم كرر قوله إن في ذلك لآية مع كل قصة فالجواب أن ذلك أبلغ في الاعتبار وأشد تنبيها للقلوب وأيضا فإن كل قصة منها كأنها كلام قائم مستقل بنفسه فختمت بما ختمت به صاحبتها وإنه لتنزيل رب العالمين الضمير للقرآن الروح الأمين يعني جبريل عليه السلام على قلبك إشارة إلى حفظه إياه لأن القلب هو الذي يحفظ بلسان عربي يعني كلام العرب هو متعلق بنزل أو المنذرين وإنه لفي زبر الأولين المعنى أن القرآن مذكور في كتب المتقدمين ففي ذلك دليل على صحته ثم أقام الحجة على قريش بقوله أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل بأنه من عند الله آية لكم وبرهان والمراد من أسلم من بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وقيل الذين كانوا يبشرون بمبعثه عليه الصلاة والسلام ولو نزلناه على بعض الأعجمين الآية جمع أعجم وهو الذي لا يتكلم سواء كان إنسانا أو بهيمة أو جمادا والأعجمي المنسوب إلى الأعجم وقيل بمعنى الأعجم ومعنى الآية أن القرآن لو نزل على من لا يتكلم ثم قرأه عليهم لا يؤمنوا لإفراط عنادهم ففي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم على كفرهم به مع وضوح برهانه كذلك نسلكه في قلوب المجرمين معنى سلكناه أدخلناه والضمير للتكذيب الذي دل عليه ما تقدم من الكلام أو للقرآن أي سلكناه في قلوبهم مكذبا به وتقدير قوله كذلك مثل هذا السلك سلكناه والمجرمين يحتمل أن يريد به قريشا أو الكفار المتقدمين ولا يؤمنون تفسير للسلك الذي سلكه في

قلوبهم فيقولوا هل نحن منظرون تمنوا أن يؤخروا حين لم ... 484
استعجالهم بالعذاب في قولهم فأمطر علينا حجارة من السماء وشبه ذلك أفرأيت إن متعناهم سنين المعنى أن مدة إمهالهم لا تغني مع نزول العذاب بعدها وإن طالت مدة سنين لأن كل ما هو آت قريب قال بعضهم سنين يريد به عمر الدنيا وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون المعنى أن الله لم يهلك قوما إلا بعد أن أقام الحجة عليهم بأن أرسل إليهم رسولا فأنذرهم فكذبوه ذكرى منصوب على المصدر من معنى الإنذار أو على الحال من الضمير في منذرون أو على المفعول من أجله أو مرفوع على أنه خبر ابتداء مضمر وما تنزلت به الشياطين الضمير للقرآن وهو رد على من قال إنه كهانة نزلت به الشياطين على محمد وما ينبغي لهم وما يستطيعون أي ما يمكنهم ذلك ولا يقدرون عليه ولفظ ما ينبغي تارة يستعمل بمعنى لا يمكن وتارة بمعنى لا يليق إنهم عن السمع لمعزولون تعليل لكون الشياطين لا يستطيعون الكهانة لأنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم وقد كان أمر الكهان كثيرا منتشرا قبل ذلك وأنذر عشسيرتك الأقربين عشيرة الرجل هم قرابته الأدنون ولما نزلت هذه الآية أنذر النبي صلى الله عليه وسلم قرابته فقال يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ثم نادى كذلك ابنته فاطمة وعمته صفية قال الزمخشري في معناه قولان أحدهما أنه أمر أن يبدأ بإنذار أقاربه قبل غيرهم من الناس والآخر أنه أمر أن لا يأخذه ما يأخذ القريب من الرأفة بقريبه ولا يخافهم بالإنذار واخفض جناحك عبارة عن

لين الجانب والرفق وعن التواضع الذي يراك حين تقوم أي حين تقوم في الصلاة ويحتمل أن يريد سائر التصرفات وتقلبك في الساجدين معطوف على الضمير المفعول في قوله يراك والمعنى أنه يراك حين تقوم وحين تسجد وقيل معناه يرى صلاتك مع المصلين ففي ذلك إشارة إلى

(2/299)

الصلاة مع الجماعة وقيل يرى تقلب بصرك في المصلين خلفك لأنه عليه الصللاة والسلام كان يراهم من وراء ظهره تنزل على كل أفاك أثيم هذا جواب السؤال المتقدم وهو قوله هل أنبئكم على من تنزل الشياطين والأفاك الكذاب والأثيم الفاعل للإثم يعني بذلك الكهان وفي هذا رد على من قال إن الشياطين تنزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالكهانة لأنها لا تنزل إلا على أفاك أثيم وكان صلى الله عليه وسلم على غاية الصدق والبر يلقون السمع معناه يستمعون والضمير يحتمل أن يكون للشياطين بمعنى أنهم يستمعون إلى الملائكة أو يكون للكهان بمعنى أنهم يستمعون إلى الشياطين وقيل يلقون بمعنى يلقون المسموع ... 485

(2/300)

---

92 والضمير يحتمل أيضا على هذا أن يكون للشياطين لأنهم يلقون الكلام إلى الكهان أو يكون للكهان لأنهم يلقون الكلام إلى الناس وأكثرهم كاذبون يعني الشياطين أو الكهان لأنهم يكذبون فيما يخبرون به عن الشياطين والشعراء يتبعهم الغاوون لما ذكر الكهان ذكر الشعراء ليبين أن القرآن ليس بكهانة ولا شعر لتباين ما بين أوصافه وأوصاف الشعر والكهانة وأراد الشعراء الذين يلقون من الشعر ما لا ينبغي كالهجاء والمدح بالباطل وغير ذلك وقيل أراد شعراء الجاهلية وقيل شعراء كفار قريش الذين كانوا يؤذون المسلمين بأشعارهم والغاوون قيل هم رواة الشعر وقيل هم سفهاء الناس الذين تعجبهم الأشعار لما فيها من اللغو والباطل وقيل هم الشياطين في كل واد يهيمون استعارة وتمثيل أي يذهبون في كل وجه من الكلام الحق والباطل ويفرطون في التجوز حتى يخرجوا إلى الكذب إلا الذين آمنوا الآية استثناء من الشعراء يعني بهم شعراء المسلمين كحسان بن ثابت وغيره ممن اتصف بهذه الأوصاف وقيل إن هذه الآية مدنية ذكروا الله قيل معناه ذكروا الله في أشعارهم وقيل يعني الذكر على الإطلاق وانتصروا من بعد ما ظلموا إشارة إلى ما قاله حسان بن ثابت وغيره من الشعراء في هجو الكفار بعد أن هجا الكفار النبي صلى الله عليه وسلم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون وعيد للذين ظلموا والظلم هنا بمعنى الاعتداء على الناس لقوله من بعد ما ظلموا وعمل ينقلبون في أي لتأخره وقيل إن العامل في أي سيعلم

سورة النمل

تلك آيات القرآن وكتاب مبين عطف الكتاب على القرآن كعطف الصفات بعضها على بعض وإن كان الموصوف واحدا هدى وبشرى في موضع نصب على المصدر أو في موضع رفع على أنه خبر ابتداء مضمر وهم بالآخرة يوقنون

تحتمل هذه الجملة أن تكون معطوفة فتكون بقية صلة الذين أو تكون مستأنفة وتمت الصلة قبلها ورجح الزمخشري هذا يعمهون يتحيرون سوء العذاب

(2/301)

يعني في الدنيا وهو القتل يوم بدر ويحتمل أن يريد عذاب الآخرة والأول أرجح لأنه ذكر الآخرة بعد ذلك لتلقى القرآن أي ... 486
93 تعطاه آنست ذكر في طه وكذلك قبس والشهاب النجم شبه القبس به وقرئ بإضافة شهاب إلى قبس وبالتنوين على البدل أو الصفة فإن قيل كيف قال هنا سآتيكم وفي الموضع الآخر لعلي آتيكم والفرق بين الترجي والتسويف أن التسويف متيقن الوقوع بخلاف الترجي فالجواب أنه قد يقول الراجي سيكون كذا إذا قوي رجاؤه تصطلون معناه تستدفئون بالنار من البرد ووزنه تفعلون وهو مشتق من صلى بالنار والطاء بدل من التاء أن بورك من في النار ومن حولها أن مفسرة وبورك من البركة ومن في النار يعني من في مكان النار ومن حولها من حول مكانها يريد الملائكة الحاضرين وموسى عليه السلام قال الزمخشري والظاهر أنه عام في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وما حوله من أرض الشام وسبحان الله يحتمل أن يكون مما قيل في النداء لموسى عليه السلام أو يكون مستأنفا وعلى كلا الوجهين قصد به تنزيه الله مما عسى أن يخطر ببال السامع من معنى النداء أو في قوله بورك من في النار لأن المعنى نودي أن بورك من في النار إذ قال بعض الناس فيه ما يجب تنزيه الله عنه وألق عصاك هذه الجملة معطوفة على قوله بورك من في النار لأن المعنى يؤدي إلى أن بورك من في النار وأن ألق عصاك وكلاهما تفسير للنداء كأنها جان الجان الحية وقيل الحية الصغيرة وعلى هذا يشكل قوله فإذا هي ثعبان والجواب أنها ثعبان في جرمها جان في سرعة حركتها ولم يعقب لم يرجع أو لم يلتفت إلا من ظلم استثناء منقطع تقديره لكن من ظلم من سائر الناس لا من المرسلين وقيل إنه متصل على القول بتجويز الذنوب عليهم وهذا بعيد لأن الصحيح عصمتهم من الذنوب وأيضا فإن تسميتهم ظالمين شنيع على القول بتجويز الذنوب عليهم بدل حسنا أي عمل صالحا في جيبك ذكر في طه في تسع

(2/302)

آيات متصل بقوله ألق وأدخل تقديره نيسر لك ذلك في جملة تسع آيات وقد ذكرت الآيات التسع في الإسراء إلى فرعون متعلق بفعل محذوف يقتضيه الكلام تقديره اذهب بالآيات التسع إلى فرعون مبصرة أي ظاهرة واضحة الدلالة وأسند الإبصار لها مجازا وهو في الحقيقة لمتأملها
واستيقنتها أنفسهم يعني أنهم جحدوا بها مع أنهم تيقنوا أنها الحق فكفرهم عناد ولذلك قال فيه ظلما والواو فيه واو الحال وأضمرت بعدها قد علوا يعني تكبروا وورث سليمان داود أي ورث عنه النبوة والعلم والملك علمنا منطق الطير أي فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها وأوتينا من كل شيء عموم معناه الخصوص والمراد ... 487

94 بهذا اللفظ التكثير كقولك فلان يقصده كل أحد وقوله علمنا وأوتينا يحتمل أن يريد نفسه وأباه أو نفسه خاصة على وجه التعظيم لأنه كان ملكا وحشر لسليمان جنوده اختلف الناس في عدد جنود سليمان اختلافا شديدا تركنا ذكره لعدم صحته فهم يوزعون أي يكفون ويراد أولهم إلى آخرهم ولا بد لكل ملك أو حاكم من وزعة يدفعون الناس حتى إذا أتوا على وادي النمل ظاهر هذا أن سليمان وجنوده كانوا مشاة بالأرض أو ركبانا حتى خافت منهم النمل ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح وأحست النملة بنزولهم في وادي النمل قالت نملة النمل حيوان فطن قوي الحس يدخر قوته ويقسم الحبة بقسمين لئلا تنبت ويقسم حبة الكسبرة على أربع قطع لأنها تنبت إذا قسمت قسمين ولإفراط إدراكها قالت هذا القول وروي أن سليمان سمع كلامها وكان بينه وبينها ثلاثة أميال وهذا لا يسمعه البشر إلا من خصه الله بذلك ادخلوا خاطبتهم مخاطبة العقلاء لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء لا يحطمنكم يحتمل أن يكون جوابا للأمر أو نهيا بدلا من الأمر لتقارب المعنى وهم لا يشعرون الضمير لسليمان وجنوده والمعنى اعتذار عنهم لو حطموا النمل أي لو شعروا بهم لم يحطموهم فتبسم ضاحكا تبسم لأحد أمرين أحدهما سروره بما أعطاه الله والآخر ثناء النملة عليه وعلى جنوده فإن قولها وهم لا يشعرون وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان وتفقد الطير اختلف الناس في معنى تفقده للطير فقيل ذلك لعنايته بأمور ملكه وقيل لأن الطير كانت تظله فغاب الهدهد فدخلت الشمس عليه من موضعه أم كان من الغائبين أم منقطعة فإنه نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال مالي لا أرى الهدهد أي لا أراه ولعله حاضر وستره ساتر ثم علم بأنه غائب فأخبر بذلك لأعذبنه روي أن تعذيبه للطير كان بنتف ريشه بسلطان مبين أي حجة بينة فمكث أي أقام ويجوز فتح الكاف وضمها وبالفتح قرأ عاصم والفعل

يحتمل أن يكون مسندا إلى سليمان عليه السلام أو إلى الهدهد وهو أظهر غير بعيد يعني زمان قريب أحطت أي أحطت علما بما لم تعلمه من سبإ يعني قبيلة من العرب وجدهم الذي يعرفون به سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ومن صرفه أراد الحي أو الأب ومن لم يصرفه أراد القبيلة أو البلدة وقرئ بالتسكين لتوالي الحركات وعلى القراءة بالتنوين يكون في قوله من سبإ بنبإ ضرب من أدوات البيان وهو التجنيس وجدت امرأة تملكهم المرأة بلقيس بنت شراحيل كان أبوها ملك اليمن ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك والضمير في تملكهم يعود على سبإ وهم قومها من كل ... 488

95 شيء) عموم يراد به الخصوص فيما يحتاجه الملك ولها عرش عظيم يعني سرير ملكها ووقف بعضهم على عرش ثم ابتدأ عظيم وجدتها على تقدير عظيم أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وهذا خطأ وإنما حمله عليه الفرار من وصف عرشها بالعظمة
أن لا يسجدوا لله من كلام الهدهد أو من كلام الله وقرأ الجمهور بالتشديد وأن في موضع نصب على البدل من أعمالهم أو في موضع خفض على البدل من السبيل أو يكون التقدير لا يهتدون لأن يسجدوا بحذف اللام وزيادة لا وقرئ بالتخفيف على أن تكون لا حرف تنبيه وأن تكون الياء حرف نداء فيوقف عليها بالألف على تقدير ياقوم ثم يبتدأ اسجدوا يخرج الخبء الخبء في اللغة الخفي وقيل معناه هنا الغيب وقيل يخرج النبات من الأرض واللفظ يعم كل خفي وبه فسره ابن عباس ثم تول عنهم أي تنح إلى مكان قريب لتسمع ما يقولون وروي أنه دخل عليها من كوة فألقى إليها الكتاب وتوارى في الكوة وقيل إن التقدير انظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم فهو من المقلوب والأول أحسن ماذا يرجعون من قوله يرجع بعضهم إلى بعض القول قالت يا أيها الملؤ قيل هذا الكلام محذوف تقديره فألقى الهدهد إليها الكتاب فقرأته ثم جمعت أهل ملكها فقالت لهم يا أيها الملأ كتاب كريم وصفته بالكرم لأنه من عند سليمان أو لأن فيه اسم الله أو لأنه مختوم كما جاء في الحديث كرم الكتاب ختمه من سليمان يحتمل أن يكون هذا نص الكتاب بدأ فيه بالعنوان وأن يكون من كلامها أخبرتهم أن الكتاب من سليمان وأتوني مسلمين يحتمل أن يكون من الانقياد بمعنى مستسلمين أو يكون من الدخول في الإسلام أولو قوة يحتمل أن يريد قوة الأجساد أو قوة الملك والعدد وكذلك يفعلون من كلام الله عز وجل تصديقا لقولها فيوقف على ما قبله أو من كلام بلقيس تأكيدا للمعنى الذي أرادته وتعني كذلك يفعل هؤلاء بنا وإني مرسلة إليهم بهدية قالت لقومها إني أجرب هذا الرجل

بهدية من نفائس الأموال فإن كان ملكا دنيويا أرضاه المال وإن كان نبيا لم يرضه المال وإنما يرضيه دخولنا في دينه فبعث إليه هدية عظيمة وصفها الناس واختصرنا وصفها لعدم صحته أتمدونن بمال إنكار للهدية لأن الله أغناه عنها بما أعطاه بل أنتم بهديتكم تفرحون أي أنتم محتاجون إليها فتفرحون بها وأنا لست ... 489
96 كذلك ارجع إليهم خطاب للرسول وقيل للهدهد والأول أرجح لأن قوله فلما جاء سليمان مسند إلى الرسول لا قبل لهم بها أي لا طاقة لهم بها قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين القائل سليمان والملأ جماعة من الجن والإنس وطلب عرشها قبل أن يأتوه مسلمين لأنه وصف له بعظمة فأراد أن يأخذه قبل أن يسلموا فيمنع إسلامهم من أخذ أموالهم فمسلمين على هذا من الدخول في دين الإسلام وقيل إنما طلب عرشها قبل أن يأتوه مسلمين ليظهر لهم قوته فمسلمين على هذا بمعنى منقادين قال عفريت روي عن وهب بن منبه أن اسم هذا العفريت الكودن قبل أن تقوم من مقامك قبل أن تقوم من موضع الحكم وكان يجلس من بكرة إلى الظهر وقيل معناه قبل أن تستوي من جلوسك قائما قال الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا

وكان رجلا صالحا من بني إسرائيل كان يعلم اسم الله الأعظم وقيل هو الخضر وقيل هو جبريل والأول أشهر وقيل سليمان وهذا بعيد آتيك به في الموضعين يحتمل أن يكون فعلا مستقبلا أو اسم فاعل قبل أن يرتد إليك طرفك الطرف العين فالمعنى على هذا قبل أن تغض بصرك إذا نظرت إلى شيء وقيل الطرف تحريك الأجفان إذا نظرت فلما رآه مستقرا عنده قيل هنا محذوف تقديره فجاءه الذي عنده علم من الكتاب بعرشها ومعنى مستقرا عنده حاصلا عنده وليس هذا بمستقر الذي يقدر النحويون تعلق المجرورات به خلافا لمن فهم ذلك يشكر لنفسه أي منفعة الشكر لنفسه قال نكروا لها عرشها تنكيره تغيير وصفه وستر بعضه وقيل الزيادة فيه

والنقص منه وقصد بذلك اختبار عقلها وفهمها أتهتدي يحتمل أن يريد تهتدي لمعرفة عرشها أو للجواب عنه إذا سئلت أو للإيمان فلما جاءت قيل أهكذا عرشك كان عرشها قد وصل قبلها إلى سليمان فأمر بتنكيره وأن يقال لها أهكذا عرشك أي أمثل هذا عرشك لئلا تفطن أنه هو فأجابته بقولها كأنه هو جوابا عن السؤال ولم تقل هو تحرزا من الكذب أو من التحقيق في محل الاحتمال وأوتينا العلم من قبلها هذا من كلام سليمان وقومه لما رأوها قد آمنت قالوا ذلك اعترافا بنعمة الله عليهم في أن آتاهم العلم قبل بلقيس وهداهم للإسلام قبلها والجملة معطوفة على كلام محذوف تقديره قد أسلمت هي وعلمت وحدانية الله وصحة النبوة وأوتينا نحن العلم قبلها وصدها ما كانت تعبد من دون الله هذا يحتمل أن يكون من كلام سليمان وقومه أو من كلام الله تعالى ويحتمل أن يكون ما كانت تعبد فاعلا أو مفعولا فإن كان فاعلا فالمعنى صدها ما كانت تعبد عن عبادة الله والدخول في الإسلام ... 490

---

97 حتى إلى هذا الوقت وإن كان مفعولا فهو على إسقاط حرف الجر والمعنى صدها الله أو سليمان عن ما كانت تعبد من دون الله فدخلت في الإسلام قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها الصرح في اللغة هو القصر وقيل صحن الدار روي أن سليمان أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصرا من زجاج أبيض وأجرى الماء من تحته وألقى فيه دواب البحر من السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه فلما رأته حسبته لجة واللجة الماء المجتمع كالبحر فكشفت عن ساقيها لتدخله لما أمرت بدخوله وروي أن الجن كرهوا تزوج سليمان لها فقالوا له إن عقلها مجنون وإن رجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش فوجدها عاقلة واختبر ساقها بالصرح فلما كشفت عن ساقيها وجدها أحسن الناس ساقا فتزوجها وأقرها على ملكها باليمن وكان يأتيها مرة في كل شهر وقيل أسكنها معه بالشام قال إنه صرح ممرد من قوارير لما ظنت أن الصرح لجة ماء وكشفت عن ساقيها لتدخل الماء قال لها سليمان إنه صرح ممرد والممرد الأملس وقيل الطويل والقوارير جمع قارورة وهي الزجاجة قالت رب إني

ظلمت نفسي تعني بكفرها فيما تقدم وأسلمت مع سليمان هذا ضرب من ضروب التجنيس فريقين يختصمون الفريقان من آمن ومن كفر واختصامهم اختلافهم وجدالهم في الدين لم تستعجلون أي لم تطلبون العذاب قبل الرحمة أو المعصية قبل الطاعة قالوا اطيرنا بك أي تشاءمنا بك وكانوا قد أصابهم القحط قال طائركم عند الله أي السبب الذي يحدث عنه خيركم أو شركم هو عند الله وهو قضاؤه وقدره وذلك رد عليهم في تطيرهم ونسبتهم ما أصابهم من القحط إلى صالح عليه السلام وكان في المدينة يعني مدينة ثمود يفسدون في الأرض قيل إنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم ولفظ الفساد أعم من ذلك تقاسموا بالله أي حلفوا بالله وقيل إنه فعل ماض وذلك ضعيف والصحيح أنه فعل أمر قاله بعضهم لبعض وتعاقدوا عليه

(2/309)

لنبيتنه وأهله أي لنقتلنه وأهله بالليل وهذا هو الفعل الذي تحالفوا عليه ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله أي نتبرأ من دمه إن طلبنا به وليه ومهلك يحتمل أن يكون اسم مصدر أو زمان أو مكان فإن قيل إن قولهم ما شهدنا مهلك أهله يقتضي التبري من دم أهله دون التبري من دمه فالجواب من ثلاثة أوجه الأول أنهم أرادوا ما شهدنا مهلكه ومهلك أهله وحذف مهلكه لدلالة قولهم لنبيتنه وأهله والثاني أن أهل الإنسان قد يراد به هو وهم لقوله وأغرقنا آل فرعون يعني فرعون وقومه الثالث أنهم قالوا مهلك أهله خاصة ليكونوا صادقين فإنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معا وأرادوا التعريض في كلامهم لئلا 491 ...

(2/310)

---

98 يكذبوا وإنا لصادقون يحتمل أن يكون قولهم وإنا لصادقون مغالطة مع اعتقادهم أنهم كاذبون ويحتمل أنهم قصدوا وجها من التعريض ليخرجوا به عن الكذب وقد ذكرناه في الجواب الثالث عن مهلك أهله وهو أنهم قصدوا أن يقتلوا صالحا وأهله معا ثم يقولون ما شهدنا مهلك أهله وحدهم وإنا لصادقون في ذلك بل يعنون أنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معا وعلى ذلك حمله الزمخشري أنا دمرناهم وقومهم روي أن الرهط الذين تقاسموا على قتل صالح اختفوا ليلا في غار قريبا من داره ليخرجوا منه إلى داره بالليل فوقعت عليهم صخرة فأهلكتهم ثم هلك قومهم بالصيحة ولم يعلم بعضهم بهلاك بعض ونجا صالح ومن آمن به وأنتم تبصرون قيل معناه تبصرون بقلوبكم أنها معصية وقيل تبصرون بأبصاركم لأنهم كانوا ينكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضهم من بعض وقيل تبصرون آثار الكفار قبلكم وما نزل بهم من العذاب يتطهرون والغابرين وأمطرنا قد ذكر قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أمر الله رسوله أن يتلو الآيات المذكورة بعد هذا لأنها براهين على وحدانيته وقدرته وأن يستفتح ذلك بحمده والسلام على من اصطفاه من عباده كما تستفتح الخطب والكتب وغيرها بذلك تيمنا بذكر الله قال ابن عباس يعني بعباده الذين اصطفى الصحابة واللفظ يعم الملائكة والأنبياء والصحابة والصالحين آلله خير

أما يشركون على وجه الرد على المشركين فدخلت خير التي يراد بها التفضيل لتبكيتهم وتعنيفهم مع أنه معلوم أنه لا خير فيما أشركوا أصلا ثم أقام عليهم الحجة بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض وبغير ذلك مما ذكره إلى تمام هذه الآيات وأعقب كل برهان منها بقوله أإله مع الله على وجه التقرير لهم على أنه لم يفعل ذلك كله إلا الله وحده فقامت عليهم الحجة بذلك وفيها أيضا نعم يجب شكرها فقامت بذلك أيضا وأم في قوله خير أما يشركون متصلة عاطفة وأم في المواضع التي بعده منقطعة بمعنى بل والهمزة قوم يعدلون

أي يعدلون عن الحق والصواب أو يعدلون بالله غيره أي يجعلون له عديلا ومثيلا رواسي يعني الجبال البحرين ذكر في الفرقان يجيب المضطر قيل هو المجهود وقيل الذي ... 492
99 لا حول له ولا قوة واللفظ مشتق من الضرر أي الذي أصابه الضر أو من الضرورة أي الذي ألجأته الضرورة إلى الدعاء خلفاء الأرض أي خلفاء فيها تتوارثون سكناها أمن يهديكم يعني الهداية بالنجوم والطرقات بشرا ذكر في الأعراف من السماء والأرض الرزق من السماء المطر ومن الأرض النبات هاتوا برهانكم تعجيز للمشركين قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله هذه الآية تقتضي انفراد الله تعالى بعلم الغيب وأنه لا يعلمه سواه ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها من زعم أن محمدا يعلم الغيب فقد أعظم الفرية على الله ثم قرأت هذه الآية فإن قيل فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخبر بالغيوب وذلك معدود في معجزاته فالجواب أنه صلى الله عليه وسلم قال إني لا أعلم الغيب إلا ما علمني الله فإن قيل كيف ذلك مع ما ظهر من إخبار الكهان والمنجمين وأشباههم بالأمور المغيبة فالجواب أن إخبارهم بذلك عن ظن ضعيف أو عن وهم لا عن علم وإنما اقتضت الآية نفي العلم وقد قيل إن الغيب في هذه الآية يراد به متى تقوم الساعة لأن سبب نزولها أنهم سألوا عن ذلك ولذلك قال وما يشعرون أيان يبعثون فعلى هذا يندفع السؤال الأول والثاني لأنه علم الساعة انفرد به الله تعالى لقوله تعالى قل إنما علمها عند الله ولقوله صلى الله عليه وسلم في خمس لا يعلمها إلا الله ثم قرأ إن الله عنده علم الساعة إلى آخر السورة فإن قيل كيف قال إلا بالرفع على البدل والبدل لا يصح إلا إذا كان الاستثناء متصلا ويكون ما بعد إلا من جنس ما قبلها والله تعالى ليس ممن في السموات والأرض باتفاق فإن القائلين بالجهة والمكان يقولون إنه فوق السموات والأرض والقائلين بنفي الجهة يقولون إن الله

تعالى ليس بهما ولا فوقهما ولا داخلا فيهما ولا خارجا عنهما فهو على هذا استثناء منقطع فكان يجب أن يكون منصوبا فالجواب من أربعة أوجه الأول أن البدل هنا جاء على لغة بني تميم في البدل وإن كان منقطعا كقولهم ما في الدار أحد إلا حمار بالرفع والحمار ليس من الأحدين وهذا ضعيف لأن القرآن

أنزل بلغة الحجاز لا بلغة بني تميم والثاني أن الله في السموات والأرض بعلمه كما قال وهو معكم أينما كنتم يعني بعلمه فجاء البدل على هذا المعنى وهذا ضعيف لأن قوله في السموات والأرض وقعت فيه لفظة في الظرفية الحقيقية وهي في حق الله على هذا المعنى للظرفية المجازية ولا يجوز استعمال لفظة واحدة في الحقيقة والمجاز في حالة واحدة عند المحققين الجواب الثالث أن قوله من في السموات والأرض يراد به كل موجود فكأنه قال من في الوجود فيكون الاستثناء على هذا متصلا فيصح الرفع على البدل وإنما قال من في السموات والأرض جريا على منهاج كلام العرب فهو لفظ خاص يراد به ما هو أعم منه الجواب الرابع أن يكون الاستثناء متصلا على أن يتأول من في السموات في حق الله كما يتأول قوله ءأمنتم من في السماء وحديث ... 493

---

100 الجارية وشبه ذلك وما يشعرون أيان يبعثون أي لا يشعرون من في السموات والأرض متى يبعثون لأن علم الساعة مما انفرد به الله روي أن سبب نزول هذه الآية أن قريشا سألوا النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة بل ادارك علمهم في الآخرة وزن ادارك تفاعل ثم سكنت التاء وأدغمت في الدال واجتلبت ألف الوصل والمعنى تتابع علمهم بالآخرة وتناهى إلى أن يكفروا بها أو تناهى إلى أن لا يعلموا وقتها وقرئ أدرك بهمزة قطع على وزن أفعل والمعنى على هذا يدرك علمهم في الآخرة أي يعلمون فيها الحق لأنهم يشاهدون حينئذ الحقائق فقوله في الآخرة على هذا ظرف وعلى القراءة الأولى بمعنى الباء عمون جمع عم وهو من عمى القلوب ردف لكم أي تبعكم واللام زائدة أو ضمن معنى قرب وتعدى باللام ومعنى الآية أنهم استعجلوا العذاب بقولهم متى هذا الوعد فقيل لهم عسى أن يكون قرب لكم بعض العذاب الذي تستعجلون وهو قتلهم يوم بدر غائبة الهاء فيه للمبالغة أي ما من شيء في غاية الخفاء إلا وهو عند الله في كتاب
إنك لا تسمع الموتى شبه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء ثم شبههم بالصم وبالعمي وإن كانوا صحاح الحواس وأكد عدم سماعهم بقوله إذا ولوا مدبرين لأن الأصم إذا أدبر وبعد عن الداعي زاد صممه وعدم سماعه بالكلية وإذا وقع القول عليهم أي إذا حان وقت عذابهم الذي تضمنه القول الأزلي من الله في ذلك وهو قضاؤه والمعنى إذا قربت الساعة أخرجنا لهم دابة من الأرض وخروج الدابة من أشراط الساعة وروي أنها تخرج من المسجد الحرام وقيل من الصفا وأن طولها ستون ذراعا وقيل هي الجساسة التي وردت في الحديث تكلمهم قيل تكلمهم ببطلان الأديان كلها إلا دين الإسلام وقيل تقول لهم ألا لعنة الله على الظالمين وروي أنها تسم الكافر وتحطم أنفه وتسود وجهه وتبيض وجه المؤمن أن الناس من قرأ بكسر الهمزة فهو ابتداء كلام ... 494

---

101 ومن قرأ بالفتح فهو مفعول تكلمهم أي تقول لهم إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون أو مفعول من أجله تقديره تكلمهم لأن الناس لا يوقنون ثم حذفت اللام ويحتمل قوله لا يوقنون بخروج الدابة ولا يوقنون بالآخرة وأمور الدين وهذا أظهر فهم يوزعون أي يساقون بعنف أماذا كنتم تعملون أم استفهامية والمعنى إقامة الحجة عليهم كأنه قيل لهم إن كان لكم عمل أو حجة فهاتوها ووقع القول عليهم أي حق العذاب عليهم أو قامت الحجة عليهم فهم لا ينطقون إنما يسكتون لأن الحجة قد قامت عليهم وهذا في بعض مواطن القيامة وقد جاء أنهم يتكلمون في مواطن ليسكنوا فيه ذكر في يونس ينفخ في الصور ذكر في الكهف إلا من شاء الله قيل هم الشهداء وقيل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام داخرين صاغرين متذللين تحسبها جامدة أي قائمة ثابتة وهي تمر يكون مرورها في أول أحوال يوم القيامة ثم ينسفها الله في خلال ذلك فتكون كالعهن ثم تصير هباء منبثا صنع الله مصدر والعامل فيه محذوف وقيل هو منصوب على الإغراء أي انظروا صنع الله من جاء بالحسنة فله خير منها قيل إن الحسنة لا إله إلا الله واللفظ أعم ومعنى خير منها أن له بالحسنة الواحدة عشرا من فزع يومئذ من نون فزع فتح الميم من يومئذ ومن أسقط التنوين للإضافة قرأ بفتح الميم على البناء أو بكسرها على الإعراب ومن جاء بالسيئة السيئة هنا الكفر والمعاصي التي قضى الله بتعذيب فاعلها هذه البلدة يعني مكة الذي حرمها أي جعلها حرما آمنا لا يقاتل فيها أحد ولا ينتهك حرمتها ونسب تحريمها هنا إلى الله لأنه بسبب قضائه وأمره ونسبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى إبراهيم عليه السلام في قوله إن إبراهيم حرم مكة لأن إبراهيم هو الذي أعلم الناس بتحريمها فليس بين الحديث والآية تعارض وقد جاء في حديث آخر أن مكة حرمها الله يوم خلق السموات والأرض ومن ضل فقل

إنما أنا من المنذرين أي إنما علي الإنذار والتبليغ سيريكم ... 495
102 آياته) وعيد بالعذاب الذي يضطرهم إلى معرفة آيات الله إما في الدنيا أو في الآخرة
سورة القصص
علا في الأرض أي تكبر وطغا شيعا أي فرقا مختلفين فجعل فرعون القبط ملوكا وبني إسرائيل خداما لهم وهم الطائفة الذين استضعفهم وأراد الله أن يمن عليهم ويجعلهم أئمة أي ولاة في الأرض أرض فرعون وقومه هامان هو وزير فرعون وأوحينا إلى أم موسى اختلف هل كان هذا الوحي بإلهام أو منام أو كلام بواسطة الملك وهذا أظهر لثقتها بما أوحى إليها وامتثالها ما أمرت به فإذا خفت عليه أي إذا خفت عليه أن يذبحه فرعون لأنه كان يذبح أبناء بني إسرائيل لما أخبره الكهان أن هلاكه على يد غلام منهم فالتقطه آل فرعون الالتقاط اللقاء من غير قصد روي أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت في البحر وهو النيل فأمرت أن يساق لها ففتحته فوجدت فيه صبيا فأحبته وقالت لفرعون هذا قرة عين لي ولك ليكون لهم عدوا اللام لام العاقبة وتسمى أيضا لام الصيرورة لا تقتلوه روي أن فرعون هم بذبحه إذ توسم أنه من بني إسرائيل فقالت امرأته لا تقتلوه وهم لا يشعرون أي لا يشعرون أن هلاكهم يكون على

يديه والضمير الفاعل لفرعون وقومه وأصبح فؤاد أم موسى فارغا أي ذاهلا لا عقل معها وقيل فارغا من الحزن إذ لم يغرق وهذا بعيد لما بعده وقيل فارغا من كل شيء إلا من ذكر الله وقرئ فزعا بالزاي من الفزع إن كادت لتبدي به أي تظهر أمره وفي الحديث كادت أم موسى أن تقول واابناه وتخرج صائحة على وجهها ربطنا على قلبها أي رزقناها الصبر لتكون من المؤمنين أي من المصدقين بالوعد الذي وعدها الله وقالت ... 496

---

103 لأخته قصيه) أي اتبعيه والقص طلب الأثر فخرجت أخته تبحث عنه في خفية فبصرت به عن جنب أي رأته من بعيد ولم تقرب منه لئلا يعلموا أنها أخته وقيل معنى عن جنب عن شوق إليه وقيل معناه أنها نظرت إليه كأنها لا تريده وهم لا يشعرون أي لا يشعرون أنها أخته وحرمنا عليه المراضع أي منع منها بأن بغضها الله له والمراضع جمع مرضعة وهي المرأة التي ترضع أو جمع مرضع بفتح الميم والضاد وهو موضع الرضاع يعني الثدي من قبل أي من أول مرة فقالت هل أدلكم القائلة أخته تخاطب آل فرعون فرددناه إلى أمه لما منعه الله من المراضع وقالت أخته هل أدلكم على أهل بيت الآية جاءت بأمه فقبل ثديها فقال لها فرعون ومن أنت منه فما قبل ثدي امرأة إلا ثديك فقالت إني امرأة طيبة اللبن فذهبت به إلى بيتها وقرت عينها بذلك وعلمت أن وعد الله حق في قوله إنا رادوه إليك بلغ أشده ذكر في يوسف واستوى أي كمل عقله وذلك مع الأربعين سنة ودخل المدينة يعني مصر وقيل قرية حولها والأول أشهر على حين غفلة قيل في القائلة وقيل بين العشاءين وقيل يوم عيد وقيل كان قد جفا فرعون وخاف على نفسه فدخل مختفيا متخوفا هذا من شيعته الذي من شيعته من بني إسرائيل والذي من عدوه من القبط فوكزه موسى أي ضربه والوكز الدفع بأطراف الأصابع وقيل بجمع الكف فقضى عليه أي قتله ولم يرد أن يقتله ولكن وافقت وكزته الأجل فندم وقال هذا من عمل الشيطان أي إن الغضب الذي أوجب ذلك كان من الشيطان ثم اعترف واستغفر فغفر الله له فإن قيل كيف استغفر من القتل وكان المقتول كافرا فالجواب أنه لم يؤذن له في قتله ولذلك يقول يوم القيامة إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين الظهير المعين والباء سببية والمعنى بسبب إنعامك علي لا أكون ظهيرا للمجرمين فهي معاهدة عاهد موسى عليها ربه وقيل الباء باء القسم وهذا ضعيف

لأن قوله فلن أكون لا يصلح لجواب القسم وقيل جواب القسم محذوف تقديره وحق نعمتك لأتوبن فلن أكون ظهيرا للمجرمين وقيل الباء للتحليف أي اعصمني بحق نعمتك علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين ويحتج بهذه الآية على المنع من صحبة ولاة الجور يترقب في الموضعين أي يستحس هل يطلبه أحد يستصرخه أي ... 497

104 يستغيث به لقي موسى الإسرائيلي الذي قاتل القبطي بالأمس يقاتل

رجلا آخر من القبط فاستغاث بموسى لينصره كما نصره بالأمس فعظم ذلك على موسى وقال له إنك لغوي مبين فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما الضمير في أراد وفي يبطش لموسى وفي قال للإسرائيلي والمعنى لما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الذي هو عدو له وللإسرائيلي ظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به إذ قال له إنك لغوي مبين فقال الإسرائيلي لموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس وقيل الضمير في أراد للإسرائيلي والمعنى فلما أراد الإسرائيلي أن يبطش موسى بالقبطي ولم يفعل موسى ذلك لندامته على قتله الآخر بالأمس فنصح الإسرائيلي فقال له أتريد أن تقتلني فاشتهر خبر قتله للآخر إلى أن وصل إلى فرعون وجاء رجل قيل إنه مؤمن آل فرعون وقيل غيره يسعى أي يسرع في مشيه ليدرك موسى فينصحه (إن الملأ يأتمرون بك) يتشاورون وقيل يأمر بعضهم بعضا بقتلك كما قتلت القبطي ولما توجه تلقاء مدين أي قصد بوجهه ناحية مدين وهي مدينة شعيب عليه السلام قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل أي وسط الطريق يعني طريق مدين إذ كان قد خرج فارا بنفسه وكان لا يعرف الطريق وبين مصر ومدين مسيرة ثمانية أيام وقيل أراد سبيل الهدى وهذا أظهر ويدل كلامه هذا على أنه كان عارفا بالله قبل نبوته ولما ورد ماء مدين أي وصل إليه وكان بئرا يسقون أي يسقون مواشيهم امرأتين روي أن اسمهما ليا وصفوريا وقيل صفيرا وصفرا تذودان أي تمنعان الناس عن غنمهما وقيل تذودان غنمهما عن الماء حتى

يسقي الناس وهذا أظهر لقولهما لا نسقي حتى يصدر الرعاء أي كانت عادتهما ألا يسقيا غنمهما الإ بعد الناس لقوة الناس ولضعفهما أو لكراهتهما التزاحم مع الناس يصدر بضم الياء وكسر الدال فعل متعد والمفعول محذوف تقديره حتى يصدر الرعاء مواشيهم وقرئ بفتح الياء وضم الدال أي ينصرفون عن الماء وأبونا شيخ كبير أي لا يستطيع أن يباشر سقي غنمه وهذا الشيخ هو شعيب عليه السلام في قول الجمهور وقيل ابن أخيه وقيل رجل صالح ليس من شعيب بنسب فسقى لهما أي أدركته شفقته عليهما فسقى غنمهما وروي أنه كان على فم البئر صخرة لا يرفعها إلا ثلاثون رجلا فرفعها وحده تولى إلى الظل أي جلس في الظل وروي أنه كان ظل سمرة
إني لما أنزلت إلي من خير فقير طلب من الله ما يأكله وكان قد ... 498

---

105 اشتد عليه الجوع فجاءته إحداهما قبل هذا كلام محذوف تقديره فذهبتا إلى أبيهما سريعتين وكانت عادتهما الإبطاء في السقي فأخبرتاه بما كان من أمر سقي الرجل لهما فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته واختلف هل التي جاءته الصغرى أو الكبرى على استحياء روي أنها سترت وجهها بكم درعها والمجرور يتعلق بما قبله وقيل بما بعده وهو ضعيف وقص عليه القصص أي ذكر له قصته لا تخف أي قد نجوت من فرعون وقومه لأن بلد مدين لم يكن من ملك فرعون استأجره أي اجعله أجيرا لك إن خير من استأجرت القوي الأمين

هذا الكلام حكمة جامعة بليغة روي أن أباها قال لها من أين عرفت قوته وأمانته قالت أما قوته ففي رفعه الحجر عن فم البئر وأما أمانته فإنه لم ينظر إلي قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي زوجته التي دعته واختلف هل زوجه الكبرى أو الصغرى واسم التي زوجه صفور وقيل صفوريا ومن لفظ شعيب حسن أن يقال في عقود الأنكحة أنكحه إياها أكثر من أن يقال أنكحها إياه على أن تأجرني ثماني حجج أي أزوجك بنتي على أن تخدمني ثمانية أعوام قال مكي في هذه الآية خصائص في النكاح منها أنه لم يعين الزوجة ولا حد أول الأمد وجعل المهر إجارة قلت فأما التعيين فيحتمل أن يكون عند عقد النكاح بعد هذه المراودة وقد قال الزمخشري إن كلامه معه لم يكن عقد نكاح وإنما كان مواعدة وأما ذكر أول الأمد فالظاهر أنه من حين العقد وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية وقد قرره شرعنا حسبما ورد في الحديث الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم للرجل قد زوجتكها على ما معك من القرآن أي على أن تعلمها ما عندك من القرآن وقد أجاز النكاح بالإجارة الشافعي وابن حنبل وابن حبيب للآية والحديث ومنعه مالك فإن أتممت عشرا فمن عندك جعل الأعوام الثمانية شرطا ووكل العامين إلى مروءة موسى فوفى له العشر وقيل وفي العشرة وعشرا بعدها وهذا ضعيف لقوله فلما قضى موسى الأجل أي

الأجل المذكور وسار بأهله الأهل هنا الزوجة مشى بها إلى مصر جذوة أي قطعة ويجوز كسر الجيم وضمها وقد ذكر آنس والطور وتصطلون شاطيء الواد جانبه والأيمن صفة للشاطئ اليمين ويحتمل أن يكون من اليمن فيكون صفة للوادي من الشجرة روي أنها كانت عوسجة جان ذكر في النمل ... 499 106 اسلك يدك في جيبك أي أدخلها فيه والجيب هو فتح الجبة من حيث يخرج الإنسان رأسه واضمم إليك جناحك الجناح اليد أو الإبط أو العضد أمره الله لما خاف من الحية أن يضمه إلى جنبه ليخف بذلك خوفه فإن من شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يخف خوفه وقيل ذلك على وجه المجاز والمعنى أنه أمر بالعزم على ما أمر به كقوله اشدد حيازمك واربط جأشك من الرهب أي من أجل الرهب وهو الخوف وفيه ثلاثة لغات فتح الراء والهاء وفتح الراء وإسكان الهاء وضم الراء وإسكان الهاء فذانك برهانان أي حجتان والإشارة إلى العصا واليد إلى فرعون يتعلق بفعل محذوف يقتضيه الكلام ردءا أي معينا وقرئ بالهمز وبغير همز على التسهيل من المهموز أو يكون من أرديت أي زدت سنشد عضدك بأخيك استعارة في المعونة بآياتنا يحتمل أن يتعلق بقوله نجعل أو بيصلون أو بالغالبون فأوقد لي يا هامان على الطين أي اصنع الآجر لبنيان الصرح الذي رام أن يصعد منه إلى السماء وروي أنه أول من عمل الآجر وكان هامان وزير فرعون وانظر ضعف عقولهما وعقول قومهما وجهلهم بالله تعالى في كونهم طمعوا أن يصلوا إلى السماء ببنيان الصرح وقد روي أنه عمله وصعد عليه ورمى بسهم إلى السماء فرجع مخضوبا بدم وذلك فتنة له ولقومه وتهكم بهم ثم قال وإني لأظنه من الكاذبين يعني في دعوى الرسالة والظن هنا يحتمل أن يكون على بابه أو بمعنى اليقين أئمة يدعون إلى النار أي كانوا يدعون الناس إلى الكفر الموجب للنار من المقبوحين أي من المطرودين المبعدين وقيل قبحت وجوههم وقيل ...

500
107 قبح ما يفعل بهم وما يقال لهم وما كنت بجانب الغربي خطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمراد به إقامة حجة لإخباره بحال موسى وهو لم يحضره والغربي المكان الذي في غربي الطور وهو المكان الذي كلم الله فيه موسى والأمر المقضي إلى موسى هو النبوة ومن الشاهدين معناه من الحاضرين هنالك ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر المعنى لم تحضر يا محمد للإطلاع على هذه الغيوب التي تخبر بها ولكنها صارت إليك بوحينا فكان الواجب على الناس المسارعة إلى الإيمان بك ولكن تطاول الأمر على القرون التي أنشأناها فغابت عقولهم واستحكمت جهالتهم فكفروا بك وقيل المعنى لكنا أنشأنا قرونا بعد زمان موسى فتطاول عليهم العمر وطالت الفترة فأرسلناك على فترة من الرسل ثاويا أي مقيما إذ نادينا يعني تكليم موسى والمراد بذلك إقامة حجة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لإخباره بهذه الأمور مع أنه لم يكن حاضرا حينئذ ولكن رحمة انتصب على المصدر أو على أنه مفعول من أجله والتقدير ولكن أرسلناك رحمة منا لك ورحمة للخلق بك ولولا أن تصيبهم مصيبة لو هنا حرف امتناع ولولا الثانية عرض وتحضيض والمعنى لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار وإقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين فلما جاءهم الحق يعني القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى يعنون إنزال الكتاب عليه من السماء جملة واحدة وقلب العصا حية وفلق البحر وشبه ذلك أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل هذا رد عليهم فيما طلبوه والمعنى أنهم كفروا بما أوتي موسى فلو آتينا محمدا مثل ذلك لكفروا به ومن قبل على هذا يتعلق بقوله أوتي موسى ويحتمل أن يتعلق بقوله أولم يكفروا إن كانت الآية في بني إسرائيل والأول أحسن قالوا ساحران تظاهرا يعنون موسى

وهارون أو موسى ومحمدا صلى الله عليه وسلم والضمير في أولم يكفروا وفي قالوا لكفار قريش وقيل لآبائهم وقيل لليهود والأول أظهر وأصح لأنهم المقصودون بالرد عليهم فأتوا بكتاب أمر على وجه التعجيز لهم أهدى منهما الضمير يعود على كتاب موسى وكتاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإن لم يستجيبوا لك قد علم أنهم لا يستجيبون للإتيان بكتاب هو أهدى منهما أبدا ولكنه ذكره بحرف إن مبالغة في إقامة الحجة عليهم ... 501

108 كقوله فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاعلم أنما يتبعون أهواءهم المعنى إن لم يأتوا بكتاب فاعلم أن كفرهم عناد واتباع أهوائهم لا بحجة وبرهان ولقد وصلنا لهم القول الضمير لكفار قريش وقيل لليهود والأول أظهر لأن الكلام من أوله معهم والقول هنا القرآن ووصلنا لهم أبلغناه لهم أو جعلناه موصلا بعضه ببعض الذين آتيناهم الكتاب من قبله يعني من أسلم من اليهود وقيل النجاشي وقومه وقيل نصارى نجران الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهم عشرون رجلا فآمنوا به والضمير في قبله للقرآن وقولهم إنه الحق تعليل لإيمانهم وقولهم إنا كنا من قبله مسلمين بيان لأن إسلامهم قديم لأنهم وجدوا ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم قبل أن يبعث أولئك يؤتون أجرهم مرتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت له أمة فأعتقها وتزوجها بما صبروا يعني صبرهم على إذاية قومهم لهم لما أسلموا أو غير ذلك من أنواع الصبر ويدرؤون بالحسنة السيئة أي يدفعون ويحتمل أن يريد بالسيئة ما يقال لهم من الكلام القبيح وبالحسنة ما يجاوبون به من الكلام الحسن أو يريد سيئات أعمالهم وحسناتها كقوله إن الحسنات يذهبن السيئات وإذا سمعوا اللغو يعني ساقط الكلام لنا أعمالنا ولكم أعمالكم هذا على وجه التبري والبعد من القائلين للغو سلام عليكم معناه هنا المتاركة والمباعدة لا التحية أو كأنه سلام الانصراف والبعد لا نبتغي الجاهلين أي لا نطلبهم للجدال والمراجعة في الكلام إنك لا تهدي من أحببت نزلت في أبي طالب إذ دعاه النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول عند موته لا إله إلا الله فقال لولا أن يعايرني بها قريش لأقررت بها عينك ومات على الكفر ولفظ الآية مع ذلك على عمومه ولكن الله يهدي من يشاء لفظ عام

(2/324)

وقيل أراد به العباس بن عبد المطلب وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا القائلون لذلك قريش وروي أن الذي قالها منهم الحارث بن عامر بن نوفل والهدى هو الإسلام ومعناه الهدى على زعمك وقيل إنهم قالوا قد علمنا أن الذي تقول حق ولكن إن اتبعناك تخطفتنا العرب أي أهلكونا بالقتال لمخالفة دينهم أولم نمكن لهم حرما آمنا هذا رد عليهم فيما اعتذروا به من تخطف الناس لهم والمعنى أن الحرم لا تتعرض له العرب بقتال ولا يمكن الله أحدا من إهلاك أهله فقد كانت العرب يغير بعضهم على بعض وأهل الحرم آمنون من ذلك يجبى إليه ثمرات كل شيء أي ... 502

(2/325)

---

109 تجلب إليه الأرزاق مع أنه واد غير ذي زرع
بطرت معيشتها معنى بطرت طغت وسفهت ومعيشتها نصب على التفسير مثل التفسير مثل سفه نفسه أو على إسقاط حرف الجر تقديره بطرت في معيشتها أو يتضمن معنى بطرت كفرت إلا قليلا يعني قليلا من السكنى أو قليلا

من الساكنين أي لم يسكنها بعد إهلاكها إلا مارا على الطريق ساعة وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا أم القرى مكة لأنها أول ما خلق الله من الأرض ولأن فيها بيت الله والمعنى أن الله أقام الحجة على أهل القرى بأن بعث سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم في أم القرى فإن كفروا أهلكهم بظلمهم بعد البيان لهم وإقامة الحجة عليهم وما أوتيتم من شيء الآية تحقير للدنيا وتزهيد فيها وترغيب في الآخرة أفمن وعدناه الآية إيضاح لما قبلها من البون بين الدنياوالآخرة والمراد بمن وعدناه المؤمنين وبمن متعناه الكافرين وقيل سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وأبو جهل وقيل حمزة وأبو جهل والعموم أحسن لفظا ومعنى من المحضرين أي من المحضرين في العذاب ويوم يناديهم العامل في الظرف مضمر وفاعل ينادي الله تعالى ويحتمل أن يكون نداؤه بواسطة أو بغير واسطة والمفعول به المشركون أين شركائي توبيخ للمشركين ونسبهم إلى نفسه على زعمهم ولذلك قال الذين كنتم تزعمون فحذف المفعول وتقديره تزعمون أنهم شركاء لي أو تزعمون أنهم شفعاء لكم قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا معنى حق عليهم القول وجب عليهم العذاب والمراد بذلك رؤساء المشركين وكبراؤهم والإشارة بقولهم هؤلاء الذين أغوينا إلى اتباعهم من الضعفاء فإن قيل كيف الجمع بين قولهم أغوينا وبين قولهم تبرأنا إليك فإنهم اعترفوا بإغوائهم وتبرؤا مع ذلك منهم فالجواب أن إغواءهم لهم هو أمرهم لهم بالشرك والمعنى أنا حملناهم على الشرك كما حملنا أنفسنا عليه ولكن لم يكونوا يعبدوننا إنما كانوا يعبدون غيرنا من الأصنام

وغيرها فتبرأنا إليك من عبادتهم لنا فتحصل من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم أغووا الضعفاء وتبرؤا من أن يكونوا هم آلهتهم فلا تناقض في الكلام وقد قيل في معنى الآية غير هذا مما هو تكلف بعيد لو أنهم كانوا يهتدون فيه أربعة أوجه الأول أن المعنى لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لم يعبدوا الأصنام والثاني لو أنهم كانوا يهتدون لم يعذبوا ... 503
110 والثالث لو أنهم كانوا يهتدون في الآخرة لحيلة يدفعون بها العذاب لفعلوا فلو على هذه الأقوال حرف امتناع وجوابها محذوف والرابع أن يكون لو للتمني أي تمنوا لو كانوا مهتدين ماذا أجبتم المرسلين أي أهل صدقتم المرسلين أو كذبتموهم فعميت عليهم الأنباء يومئذ عميت عبارة عن حيرتهم والأنباء الأخبار أي أظلمت عليهم الأمور فلم يعرفوا ما يقولون فهم لا يتساءلون أي لا يسأل بعضهم بعضا عن الأنباء لأنهم قد تساووا في الحيرة والعجز عن الجواب وربك يخلق ما يشاء ويختار قيل سببها استغراب قريش لاختصاص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة فالمعنى أن الله يخلق ما يشاء ويختار لرسالته من يشاء من عباده ولفظها أعم من ذلك والأحسن حمله على عمومه أي يختار ما يشاء من الأمور على الإطلاق ويفعل ما يريد ما كان لهم الخيرة ما نافية والمعنى ما كان للعباد اختيار إنما الاختيار والإرادة لله وحده فالوقف على قوله ويختار وقيل إن ما مفعولة بيختار ومعنى الخيرة على هذا الخير والمصلحة وهذا يجري على قول المعتزلة وذلك ضعيف لرفع الخيرة على أنها اسم كان ولو كانت ما مفعولة لكان اسم كان مضمرا يعود على ما وكانت الخيرة

منصوبة على أنها خبر كان وقد اعتذر عن هذا من قال إن ما مفعولة بأن يقال تقدير الكلام يختار ما كان لهم الخيرة فيه ثم حذف الجار والمجرور وهذا ضعيف وقال ابن عطية يتجه أن تكون ما مفعولة إذا قدرنا كان تامة ويوقف على قوله ما كان أي يختار كل كائن ويكون لهم الخيرة

(2/327)

جملة مستأنفة وهذا بعيد جدا
يعلم ما تكن صدورهم أي ما تخفيه قلوبهم وعبر عن القلب بالصدر لأنه يحتوي عليه له الحمد في الأولى والآخرة قيل إن الحمد في الآخرة قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده أو قولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وفي ذكر الأولى مع الآخرة مطابقة سرمدا أي دائما والمراد بالآيات إثبات الوحدانية وإبطال الشرك فإن قيل كيف قال يأتيكم بضياء وهلا قال يأتيكم بنهار في مقابلة قوله يأتيكم بليل فالجواب أنه ذكر الضياء لجملة ما فيه من المنافع والعبر لتسكنوا فيه أي في الليل ولتبتغوا من فضله أي في النهار ففي الآية لف ونشر ونزعنا من كل أمة شهيدا أي أخرجنا من كل أمة شهيدا منهم يشهد عليهم بأعمالهم ... 504

(2/328)

---

111 وهو نبيهم لأن كل نبي يشهد على أمته هاتوا برهانكم أي هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر وذلك إعذار لهم وتوبيخ وتعجيز إن قارون كان من قوم موسى أي من بني إسرائيل وكان ابن عم موسى وقيل ابن عمته وقيل ابن خالته فبغى عليهم أي تكبر وطغى ومن ذلك كفره بموسى عليه السلام وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة المفاتح هي التي يفتح بها وقيل هي الخزائن والأول أظهر والعصبة جماعة الرجال من العشرة إلى الأربعين وتنوء معناه تثقل يقال ناء به الحمل إذا أثقله وقيل معنى تنوء تنهض بتحامل وتكلف والوجه على هذا أن يقال إن العصبة تنوء بالمفاتح لكنه قلب كما جاء قلب الكلام عن العرب كثيرا ولا يحتاج إلى قلب على القول الأول لا تفرح الفرح هنا هو الذي يقود إلى الإعجاب والطغيان ولذلك قال إن الله لا يحب الفرحين وقيل السرور بالدنيا لأنه لا يفرح بها إلا من غفل عن الآخرة ويدل على هذا قوله ولا تفرحوا بما آتاكم وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة أي اقصد الآخرة بما أعطاك الله من المال وذلك بفعل الحسنات والصدقات ولا تنس نصيبك من الدنيا أي لا تضيع حظك من دنياك وتمتع بها مع عملك للآخرة وقيل معناه لا تضيع عمرك بترك الأعمال الصالحات فإن حظ الإنسان من الدنيا إنما هو بما يعمل فيها من الخير فالكلام على هذا وعظ وعلى الأول إباحة للتمتع بالدنيا لئلا ينفر عن قبول الموعظة وأحسن كما أحسن الله إليك أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بالغنى قال إنما أوتيته على علم عندي لما وعظه قومه أجابهم بهذا على وجه الرد عليهم والروغان عما ألزموه من الموعظة والمعنى أن هذا المال إنما أعطاه الله لي بالاستحقاق له بسبب علم عندي استوجبته به واختلف في هذا العلم فقيل إنه علم الكيمياء وقيل التجارب للأمور والمعرفة

بالمكاسب وقيل حفظه التوراة وهذا بعيد لأنه كان كافرا قيل المعنى إنما أوتيته على علم

من الله وتخصيص خصني به ثم جعل قوله عندي كما تقول في ظني واعتقادي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون هذا رد عليه في اغتراره بالدنيا وكثرة جمعه للمال أو جمعه للخدم والأول أظهر ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون في معناه قولان أحدهما أنه متصل بما قبله والضمير في ذنوبهم يعود على القرون المتقدمة والمجرمون من بعدهم أي لا يسأل المجرمون عن ذنوب من تقدمهم من الأمم الهالكة لأن كل أحد إنما يسأل عن ذنوبه خاصة والثاني أنه إخبار عن حال المجرمين في الآخرة وأنهم لا يسألون عن ذنوبهم لكونهم يدخلون النار من غير حساب والصحيح أنهم يحاسبون على ذنوبهم ويسئلون عنها لقوله فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون وأن هذا السؤال المنفي السؤال على وجه الاختبار وطلب التعريف لأنه لا يحتاج إلى سؤالهم على هذا الوجه لكن يسألون على وجه التوبيخ وحيثما ورد في القرآن إثبات السؤال في الآخرة فهو على معنى المحاسبة والتوبيخ وحيثما ورد نفيه فهو على وجه ... 505

---

112 الاستخبار والتعريف ومنه قوله فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان فخرج على قومه في زينته في ثياب حمر وقيل في عبيده وحاشيته واللفظ أعم من ذلك ويلكم زجر للذين تمنوا مثل حال قارون ولا يلقاها إلا الصابرون الضمير عائد على الخصال التي دل عليها الكلام المتقدم وهي الإيمان والعمل الصالح وقيل على الكلمة التي قالها الذين أوتوا العلم أي لا تصدر الكلمة إلا عن الصابرين والصبر هنا إمساك النفس عن الدنيا وزينتها فخسفنا به وبداره الأرض روي أن قارون لما بغى على بني إسرائيل وآذى موسى دعا موسى عليه السلام عليه فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه وفي أتباعه فقال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب فاستغاثوا بموسى فقال يا أرض خذيهم حتى تم بهم الخسف مكانه أي منزلته في المال والعزة بالأمس يحتمل أن يريد به اليوم الذي كان قبل ذلك اليوم أو ما تقدم من الزمان القريب ويكأن مذهب سيبويه أن وي حرف تنبيه ثم ذكرت بعدها كأن والمعنى على هذا أنهم تنبهوا لخطئهم في قولهم يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أي ما أشبه الحال بهذا وقال الكوفيون ويك هو ويلك حذفت منها اللام لكثرة الاستعمال ثم ذكرت بعدها أن والمعنى ألم يعلموا أن الله وقيل ويكأن كلمة واحدة معناها ألم تعلم علوا في الأرض أي تكبرا وطغيانا لا رفعة المنزلة فإن إرادتها جائزة فرض عليك القرآن أي أنزله عليك وأثبته وقيل المعنى أعطاك القرآن والمعنى متقارب وقيل فرض عليك أحكام القرآن فهي على حذف مضاف لرادك إلى معاد المعاد الموضع الذي يعاد إليه فقيل يعني مكة والآية نزلت حين الهجرة ففيها وعد

بالرجوع إلى مكة وفتحها وقيل يعني الآخرة فمعناها إعلام بالحشر وقيل يعني الجنة وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب أي ما كنت تطمع أن تنال النبوة ولا أن ينزل عليك الكتاب ولكن الله رحمك

بذلك ورحم الناس بنبوتك والاستثناء بمعنى لكن فهو منقطع ويحتمل أن يكون متصلا والمعنى ما أنزل عليك الكتاب إلا رحمة من ربك لك ورحمة للناس ورحمة على هذا مفعول من أجله أو حال وعلى الأول منصوب على ... 506 113 الاستثناء وادع إلى ربك يحتمل أن يكون من الدعاء بمعنى الرغبة أو من دعوة الناس إلى الإيمان بالله فالمفعول محذوف على هذا تقديره ادع الناس ولا تدع أي لا تعبد مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه الآية أي إلا إياه والوجه هنا عبارة عن الذات
سورة العنكبوت
الم ذكر في البقرة أحسب الناس أن يتركوا نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين منهم عمار بن ياسر وغيره وكان كفار قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام فضاقت صدورهم بذلك فآنسهم الله بهذه الآية ووعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى والثبوت على الإيمان فأعلمهم الله تعالى أن تلك سيرته في عباده يسلط الكفار على المؤمنين ليمحصهم بذلك ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب ولفظها مع ذلك عام فحكمها على العموم في كل من أصابته فتنة من مصيبة أو مضرة في النفس والمال وغير ذلك ومعنى حسب ظن وأن يتركوا مفعولها والهمزة للإنكار وهم لا يفتنون في موضع الحال من الضمير في يتركوا تقديره غير مفتونين وأن يقولوا تعليل في موضع المفعول من أجله فليعلمن الله الذين صدقوا أي يعلم صدقهم علما ظاهرا في الوجود وقد كان علمه في الأزل والصدق والكذب في الآية يعني بهما صحة الإيمان والثبوت عليه أو ضد ذلك أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا أم معادلة لقوله أحسب الناس والمراد بالذين يعملون السيئات الكفار الذين يعذبون المؤمنين ولفظها مع ذلك عام في كل كافر أو عاص ومعنى يسبقونا يفوتون من عقابنا ويعجزوننا فمعنى الكلام نفي سبقهم كما أن معنى الآية قبلها نفي ترك المؤمنين بغير فتنة من كان يرجو لقاء الله

الآية تسلية للمؤمنين ووعد لهم بالخير في الدار الآخرة والرجاء هنا على بابه وقيل هو بمعنى الخوف وأجل الله هو الموت ومعنى الآية من كان يرجو ثواب الله فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقى الله فيجازيه فإن لقاء الله قريب الإتيان وكل ما هو آت قريب ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه أي منفعة جهاده فإنما هي لنفسه فإن الله لا تنفعه طاعة العباد والجهاد هنا يحتمل أن يراد به القتال أو جهاد ... 507

114 النفس حسنا منصوب بفعل مضمر تقديره
ووصينا الإنسان أن يفعل بوالديه حسنا أو مصدرا من معنى وصينا أي وصية حسنة وإن جاهداك لتشرك بي الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص وأنه لما أسلم حلفت أمه أن لا تستظل بظل حتى يكفر وقيل نزلت في غيره ممن جرى له مثل ذلك فأمرهم الله بالثبات على الإسلام وألا يطيعوا الوالدين إذا أمروهم بالكفر وعبر عن أمر الوالدين بالجهاد مبالغة ومن الناس من يقول آمنا بالله نزلت في قوم كانوا مؤمنين بألسنتهم فإذا عذبهم الكفار رجعوا عن الإيمان فإذا نصر الله المؤمنين قالوا إنا كنا معكم فمعنى أوذي في الله أوذي بسبب إيمانه بالله وفتنة الناس تعذيبهم وقيل نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه اتبعوا سبيلنا أي قال الكفار للمؤمنين اكفروا كما كفرنا ونحمل نحن عنكم الإثم والعقاب إن كان وروي أن قائل هذه المقالة الوليد بن المغيرة حكاه المهدوي وقولهم ولنحمل خطاياكم جزاء قولهم اتبعوا سبيلنا ولكنهم ذكروه على وجه الأمر للمبالغة ولما كان معنى الخبر صحة تكذيبهم فيه أخبره الله أنهم كاذبون أي لا يحملون أوزار هؤلاء بل يحملون أوزار أنفسهم وأوزار أتباعهم من الكفار فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما الظاهر أنه لبث هذه المدة بعد بعثه ويحتمل أن يكون ذلك من أول ولادته وروي أنه بعث وهو ابن أربعين سنة وأنه عمر بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فإن قيل لم قال ألف سنة ثم قال إلا خمسين عاما فاختلف اللفظ مع اتفاق المعنى فالجواب أن ذلك كراهة لتكرار لفظ السنة فإن التكرار مكروه إلا إذا قصد به تفخيم أو تهويل وجعلناها آية يحتمل أن يعود الضمير على السفينة أو على النجاة أو على القصة بكمالها وتخلقون إفكا هو من الخلقة يريد به نحت الأصنام فسماه خلقة على وجه التجوز وقيل هو من اختلاق الكذب لا يملكون لكم رزقا الآية احتجاج على الوحدانية ونفي الشركاء فإن قيل لم نكر الرزق أولا ثم

عرفه في قوله فابتغوا عند الله الرزق فالجواب أنه نكره في قوله لا يملكون لكم رزقا لقصد العموم في النفي فإن النكرة في سياق النفي تقتضي العموم ثم عرفه بعد ذلك لقصد العموم في طلب الرزق كله من الله لأنه لا يقتضي العموم في سياق ... 508
115 الإثبات إلا مع التعريف فكأنه قال ابتغوا الرزق كله عند الله وإن يكذبوك الآية يحتمل أن تكون من كلام إبراهيم أو من كلام الله تعالى ويحتمل مع ذلك أن يراد به وعيد الكفار وتهديدهم أو يراد به تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له بالتأسي بغيره من الأنبياء الذين كذبهم قومهم أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق يقال بدأ الله الخلق وأبدأه بمعنى واحد وقد جاءت اللغتان في هذه السورة والمعنى أولم ير الكفار أن الله خلق الخلق فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر فقوله ثم يعيده ليس بمعطوف على يبدأ لأن المعنى فيهما مختلف لأن رؤية البداءة بالمشاهدة بخلاف الإعادة فإنها

تعلم بالنظر والاستدلال وإنما هو معطوف على الجملة كلها وقد قيل إنه يريد إعادة النبات وإبدائه وعلى هذا يكون ثم يعيده عطفا على يبدىء لاتفاق المعنى والأول أحسن وأليق بمقاصد الكلام إن ذلك على الله يسير يعني إعادة الخلق وهي حشرهم ثم أمرهم بالسير في الأرض ليروا مخلوقات الله فيستدلوا بها على قدرته على حشرهم ولذلك ختمها بقوله إن الله على كل شيء قدير وإليه تقلبون أي ترجعون وما أنتم بمعجزين أي لا تفوتون من عذاب الله وليس لكم مهرب في الأرض ولا في السماء أولئك يئسوا من رحمتي يحتمل أن يكون يأسهم في الآخرة أو يكون وصف لحالهم في الدنيا لأن الكافر يائس من رحمة الله والمؤمن راج خائف وهذا الكلام من قوله أولم يروا إلى هنا يحتمل أن يكون خطابا لمحمد صلى الله عليه وسلم معترضا بين قصة إبراهيم ويحتمل أن يكون خطابا لإبراهيم وبعد ذلك ذكر جواب قومه له مودة بينكم نصب مودة على أنها

مفعول من أجله أو مفعول ثان لاتخذتم ورفعها على أنها خبر ابتداء مضمر أو خبر إن وتكون ما موصولة ونصب بينكم على الظرفية وخفضه بالإضافة فآمن له لوط تضمن آمن معنى انقاد ولذلك تعدى باللام وقال إني مهاجر إلى ربي القائل لذلك إبراهيم وقيل لوط وهاجرا من بلادهما بأرض بابل إلى الشام وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب أكثر الأنبياء من ذرية إبراهيم ... 509 116 وعلى ذريته أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وتقطعون السبيل قيل أراد قطع الطرق للسلب والقتل وقيل أراد قطع سبيل النسل بترك النساء وإتيان الرجال وتأتون في ناديكم المنكر النادي المجلس الذي يجتمع فيه الناس والمنكر فعلهم بالرجال وقيل إذايتهم للناس ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى الرسل هنا الملائكة والبشرى بشارة إبراهيم بالولد وهو قوله فبشروه بغلام حليم أو بشارته بنصر سيدنا لوط والأول أظهر أهل هذه القرية يعني قرية سيدنا لوط
قال إن فيها لوطا ليس إخبارا بأنه فيها وإنما قصد نجاة سيدنا لوط من العذاب الذي يصيب أهل القرية وبراءته من الظلم الذي وصفوه به فكأنه قال كيف تهلكون أهل القرية وفيها لوط وكيف تقولون إنهم ظالمون وفيهم لوط من الغابرين قد ذكر وكذلك سيء بهم رجزا من السماء أي عذابا وارجوا اليوم الآخر قيل الرجاء هنا الخوف وقيل هو على بابه ولا تعثوا في الأرض يعني نقصهم المكيال والميزان الرجفة هي الصيحة وقد تبين لكم من مساكنهم أي آثار مساكنهم باقية تدل على ما أصابهم وكانوا مستبصرين قيل معناه لهم بصيرة في كفرهم وإعجاب به وقيل لهم بصيرة في الإيمان ولكنهم كفروا عنادا وقيل معنى مستبصرين عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال ولكنهم لم يفعلوا وما كانوا سابقين أي لم يفوتونا فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا الحاصب الحجارة والحاصب أيضا الريح الشديدة ويحتمل عندي أنه أراد به المعنيين

لأن قوم سيدنا لوط أهلكوا بالحجارة وعاد أهلكوا بالريح وإن حملناه ... 510
117 على المعنى الواحد نقص ذكر الآخر وقد أجاز كثير من الناس استعمال اللفظ الواحد في معنيين كقوله إن الله وملائكته يصلون على النبي ويقوي ذلك هنا لأن المقصود هنا ذكر عموم أخذ أصناف الكفار ومنهم من أخذته الصيحة يعني ثمود ومدين ومنهم من خسفنا به الأرض يعني قارون ومنهم من أغرقنا يعني قوم نوح وفرعون وقومه مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا شبه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتا ضعيفا فكان ما اعتمدت عليه العنكبوت في بيتها ليس بشيء فكذلك ما اعتمدت عليه الكفار من آلهتهم ليس بشيء لأنهم لا ينفعون ولا يضرون أوهن البيوت أي أضعفها لو كانوا يعلمون أي لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء ما موصولة بمعنى الذي مفعولة للفعل الذي قبلها وقيل هي نافية والفعل معلق عنها والمعنى على هذا لستم تدعون من دون الله شيئا له بال فلا يصلح أن يسمى شيئا بالحق أي بالواجب لا على وجه العبث واللعب إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا كان المصلي خاشعا في صلاته متذكرا لعظمة من وقف بين يديه حمله ذلك على التوبة من الفحشاء والمنكر فكأن الصلاة ناهية عن ذلك ولذكر الله أكبر قيل فيه ثلاثة معان الأول أن المعنى أن الصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله لأن ذكر الله أعظم ما فيها كأنه أشار بذلك إلى تعليل نهيها عن الفحشاء والمنكر لأن ذكر الله فيها هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر الثاني أن ذكر الله على الدوام أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة لأنها في بعض الأوقات دون بعض الثالث أن ذكر الله أكبر أجرا من الصلاة ومن سائر الطاعات كما ورد في الحديث ألا أنبئكم بخير أعمالكم قالوا بلى قال ذكر الله ولا تجادلوا أهل الكتاب

إلا بالتي هي أحسن أي لا تجادلوا كفار أهل الكتاب إذا اختلفتم معهم في الدين إلا بالتي هي أحسن لا بضرب ولا قتال وكان هذا قبل أن يفرض الجهاد ثم نسخ بالسيف ومعنى إلا الذين ظلموا أي ظلموكم وصرحوا بإذاية نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم وقيل معنى الآية لا تجادلوا من أسلم من أهل الكتاب فيما حدثوكم به من الأخبار إلا بالتي هي أحسن ومعنى إلا الذين ظلموا على هذا من بقي منهم على كفره والمعنى الأول أظهر وقولوا آمنا هذا وما بعده يقتضي مواعدة ومسالمة وهي منسوخة بالسيف ويقتضي أيضا الإعراض عن مكالمتهم وفي الحديث لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل ... 511

---

118 إليكم فإن كان باطلا لم تصدقوهم وإن كان حقا لم تكذبوهم وكذلك أنزلنا إليك الكتاب أي كما أنزلنا الكتاب على من قبلك أنزلناه عليك فالذين آتيناهم الكتاب يعني عبد الله بن سلام وأمثاله ممن أسلم من اليهود والنصارى

ومن هؤلاء من يؤمن به أراد بالذين أوتوا الكتاب أهل التوراة والإنجيل وأراد بقوله من هؤلاء من يؤمن به كفار قريش وقيل أراد بالذين أوتوا الكتاب المتقدمين من أهل التوراة والإنجيل وأراد بهؤلاء المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم منهم كعبد الله بن سلام وما كنت تتلوا من قبله من كتاب هذا احتجاج على أن القرآن من عند الله لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يقرأ ولا يكتب ثم جاء بالقرآن فإن قيل ما فائدة قوله بيمينك فالجواب أن ذلك تأكيد للكلام وتصوير للمعنى المراد إذا لارتاب المبطلون أي لو كنت تقرأ أو تكتب لتطرق الشك إلى الكفار فكانوا يقولون لعله تعلم هذا الكتاب أو قرأه وقيل وجه الاحتجاج أن أهل الكتاب كانوا يجدون في كتبهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب فلما جعله الله كذلك قامت عليهم الحجة ولو كان يقرأ أو يكتب لكان مخالفا للصفة التي وصفه الله بها عندهم والمذهب الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقرأ قط ولا كتب وقال الباجي وغيره أنه كتب لظاهر حديث الحديبية وهذا القول ضعيف بل هو آيات الضمير للقرآن والإضراب بل عن كلام محذوف تقديره ليس الأمر كما حسب الظالمون والمبطلون أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب المعنى كيف يطلبون آية والقرآن أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صحة النبوة فهلا اكتفوا به عن طلب الآيات قل كفى بالله ذكر معناه في الرعد وفي الأنعام ويستعجلونك بالعذاب الضمير للكفار يعني قولهم ائتنا بما تعدنا وقولهم فأمطر علينا حجارة من السماء وشبه ذلك ولولا أجل مسمى أي لولا أن الله قدر لعذابهم أجلا مسمى لجاءهم به حين طلبوه

وليأتينهم بغتة يحتمل أن يريد القتل الذي أصابهم يوم بدر أو الجوع الذي أصابهم بتوالي القحط أو يريد عذاب الآخرة وهذا أظهر لقوله وإن جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب أي يحيط بهم والعامل في الظرف محذوف أو محيطة إن أرضي ... 512
119 واسعة) تحريض على الهجرة من مكة إذ كان المؤمنون يلقون فيها أذى الكفار وترغيبا في غيرها من أرض الله فحينئذ هاجروا إلى أرض الحبشة ثم إلى المدينة لنبوئنهم أي ننزلهم وقرئ نثوينهم بالثاء المثلثة من الثوى وهو الإقامة في المنزل وكأين من دابة لا تحمل رزقها أي كم من دابة ضعيفة لا تقدر على حمل رزقها ولكن الله يرزقها مع ضعفها والقصد بالآية تقوية لقلوب المؤمنين إذ خافوا الفقر والجوع في الهجرة إلى بلاد الناس أي كما يرزق الله الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم ولئن سألتهم في الموضعين إقامة حجة عليهم فأنى يؤفكون أي كيف يصرفون عن الحق قل الحمد لله حمدا لله على ظهور الحجة ويكون المعنى إلزامهم أن يحمدوا الله لما اعترفوا أنه خلق السموات والأرض بل أكثرهم لا يعقلون إضراب عن كلام محذوف تقديره يجب عليهم أن يعبدوا الله لما اعترفوا به ولكنهم لا يعقلون لهي الحيوان أي الحياة الدائمة التي لا موت فيها ولفظ الحيوان مصدر كالحياة فإذا ركبوا في الفلك الآية إقامة حجة عليهم بدعائهم حين الشدائد ثم يشركون به في حال الرخاء ليكفروا أمر على وجه التهديد أو على وجه الخذلان والتخلية كما تقول لمن تنصحه فلا يقبل نصحك اعمل ما شئت أولم يروا أنا جعلنا حرما

آمنا الضمير لكفار قريش والحرم الآمن مكة لأنها كانت لا تغير عليها العرب كما تغير على سائر البلاد ولا ينتهك أحد حرمتها ويتخطف الناس من حولهم عبارة عما يصيب غير أهل مكة من القتال أو أخذ الأموال والذين جاهدوا فينا يعني جهاد النفس من الصبر على إذاية الكفار واحتمال الخروج

عن الأوطان وغير ذلك وقيل يعني القتال وذلك ضعيف لأن القتال لم يكن مأمورا به حين نزول الآية لنهدينهم سبلنا أي لنوفقنهم لسبيل الخير وإن الله لمع المحسنين المعنى أنه معهم بإعانته ونصره ... 513
120
سورة الروم
غلبت الروم أي هزم كسرى ملك الفرس جيش ملك الروم وسميت الروم باسم جدهم وهو روم ابن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم في أدنى الأرض قيل هي الجزيرة وهي بين الشام والعراق وهي أدنى أرض الروم إلى فارس وقيل في أدنى أرض العرب منهم وهي أطراف الشام وهم من بعد غلبهم سيغلبون إخبار بأن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين البضع ما بين الثلاث إلى التسع ويومئذ يفرح المؤمنون روي أن غلب الروم فارس وقع يوم بدر وقيل يوم الحديبية ففرح المؤمنون بنصر الله لهم على كفار قريش وقيل فرح المؤمنون بنصر الروم على الفرس لأن الروم أهل كتاب فهم أقرب إلى الإسلام كذلك فرح الكفار من قريش بنصر الفرس على الروم لأن الفرس ليسوا بأهل كتاب فهم أقرب إلى كفار قريش وروي أنه لما فرح الكفار بذلك خرج إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال إن نبينا صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا عن الله تعالى أنهم سيغلبون وراهنهم على عشرة قلاص إلى ثلاث سنين وذلك قبل أن يحرم القمار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم زدهم في الرهن واستزدهم في الأجل فجعل القلاص مائة والأجل تسعة أعوام وجعل معه أبي ابن خلف مثل ذلك فلما وقع الأمر على ما أخبر به أخذ أبو بكر القلاص من ذرية أبي بن خلف إذ كان قد مات وجاء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له تصدق بها وعد الله مصدر مؤكد كقوله له على ألف درهم عرفا لأن معناه اعترفت له بها اعترافا يعلمون ظاهرا قيل معناه يعلمون ما يدرك بالحواس دون ما يدرك بالعقول فهم في ذلك مثل البهائم وقيل الظاهر ما يعلم بأوائل العقول والباطن ما يعلم بالنظر والدليل وقيل هو من الظهور بمعنى العلو في

الدنيا وقيل ظاهر بمعنى زائل ذاهب والأظهر أنه أراد بالظاهر المعرفة بأمور الدنيا ومصالحها لأنه وصفهم بعد ذلك بالغفلة عن الآخرة وذلك يقتضي عدم معرفتهم بها وانظر كيف نفى العلم عنهم أولا ثم أثبت لهم العلم بالدنيا خاصة وقال بعض أهل البيان إن هذا من المطابقة لاجتماع النفي والإثبات وجعل بعضهم العلم المثبت كالعدم لقلة منفعته فهو على هذا بيان للنفي

أولم يتفكروا في أنفسهم يحتمل معنيين أحدهما أن تكون النفس ظرفا للفكرة في خلق السموات والأرض كأنه قال اولم يتفكروا بعقولهم فيعلموا أن الله ما خلق السموات والأرض إلا بالحق والثاني أن يكون المعنى أو لم يتفكروا في ذواتهم ... 514

---

121 وخلقتهم ليستدلوا بذلك على الخالق ويكون قوله ما خلق الآية استئناف كلام والمعنى الأول أظهر وأثاروا الأرض أي حرثوها ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوآى معنى السوآى هلاك الكفار ولفظ السوآى تأنيث الأسوأ كما أن الحسنى تأنيث الأحسن وقرئ عاقبة بالرفع على أنه اسم كان والسوآى خبرها وقرئ بنصب عاقبة على أنها خبر كان والسوآى اسمها وأن كذبوا مفعول من أجله ويحتمل أن تكون السوآى مصدر أساءوا يبلس المجرمون الإبلاس الكون في شر مع اليأس من الخير يتفرقون معناه في المنازل والجزاء يحبرون تنعمون من الحبور وهو السرور والنعيم وقيل تكرمون سبحان الله هذا تعليم للعباد أي قولوا سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وعشيا وحين تظهرون أي حين تدخلون في وقت الظهيرة وهي وسط النهار وقوله وله الحمد في السموات والأرض اعتراض بين المعطوفات وقيل أراد بذلك الصلوات الخمس فحين تمسون المغرب والعشاء وحين تصبحون الصبح وعشيا العصر وحين تظهرون الظهر يخرج الحي ذكر في آل عمران ويحيي الأرض أي ينبت فيها النبات وكذلك تخرجون أي كما يخرج الله النبات من الأرض كذلك يخرجكم من الأرض للبعث يوم القيامة تنتشرون أي تنصرفون في الدنيا من أنفسكم أزواجا أي صنفكم وجنسكم قيل أراد خلقة حواء من ضلع آدم وخاطب الناس بذلك لأنهم ذرية آدم مودة ورحمة قيل المودة الجماع والرحمة الولد والعموم أحسن وأبلغ واختلاف ألسنتكم أي لغاتكم وألوانكم يعني البياض والسواد وقيل يعني أصنافكم ... 515

---

122 والأول أظهر خوفا وطمعا ذكر في الرعد أن تقوم السماء والأرض معناه تثبت أو يقوم تدبيرها ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون إذا الأولى شرطية والثانية فجائية وهي جواب الأولى والدعوة في هذه الآية قوله للموتى قوموا بالنفخة الثانية في الصور ومن الأرض يتعلق بقوله مخرجون أو بقوله دعاكم على أن تكون الغاية بالنظر إلى المدعو كقولك دعوتك من الجبل إذا كان المدعو في الجبل قانتون ذكر في البقرة وهو أهون عليه أي الإعادة يوم القيامة أهون عليه من الخلقة الأولى وهذا تقريب لفهم السامع وتحقيق للبعث فإن من صنع صنعة أول مرة كانت أسهل عليه ثاني مرة ولكن الأمور كلها متساوية عند الله فإن كل شيء على الله يسير وله المثل الأعلى أي الوصف الأعلى الذي يصفه به أهل السموات والأرض هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء هذا هو المثل المضروب معناه أنكم أيها الناس لا يشارككم عبيدكم في أموالكم ولا يستوون معكم في أحوالكم فكذلك الله تعالى لا يشارك عبيده في

ملكه ولا يماثله أحد في ربوبيته فذكر حرف الاستفهام ومعناه التقرير على النفي ودخل في النفي قوله فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم أي لستم في أموالكم سواء مع عبيدكم ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم لأن العبيد عندكم أقل وأذل من ذلك بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم الإضراب ببل عما تضمنه معنى الآية المتقدمة كأنه يقول ليس لهم حجة في إشراكهم بالله بل اتبعوا في ذلك أهواءهم بغير علم فأقم وجهك للدين هو دين الإسلام وإقامة الوجه في الموضعين من السورة عبارة عن الإقبال عليه والإخلاص فيه في قوله أقم والقيم ضرب من ضروب التجنيس فطرت الله منصوب على المصدر كقوله صبغة الله أو مفعولا بفعل مضمر تقديره الزموا فطرة الله أو عليكم فطرة الله ومعناه خلقة الله والمراد به دين الإسلام لأن الله خلق الخلق عليه إذ هو الذي تقتضيه عقولهم

السليمة وإنما كفر من كفر لعارض أخرجه عن أصل فطرته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه لا تبديل لخلق الله يعني بخلق الله الفطرة التي خلق الناس عليها من الإيمان ومعنى أن الله لا يبدلها أي لا يخلق الناس على غيرها ولكن يبدلها شياطين الإنس والجن بعد الخلقة الأولى أو ... 516
123 يكون المعنى أن تلك الفطرة لا ينبغي للناس أن يبدلوها فالنفي على هذا حكم لا خبر وقيل إنه على الخصوص في المؤمنين أي لا تبديل لفطرة الله في حق من قضى الله أنه يثبت على إيمانه وقيل إنه نهى عن تبديل الخلقة كخصاء الفحول من الحيوان وقطع آذانها وشبه ذلك منيبين إليه منصوب على الحال من قوله أقم وجهك لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد هو وأمته ولذلك جمعهم في قوله منيبين وقيل هو حال من ضمير الفاعل المستتر في الزموا فطرة الله وقيل هو حال من قوله فطر الناس وهذا بعيد واتقوه وما بعده معطوف على أقم وجهك أو على العامل في فطرة الله وهو الزموا المضمر من الذين فرقوا دينهم المجرور بدل من المجرور قبله ومعنى فرقوا دينهم جعلوه فرقا أي اختلفوا فيه وقرئ فارقوا من المفارقة أي تركوه والمراد بالمشركين هنا أصناف الكفار وقيل هم المسلمون الذين تفرقوا فرقا مختلفة وفي لفظ المشركين هنا تجوز بعيد ولعل قائل هذا القول إنما قاله في قول الله في الأنعام إن الذين فرقوا دينهم فإنه ليس هناك ذكر المشركين وإذ مس الناس ضر الآية إنحاء على المشركين لأنهم يدعون الله في الشدائد ويشركون به في الرخاء ليكفروا ذكر في النحل أم أنزلنا عليهم سلطانا أم هنا منقطعة بمعنى بل والسلطان الحجة وكلامه مجاز كما تقول نطق بكذا والمعنى ليس لهم حجة تشهد بصحة شركهم وإذا أذقنا الناس رحمة إنحاء على من يفرح ويبطر إذا أصابه الخير ويقنط إذا أصابه الشر وانظر كيف قال هنا إذا وقال في الشر

إن تصبهم سيئة لأن إذا للقطع بوقوع الشرط بخلاف إن فإنها للشك في وقوعه ففي ذلك إشارة إلى أن الخير الذي يصيب به عباده أكثر من الشر بما قدمت أيديهم المعنى أن ما يصيب الناس من المصائب فإنه بسبب ذنوبهم فآت ذا القربى حقه يعني صلة رحم القرابة بالإحسان والمودة ولو بالكلام الطيب وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس الآية معناها كقوله يمحق الله الربا ويربي الصدقات أي ما أعطيتم من أموالكم على وجه الربا فلا يزكو عند الله وما آتيتم من الصدقات فهو الذي يزكو عند الله وينفعكم به وقيل المراد أن يهب الرجل للرجل أو يهدي له ليعوض له أكثر من ذلك فهذا وإن كان جائزا فإنه لا ثواب فيه وقرئ وما أتيتم بالمد بمعنى أعطيتم وبالقصر يعني جئتم أي فعلتموه وقرئ لتربوا بالتاء المضمومة وليربوا بالياء ... 517

---

124 مفتوحة ونصب الواو فأولئك هم المضعفون المضعف ذو الإضعاف من الحسنات وفي هذه الجملة التفات لخروجه من الغيبة إلى الخطاب وكان الأصل أن يقال وما آتيتم من زكاة فأنتم المضعفون وفيه أيضا حذف لأنه لا بد من ضمير يرجع إلى ما وتقديره المضعفون به أو فمؤتوه هم المضعفون ظهر الفساد في البر والبحر قيل البر البلاد البعيدة من البحر والبحر هو البلاد التي على ساحل البحر وقيل البر اللسان والبحر القلب وهذا ضعيف والصحيح أن البر والبحر المعروفان فظهور الفساد في البر بالقحط والفتن وشبه ذلك وظهور الفساد في البحر بالغرق وقلة الصيد وكساد التجارات وشبه ذلك وكل ذلك بسبب ما يفعله الناس من الكفر والعصيان لا مرد له أي لا رجوع له ولا بد من وقوعه من الله يتعلق بقوله يأتي أو بقوله لا مرد له أي لا يرده الله يومئذ يصدعون من الصدع وهو الفرقة أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير فلأنفسهم يمهدون أي يوطنون وهو استعارة من تمهيد الفراش ونحوه والمعنى أنهم يعملون ما ينتفعون به في الآخرة ليجزي يتعلق بيمهدون أو يصدعون أو بمحذوف مبشرات أي تبشر بالمطر وليذيقكم عطف على مبشرات كأنه قال ليبشركم وليذيقكم ويحتمل أن يتعلق بمحذوف تقديره ليذيقكم من رحمته أرسلها وكان حقا انتصب حقا لأنه خبر كان واسمها نصر المؤمنين وقيل اسمها مضمر يعود على مصدر انتقمنا أي وكان الانتقام حقا فعلى هذا يوقف على حقا ويكون نصر المؤمنين مبتدأ وهذا ضعيف تثير سحابا أي تحركها وتنشرها كسفا أي قطعا وقرئ بإسكان السين وهما بناءان للجمع وقيل معنى الإسكان أن السحاب قطعة واحدة الودق هو المطر من خلاله الخلال الشقاق الذي بين بعضه وبعض لأنه متخلل الأجزاء والضمير يعود على السحاب من ... 518

---

125 قبله) كرر للتأكيد وليفيد سرعة تقلب قلوب الناس من القنوط إلى الاستبشار لمبلسين أي قانطين كقوله ينزل الغيث من بعد ما قنطوا فرآه مصفرا الضمير للنبات الذي ينبته الله بالمطر والمعنى لئن أرسل الله ريحا

فاصفر به النبات لكفر الناس بالقنوط والاعتراض على الله وقيل الضمير للريح وقيل للسحاب والأول أحسن في المعنى فإنك لا تسمع الموتى الآية استعارة في عدم سماع الكفار للمواعظ والبراهين فشبه الكفار بالموتى في عدم إحساسهم
خلقكم من ضعف الضعف الأول كون الإنسان من ماء مهين وكونه ضعيف في حال الطفولية والضعف الثاني الأخير الهرم وقرئ بفتح الضاد وضمها وهما لغتان ما لبثوا غير ساعة هذا جواب القسم ومعناه أنهم يحلفون أنهم ما لبثوا في القبور تحت التراب إلا ساعة أي ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة وذلك لاستقصار تلك المدة كذلك كانوا يؤفكون أي مثل هذا الصرف كانوا يصرفون في الدنيا عن الصدق والتحقيق حتى يروا الأشياء على ما هي عليه وقال الذين أوتوا العلم والإيمان هم الملائكة والأنبياء والمؤمنون ردوا مقالة الكفار التي حلفوا عليها في كتاب الله يعني اللوح المحفوظ أو علم الله والمجرور على هذا يتعلق بقوله لبثتم وقيل يعني القرآن فعلى هذا يتعلق هذا المجرور بقوله أوتوا العلم وفي الكلام تقديم وتأخير وتقديره على هذا قال الذين أوتوا العلم في كتاب الله أي العلماء بكتاب الله وقولهم لقد لبثتم خطاب للكفار وقولهم فهذا يوم البعث تقرير لهم وهو في المعنى جواب لشرط مقدر تقديره إن كنتم تنكرون البعث فهذا يوم البعث ولا هم يستعتبون من العتبى بمعنى الرضا أي ولا يرضون وليست استفعل هنا للطلب إن وعد الله حق يعني ما وعد من النصر على الكفار ولا يستخفنك من الخفة أي لا تضطرب لكلامهم ... 519

---

126 سورة لقمان
الكتاب الحكيم ذكر في يونس ومن الناس من يشتري لهو الحديث هو الغناء وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شراء المغنيات وبيعهن حرام وقرأ هذه الآية وقيل نزلت في قرشي اشترى جارية مغنية تغني بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فالشراء على هذا حقيقة وقيل نزلت في النضر بن الحارث وكان قد تعلم أخبار فارس فذلك هو لهو الحديث وشراء لهو الحديث استحبابه وسماعه فالشراء على هذا مجاز وقيل لهو الحديث الطبل وقيل الشرك ومعنى اللفظ يعم ذلك كله وظاهر الآية أنه لهو مضاف إلى الكفر بالدين واستخفاف لقوله تعالى ليضل عن سبيل الله الآية وأن المراد شخص معين لوصفه بعد ذلك بجملة أوصاف بغير عمد ترونها ذكر في الرعد أن تميد بكم أي لئلا تميد بكم لقمان رجل ينطق بالحكمة واختلف هل هو نبي أم لا وفي الحديث لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا حسن اليقين أحب الله فأحبه فمن عليه بالحكمة روي أنه كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته وروي أنه كان قاضي بني إسرائيل واختلف في صناعته فقيل كان نجارا وقيل خياطا وقيل راعي غنم وكان ابنه كافرا فما زال يوصيه حتى أسلم وروي أن اسم ابنه ثاران ووصينا الإنسان هذه الآية والتي بعدها اعتراض في أثناء وصية لقمان لابنه على وجه التأكيد لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك بالله ونزلت الآية في سعد بن أبي وقاص وأمه حسبما ذكرنا في العنكبوت حملته أمه وهنا على وهن أي ضعفا على ضعف لأن الحمل كلما عظم ازدادت الحامل به ضعفا وانتصاب وهنا بفعل مضمر تقديره تهن وهنا وفصاله أي فطامه وأشار بذلك إلى غاية مدة

الرضاع أن اشكر تفسير للوصية واعترض بينها وبين تفسيرها بقوله وفصاله في عامين ... 520

---

127 ليبين ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب يا بني الآية رجع إلى كلام لقمان والتقدير وقال لقمان يا بني مثقال حبة من خردل أي وزنها والمراد بذلك أن الله يأتي بالقليل والكثير من أعمال العباد فعبر بحبة الخردل ليدل على ما هو أكثر في صخرة قيل المراد الصخرة التي عليها الأرض وهذا ضعيف وإنما معنى الكلام أن مثقال خردلة من الأعمال أو من الأشياء ولو كانت في أخفى موضع كجوف صخرة فإن الله يأتي بها يوم القيامة وكذلك لو كانت في السموات أو في الأرض واصبر على ما أصابك أمر بالصبر على المصائب عموما وقيل المعنى ما يصيب من يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر من عزم الأمور يحتمل أن يريد مما أمر الله به على وجه العزم والإيجاب أو من مكارم الأخلاق التي يعزم عليها أهل الحزم والجد ولفظ العزم مصدر يراد به المفعول أي من معزومات الأمور ولا تصعر خدك للناس الصعر في اللغة الميل أي لا تول الناس خدك وتعرض عنهم تكبرا عليهم مرحا ذكر في الإسراء مختالا من الخيلاء واقصد في مشيك أي اعتدل فيه ولا تتسرع إسراعا يدل على البطش والخفة ولا تبطئ إبطاء يدل على الفخر والكبر نعمه ظاهرة وباطنة الظاهرة الصحة والمال وغير ذلك والباطنة النعم التي لا يطلع عليها الناس ومنها ستر القبيح من الأعمال وقيل الظاهرة نعم الدنيا والباطنة نعم العقبى واللفظ أعم من ذلك كله ومن الناس من يجادل نزلت في النضر بن الحارث وأمثاله أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير معناه أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار ومن يسلم وجهه إلى الله يسلم أي ... 521

---

128 يخلص أو يستسلم أو ينقاد والوجه هنا عبارة عن القصد بالعروة الوثقى ذكر في البقرة
قل الحمد لله وما بعده ذكر في العنكبوت
ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام الآية إخبار بكثرة كلمات الله والمراد اتساع علمه ومعنى الآية أن شجر الأرض لو كانت أقلاما والبحر لو كان مدادا يصب فيه سبعة أبحر صبا دائما وكتبت بذلك كلمات الله لنفدت الأشجار والبحار ولم تنفد كلمات الله لأن الأشجار والبحار متناهية وكلمات الله غير متناهية فإن قيل لم لم يقل والبحر مدادا كما قال في الكهف قل لو كان البحر مدادا فالجواب أنه أغنى عن ذلك قوله يمده لأنه من قولك مد الدواة وأمدها فإن قيل لم قال من شجرة ولم يقل من شجر باسم الجنس الذي يقتضي العموم فالجواب أنه أراد تفصيل الشجر إلى شجرة حتى لا يبقى منها واحدة فإن قيل لم قال كلمات الله ولم يقل كلم الله بجمع الكثرة فالجواب أن هذا أبلغ لأنه إذا لم تنفد الكلمات مع أنه جمع قلة فكيف ينفد الجمع الكثير وروي أن

سبب الآية أن اليهود قالوا قد أوتينا التوراة وفيها العلم كله فنزلت الآية لتدل أن ما عندهم قليل من كثير والآية على هذا مدنية وقيل إن سببها أن قريشا قالوا إن القرآن سينفد ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة بيان لقدرة الله على بعث الناس ورد على من استبعد ذلك يولج الليل في النهار أي يدخل كلا منهما في الآخر بما يزيد في أحدهما وينقص من الآخر أو بإدخال ظلمة الليل على ضوء النهار وإدخال ضوء النهار على ظلمة الليل إلى أجل مسمى يعني يوم القيامة ذلك بأن الله يحتمل أن تكون الباء سببية أو يكون المعنى ذلك بأن الله شاهد هو الحق بنعمة الله يحتمل أن يريد بذلك ما تحمله السفن من الطعام والتجارات والباء للإلصاق أو للمصاحبة أو يريد الريح فتكون الباء سببية صبار شكور مبالغة في صابر وشاكر كالظلل جمع ظلة وهو ما يعلوك من فوق شبه الموج بذلك إذا ارتفع وعظم حتى

علا فوق الإنسان فمنهم مقتصد المقتصد المتوسط في الأمر فيحتمل أن يريد كافرا متوسطا في كفره لم يسرف فيه أو مؤمنا متوسطا في إيمانه لأن الإخلاص الذي عليه في البحر كان يزول عنه وقيل معنى مقتصد مؤمن ثبت في البر على ما عاهد الله عليه في البحر ختار أي غدار شديد الغدر وذلك أنه جحد نعمة الله غدرا لا يجزي ... 522
129 والد عن ولده) أي لا يقضي عنه شيئا والمعنى أنه لا ينفعه ولا يدفع عنه مضرة ولا مولود أي ولد فكما لا يقدر الوالد لولده على شيء كذلك لا يقدر الولد لوالده على شيء الغرور الشيطان وقيل الأمل والتسويف علم الساعة أي متى تكون فإن ذلك مما انفرد الله بعلمه ولذلك جاء في الحديث مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية ماذا تكسب غدا يعني من خير أو شر أو مال أو ولد أو غير ذلك
سورة السجدة
تنزيل الكتاب يعني القرآن لا ريب فيه أي لا شك أنه من عند الله عز وجل ونفي الريب على اعتقاد أهل الحق وعلى ما هو الأمر في نفسه لا على اعتقاد أهل الباطل من رب العالمين يتعلق بتنزيل أم يقولون الضمير لقريش وأم بمعنى بل والهمزة لتنذر يتعلق بما قبله أو بمحذوف ما أتاهم من نذير يعني من الفترة من زمن عيسى وقد جاء الرسل قبل ذلك إبراهيم وغيره ولما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله رسولا ينذرهم ليقيم الحجة عليهم استوى على العرش قد ذكر في الأعراف ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع نفي الشفاعة على وجهين أحدهما الشفاعة للكفار وهي معدومة على الإطلاق والآخر أن الشفاعة للمؤمنين لا تكون إلا بإذن الله كقوله ما من شفيع إلا من بعد إذنه يدبر الأمر أي واحد الأمور وقيل المأمور به من الطاعات والأول أصح من السماء إلى الأرض أي ينزل ما دبره وقضاه من السماء إلى الأرض
ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون قال ابن عباس المعنى ينفذ الله ما قضاه من السماء إلى

الأرض ثم يعرج إليه خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا مقداره لو سير فيه السير المعروف من البشر ألف سنة لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام فالألف ما بين نزول الأمر إلى الأرض وعروجه إلى السماء وقيل إن الله يلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من أعوام البشر وهو يوم من أيام الله فإذا ... 523

130 فرغت ألقي إليهم مثلها فالمعنى أن الأمور تنفذ عنده لهذه المدة ثم تصير إليه آخرا لأن عاقبة الأمور إليه فالعروج على هذا عبارة عن مصير الأمور إليه عالم الغيب والشهادة الغيب ما غاب عن المخلوقين والشهادة ما شاهدوه أحسن كل شيء خلقه أي أتقن جميع المخلوقات وقرىء بإسكان اللام على البدل وبدأ خلق الإنسان من طين يعني آدم عليه السلام نسله يعني ذريته من سلالة من ماء مهين يعني المني والسلالة مشتقة من سل يسل فكأن الماء يسل من الإنسان والمهين الضعيف ثم سواه أي قومه ونفخ فيه من روحه عبارة عن إيجاد الحياة فيه وأضيفت الروح إلى الله إضافة ملك إلى ملك وقد يراد بها الاختصاص لأن الروح لا يعلم كهنه إلا الله أئذا ضللنا في الأرض أي تلفنا وصرنا ترابا ومعنى هذا الكلام المحكي عن الكفار استبعاد البعث والعامل في إذا معنى قولهم إنا لفي خلق جديد تقديره نبعث يتوفاكم ملك الموت اسمه عزرائيل وتحت يده ملائكة ولو ترى يحتمل أن تكون لو للتمني وتأويله في حق الله كتأويل الترجي وقد ذكر أو تكون للامتناع وجوابها محذوف تقديره ولو ترى حال المجرمين في الآخرة لرأيت أمرا مهولا ناكسوا رءوسهم عبارة عن الذل والغم والندم ربنا أبصرنا وسمعنا تقديره يقولون ربنا قد علمنا الحقائق لو شئنا لآتينا كل نفس هداها يعني أنه لو أراد أن يهدي جميع الخلائق لفعل فإنه قادر على ذلك بأن يجعل الإيمان في قلوبهم ويدفع عنهم الشيطان والشهوات ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء فذوقوا بما نسيتم أي يقال لهم ذوقوا والنسيان

هنا بمعنى الترك تتجافى جنوبهم عن المضاجع أي ترتفع والمعنى يتركون مضاجعهم بالليل من كثرة صلاتهم النوافل ومن صلى العشاء والصبح في جماعة فقد أخذ بحظه من هذا فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين يعني أنه لا يعلم أحد مقدار ما يعطيهم الله من النعيم وقرىء أخفي بإسكان الياء على أن يكون فعل المتكلم وهو الله تعالى أفمن كان مؤمنا الآية يعني المؤمنين ... 524

131 والفاسقين على العموم وقيل يعني علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط فذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون الذي نعت بالعذاب ولذلك أعاد عليه الضمير المذكور في قوله به فإن قيل لم وصف هنا العذاب وأعاد عليه الضمير ووصف في سبأ النار وأعاد عليها الضمير وقال عذاب النار التي كنتم بها تكذبون فالجواب من ثلاثة أوجه الأول أنه خص العذاب في السجدة بالوصف اعتناء به لما تكرر ذكره في قوله ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر والثاني أنه قدم في السجدة ذكر النار فكان الأصل أن يذكرها بعد ذلك بلفظ الضمير لكنه جعل الظاهر مكان المضمر فكما لا يوصف

المضمر لم يوصف ما قام مقامه وهو النار ووصف العذاب ولم يصف النار والثالث وهو الأقوى أنه امتنع في السجدة وصف النار فوصف العذاب وإنما امتنع وصفها لتقدم ذكرها فإنك إذا ذكرت شيئا ثم كررت ذكره لم يجز وصفه كقولك رأيت رجلا فأكرمت الرجل فلا يجوز وصفه لئلا يفهم أنه غيره ولنذيقنهم من العذاب الأدنى يعني الجوع ومصائب الدنيا وقيل القتل يوم بدر وقيل عذاب القبر وهذا بعيد لقوله لعلهم يرجعون
إنا من المجرمين منتقمون هذا وعيد لمن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها وكان الأصل أن يقول إنا منه منتقمون ولكنه وضع المجرمين موضع المضمر ليصفهم بالإجرام وقدم المجرور على منتقمون للمبالغة فلا تكن في مرية من لقائه المرية الشك والضمير لموسى أي لا تمتر في لقائك موسى ليلة الإسراء وقيل المعنى لا تشك في لقاء موسى

والكتاب الذي أنزل عليه والكتاب على هذا التوراة وقيل الكتاب هنا جنس والمعنى لقد آتينا موسى الكتاب فلا تشك أنت في لقائك الكتاب الذي أنزل عليك وعبر باللقاء عن إنزال الكتاب كقوله وإنك لتلقى القرآن يفصل بينهم الضمير لجميع الخلق وقيل لبني إسرائيل خاصة أولم يهد لهم ذكر في طه يمشون في مساكنهم الضمير في يمشون لأهل مكة أي يمشون في مساكن القوم المهلكين كقوله وقد تبين لكم من مساكنهم وقيل الضمير للمهلكين أي أهلكناهم وهم يمشون في مساكنهم والأول أحسن لأن فيه حجة على أهل مكة الأرض الجرز يعني التي لا نبات فيها من شدة العطش ... 525

---

132 متى هذا الفتح أي الحكم بين المسلمين والكفار في الآخرة وقيل يعني فتح مكة وهذا بعيد لقوله قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم وذلك في الآخرة وقيل يعني فتح مكة لأن من آمن يوم فتح مكة نفعه إيمانه فأعرض عنهم منسوخ بالسيف وانتظر إنهم منتظرون أي انتظر هلاكهم إنهم ينتظرون هلاكك وفي هذا تهديد لهم
سورة الأحزاب
يا أيها النبي نداء فيه تكريم له لأنه ناداه بالنبوة ونادى سائر الأنبياء بأسمائهم اتق الله أي دم على التقوى وزد منها ولا تطع الكافرين والمنافقين أي لا تقبل أقوالهم وإن أظهروا أنها نصيحة ويعني بالكافرين المظهرين للكفر وبالمنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر وروي أن الكافرين هنا أبي بن خلف والمنافقين هنا عبد الله بن أبي ابن سلول والعموم أظهر ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه قال ابن عباس كان في قريش رجل يقال له ذو القلبين لشدة فهمه فنزلت الآية نفيا لذلك ويقال إنه ابن أخطا وقيل جميل بن معمر وقيل إنما جاء هذا اللفظ توطئة لما بعده من النفي أي كما لم يجعل الله لرجل من قلبين في جوفه كذلك لم يجعل أزواجكم أمهاتكم ولا أدعياءكم أبناءكم اللائي تظاهرون منهن أي تقولون للزوجة أنت علي كظهر أمي وكانت العرب

تطلق هذا اللفظ بمعنى التحريم ويأتي حكمه في المجادلة وإنما تعدى هذا الفعل بمن لأنه يتضمن معنى يتباعدون منهن وما جعل أدعياءكم أبناءكم الأدعياء جمع دعي وهو الذي يدعى ولد فلان وليس بولده وسببها أمر زيد بن حارثة وذلك أنه كان فتى من كلب فسباه بعض العرب وباعه من خديجة فوهبته للنبي صلى الله عليه وسلم فتبناه فكان يقال له زيد بن محمد حتى أنزلت هذه الآية ذلكم قولكم الإشارة إلى نسبة الدعى إلى غير أبيه أو إلى كل ما تقدم من المنفيات وقوله بأفواهكم تأكيد لبطلان القول ادعوهم لآبائهم الضمير للأدعياء أي انسبوهم لآبائهم الذين ولدوهم ...

526
133 النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم يقتضي أن يحبوه صلى الله عليه وسلم أكثر مما يحبون أنفسهم وأن ينصروا دينه أكثر مما ينصرون أنفسهم وأزواجه أمهاتهم جعل الله تعالى لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم حرمة الأمهات في تحريم نكاحهن ووجوب مبرتهن ولكن أوجب حجبهن عن الرجال وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض هذا نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بأخوة الإسلام وبالهجرة وقد تكلمنا عليها في الأنفال في كتاب الله يحتمل أن يريد القرآن أو اللوح المحفوظ من المؤمنين يحتمل أن يكون بيانا لأولي الأرحام أو يتعلق بأولي أي أولوا الأرحام أولى بالميراث من المؤمنين الذين ليسوا بذوي أرحام إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا يريد الإحسان إلى الأولياء الذين ليسوا بقرابة ونفعهم في الحياة والوصية لهم عند الموت فذلك جائز ومندوب إليه وإن لم يكونوا قرابة وأما الميراث فللقرابة خاصة واختلف هل يعني بالأولياء المؤمنين خاصة أو المؤمنين والكافرين في الكتاب مسطورا يعني القرآن أو اللوح المحفوظ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم هو الميثاق بتبليغ الرسالة والقيام بالشرائع وقيل هو الميثاق الذي أخذه حين أخرج بني آدم من صلب آدم كالذر والأول أرجح لأنه هو المختص بالأنبياء ومنك ومن نوح قد دخل هؤلاء في جملة النبيين ولكنه خصهم بالذكر تشريفا لهم وقدم محمدا صلى الله عليه وسلم تفضيلا له ميثاقا غليظا يعني الميثاق المذكور وإنما كرره تأكيدا وليصفه بأنه غليظ أي وثيق ثابت يجب الوفاء به ليسأل الصادقين اللام تحتمل أن تكون لام كي أو لام الصيرورة والصدق هنا يحتمل أن يكون الصدق في الأقوال أو الصدق في الأفعال والعزائم ويحتمل أن يريد بالصادقين الأنبياء وغيرهم من المؤمنين اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود هذه الآية وما بعدها نزلت في قصة غزوة الخندق والجنود المذكورة هم قريش ومن كان معهم من

الكفار وسماهم الله في هذه السورة الأحزاب وكانوا نحو عشرة آلاف حاصروا المدينة وحفر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حولها ليمنعهم من دخولها فأرسلنا عليهم ريحا أرسل الله عليهم ريح الصبا فأطفأت نيرانهم

وأكفأت قدورهم ولم يمكنهم معها قرار فانصرفوا خائبين وجنودا لم تروها يعني الملائكة إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم أي حصروا المدينة من أعلاها ومن أسفلها وقيل معنى من فوقكم أهل نجد لأن أرضهم فوق المدينة ومن أسفل منكم أهل مكة وسائر تهامة وإذ زاغت الأبصار أي مالت عن مواضعها وذلك عبارة عن شدة الخوف وبلغت ... 527

(2/358)

---

134 القلوب الحناجر) جمع حنجرة وهي الحلق وبلوغ القلب إليها مجاز وهو عبارة عن شدة الخوف وقيل بل هي حقيقة لأن الرئة تنتفخ من شدة الخوف فتربو ويرتفع القلب بارتفاعها إلى الحنجرة وتظنون بالله الظنونا أي تظنون أن الكفار يغلبوكم وقد وعدكم الله بالنصر عليهم فأما المنافقون فظنوا ظن السوء وصرحوا به وأما المؤمنون فربما خطرت لبعضهم خطرة مما لا يمكن البشر دفعها ثم استبصروا ووثقوا بوعد الله وقرأ نافع الظنونا والرسولا والسبيلا بالألف في الوصل وفي الوقف وقرىء بإسقاطها في الوصل والوقف وبإثباتها في الوقف دون الوصل فأما إسقاطها فهو الأصل وأما إثباتها فلتعديل رءوس الآي لأنها كالقوافي وتقتضي هذه العلة أن تثبت في الوقف خاصة وأما من أثبتها في الحالين فإنه أجرى الوصل مجرى الوقف هنالك ابتلي المؤمنون أي اختبروا أو أصابهم بلاء والعامل في الظرف ابتلى وقيل ما قبله وزلزلوا أصل الزلزلة شدة التحريك وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب وإذ يقول المنافقون روي أنه معتب بن قشير وإذ قالت طائفة قال السهيلي الطائفة تقع على الواحد فما فوق والمراد هنا أوس بن قبطي يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا يثرب اسم المدينة وقيل اسم البقعة التي المدينة في طرف منها ومقام اسم موضع من القيام أي لا قرار لكم هنا يعنون موضع القتال وقريء بالضم وهو اسم موضع من الاقامة وقولهم فارجعوا أي إلى منازلكم بالمدينة ودعوا القتال ويستأذن فريق منهم النبي أي يستأذنوه في الانصراف والمستأذن أوس بن قبطي وعشيرته وقيل بنو حارثة إن بيوتا عورة أي منكشفة للعدو وقيل خالية للسراق فكذبهم الله في ذلك ولو دخلت عليهم من أقطارها أي لو دخلت عليهم المدينة من جهاتها ثم سئلوا الفتنة يريد بالفتنة الكفر أو قتال المسلمين لآتوها قرىء بالقصر بمعنى جاؤا إليها وبالمد بمعنى أعطوها من أنفسهم وما تلبثوا بها الضمير للمدينة قد

(2/359)

يعلم الله دخلت قد على الفعل المضارع بمعنى التهديد وقيل للتعليل على وجه التهكم المعوقين منكم أي الذين يعوقون الناس عن الجهاد ويمنعونهم منه بأقوالهم وأفعالهم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا هم المنافقون الذين قعدوا بالمدينة عن الجهاد وكانوا يقولون لقرابتهم أو للمنافقون مثلهم هلم إلى الجلوس معنا بالمدينة وترك القتال وقد ذكر هلم في الأنعام ولا يأتون البأس إلا قليلا البأس القتال وقليلا صفة لمصدر محذوف تقديره إلا إتيانا قليلا أو مستثنى من فاعل يأتون أي إلا قليلا منهم ... 528

135 أشحة عليكم أشحة جمع شحيح بوزن فعيل معناه يشحون بأنفسهم فلا يقاتلون وقيل يشحون بأموالهم وقيل معناه أشحة عليكم وقت الحرب أي يشفقون أن يقتلوا ونصب أشحة على الحال من القائلين أو على المعوقين أو من الضمير في يأتون أو نصب على الذم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك أي إذا اشتد الخوف من الأعداء نظر إليك هؤلاء في تلك الحالة ولاذوا بك من شدة خوفهم تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت عبارة عن شدة خوفهم فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد السلق بالألسنة عبارة عن الكلام بكلام مستكره ومعنى حداد فصحاء قادرين على الكلام وإذا نصركم الله فزال الخوف رجع المنافقون إلى إذايتكم بالسب وتنقيص الشريعة وقيل إذا غنمتم طلبوا من الغنائم أشحة على الخير أي يشحون بفعل الخير وقيل يشحون بالمغانم وانتصابه هنا على الحال من الفاعل في سلقوكم لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ليس المعنى أنها حبطت بعد ثبوتها وإنما المعنى أنها لم تقبل لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال وقيل إنهم نافقوا بعد أن آمنوا فالإحباط على هذا حقيقة يحسبون الأحزاب لم يذهبوا الأحزاب هنا هم كفار قريش ومن معهم فالمعنى أن المنافقين من شدة جزعهم يظنون أن الأحزاب لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد انصرفوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب معنى يودوا يتمنوا وبادون خارجون في البادية والأعراب هم أهل البوادي من العرب فمعنى الآية أنه إن أتى الأحزاب إلى المدينة مرة أخرى تمنى هؤلاء المنافقون من شدة جزعهم أن يكونوا في البادية مع الأعراب وأن لا يكونوا في المدينة بل غائبين عنها يسألون من ورد عليهم عن أنبائكم لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة أي قدوة تقتدون به صلى الله عليه وسلم في اليقين والصبر وسائر الفضائل وقرىء أسوة بضم الهمزة والمعنى واحد هذا ما وعدنا الله ورسوله قيل إن هذا الوعد ما أعلمهم رسول الله صلى

الله عليه وسلم حين أمر بحفر الخندق من أن الكفار ينزلون وأنهم ينصرفون خائبين وقيل إنه قول الله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء الآية فعلموا أنهم يبتلون ثم ينصرون فمنهم من قضى نحبه يعني قتل شهيدا قال أنس بن مالك يعني عمى أنس بن النضر وقيل يعني حمزة بن عبد المطلب وقضاء النحب عبارة عن الموت عند ابن عباس وغيره وقيل قضى نحبه وفي العهد الذي عاهد الله عليه ويدل على هذا ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال طلحة ممن قضى نحبه وهو لم يقتل حينئذ ومنهم من ينتظر المفعول ... 529

136 محذوف أي ينتظر أن يقضي نحبه أو ينتظر الشهادة في سبيل الله على قول ابن عباس أو ينتظر الحصول في أعلى مراتب الإيمان والصلاح على القول الآخر
وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم الصياصي هي الحصون ونزلت الآية في يهود بني قريظة وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنقضوا عهده وصاروا مع قريش فلما انصرفت قريش عن المدينة حصر رسول الله بني قريظة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم بأن يقتل رجالهم ويسبي نساؤهم وذريتهم فريقا تقتلون يعني الرجال وقتل منهم يومئذ كل من أنبت وكانوا بين ثمانمائة أو تسعمائة وتأسرون فريقا يعني النساء والذرية أورثكم أرضهم يعني أرض بني قريظة قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين وأرضا لم تطؤها هذا وعد بفتح أرض لم يكن المسلمون قد وطؤها حينئذ وهي مكة واليمن والشام والعراق ومصر فأورث الله المسلمين جميع ذلك وما وراءها إلى أقصى المشرق والمغرب ويحتمل عندي أن يريد أرض بني قريظة لأنه قال أورثكم بالفعل الماضي وهي التي كانوا أخذوها حينئذ وأما غيرها من الأرضين فإنما أخذها بعد ذلك فلو أرادها لقال يورثكم إنما كررها بالعطف ليصفها بقوله لم تطؤها أي لم تدخلوها قبل ذلك يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها الآية سببها أن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم تغايرن حتى غمه ذلك وقيل طلبن منه الملابس ونفقات كثيرة وكان أزواجه يومئذ تسع نسوة خمس من قريش وهن عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسودة بنت زمعة وأم حبيبة بنت أبي سفيان وأم سلمة بنت أبي أمية وأربع من غير قريش وهم ميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيي من بني إسرائيل وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا أصل تعال أن يقوله من كان في موضع مرتفع

لمن في موضع منخفض ثم استعملت بمعنى أقبل في جميع الأمكنة وأمتعكن من المتعة وهي الإحسان إلى المرأة إذا طلقت والسراح الطلاق فمعنى الآية أن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخير نساءه بين الطلاق والمتعة إن أرادوا زينة الدنيا وبين البقاء في عصمته إن أرادوا الآخرة فبدأ صلى الله عليه وسلم بعائشة فاختارت البقاء في عصمته ثم تبعها سائرهن في ذلك فلم يقع طلاق وقالت عائشة خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ولم يعد ذلك طلاقا وإذا اختارت المخيرة الطلاق فمذهب مالك أنه ثلاث وقيل طلقة بائنة وقيل طلقة رجعية ووصف السراح بالجميل يحتمل أن يريد أنه دون الثلاث أو يريد أنه ثلاث وجماله حسن الرعي والثناء ... 530

---

137 وحفظ العهد للمحسنات منكن من للبيان لا للتبعيض لأن جميعهن محسنات بفاحشة مبينة قيل يعني الزنا وقيل يعني عصيان زوجهن عليه الصلاة والسلام أو تكليفه ما يشق عليه وقيل عموم في المعاصي يضاعف لها العذاب ضعفين أي يكون عذابها في الآخرة مثل عذاب غيرها مرتين وإنما ذلك لعلو رتبتهن لأن كل أحد يطالب على مقدار حاله وقرىء يضاعف بالياء ورفع العذاب على البناء للمفعول وبالنون ونصب العذاب على البناء للفاعل ومن يقنت منكن لله ورسوله قرىء بالياء حملا على لفظ من وبالتاء حملا على المعنى وكذلك تعمل والقنوت هنا بمعنى الطاعة نؤتها أجرها مرتين أي يضاعف لها ثواب الحسنات رزقا كريما يعني الجنة وقيل في الدنيا والأول هو الصحيح لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فضلهن الله على النساء بشرط التقوى وقد حصل لهن التقوى فحصل التفضيل على جميع النساء إلا أنه يخرج من هذا العموم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل واحدة منهن بأنها سيدة نساء عالمها فلا تخضعن بالقول نهى عن الكلام اللين الذي يعجب الرجال ويميلهن إلى النساء في قلبه مرض أي فجور وميل للنساء وقيل هو النفاق وهذا بعيد في هذا الموضع وقلن قولا معروفا هو الصواب من الكلام أو الذي ليس فيه شيء مما نهى عنه وقرن في بيوتكن قرئ بكسر القاف ويحتمل وجهين أن يكون من الوقار أو من القرار في الموضع ثم حذفت الراء الواحدة كما حذفت اللام في ظلت وأما القراءة بالفتح فمن القرار في الموضع على لغة من يقول قررت بالكسر أقر بالفتح والمشهور في اللغة عكس ذلك وقيل هي من قار يقار إذا اجتمع ومعنى القرار أرجح لأن سودة رضي الله عنها قيل لها لم لا تخرجين فقالت أمرنا الله بأن نقر في بيوتنا وكانت عائشة إذا قرأت هذه الآية تبكي على خروجها أيام الجمل وحينئذ قال لها عمر إن الله

أمرك أن تقري في بيتك ولا تبرجن التبرج إظهار الزينة تبرج الجاهلية الأولى أي مثل ما كان نساء الجاهلية يفعلن من الانكشاف والتعرض للنظر وجعلها أولى بالنظر إلى حال الإسلام وقيل الجاهلية الأولى ما بين آدم ونوح وقيل ما بين موسى وعيسى الرجس أصله النجس والمراد به هنا النقائص والعيوب أهل البيت منادى أو منصوب على التخصيص وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم هم أزواجه وذريته وأقاربه كالعباس وعلي وكل من حرمت عليه الصدة وقيل المراد هنا أزواجه خاصة والبيت على هذا المسكن وهذا ضعيف لأن الخطاب بالتذكير ولو أراد ذلك لقال عنكن وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية في خمسة في ولد علي وفاطمة والحسن ... 531

---

138 والحسين واذكرن خطاب لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خصهن بعد دخولهن مع أهل البيت وهذا الذكر يحتمل أن يكون التلاوة أو التذكر بالقلب وآيات الله هي القرآن والحكمة هي السنة

إن المسلمين والمسلمات الآية سببها أن بعض النساء قلن ذكر الله الرجال ولم يذكرنا فنزل فيها ذكر النساء والمؤمنين والمؤمنات الإسلام هو الانقياد والإيمان هو التصديق ثم إنهما يطلقان بثلاثة أوجه باختلاف المعنى كقوله لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا وبالاتفاق لاجتماعهما كقوله فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين الآية وبالعموم فيكون الإسلام أعم لأنه بالقلب والجوارح والإيمان أخص لأنه بالقلب خاصة وهذا هو الأظهر في هذا الموضع والقانتين والقانتات يحتمل أن يكون بمعنى العبادة أو الطاعة والصادقين والصادقات يحتمل أن يكون من صدق القول أو من صدق العزم وما كان لمؤمن الآية معناها أنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة اختيار مع الله ورسوله بل يجب عليهم التسليم والانقياد لأمر الله ورسوله والضمير في قوله من أمرهم راجع إلى الجمع الذي يقتضيه قوله لمؤمن ولا مؤمنة لأن معناه العموم في جميع المؤمنين والمؤمنات وهذه الآية توطئة للقصة المذكورة بعدها وقيل سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب امرأة ليزوجها لمولاه زيد بن حارثة فكرهت هي وأهلها ذلك فلما نزلت الآية قالوا رضينا يا رسول الله واختلف هل هذه المخطوبة زينب بنت جحش أو غيرها وقد قيل إنها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه هو زيد بن حارثة الكلبي وإنعام الله عليه بالإسلام وغيره وإنعام النبي صلى الله عليه وسلم بالعتق وكانت عند زيد زينب بنت جحش وهي بنت أميمة عمة النبي صلى الله عليه وسلم فشكا زيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سوء معاشرتها وتعاظمها عليه وأراد أن يطلقها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عليك زوجك واتق الله يعني

فيما وصفها به من سوء المعاشرة واتق الله ولا تطلقها فيكون نهيا عن الطلاق على وجه التنزيه كما قال عليه الصلاة والسلام أبغض المباح إلى الله الطلاق وتخفي في نفسك ما الله مبديه الذي أخفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر جائز مباح لا إثم فيه ولا عتب ولكنه خاف أن يسلط الله عليهم ألسنتهم وينالوا منه فأخفاه حياء وحشمة وصيانة لعرضه وذلك أنه روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصا على أن يطلق زيد زينب ليتزوجها هو صلى الله عليه وسلم لقرابتها منه ولحسبها فقال أمسك عليك زوجك وهو يخفي الحرص عليها خوفا من كلام ... 532

---

139 الناس لئلا يقولوا تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبناه فالذي أخفاه صلى الله عليه وسلم هو إرادة تزوجها فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزويجها فقالت عائشة لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما شيئا من الوحي لكتم هذه الآية لشدتها عليه وقيل إن الله كان أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج زينب بعد طلاق زيد فالذي أخفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعلمه الله به من ذلك فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لم يذكر أحد من الصحابة في القرآن باسمه غير زيد بن حارثة والوطر الحاجة قال ابن

عطية ويراد به هنا الجماع والأحسن أن يكون أعم من ذلك أي لما لم يبق لزيد فيها حاجة زوجها الله من نبيه صلى الله عليه وسلم وأسند الله تزويجها إليه تشريفا لها ولذلك كانت زينب تفتخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول إن الله زوجني نبيه من فوق سبع سموات واستدل بعضهم بقوله زوجناكها على أن الأولى أن يقال في كتاب الصداق أنكحه إياها بتقديم ضمير الزوج على ضمير الزوجة كما في الآية لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم المعنى أن الله زوج زينب امرأة زيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلم المؤمنين أن تزوج نساء أدعيائهم حلال لهم فإن الأدعياء ليسوا لهم بأبناء حقيقة ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له المعنى أن تزوج النبي صلى الله عليه وسلم لزينب بعد زيد حلال لا حرج فيه ولا إثم ولا عتاب وفي ذلك رد على من تكلم في ذلك من المنافقين وفرض هنا بمعنى قسم له سنة الله في الذين خلوا من قبل أي عادة الله في الأنبياء المتقدمين أن ينالوا ما أحل الله لهم وقيل الإشارة بذلك إلى داود في تزوجه للمرأة التي جرى له فيها ما جرى والعموم أحسن ونصب سنة على المصدر أو على إضمار فعل أو على الإغراء الذين يبلغون رسالات الله صفة للذين خلوا من قبل وهم الأنبياء أو رفع على إضمار مبتدأ أو نصب بإضمار فعل

ما كان محمد أبا أحد من رجالكم هذا رد على من قال في زيد بن حارثة زيد ابن محمد فاعترض على النبي صلى الله عليه وسلم تزوج امرأة زيد وعموم النفي في الآية لا يعارضه وجود الحسن والحسين لأنه صلى الله عليه وسلم ليس أبا لهما في الحقيقة لأنهما ليسا من صلبه وإنما كانا ابني بنته وأما ذكور أولاده فماتوا صغارا فليسوا من الرجال وخاتم النبيين أي آخرهم فلا نبي بعده صلى الله عليه وسلم وقرئ بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم فهو خاتم وبالفتح بأنهم ختموا به فهو كالخاتم والطابع لهم فغن قيل إن عيسى ينزل في آخر الزمان فيكون بعده عليه الصلاة والسلام فالجواب أن النبوة أوتيت عيسى قبله عليه الصلاة والسلام وأيضا فإن عيسى يكون إذا نزل على شريعته عليه الصلاة والسلام فكأنه واحد من أمته اذكروا الله ذكرا كثيرا اشترط الله الكثرة في الذكر حيثما أمر به بخلاف سائر الأعمال والذكر يكون بالقلب وباللسان وهو ... 533

---

140 على أنواع كثيرة من التهليل والتسبيح والحمد والتكبير وذكر أسماء الله تعالى وسبحوه بكرة وأصيلا قيل إن ذلك إشارة إلى صلاة الصبح والعصر والأظهر أنه أمر بالتسبيح في أول النهار وآخره وقال ابن عطية أراد في كل الأوقات فحد النهار بطرفيه هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم هذا خطاب للمؤمنين وصلاة الله عليهم رحمة لهم وصلاة الملائكة عليهم دعاؤهم لهم فاستعمل لفظ يصلي في المعنيين على اختلافهما وقيل إنه على حذف مضاف تقديره وملائكته يصلون تحيتهم يوم يلقونه سلام قيل يعني يوم القيامة

وقيل في الجنة وهو الأرجح لقوله وتحيتهم فيها سلام ويحتمل أن يريد تسليم بعضهم على بعض أو قول الملائكة لهم سلام عليكم طبتم إنا أرسلناك شاهدا أي يشهد على أمته وداعيا إلى الله بإذنه أي بأمر الله وإرساله وسراجا منيرا استعارة للنور الذي يتضمنه الدين ودع أذاهم يحتمل وجهين أحدهما لا تؤذهم فالمصدر على هذا مضاف إلى المفعول ونسخ من الآية على هذا التأويل ما يخص الكافرين بآية السيف والآخر احتمل إذايتهم لك وأعرض عن أقوالهم فالمصدر على هذا مضاف للفاعل إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن الآية معناه سقوط العدة عن المطلقة قبل الدخول فالنكاح في الآية هو العقد والمس هو الجماع وتعتدونها من العدد فمتعوهن هذا يقتضي متعة المطلقة قبل الدخول سواء فرض لها أو لم يفرض لها صداق وقوله تعالى في البقرة وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم يقتضي أن المطلقة قبل الدخول وقد فرض لها يجب لها نصف الصداق ولا متعة لها وقد اختلف هل هذه الآية ناسخة لآية البقرة أو منسوخة بها ويمكن الجمع بينهما بأن تكون آية البقرة مبينة لهذه مخصصة لعمومها يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن في معناه قولان أحدهما أن المراد أزواجه اللاتي في عصمته حينئذ كعائشة وغيرها وكان قد أعطاهن

مهورهن والآخر أن المراد جميع النساء فأباح الله له أن يتزوج كل امرأة يعطى مهرها وهذا أوسع من الأول وما ملكت يمينك أباح الله له مع الأزواج السراري بملك اليمين ويعني بقوله أفاء الله عليك الغنائم وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك يعني قرابته ... 534
141 من جهة أبيه ومن جهة أمه وكان له عليه الصلاة والسلام أعمام وعمات إخوة لأبيه ولم يكن لأمه عليه الصلاة والسلام أخ ولا أخت وإنما يعني بخاله وخالاته عشيرته أمه وهم بنو زهرة ولذلك كانوا يقولون نحن أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن قال إن المراد بقوله أحللنا لك أزواجك من كانت في عصمته فهو عطف عليهن وإباحة لأن يتزوج قرابته زيادة على من كان في عصمته ومن قال إن المراد جميع النساء فهو تجريد منهن على وجه التشريف بعد دخول هؤلاء في العموم اللاتي هاجرن معك تخصيص تحرز به ممن لم يهاجر كالطلقاء الذين أسلموا يوم فتح مكة وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي أباح الله له صلى الله عليه وسلم من وهبت له نفسها من النساء واختلف هل وقع ذلك أم لا فقال ابن عباس لم تكن عند النبي صلى الله عليه وسلم امرأة إلا بنكاح أو ملك يمين لا بهبة نفسها ويؤيد هذا قراءة الجمهور إن وهبت بكسر الهمزة أي إن وقع وقيل قد وقع ذلك وهو على هذا القول قرئ أن وهبت بفتح الهمزة واختلف على هذا القول فيمن هي التي وهبت نفسها فقيل ميمونة بنت الحارث وقيل زينب بنت خزيمة أم المساكين وقيل أم شريك الأنصارية وقيل أم شريك العامرية خالصة لك من دون المؤمنين أي هبة المرأة نفسها مزية خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم دون غيره وانظر كيف رجع من الغيبة إلى الخطاب ليخص المخاطب وحده وقيل إن خالصة يرجع إلى كل ما تقدم من النساء المباحات له صلى الله عليه وسلم لأن سائر المؤمنين قصروا على

أربع نسوة وأبيح له عليه الصلاة والسلام أكثر من ذلك ومذهب مالك أن النكاح بلفظ الهبة لا

(2/372)

ينعقد بخلاف أبي حنيفة وإعراب خالصة مصدر أو حال أو صفة لامرأة قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم يعني أحكام النكاح من الصداق والولي والاقتصار على أربع وغير ذلك لكيلا يكون عليك حرج يتعلق بالآية التي قبله أي بينا أحكام النكاح لئلا يكون عليك حرج أو لئلا يظن بك أنك فعلت ما لا يجوز وقال الزمخشري يتعلق بقوله خالصة لك ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء معنى ترجي تؤخر وتبعد ومعنى تؤوي تضم وتقرب واختلف في المراد بهذا الإرجاء والإيواء فقيل إن ذلك في القسمة بينهن أي تكثر لمن شئت وتقلل لمن شئت وقيل إنه في الطلاق أي تمسك من شئت وتطلق من شئت وقيل معناه تتزوج من شئت وتترك من شئت والمعنى على كل قول توسعة على النبي صلى الله عليه وسلم وإباحة له أن يفعل ما يشاء وقد اتفق الناقلون على أنه صلى الله عليه وسلم كان يعدل في القسمة بين نسائه أخذا منه بأفضل الأخلاق مع إباحة الله له والضمير في قوله منهن يعود على أزواجه صلى الله عليه وسلم خاصة أو على كل ما أحل الله له على حسب الخلاف المتقدم ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك في معناه قولان أحدهما من كنت عزلته من نسائك فلا جناح عليك في رده بعد عزله والآخر من ابتغيت ومن عزلت سواء في إباحة ذلك فمن للتبعيض على القول الأول وأما على القول الثاني فنحو قولك من لقيك ومن لم يلقك سواء ذلك أدنى أن تقر أعينهن أي إذا علمن أن هذا ... 535

(2/373)

---

142 حكم الله قرت به أعينهن ورضين به وزال ما كان بهن من الغيرة فإن سبب نزول هذه الاية ما وقع لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم من غيرة بعضهن على بعض لا يحل لك النساء من بعد فيه قولان أحدهما لا يحل لك النساء غير اللاتي في عصمتك الآن ولا تزيد عليهن قال ابن عباس لما خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترن الله ورسوله جازاهن الله على ذلك بأن حرم غيرهن من النساء كرامة لهن والقول الثاني لا يحل لك النساء غير الأصناف التي سميت والخلاف هنا يجري على الخلاف في المراد بقوله إنا أحللنا لك أزواجك أي لا يحل لك غير من ذكر حسبما تقدم وقيل معنى لا يحل لك النساء لا يحل لك اليهوديات والنصرانيات من بعد المسلمات المذكورات وهذا بعيد واختلف في حكم هذه الآية فقيل إنها منسوخة بقوله إنا أحللنا لك أزواجك على القول بأن المراد جميع النساء وقيل إن هذه الآية ناسحة لتلك على القول بأن المراد من كان في عصمته وهذا هو الأظهر لما ذكرنا عن ابن عباس ولأن التسع في حقه عليه الصلاة والسلام كالأربع في حق أمته ولا أن تبدل بهن من أزواج معناه لا يحل لك أن تطلق واحدة منهن وتتزوج غيرها بدلا منها وقيل معناه كانت العرب تفعله من المبادلة في النساء بأن ينزل الرجل

عن زوجته لرجل وينزل الآخر عن زوجته له وهذا ضعيف ولو أعجبك حسنهن في هذا دليل على جواز النظر إلى المرأة إذا أراد الرجل أن يتزوجها إلا ما ملكت يمينك المعنى أن الله أباح له الإماء والاستثناء في موضع رفع على البدل من النساء أو في موضع نصب على الاستثناء من الضمير في حسنهن لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام سبب هذه الآية ما رواه أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب بنت جحش أولم عليها فدعا الناس فلما طعموا قعد نفر في طائفة من البيت فثقل ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فخرج ليخرجوا بخروجه ومر على حجر نسائه ثم عاد فوجدهم في

مكانهم فانصرف فخرجوا عن ذلك وقال ابن عباس نزلت في قوم كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وسلم فيدخلون عليه قبل الطعام فيقعدون إلى أن يطبخ ثم يأكلون ولا يخرجون فأمروا أن لا يدخلوا حتى يؤذن لهم وأن ينصرفوا إذا أكلوا قلت والقول الأول أشهر وقول ابن عباس أليق بما في الآية من النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم فعلى قول ابن عباس في النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم والقول الأول في النهي عن القعود بعد الأكل فإن الآية تضمنت الحكمين غير ناظرين إناه أي غير منتظرين لوقت الطعام والإنا الوقت وقيل إنا الطعام نضجه وإدراكه يقال أنى يأنى إناء ولكن إذا دعيتم فادخلوا أمر بالدخول بعد الدعوة وفي ذلك تأكيد للنهي عن الدخول قبلها فإذا طعمتم فانتشروا أي انصرفوا قال بعضهم هذا أدب أدب الله به الثقلاء وقالت عائشة رضي الله عنها حسبك من الثقلاء أن الله لم يحتملهم ولا مستأنسين لحديث معطوف على غير ناظرين أو تقديره ولا تدخلوا مستأنسين ومعناه النهي عن أن يطلبوا الجلوس للأنس بحديث بعضهم مع بعض أو يستأنسوا لحديث أهل البيت واستئناسهم تسمعهم وتجسسهم إن ذلكم كان يؤذي النبي يعني جلوسهم للحديث أو دخولهم بغير إذن فيستحيي منكم تقديره ... 536

---

143 يستحيي من إخراجكم بدليل قوله والله لا يستحيي من الحق أي إن إخراجكم حق لا يتركه الله إذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب المتاع الحاجة من الأثاث وغيره وهذه الآية نزلت في احتجاب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وسببها ما رواه أنس من قعود القوم يوم الوليمة في بيت زينب وقيل سببها أن عمر بن الخطاب أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحجب نساءه فنزلت الآية موافقة لقول عمر قال بعضهم لما نزلت في أمهات المؤمنين وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب كن لا يجوز للنساء كلامهن إلا من وراء حجاب ولا يجوز أن يراهن متنقبات ولا غير متنقبات فخصصن بذلك دون سائر النساء ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن يريد أنقى من الخواطر التي تعرض للرجال في أمر النساء والنساء في أمر الرجال ولا تنكحوا أزواجه سببها أن بعض الناس قالوا لو مات رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة فحرم الله على الناس تزوج نسائه بعده كرامة له

صلى الله عليه وسلم لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن الآية لما أوجب الله الحجاب أباح لهن الظهور لذوي محارمهن من القرابة وهم الآباء والأبناء والإخوة وأولادهم وأولاد الأخوات ولا نسائهن قيل يريد بالنساء القرابة والمصرفات لهن وقيل يريد نساء جميع المؤمنات ويقوي الأول تخصيص النساء بالإضافة لهن ويقوي الثاني أنهن كن لا يحتجبن من النساء على الإطلاق وما ملكت أيمانهن واختلف فيمن أبيح لهن الظهور له من ملك اليمين فقيل الإماء دون العبيد وقيل الإماء والعبيد وهو أولى بلفظ الآية ثم اختلف من ذهب إلى هذا فقال قوم من ملكنه من العبيد دون من ملكه غيرهن وهذا هو الظاهر من لفظ الآية وقال قوم جميع العبيد كن في ملكهن أو في ملك غيرهن إن الله وملائكته يصلون على النبي هذه الآية تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكرنا معنى صلاة الله وصلاة الملائكة في قوله يصلي عليكم

وملائكته صلوا عليه وسلموا تسليما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فرض إسلامي فالأمر به محمول على الوجوب واقله مرة في العمر وأما حكمها في الصلاة فمذهب الشافعي أنها فرض تبطل الصلاة بتركه ومذهب مالك أنها سنة وصفتها ما ورد في الحديث الصحيح اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وقد اختلفت الروايات في ذلك اختلافا كثيرا أما السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فيحتمل أن يريد السلام عليه في التشهد في الصلاة أو السلام عليه حين لقائه وأما السلام عليه بعد موته فقد قال صلى الله عليه وسلم من سلم علي قريبا سمعته ومن سلم علي بعيدا أبلغته فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء إن الذين يؤذون الله ورسوله إذاية الله هي ... 537

---

144 بالإشراك به ونسبة الصاحبة والولد له وليس معنى إذايته أنه يضره الأذى لأنه تعالى لا يضره شيء ولا ينفعه شيء وقيل إنها على حذف مضاف تقديره يؤذون أولياء الله والأول أرجح لأنه ورد في الحديث يقول الله تعالى يشتمني ابن آدم وليس له أن يشتمني ويكذبني وليس له أن يكذبني أما شتمه إياي فقوله إن لي صاحبة وولدا وأما تكذيبه إياي فقوله لا يعيدني كما بدأني وأما إذاية رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي التعرض له بما يكره من الأقوال أو الأفعال وقال ابن عباس نزلت في الذين طعنوا عليه حين أخذ صفية بنت حيي والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا الآية في البهتان وهو ذكر الإنسان بما ليس فيه وهو أشد من الغيبة مع أن الغيبة محرمة وهي ذكره ما فيه مما يكره يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن كان نساء العرب يكشفن وجوههن كما تفعل الإماء وكان ذلك داعيا إلى نظر الرجال لهن فأمرهن الله بإدناء الجلابيب ليسترن بذلك وجوههن ويفهم الفرق بين الحرائر والإماء والجلابيب جمع جلباب وهو ثوب أكبر من

الخمار وقيل هو الرداء وصورة إدنائه عند ابن عباس أن تلويه على وجهها حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها وقيل أن تلويه حتى لا يظهر إلا عيناها وقيل أن تغطي نصف وجهها ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين أي ذلك أقرب إلى أن يعرف الحرائر من الإماء فإذا عرف أن المرأة حرة لم تعارض بما تعارض به الأمة وليس المعنى أن تعرف المرأة حتى يعلم من هي إنما المراد أن يفرق بينها وبين الأمة لأنه كان بالمدينة إماء يعرفن بالسوء وربما تعرض لهن السفهاء لئن لم ينته المنافقون الآية تضمنت وعيد هؤلاء الأصناف إن لم ينتهوا وقيل إنهم لم ينتهوا ولم ينفذ الوعيد عليهم ففي ذلك دليل على بطلان القول بوجوب إنفاذ الوعيد في الآخرة وقيل إنهم انتهوا وستروا أمرهم فكف عنهم إنفاذ الوعيد والمنافقون هم الذين يظهرون

الإيمان ويخفون الكفر والذين في قلوبهم مرض قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه وقيل هم الزناة كقوله فيطمع الذي في قلبه مرض والمرجفون في المدينة قوم كانوا يشيعون أخبار السوء ويخوفون المسلمين فيحتمل أن تكون هذه الأصناف متفرقة أو تكون داخلة في جملة المنافقين ثم جردها بالذكر لنغرينك بهم أي نسلطك عليهم وهذا هو الوعيد ثم لا يجاورونك فيها ذلك لأنه ينفيهم أو يقتلهم والضمير المجرور للمدينة إلا قليلا يحتمل أن يريد إلا جوارا قليلا أو وقتا قليلا أو عددا قليلا منهم والإعراب يختلف بحسب هذه الاحتمالات فقليلا على الاحتمال الأول مصدر وعلى الثاني ظرف وعلى الثالث منصوب على الاستثناء ملعونين نصب على الذم أو بدل من قليلا على الوجه الثالث أو حال من ... 538

---

145 ضمير الفاعل في يجاورونك تقديره سينفون ملعونين أينما ثقفوا أخذوا أي حيث ما ظفر بهم أسروا والأخذ الأسر سنة الله أي عادته ونصب على المصدر في الذين خلوا من قبل أي عادته في المنافقين من الأمم المتقدمة وقيل يعني الكفار من بدر لأنهم أسروا وقتلوا تكون قريبا إنما قال قريبا بالتذكير والساعات مؤنثة على تقدير شيئا قريبا أو زمانا قريبا أو لأن تأنيثها غير حقيقي يوم تقلب وجوههم في النار العامل في يوم قوله يقولون أو لا يجدون أو محذوف وتقليب وجوههم تصريفها في جهة النار كما تدور البضعة في القدر إذا غلت من جهة إلى جهة أو تغيرها عن أحوالها لا تكونوا كالذين آذوا موسى هم قوم من بني إسرائيل وإذايتهم له ما ورد في الحديث أن بني إسرائيل كانوا يغتسلون عراة وكان موسى يستتر منهم إذا اغتسل فقالوا إنه لآدر فاغتسل موسى يوما وحده وجعل ثيابه على حجر ففر الحجر بثيابه واتبعه موسى وهو يقول ثوبي حجر ثوبي حجر فمر في أتباعه على ملأ من بني إسرائيل فرأوه سليما مما قالوا فذلك قوله فبرأه الله مما قالوا وقيل إذايتهم له أنهم رموه بأنه قتل أخاه هارون فبعث الله ملائكة فحملته حتى رآه بنو إسرائيل ليس فيه أثر فبدأ الله موسى وروي أن الله أحياه فأخبرهم ببراءة موسى والقول الأول هو

الصحيح لوروده في الحديث الصحيح قولا سديدا قيل يعني لا إله إلا الله واللفظ أعم من ذلك إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال الأمانة هي التكاليف الشرعية من التزام الطاعات وترك المعاصي وقيل هي الأمانة في الأموال وقيل غسل الجنابة والصحيح العموم في التكاليف وعرضها على السموات والأرض والجبال يحتمل وجهين أحدهما أن يكون الله خلق لها إدراكا فعرضت عليها الأمانة حقيقة فأشفقت منها وامتنعت من حملها والثاني أن يكون المراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين من حملها وأشفقن

منها فهذا ضرب من المجاز كقولك عرضت الحمل العظيم على الدابة فأبت أن تحمله والمراد أنها لا تقدر على حمله وحملها الإنسان أي التزم الإنسان القيام بالتكاليف مع شدة ذلك وصعوبته على الأجرام التي هي أعظم منه ولذلك وصفه الله بأنه ظلوم جهول والإنسان هنا جنس وقيل يعني آدم وقيل قابيل الذي قتل أخاه ليعذب اللام للصيرورة فإن حمل الأمانة كان سبب تعذيب ...
539
146 المنافقين والمشركين ورحمة للمؤمنين
سورة سبأ
وله الحمد في الآخرة يحتمل أن يكون الحمد الأول في الدنيا والثاني في الآخرة وعلى هذا حمله الزمخشري ويحتمل عندي أن يكون الحمل الأول للعموم والاستغراق فجمع الحمد في الدنيا والآخرة ثم جرد منه الحمد في الآخرة كقوله فاكهة ونخل ورمان ثم إن الحمد في الآخرة يحتمل أن يريد به الجنس أو يريد به قوله وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين أو الحمد لله الذي صدقنا وعده ما يلج في الأرض أي يدخل فيها من المطروالأموات وغير ذلك وما يخرج منها من النبات وغيره وما ينزل من السماء من المطر والملائكة والرحمة والعذاب وغير ذلك وما يعرج فيها أي يصعد ويرتفع من الأعمال وغيرها وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة روي أن قائل هذه المقالة هو أبو سفيان بن حرب لا يعزب أي لا يغيب ولا يخفى ولا أصغر معطوف على مثقال وقال الزمخشري هو مبتدأ لأن حرف الاستثناء من حروف العطف ولا خلاف بين القراء السبعة في رفع أصغر وأكبر في هذا الموضع وقد حكى ابن عطية الخلاف فيه عن بعض القراء السبعة وإنما الخلاف في يونس في كتاب مبين يعني اللوح المحفوظ ليجزي متعلق بقوله لتأتينكم أو بقوله لا يعزب أو بمعنى قوله في كتاب مبين والذين سعوا مبتدأ وخبره الجملة بعده وقال ابن عطية هو معطوف على الذين الأول وقد ذكر في الحج معنى سعوا ومعاجزين أليم بالرفع صفة لعذاب وبالخفض صفة لرجز ويرى معطوف على ليجزي

أو مستأنف وهذا أظهر الذين أوتوا العلم هم الصحابة أو من أسلم من أهل الكتاب أو على العموم الحق مفعول ثان ليرى لأن الرؤيا هنا بالقلب بمعنى

العلم والضمير ضمير فصل وقال الذين كفروا أي قال بعضهم لبعض هل ندلكم على رجل يعني محمدا صلى الله عليه وسلم ... 540
147 ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد معنى مزقتم أي بليتم في القبور وتقطعت أوصالكم وكل ممزق مصدر والخلق الجديد هو الحشر في القيامة والعامل في إذا معنى إنكم لفي خلق جديد لأن معناه تبعثون إذا مزقتم وقيل العامل فيه فعل مضمر مقدر قبلها وذلك ضعف وإنكم لفي خلق جديد معمول ينبئكم وكسرت اللام التي في خبرها ومعنى الآية أن ذلك الرجل يخبركم أنكم تبعثون بعد أن بليتم في الأرض ومرادهم استبعاد الحشر افترى على الله هذا من جملة كلام الكفار ودخلت همزة الاستفهام على ألف الوصل فحذفت ألف الوصل وبقيت الهمزة مفتوحة غير ممدودة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب هذا رد عليهم أي أنه لم يفتر على الله الكذب وليس به جنة بل هؤلاء الكفار في ضلال وحيرة عن الحق توجب لهم العذاب ويحتمل أن يريد بالعذاب عذاب الآخرة أو العذاب في الدنيا بمعاندة الحق ومحاولة ظهور الباطل أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض الضمير في يروا للكفار المنكرين للبعث وجعل السماء والأرض بين أيديهم وخلفهم لأنهما محيطتان بهم والمعنى ألم يروا إلى السماء والأرض فيعلمون أن الذي خلقهما قادر على بعث الناس بعد موتهم ويحتمل أن يكون المعنى تهديد لهم ثم فسره بقوله إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء أي أفلم يروا إلى السماء والأرض أنهما محيطتان بهم فيعلمون أنهم لا مهرب لهم من الله إن في ذلك لآية الإشارة إلى إحاطة السماء بهم أو إلى عظمة السماء والأرض بأن فيهما آية تدل على البعث يا جبال أوبي معه تقديره قلنا يا جبال والجملة

تفسير للفضل ومعنى أوبي سبحي وأصله من التأويب وهو الترجيع لأنه كان يرجع التسبيح فنرجعه معه وقيل هو من التأويب بمعنى السير بالنهار وقيل كان ينوح فتساعده الجبال بصداها والطير بأصواتها والطير بالنصب عطف على موضع يا جبال وقيل مفعول معه وقيل معطوف على فضلا وقرىء بالرفع عطف على لفظ يا جبال
وألنا له الحديد أي جعلناه له لينا بغير نار كالطين والعجين وقيل لان له الحديد لشدة قوته سابغات هي الدروع الكاسية وقدر في السرد معنى السرد هنا نسج الدروع وتقديرها أن لا يعمل الحلقة صغيرة فتضعف ولا كبيرة فيصاب لابسها من خلالها وقيل لا يجعل المسمار دقيقا ولا غليظا واعملوا صالحا خطاب لداود وأهله ولسليمان الريح بالنصب على تقدير وسخرنا وقرىء بالرفع على الابتداء غدوها شهر ورواحها شهر أي كانت تسير به بالغداة مسيرة شهر وبالعشي مسيرة شهر فكان يجلس على سريره وكان من خشب يحمل فيها روي أربعة آلاف فارس فترفعه الريح ثم تحمله وأسلنا له عين القطر قال ابن عباس كانت تسيل له ... 541

148 باليمين عين من نحاس يصنع منها ما أحب والقطر النحاس وقيل القطر الحديد والنحاس وما جرى مجرى ذلك كان يسيل له منه أربعة عيون وقيل المعنى أن الله أذاب له النحاس بغير نار كما صنع بالحديد لداود نذقه من عذاب السعير يعني نار الآخرة وقيل كان معه ملك يضربهم بصوت من نار محاريب هي القصور وقيل المساجد وتماثيل قيل إنها كانت على غير صور الحيوان وقيل على صور الحيوان وكان ذلك جائزا عندهم كالجواب جمع جابية وهي البركة التي يجتمع فيها الماء راسيات أي ثابتات في مواضعها لعظمها اعملوا آل داود شكرا حكاية ما قيل لآل داود وانتصب شكرا على أنه مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال تقديره شاكرين أو مصدر من المعنى لأن العمل شكر تقديره اشكروا شكرا أو مفعول به وقليل من عبادي الشكور يحتمل أن يكون مخاطبة لآل داود أو مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم دابة الأرض تأكل منسأته المنسأة هي العصا وقرئ بهمز وبغير همز ودابة الأرض هي الأرضة وهي السوسة التي تأكل الخشب وغيره وقصص الآية أن سليمان عليه السلام دخل قبة من قوارير وقام يصلي متكئا على عصاه فقبض روحه وهو متكىء عليها فبقي كذلك سنة لم يعلم أحد بموته حتى وقعت العصا فخر إلى الأرض واختصرنا كثيرا مما ذكره الناس في هذه القصة لعدم صحته تبينت الجن من تبين الشيء إذا ظهر وما بعدها بدل من الجن والمعنى ظهر للناس أن الجن لا يعلمون الغيب وقيل تبينت بمعنى علمت وأن وما بعدها مفعول به على هذه والمعنى علمت الجن أنهم لا يعلمون الغيب وتحققوا أن ذلك بعد التباس الأمر عليهم أو علمت الجن أن كفارهم لا يعلمون الغيب وأنهم كاذبون في دعوى ذلك في العذاب المهين يعني الخدمة التي كانوا يخدمون سليمان وتسخيره لهم في أنواع الأعمال والمعنى لو كانت الجن تعلم الغيب ما خفي عليهم موت سليمان لقد كان لسبإ في مسكنهم آية سبأ قبيلة من العرب سميت باسم أبيها الذي

تناسلت منه وقيل باسم أمها وقيل باسم موضعها والأول أشهر لأنه ورد في الحديث وكانت مساكنهم بين الشام واليمن جنتان عن يمين وشمال كان لهم واد وكانت الجنتان عن يمينه وشماله وجنتان بدل من آية ومبتدأ أو خبر مبتدأ محذوف كلوا تقديره قيل لهم كلوا من رزق ربكم قالت لهم ذلك الأنبياء وروي أنهم بعث لهم ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم بلدة طيبة أي كثيرة الأرزاق طيبة الهواء سليمة من الهوام فأعرضوا أي أعرضوا عن شكر الله أو عن طاعة الأنبياء فأرسلنا عليهم سيل العرم كان لهم سد يمسك الماء ليرتفع فتسقى به الجنتان فأرسل الله على السد الجرذ وهي دويبة خربته فيبست الجنتان وقيل لما خرب السد حمل السيل الجنتان وكثير من الناس واختلف في معنى العرم فقيل هو السد وقيل هو اسم ذلك الوادي بعينه وقيل معناه الشديد فكأنه صفة ... 542

149 للسيل من العرامة وقيل هو الجرذ الذي خرب السد وقيل المطر الشديد أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل الأكل بضم الهمزة المأكول والخمط شجر الأراك وقيل كل شجرة ذات شوك والأثل شجر يشبه الطرفا والسدر شجر معروف وإعراب خمط بدل من أكل أو عطف بيان وقرئ بالإضافة وأثل عطف على الأكل لا على خمط لأن الأثل لا أكل له والمعنى أنه لما أهلكت الجنتان المذكورتان قيل أبدلهم الله منها جنتين بضد وصفهما في الحسن والأرزاق وهل نجازي إلى الكفور معناه لا يناقش ويجازى بمثل فعله إلا الكفور لأن المؤمن قد يسمح الله له ويتجاوز عنه وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة هذه الآية وما بعدها وصف حال سبأ قبل مجيء السيل وهلاك جناتهم ويعني بالقرى التي باركنا فيها الشام والقرى الظاهرة قرى متصلة من بلادهم إلى الشام ومعنى ظاهرة يظهر بعضها من بعض لاتصالها وقيل مرتفعة في الآكام وقال ابن عطية خارجة عن المدن كما تقول بظاهر المدينة أي خارجها وقدرنا فيها السير أي قسمنا مراحل السفر وكانت القرى متصلة فكان المسافر يبيت في قرية ويصبح في أخرى ولا يخاف جوعا ولا عطشا ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا يخاف من أحد فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا قرئ باعد وبعد بالتخفيف والتشديد على وجه الطلب والمعنى أنهم بطروا النعمة وملوا العافية وطلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار فعجل الله إجابتهم وقرئ باعد بفتح العين على الخبر والمعنى أنهم قالوا إن الله باعد بين قراهم وذلك كذب وجحد للنعمة وظلموا أنفسهم يعني بقولهم باعد بين أسفارنا أو بذنوبهم على الإطلاق ومزقناهم كل ممزق أي فرقناهم في البلاد حتى ضرب المثل بفرقتهم قيل تفرقوا أيدي سبا وفي الحديث إن سبا أبو عشرة من القبائل فلما جاء السيل على بلادهم تفرقوا فتيامن منهم ستة وتشاءم أربعة ولقد صدق عليهم إبليس ظنه أي وجد ظنه فيهم

صادقا يعني قوله لأغوينهم وقوله ولا تجد أكثرهم شاكرين قل ادعوا الذين زعمتم تعجيز للمشركين وإقامة حجة عليهم ويعني بالذين زعمتم آلهتهم ومفعول زعمتم محذوف أي زعمتم أنهم آلهة أو زعمتم أنهم شفعاء وروي أن ذلك نزل عند الجوع الذي أصاب قريشا من شرك أي نصيب والظهير المعين ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له المعنى لا تنفع الشفاعة عند الله إلا لمن أذن الله له أن يشفع فإنه لا يشفع أحد إلا بإذنه وقيل المعنى لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الله أن يشفع فيه والمعنى أن الشفاعة على كل وجه لا تكون إلا بإذن الله ففي ذلك رد على المشركين الذين كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ... 543

---

150 تظاهرت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية في الملائكة عليهم السلام فإنهم إذا سمعوا الوحي إلى جبريل يفزعون لذلك فزعا

عظيما فإذا زال الفزع عن قلوبهم قال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فيقولون قال الحق ومعنى فزع عن قلوبهم زال عنها الفزع والضمير في قلوبهم وفي قالوا الملائكة فإن قيل كيف ذلك ولم يتقدم لهم ذكر يعود الضمير عليه فالجواب أنه قد وقعت إليهم إشارة بقوله ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له لأن بعض العرب كانوا يعبدون الملائكة ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله فذكر الشفاعة يقتضي ذكر الشافعين فعاد الضمير على الشفعاء الذين دل عليهم لفظ الشفاعة فإن قيل بم اتصل قوله حتى إذا فزع عن قلوبهم ولأي شيء وقعت حتى غائبة فالجواب أنه اتصل بما فهم من الكلام من أن ثم انتظارا للإذن وفزعا وتوقفا حتى يزول الفزع بالإذن في الشفاعة ويقرب هذا في المعنى من قوله يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ولم يفهم بعض الناس اتصال هذه الآية بما قبلها فاضطربوا فيها حتى قال بعضهم هي في الكفار بعد الموت ومعنى فزع عن قلوبهم رأوا الحقيقة فقيل لهم ماذا قال ربكم فيقولون قال الحق فيقرون حين لا ينفعهم الإقرار والصحيح أنها في الملائكة لورود ذلك في الحديث ولأن القصد الرد على الكفار الذين عبدوا الملائكة فذكر شدة خوف الملائكة من الله وتعظيمهم له
قل من يرزقكم سؤال قصد به إقامة الحجة على المشركين قل الله جواب عن السؤال بما لا يمكن لمخالفة فيه ولذلك جاء السؤال والجواب من جهة واحدة وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين هذه ملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف كقولك الله يعلم أن أحدنا على حق وأن الآخر على باطل ولا تعين بالتصريح أحدهما ولكن تنبه الخصم على النظر حتى يعلم من هو على الحق ومن هو على الباطل والمقصود من الآية أن المؤمنين على هدى وأن الكفار على ضلال مبين

قل لا تسألون عما أجرمنا إخبار يقتضي مسالمة نسخت بالسيف يفتح بيننا أي يحكم والفتاح الحاكم قل أروني الذى ألحقتم به شركاء إقامة حجة على المشركين والرؤية هنا رؤية قلب فشركاه مفعول ثالث والمعنى أروني بالدليل والحجة من هم له شركاء عندكم وكيف وجه الشركة وقيل هي رؤية بصر وشركاء حال من المفعول في ألحقتم كأنه قال أين الذين تعبدون من دونه وفي قوله أروني تحقير للشركاء وازدراء بهم وتعجيز للمشركين وفي قوله كلا ردع لهم عن الإشراك وفي وصف الله بالعزيز الحكيم رد عليهم بأن شركاءهم ليسوا كذلك وما أرسلناك إلا كافة للناس المعنى أن الله أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس وهذه إحدى الخصال التي أعطاه الله دون سائر الأنبياء وإعراب كافة حال من الناس قدمت للاهتمام هكذا قال ابن عطية وقال الزمخشري ذلك خطأ لأن تقدم حال المجرور ... 544

---

151 عليه لا يجوز وتقديره عنده وما أرسلناك إلا رسالة عامة للناس فكافة صفة للمصدر المحذوف وقال الزجاج المعنى أرسلناك جامعا للناس في الإنذار

والتبشير فجعله حالا من الكاف والتاء على هذا للمبالغة كالتاء في راوية وعلامة قل لكم ميعاد يوم يعني يوم القيامة أو نزول العذاب بهم في الدنيا وهو الذي سألوا عنه على وجه الاستخفاف فقالوا متى هذا الوعد ولا بالذي بين يديه يعني الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل وإنما قال الكفار هذه المقالة حين وقع عليهم الاحتجاج بما في التوراة من ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذي بين يديه يوم القيامة وهذا خطأ وعكس لأن الذي بين يدي الشيء هو ما تقدم عليه ولو ترى جواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما يرجع بعضهم إلى بعض القول أي يتكلمون ويجيب بعضهم بعضا بل كنتم مجرمين أي كفرتم باختياركم لا بأمرنا بل مكر الليل والنهار المعنى أن المستضعفين قالوا للمستكبرين بل مكركم بنا في الليل والنهار سبب كفرنا وإعراب مكر مبتدأ وخبره محذوف أو خبر ابتداء مضمر وأضاف مكر إلى الليل والنهار على وجه الاتساع ويحتمل أن يكون إضافة إلى المفعول أو إلى الفاعل على وجه المجاز كقولهم نهاره صيام وليله قيام أي يصام فيه ويقام ودلت الإضافة على كثرة المكر ودوامه بالليل والنهار فإن قيل لم أثبت الواو في قول الذين استضعفوا دون قول الذين استكبروا فالجواب أنه قد تقدم كلام الذين استضعفوا قبل ذلك فعطف عليه كلامهم الثاني ولم يتقدم للذين استكبروا كلام آخر فيعطف عليه وأسروا الندامة أي أخفوها في نفوسهم وقيل أظهروها فهو من الأضداد والضمير لجميع المستضعفين والمستكبرين مترفوها يعني أهل الغنى والتنعم في الدنيا وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء والقصد بالآية تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على تكذيب أكابر قريش له وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا الضمير لقريش أو للمترفين

المتقدمين قاسوا أمر الدنيا على الآخرة وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إخبار يتضمن الرد عليهم بأن بسط الرزق وقبضه في الدنيا معلق بمشيئة الله فقد يوسع الله على الكافر وعلى العاصي ويضيق على المؤمن والمطيع وبالعكس فليس ... 545
152 في ذلك دليل على أمر الآخرة زلفى مصدر بمعنى القرب كأنه قال تقربكم قربى إلا من آمن استثناء من المفعول في تقربكم والمعنى أن الأموال لا تقرب إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله وقيل الاستثناء منقطع والأول أحسن جزاء الضعف يعني تضعيف الحسنات إلى عشر أمثالها فما فوق ذلك يبسط الرزق الآية كررت لاختلاف القصد فإن القصد بالأول على الكفار والقصد هنا ترغيب المؤمنين بالإنفاق فهو يخلفه الخلف قد يكون بمال أو بالثواب أنت ولينا من دونهم براءة من أن يكون لهم رضا بعبادة المشركين لهم وليس في ذلك نفي لعبادتهم لهم بل كانوا يعبدون الجن عبادتهم للجن طاعتهم لهم في الكفر والعصيان وقيل كانوا يدخلون في جوف الأصنام فيعبدون بعبادتها ويحتمل أن يكون قوم عبدوا الجن لقوله وجعلوا لله شركاء الجن وما آتيناهم من كتب يدرسونها الآية في معناها وجهين أحدهما ليس عندهم كتب تدل على صحة أقوالهم ولا جاءهم نذير يشهد بما قالوه فأقوالهم باطلة إذ لا حجة لهم عليها فالقصد على هذا رد عليهم والآخر أنهم ليس عندهم كتب ولا

جاءهم نذير فهم محتاجون إلى من يعلمهم وينذرهم ولذلك بعث الله إليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فالقصد على هذا إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما بلغوا معشار ما آتيناهم المعشار العشر وقيل عشر العشر والأول أصح والضمير في بلغوا لكفار قريش وفي آتيناهم للكتب المتقدمة أي أن هؤلاء لم يبلغوا عشر ما أعطى الله المتقدمين من القوة والأموال وقيل الضمير في بلغوا للمتقدمين وفي

آتيناهم لقريش أي ما بلغ المتقدمون عشر ما أعطى الله هؤلاء من البراهين والأدلة والأول أصح وهو نظير قوله كانوا أشد منهم قوة فكيف كان نكير أي إنكاري يعني عقوبة الكفار المتقدمين وفي ذلك تهديد لقريش قل إنما أعظكم بواحدة أي بقضية واحدة تقريبا عليكم أن تقوموا لله هذا تفسير القضية الواحدة وأن تقوموا بدل أو عطف بيان أو خبر ابتداء مضمر ومعناه أن تقوموا للنظر في أمر محمد صلى الله عليه وسلم قياما خالصا لله تعالى ليس ... 546

---

153 فيه اتباع هوى ولا ميل وليس المراد بالقيام هنا القيام على الرجلين إنما المراد القيام بالأمر والجد فيه مثنى وفرادى حال من الضمير في تقوموا والمعنى أن تقوموا اثنين اثنين للمناظرة في الأمر وطلب التحقيق وتقوموا واحدا واحدا لإحضار الذهن واستجماع الفكرة ثم تتفكروا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم فتعلموا أن ما به من جنة لأنه جاء بالحق الواضح ومع ذلك فإن أقواله وأفعاله تدل على رجاحة عقله ومتانة علمه وأنه بلغ في الحكمة مبلغا عظيما فيدل ذلك على أنه ليس بمجنون ولا مفتر على الله ما بصاحبكم من جنة متصل بما قبله على الأصح أي تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقيل هو استئناف قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم هذا كما يقول الرجل لصاحبه إن أعطيتني شيئا فخذه وهو يعلم أنه لم يعطه شيئا ولكنه يريد البراءة من عطائه وكذلك معنى هذا فهو كقولك قل ما أسألكم عليه من أجر قل إن ربي يقذف بالحق القذف الرمي ويستعار للإلقاء فالمعنى يلقي الحق إلى أصفيائه أو يرمي الباطل بالحق فيذهبه علام الغيوب خبر ابتداء مضمر أو بدل من الضمير في يقذف أو من اسم إن على الموضع قل جاء الحق يعني الإسلام وما يبدىء الباطل وما يعيد الباطل الكفر ونفى الإبداء والإعادة على أنه لا يفعل شيئا ولا يكون له ظهور أو عبارة عن ذهابه كقوله جاء الحق وزهق الباطل وقيل الباطل الشيطان إنه سميع قريب يعني قربه تعالى بعلمه وإحاطته ولو ترى إذ فزعوا جواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما أو معنى فزعوا أسرعوا إلى الهروب والفعل ماض بمعنى الاستقبال وكذلك ما بعده من الأفعال ووقت الفزع البعث وقيل الموت وقيل يوم بدر فلا فوت أي لا يفوتون الله إذ هربوا وأخذوا من مكان قريب يعني من الموقف إلى النار إذا بعثوا أومن

ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا أو من أرض بدر إلى القليب والمراد على كل قول سرعة أخذهم وقالوا آمنا به أي

قالوا ذلك عند أخذهم والضمير المجرور لله تعالى أو للنبي صلى الله عليه وسلم أو للقرآن أو للإسلام وأنى لهم التناوش من مكان بعيد التناوش بالواو التناول إلا أن التناوش تناول قريب سهل لشيء قريب وقرىء بهمز الواو فيحتمل أن يكون المعنى واحدا ويكون المهموز بمعنى الطلب ومعنى الآية استبعاد وصولهم إلى مرادهم والمكان البعيد عبارة عن تعذر مقصودهم فإنهم يطلبون ما لا يكون أو يريدون أن يتناولوا ما لا ينالون وهو رجوعهم إلى الدنيا أو انتفاعهم بالإيمان حينئذ وقد كفروا به الضمير يعود على ما عاد عليه قولهم آمنا به ويقذفون بالغيب من مكان بعيد يقذفون فعل ماض في المعنى معطوف على كفروا ومعناه أنهم يرمون بظنونهم في ... 547

---

154 الأمور المغيبة فيقولون لا بعث ولا جنة ولا نار ويقولون في الرسول عليه الصلاة والسلام إنه ساحر أو شاعر والمكان البعيد هنا عبارة عن بطلان ظنونهم وبعد أقوالهم عن الحق وحيل بينهم وبين ما يشتهون أي حيل بينهم وبين دخول الجنة وقيل حيل بينهم وبين الانتفاع بالإيمان حينئذ وقيل حيل بينهم وبين نعيم الدنيا والرجوع إليها كما فعل بأشياعهم من قبل يعني الكفار المتقدمين وجعلهم أشياعهم لاتفاقهم في مذاهبهم ومن قبل يحتمل أن يتعلق بفعل أو بأشياعهم على حسب معنى ما قبله في شك مريب هو أقوى الشك وأشده إظلاما

سورة فاطر

جاعل الملائكة رسلا أي وسائط بين الله وبين الأنبياء متصرفين في أمر الله مثنى وثلاث ورباع صفات للأجنحة ولم ينصرف للعدل والوصف والمعنى أن الملائكة منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة أجنحة ومنهم من له أربعة أجنحة يزيد في الخلق ما يشاء قيل يعني حسن الصوت وقيل حسن الوجه وقيل حسن الحظ والأظهر أنه يرجع إلى أجنحة الملائكة أو يكون على الإطلاق في كل زيادة في المخلوقين ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها الفتح عبارة عن العطاء والإمساك عبارة عن المنع والإرسال الإطلاق بعد المنع والرحمة كل ما يمن الله به على عباده من خيري الدنيا والآخرة فمعنى الآية لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع الله فإن قيل لم أنث الضمير في قوله فلا ممسك لها وذكره في قوله فلا مرسل له وكلاهما يعود على ما الشرطية فالجواب أنه لما فسر من الأولى بقوله من رحمة أنثه لتأنيث الرحمة وترك الآخر على الأصل من التذكير من بعده أي من بعد إمساكه هل من خالق غير الله رفع غير على الصفة لخالق على الموضع وخفضه صفة على الرفع ورزق السماء المطر ورزق الأرض النبات والمعنى تذكير بنعم الله وإقامة حجة على

المشركين ولذلك أعقبه بقوله لا إله إلا هو وإن يكذبوك الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ...

548
155 على تكذيب قومه كأنه يقول إن يكذبوك فلا تحزن لذلك فإن الله سينصرك عليهم كما كذبت رسل من قبلك فنصرهم الله الغرور الشيطان وقيل التسويف أفمن زين له سوء عمله توقيف وجوابه محذوف تقديره أفمن زين له سوء عمله كمن لم يزين له ثم بني على ذلك ما بعده فالذي زين له سوء عمله هو الذي أضله الله ومن لم يزين له سوء عمله هو الذي هداه الله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن حزنه لعدم إيمانهم لأن ذلك بيد الله كذلك النشور أي الحشر والمعنى كما يحيي الله الأرض بالنبات كذلك يحيي الموتى من كان يريد العزة الآية تحتمل ثلاثة معان أحدها وهو الأظهر من كان يريد نيل العزة فليطلبها من عند الله فإن العزة كلها لله والثاني من كان يريد العزة بمغالبة الإسلام فلله العزة جميعا فالمغالب له مغلوب والثالث من كان يريد أن يعلم لمن العزة فليعلم أن العزة لله جميعا إليه يصعد الكلم الطيب قيل يعني لا إله إلا الله واللفظ يعم ذلك وغيره من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن وتعليم العلم فالعموم أولى والعمل الصالح يرفعه فيه ثلاثة أقوال أحدها أن ضمير الفاعل في يرفعه الله وضمير المفعول للعمل الصالح فالمعنى على هذا أن الله يرفع العمل الصالح أي يتقبله ويثيب عليه والثاني أن ضمير الفاعل للكلام الطيب وضمير المفعول للعمل الصالح والمعنى على هذا لا يقبل عمل صالح إلا ممن له كلام طيب وهذا يصح إن قلنا إن الكلم الطيب لا إله إلا الله لأنه لا يقبل العمل إلا من موحد والثالث أن ضمير الفاعل للعمل الصالح وضمير المفعول للكلم الطيب والمعنى على هذا أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب فلا يقبل الكلم إلا ممن له عمل صالح روي هذا المعنى عن ابن عباس واستبعده ابن عطية وقال لم يصح عنه لأن اعتقاد أهل السنة أن الله يتقبل من كل مسلم قال وقد يستقيم بأن يتأول أن الله يزيد في رفعه وحسن موقعه يمكرون

السيئات لا يتعدى مكر فتأويله يمكرون المكرات السيئات فتكون السيئات مصدرا أو تضمن يمكرون معنى يكتسبون فتكون السيئات مفعولا والإشارة هنا إلى مكر قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم حين اجتمعوا في دار الندوة وأرادوا أن يقتلوه أو يحبسوه أو يخرجوه
ومكر أولئك هو يبور البوار الهلاك أو الكساد ومعناه هنا أن مكرهم يبطل ولا ينفعهم ثم جعلكم أزواجا أي أصنافا وقيل ذكرانا وإناثا وهذا أظهر وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب التعمير طول العمر والنقص قصره والكتاب اللوح المحفوظ فإن قيل إن التعمير والنقص لا يجتمعان لشخص واحد فكيف ... 549

156 أعاد الضمير في قوله ولا ينقص من عمره على الشخص المعمر فالجواب من ثلاثة أوجه الأول وهو الصحيح أن المعنى ما يعمر من أحد ولا ينقص من عمره إلا في كتاب فوضع من معمر موضع من أحد وليس المراد شخصا واحدا وإنما ذلك كقولك لا يعاقب الله عبدا ولا يثيبه إلا بحق والثاني أن المعنى لا يزاد في عمر إنسان ولا ينقص من عمره إلا في كتاب وذلك أن يكتب في اللوح المحفوظ أن فلانا إن تصدق فعمره ستون سنة وإن لم يتصدق فعمره أربعون وهذا ظاهر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم صلة الرحم تزيد في العمر إلا أن ذلك مذهب المعتزلة القائلين بالأجلين وليس مذهب الأشعرية وقد قال كعب حين طعن عمر لو دعا الله لزاد في أجله فأنكر الناس عليه فاحتج بهذه الآية والثالث أن التعمير هو كتب ما يستقبل من العمر والنقص هو كتب ما مضى منه في اللوح المحفوظ وذلك حق كل شخص وما يستوي البحران قد فسرنا البحرين الفرات والأجاج في الفرقان وسائغ في النحل والقصد بالآية التنبيه على قدرة الله ووحدانيته وإنعامه على عباده وقال الزمخشري إن المعنى أن الله ضرب للبحرين الملح والعذب مثلين للمؤمن والكافر وهذا بعيد لحما طريا يعني الحوت حلية تلبسونها يعني الجوهر والمرجان فإن قيل إن الحلية لا تخرج إلا من البحر الملح دون العذب فكيف قال ومن كل أي كل واحد منهما فالجواب من ثلاثة أوجه الأول أن ذلك تجوز في العبارة كما قال يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم والرسل إنما هي من الإنس الثاني أن المرجان إنما يوجد في البحر الملح حيث تنصب أنهار الماء العذب أو ينزل المطر فلما كانت الأنهار والمطر وهي البحر العذب تنصب في البحر الملح كان الإخراج منهما جميعا الثالث زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح والعذب وهذا قول يبطله الحس مواخر ذكر في النحل يولج ذكر في لقمان قطمير هو القشر الرقيق الأبيض الذي على نوى التمر والمعنى أن الأصنام لا

يملكون أقل الأشياء فكيف أكثرها يكفرون بشرككم أي بإشراككم فالمصدر مضاف للفاعل وكفر الأصنام بالشرك يحتمل أن يكون بكلام يخلقه الله عندها أو بقرينة الحال ولا ينبئك مثل خبير أي لا يخبرك بالأمر مخبر مثل مخبر عالم يعني نفسه تعالى في إخباره أن الأصنام يكفرون يوم القيامة بمن عبدهم أنتم الفقراء إلى الله خطاب لجميع الناس وإنما عرف الفقر بالألف واللام ليدل على اختصاص الفقر بجنس الناس وإن كان غيرهم فقراء ولكن فقراء الناس أعظم ثم وصف نفسه بأنه الغني في مقابلة وصفهم بالفقر ووصفه بأنه ... 550

157 الحميد ليدل على جوده وكرمه الذي يوجب أن يحمده عباده وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء الحمل عبارة عن الذنوب والمثقلة الثقيلة الحمل أو النفس الكثيرة الذنوب والمعنى أنها لو دعت أحدا إلى أن يحمل عنها ذنوبها لم يحمل عنها وحذف مفعول إن تدع لدلالة المعنى وقصد العموم وهذه الآية بيان وتكميل لمعنى قوله ولا تزر وازرة وزر أخرى ولو كان ذا قربى المعنى ولو كان المدعو ذا قربى ممن دعاه إلى حمل ذنوبه لم يحمل منه شيئا لأن كل واحد يقول نفسي نفسي إنما تنذر الذين يخشون ربهم المعنى أن الإنذار لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم وليس المعنى اختصاصهم بالإنذار بالغيب في موضع حال من الفاعل في يخشون أي يخشون ربهم وهم غائبون عن الناس فخشيتهم حق لا رياء وما يستوي الأعمى والبصير تمثيل للكافر والمؤمن ولا الظلمات ولا النور تمثيل للكفر والإيمان ولا الظل ولا الحرور تمثيل للثواب والعقاب وقيل الظل الجنة والحرور النار والحرور في اللغة شدة الحر بالنهار والليل والسموم بالنهار خاصة وما يستوي الأحياء ولا الأموات تمثيل لمن آمن فهو كالحي ومن لم يؤمن فهو كالميت إن الله يسمع من يشاء عبارة عن هداية الله لمن يشاء وما أنت بمسمع من في القبور عبارة عن عدم سماع الكفار للبراهين والمواعظ فشبههم بالموتى في عدم إحساسهم وقيل المعنى أن أهل القبور وهم الموتى حقيقة لا يسمعون فليس عليك أن تسمعهم وإنما بعثت للأحياء وقد استدلت عائشة بالآية على أن الموتى لا يسمعون وأنكرت ما ورد في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر حين جعلوا في القليب ولكن يمكن الجمع بين قولها وبين الحديث بأن الموتى في القبور إذا ردت إليهم أرواحهم إلى أجسادهم سمعوا وإن لم ترد لم يسمعوا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير معناه أن الله قد بعث إلى كل أمة نبيا يقيم عليهم الحجة فإن قيل كيف ذلك وقد كان بين الأنبياء فترات

وأزمنة طويلة ألا ترى أن بين عيسى ومحمدا صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة لم يبعث فيها نبي فالجواب أن دعوة عيسى ومن تقدمه من الأنبياء كانت قد بلغتهم فقامت عليهم الحجة فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك فالجواب أنهم لم يأتهم نذير معاصر لهم فلا يعارض ذلك من تقدم قبل عصرهم وايضا فإن المراد بقوله وإن من أمة إلا خلا فيها نذير أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست ببدع فلا ينبغي أن تنكر لأن الله أرسله كما أرسل من قبله والمراد بقوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك أنهم محتاجون إلى الإنذار لكونهم لم يتقدم من ينذرهم فاختلف سياق الكلام فلا تعارض بينهما وإن يكذبوك الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم للتأسي نكير ذكر في سبأ ثمرات مختلفا ألوانها يريد الصفرة ... 551

---

158 والحمرة وغير ذلك من الألوان وقيل يريد الأنواع والأول أظهر لذكره البيض والحمر والسود بعد ذلك وفي الوجهين دليل على أن الله تعالى فاعل

مختار يخلق ما يشاء ويختار وفيه رد على الطبائعيين لأن الطبيعة لا يصدر عنها إلا نوع واحد جدد جمع جدة وهي الخطط والطرائق في الجبال وغرابيب جمع غربيب وهو الشديد السواد وقدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر لقصد التأكيد ولأن ذلك كثيرا ما يأتي في كلام العرب كذلك يتعلق بما قبله فيتم الوقف عليه والمعنى أن من الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه مثل الجبال المختلف ألوانها والثمرات المختلف ألوانها وذلك كله استدلال على قدرة الله وإرادته إنما يخشى الله من عباده العلماء يعني العلماء بالله وصفاته وشرائعه علما يوجب لهم الخشية من عذابه وفي الحديث أعلمكم بالله أشدكم له خشية لأن العبد إذا عرف الله خاف من عقابه وإذا لم يعرفه لم يخف منه فلذلك خص العلماء بالخشية إن الذين يتلون كتاب الله أي يقرؤن القرآن وقيل معنى يتلون يتبعون والخبر يرجون تجارة أو محذوف لن تبور أي لن تكسد ويعني بالتجارة طلب الثواب ويزيدهم من فضله توفية الأجوروهو ما يستحقه المطيع من الثواب والزيادة التضعيف فوق ذلك وقيل الزيادة النظر إلى وجه الله مصدقا لما بين يديه تقدم في البقرة ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم والتوريث عبارة عن أن الله أعطاهم الكتاب بعد غيرهم من الأمم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات قال عمر وابن مسعود وابن عباس وكعب وعائشة وأكثر المفسرين هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فالظالم لنفسه العاصي والسابق التقي والمقتصد بينهما وقال الحسن السابق من رجحت حسناته على سيئاته والظالم لنفسه من رجحت سيئاته والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته وجميعهم يدخلون الجنة وروي أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وقيل الظالم الكافر والمقتصد المؤمن العاصي والسابق التقي فالضمير في منهم على هذا يعود على العباد وأما على القول الأول فيعود على الذين اصطفينا وهو أرجح وأصح لوروده في الحديث وجلالة القائلين به فإن قيل لم قدم الظالم ووسط المقتصد وأخر السابق فالجواب أنه قدم الظالم لنفسه رفقا به لئلا ييئس واخر السابق لئلا يعجب بنفسه وقال ... 552
159 الزمخشري قدم الظالم لكثرة الظالمين وأخر السابق لقلة السابقين ذلك هو الفضل الكبير إشارة إلى الاصطفاء جنات عدن بدل من الفضل أو خبر مبتدأ تقديره ثوابهم جنات عدن أو مبتدأ تقديره لهم جنات عدن يدخلونها ضمير الفاعل يعود على الظالم والمقتصد والسابق على القول بأن الآية في هذه الأمة وأما على القول بأن الظالم هو الكافر فيعود على المقتصد والسابق خاصة وقال الزمخشري إنه يعود على السابق خاصة وذلك على قول المعتزلة في الوعيد أساور ذكر في الحج أذهب عنا الحزن قيل هو عذاب النار وقيل أهوال القيامة وقيل هموم الدنيا والصواب العموم في ذلك كله دار المقامة هي الجنة والمقامة هي الإقامة والموضع وإنما سميت الجنة دار المقامة لأنهم يقومون فيها ولا يخرجون منها نصب النصب تعب البدن واللغوب تعب النفس اللازم عن تعب البدن يصطرخون يفتعلون من الصراخ أي يستغيثون فيقولون ربنا أخرجنا وفي قولهم غير الذي كنا نعمل اعتراف بسوء عملهم وتندم عليه

أولم نعمركم الآية توبيخ لهم وإقامة حجة عليهم وقيل إن مدة التذكير ستون سنة وقيل أربعون وقيل البلوغ والأول أرجح لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من عمره الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر وجاءكم النذير يعني النبي صلى الله عليه وسلم وقيل يعني الشيب لأنه نذير بالموت والأول أظهر إنه عليم بذات الصدور أي بما تضمره الصدور وتعتقده وقال الزمخشري ذات هنا تأنيث

ذو بمعنى صاحب لأن المضمرات تصحب الصدور خلائف ذكر في الأنعام مقتا المقت احتقار الإنسان وبغضه لأجل عيوبه أو ذنوبه قل أرأيتم شركاءكم الآية احتجاج على المشركين وإبطال لمذهبهم أم لهم شرك أي نصيب على بينة أي على أمر جلي والضمير في أتيناهم يحتمل أن يكون للأصنام أو للمشركين وهذا أظهر في المعنى والأول أليق بما قبله من الضمائر أن تزولا في موضع مفعول من أجله تقديره كراهة أو تزولا أو مفعول به لأن يمسك بمعنى يمنع ولئن زالتا أي لو فرض زوالهما لم يمسكهما أحد وقيل أراد زوالهما يوم القيامة عند طي 553 ...

---

160 السماء وتبديل الأرض ونسف الجبال من بعده أي من بعد تركه الإمساك وأقسموا بالله الضمير لقريش وذلك أنهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى جاءتهم الرسل فكذبوهم والله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى منهم إحدى الأمم يعني اليهود والنصارى فلما جاءهم نذير يعني محمدا صلى الله عليه وسلم) استكبارا) بدل من نفورا أو مفعول من أجله ومكر السيء هذا من إضافة الصفة إلى الموصوف كقولك مسجد الجامع وجانب الغربي والأصل أن يقال المكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله أي لا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبره وقال كعب لابن عباس إن في التوراة من حفر حفرة لأخيه وقع فيها فقال ابن عباس أنا أجد هذا في كتاب الله ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين أي هل ينتظرون إلا عادة الأمم المتقدمة في أخذ الله لهم وإهلاكهم بتكذيبهم للرسل وما كان الله ليعجزه من شيء أي لا يفوته شيء ولا يصعب عليه ما ترك على ظهرها من دابة الضمير للأرض والدابة عموم في كل ما يدب وقيل أراد بني آدم خاصة إلى أجل مسمى يعني يوم القيامة وباقي الآية وعد ووعيد

سورة يس

قد تكلمنا في البقرة على حروف الهجاء وقيل في يس إنه من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وقيل معناه يا إنسان تنزيل بالرفع خبر ابتداء مضمر وبالنصب مصدر أو مفعول بفعل مضمر لتنذر قوما هم قريش ويحتمل أن يدخل معهم سائر العرب وسائر الأمم ما أنذر آباؤهم ما نافية والمعنى لم يرسل إليهم ولا لآبائهم رسول ينذرهم وقيل المعنى لتنذر قوما مثل ما أنذر آباؤهم فما على هذا موصولة بمعنى الذي أو مصدرية والأول أرجح لقوله فهم

غافلون يعني أن غفلتهم بسبب عدم إنذارهم وتكون بمعنى قوله ما أتاهم من نذير من قبلك ... 554

---

161 ولا يعارض هذا بعث الأنبياء المتقدمين فإن هؤلاء القوم لم يدركوهم ولا آباؤهم الأقربون لقد حق القول أي سبق القضاء إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا الآية فيها ثلاثة أقوال الأول أنها عبارة عن تماديهم على الكفر ومنع الله لهم من الإيمان فشبههم بمن جعل في عنقه غل يمنعه من الالتفات وغطى على بصره فصار لا يرى والثاني أنها عبارة عن كفهم عن إذاية النبي صلى الله عليه وسلم حين أراد أبو جهل أن يرميه بحجر فرجع عنه فزعا مرعوبا والثالث أن ذلك حقيقة في حالهم في جهنم والأول أظهر وأرجح لقوله قبلها فهم لا يؤمنون وقوله بعدها وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون
فهي إلى الأذقان الذقن هي طرف الوجه حيث تنبت اللحية والضمير للأغلال وذلك أن الغل حلقة في العنق فإذا كان واسعا عريضا وصل إلى الذقن فكان أشد على المغلول وقيل الضمير للأيدي على أنها لم يتقدم لها ذكر ولكنها تفهم من سياق الكلام لأن المغلول تضم يداه في الغل إلى عنقه وفي مصحف ابن مسعود إنا جعلنا في أيديهم أغلالا فهي إلى الأذقان وهذه القراءة تدل على هذا المعنى وقد أنكره الزمخشري فهم مقمحون يقال قمح البعير إذا رفع رأسه وأقمحه غيره إذا فعل به ذلك والمعنى أنهم لما اشتدت الأغلال حتى وصلت إلى أذقانهم اضطرت رءوسهم إلى الارتفاع وقيل معنى مقمحون ممنوعون من كل خير وجعلنا من بين أيديهم سدا الآية السد الحائل بين الشيئين وذلك عبارة عن منعهم من الإيمان فأغشيناهم أي غطينا على أبصارهم وذلك أيضا مجاز يراد به إضلالهم وسواء عليهم الآية ذكرنا معناها وإعرابها في البقرة إنما تنذر من اتبع الذكر المعنى أن الإنذار لا ينفع إلا من اتبع الذكر وهو القرآن وخشي الرحمن بالغيب معناه كقولك إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وقد ذكرناه في فاطر إنا نحن نحيي الموتى أي نبعثهم يوم القيامة وقيل إحياؤهم إخراجهم من الشرك إلى الإيمان

والأول أظهر ونكتب ما قدموا وآثارهم أي ما قدموا من أعمالهم وما تركوه بعدهم كعلم علموه أو تحبيس حبسوه وقيل الأثر هنا الخطا إلى المساجد وجاء ذلك في الحديث إمام مبين أي في كتاب وهو اللوح المحفوظ أو صحائف الأعمال واضرب لهم مثلا الضمير لقريش ومثلا وأصحاب القرية مفعولان باضرب على القول بأنها تتعدى إلى مفعولين وهو الصحيح والقرية أنطاكية إذ جاءها المرسلون هم من الحواريين الذين أرسلهم عيسى عليه الصلاة والسلام يدعون الناس إلى عبادة الله وقيل بل هم رسل أرسلهم الله ويدل على هذا قول قومهم ما أنتم إلا بشر مثلنا فإن هذا إنما يقال لمن ادعى أن الله أرسله فعززنا بثالث أي قوينا الاثنين برسول ثالث قيل اسمه شمعون ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون إنما أكدوا الخبر هنا باللام لأنه جواب المنكرين بخلاف ... 555

162 الموضع الأول فإنه إخبار مجرد قالوا إنا تطيرنا بكم أي تشاءمنا بكم وأصل اللفظة من زجر الطير ليستدل على ما يكون من شر أو خير وإنما تشاءموا بهم لأنهم جاؤهم بدين غير دينهم وقيل وقع فيهم الجذام لما كفروا وقيل قحطوا قالوا طائركم معكم أي قال الرسل لأهل القرية شؤمكم معكم أي إنما الشؤم الذي أصابكم بسبب كفركم لا بسببنا أئن ذكرتم دخلت همزة الاستفهام على حرف الشرط وفي الكلام حذف تقديره أتطيرون أن ذكرتم يسعى أي يسرع بجده ونصيحته وقيل اسمه حبيب النجار اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون أي هؤلاء المرسلون لا يسألونكم أجرة على الإيمان فلا تخسرون معهم شيئا من دنياكم وتربحون معهم الاهتداء في دينكم ومالي لا أعبد الذي فطرني المعنى أي شيء يمنعني من عبادة ربي وهذا توقيف وإخبار عن نفسه قصد به البيان لقومه ولذلك قال وإليه ترجعون فخاطبهم إن يردن الرحمن بضر لا تغن عن شفاعتهم هذا وصف للآلهة والمعنى كيف أتخذ من دون الله آلهة لا يشفعون ولا ينقذونني من الضر إني إذا لفي ضلال مبين أي إن اتخذت آلهة غير الله فإني لفي ضلال مبين إني آمنت بربكم فاسمعون خطاب لقومه أي اسمعوا قولي واعملوا بنصيحتي وقيل خطاب للرسل ليشهدوا له قيل ادخل الجنة قيل هنا محذوف يدل عليه الكلام وروي في الأثر وهو أن الرجل لما نصح قومه قتلوه فلما مات قيل له ادخل الجنة واختلف هل دخلها حين موته كالشهداء أو هل ذلك بمعنى البشارة بالجنة ورؤيته لمقعده منها قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي تمنى أن يعلم قومه بغفران الله له على إيمانه فيؤمنون ولذلك ورد في الحديث أنه نصح لهم حيا وميتا وقيل أراد أن يعلموا ذلك فيندموا على فعلهم معه وينفعهم ذلك وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء المعنى أن الله أهلكهم بصيحة صاحها جبريل ولم يحتج في تعذيبهم إلى إنزال جند من السماء لأنهم أهون من ذلك وقيل

المعنى ما أنزل الله على قومه ملائكة رسلا كما قالت قريش لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ولفظ الجند أليق بالمعنى الأول وكذلك ذكر الصيحة بعد ذلك وما كنا منزلين ما كنا لننزل جندا من السماء على أحد فإذا هم خامدون أي ساكنون لا يتحركون ... 556
163 ولا ينطقون يا حسرة على العباد نداء للحسرة كأنه قال يا حسرة احضري فهذا وقتك وهذا التفجع عليهم استعارة في معنى التهويل والتعظيم لما فعلوا من استهزائهم بالرسل ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة أو المؤمنين من الناس وقيل المعنى يا حسرة العباد على أنفسهم ألم يروا الضمير لقريش أو للعباد على الإنطلاق والرؤية هنا بمعنى العلم وإن كل لما جميع لدينا محضرون قرئ لما بالتخفيف وهي لام التأكيد دخلت على ما المزيدة وإن على هذا مخففة من الثقيلة وقرئ بالتشديد وهي بمعنى إلا وإن على هذا نافية وما عملته أيديهم ما معطوفة على ثمره أي ليأكلوا من الثمر وما عملته أيديهم

بالحرث والزراعة والغراسة وقيل ما نافية وقرئ ما عملت من غير هاء وما على هذا معطوفة الأزواج يعني أصناف المخلوقات ثم فسرها بقوله مما تنبت الأرض وما بعده فمن في المواضع الثلاثة للبيان ومما لا يعلمون يعني أشياء لا يعلمها بنو آدم كقوله ويخلق ما لا تعلمون نسلخ منه النهار أي نجرده منه وهي استعارة والشمس تجري لمستقر لها أي لحد موقت تنتهي إليه من فلكها وهي نهاية جريها إلى أن ترجع في المنقلبين الشتاء والصيف وقيل مستقرها وقوفها كل وقت زوال بدليل وقوف الظل حينئذ وقيل مستقرها يوم القيامة حين تكور وفي الحديث مستقرها تحت العرش تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها وهذا أصح الأقوال لوروده عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح وقرئ لا مستقر لها أي لا تستقر عن جريها والقمر قدرناه منازل قرئ بالرفع على الابتداء أو عطف على الليل وبالنصب على إضمار فعل ولا بد في قدرناه من حذف

تقديره قدرنا سيره منازل ومنازل القمر ثمانية وعشرون ينزل القمر كل ليلة واحدة منها من أول الشهر ثم يستتر في آخر الشهر ليلة أو ليلتين وقال الزمخشري وهذه المنازل هي مواضع النجوم وهي السرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العوى السماك الغفر الزباني الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد بلع سعد الذابح سعد السعود سعد الأخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر بطن الحوت حتى عاد كالعرجون القديم العرجون هو غصن النخلة شبه القمر به إذا انتهى في نقصانه والتشبيه في ثلاثة أوصاف وهي الرقة والانحناء والصفرة ووصفه بالقديم لأنه حينئذ تكون له هذه الأوصاف
لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر المعنى لا يمكن الشمس أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحو نوره وهكذا قال بعضهم ويحتمل أن يريد أن سير الشمس في الفلك بطيء فإنها تقطع الفلك في سنة وسير ... 557

---

164 القمر سريع فإنه يقطع الفلك في شهر والبطيء لا يدرك السريع ولا الليل سابق النهار يعني أن كل واحد منهما جعل الله له وقتا موقتا واحدا معلوما لا يتعداه فلا يأتي الليل حتى ينفصل النهار كما لا يأتي النهار حتى ينفصل الليل ويحتمل أن يريد أن آية الليل وهي القمر لا تسبق آية النهار وهي الشمس أي لا تجتمع معه فيكون المعنى كالذي قيل في قوله لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر فحصل من ذلك أن الشمس لا تجتمع مع القمر وأن القمر لا يجتمع مع الشمس وكل في فلك يسبحون ذكر في الأنبياء وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون معنى المشحون المملوء والفلك هنا يحتمل أن يريد به جنس السفن أو سفينة نوح عليه السلام وأما الذرية فقيل إنه يعني الآباء الذين حملهم الله في سفينة نوح عليه السلام وسمى الآباء ذرية لأنها تناسلت منهم وأنكر ابن عطية ذلك وقال إنه يعني النساء وهذا بعيد والأظهر أنه أراد بالفلك

جنس السفن فيعني جنس بني آدم وإنما خص ذريتهم بالذكر لأنه أبلغ في الامتنان عليهم ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم إلى يوم القيامة وإن أراد بالفلك سفينة نوح فيعني بالذرية من كان في السفينة وسماهم ذرية لأنهم ذرية آدم ونوح فالضمير في ذريتهم على هذا النوع بني آدم كأنه يقول الذرية منهم وخلقنا لهم من مثله ما يركبون إن أراد بالفلك سفينة نوح فيعني بقوله من مثله سائر السفن التي يركبها سائر الناس وإن أراد بالفلك جنس السفن فيعني بقوله من مثله الإبل وسائر المركوبات فتكون المماثلة على هذا في أنه مركوب لا غير والأول أظهر لقوله وإن نشأ نغرقهم ولا يتصور هذا في المركوبات غير السفن فلا صريخ لهم أي لا مغيث لهم ولا منقذ لهم من الغرق إلا رحمة منا قال الكسائي نصب رحمة على الاستثناء كأنه قال إلا أن نرحمهم وقال الزجاج نصب رحمة على المفعول من أجله كأنه قال إلا لأجل رحمتنا إياهم ومتاعا إلى حين يعني آجالهم

وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم الضمير لقريش وجواب إذا محذوف تقديره أعرضوا يدل عليه إلا كانوا كانوا عنها معرضين والمراد بما بين أيديهم وما خلفهم ذنوبهم المتقدمة والمتأخرة وقيل ما بين أيديهم عذاب الأمم المتقدمة وما خلفهم عذاب الآخرة قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه كان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون يحضون على الصدقات وإطعام المساكين فيجيبهم الكفار بهذا الجواب وفي معناه قولان أحدهما أنهم قالوا كيف نطعم المساكين ولو شاء الله أن يطعمهم لأطعمهم ومن حرمهم الله نحن نحرمهم وهذا كقولهم كن مع الله على المدبر والآخر أن قولهم رد على المؤمنين وذلك أن المؤمنين كانوا يقولون إن الأمور كلها بيد الله فكأن الكفار يقولون لهم لو كان كما تزعمون لأطعم الله هؤلاء فما بالكم تطلبون إطعامهم منا ومقصدهم في الوجهين احتجاج لبخلهم ومنعهم الصدقات واستهزاء بمن حضهم على الصدقات إن أنتم إلا في ضلال مبين يحتمل أن يكون من بقية كلامهم خطابا للمؤمنين أو يكون ... 558

---

165 من كلام الله خطابا للكافرين ويقولون متى هذا الوعد يعنون يوم القيامة أو نزول العذاب بهم ما ينظرون إلا صيحة واحدة أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة وهي النفخة الأولى في الصور وهي نفخة الصعق تأخذهم وهم يخصمون أي يتكلمون في أمورهم وأصل يخصمون يختصمون ثم أدغم وقرئ بفتح الخاء وبكسرها واختلاس حركتها فلا يستطيعون توصية أي لا يقدرون أن يوصوا بما لهم وما عليهم لسرعة الأمر ولا إلى أهلهم يرجعون أي لا يستطيعون أن يرجعوا إلى منازلهم لسرعة الأمر ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون هذه النفخة الثانية وهي نفخة القيام من القبور والأجداث هي القبور وينسلون يسرعون المشي وقيل يخرجون قالوا يا ويلنا الويل منادى أو مصدر من بعثنا من مرقدنا المرقد يحتمل أن يكون اسم مصدر أو اسم مكان

قال أبي بن كعب ومجاهد إن البشر ينامون نومة قبل الحشر قال ابن عطية هذا غير صحيح الإسناد وإنما الوجه في معنى قولهم من مرقدنا أنها استعارة وتشبيه به يعني أن قبورهم شبهت بالمضاجع لكونهم فيها على هيئة الرقاد وإن لم يكن رقاد في الحقيقة هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون هذا مبتدأ وما بعده خبر وقيل إن هذا صفة لمرقدنا وما وعد الرحمن مبتدأ محذوف الخبر وهذا ضعيف ويحتمل أن يكون هذا الكلام من بقية كلامهم أو من كلام الله أو الملائكة أو المؤمنين يقولونها للكفار على وجه التقريع إن كانت إلا صيحة واحدة يعني النفخة الثانية وهي نفخة القيام إن أصحاب الجنة اليوم في شغل قيل هو افتضاض الأبكار وقيل سماع الأوتار والأظهر أنه عام في الاشتغال باللذات فاكهون قرئ بالألف ومعناه أصحاب فاكهة وبغير ألف وهو من الفكاهة بمعنى الراحة والسرور في ظلال جمع ظل وبالضم جمع ظلة على الأرائك جمع أريكة وهي السرير ولهم ما يدعون أي ما يتمنون وقيل معناه أن ما يدعون به يأتيهم سلام مبتدأ وقيل بدل

مما يدعون قولا مصدر مؤكد والمعنى أن السلام عليهم قول من الله بواسطة الملك أو بغير واسطة
وامتازوا اليوم أيها المجرمون أي انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة جبلا كثيرا الجبل الأمة العظيمة وقال الضحاك أقلها عشرة آلاف ولا نهاية لأكثرها وقرئ بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وبضمهما مع التخفيف وبضم الجيم وإسكان الباء وهي لغات ... 559
166 بمعنى واحد اليوم نختم على أفواههم أي نمنعهم من الكلام فتنطق أعضاؤهم يوم القيامة ولو نشاء لطمسنا على أعينهم هذا تهديد لقريش والطمس على الأعين هو العمى والصراط الطريق وأنى استفهام يراد به النفي فمعنى الآية لو نشاء لأعميناهم فلو راموا أن يمشوا على الطريق لم يبصروه وقيل يعني عمي البصائر أي لو نشاء لختمنا على قلوبهم فالطريق على هذا استعارة بمعنى الإيمان والخير ولو نشاء لمسخناهم هذا تهديد بالمسخ فقيل معناه المسخ قردة وخنازير وحجارة وقيل معناه لو نشاء لجعلناهم مقعدين مبطولين لا يستطيعون تصرفا وقيل إن هذا التهديد كله بما يكون يوم القيامة والأظهر أنه في الدنيا على مكانتهم المكانة المكان والمعنى لو نشاء لمسخناهم مسخا يقعدهم في مكانهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون أي إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا أن يذهبوا ولا أن يرجعوا ومن نعمره ننكسه في الخلق أي نحول خلقته من القوة إلى الضعف ومن الفهم إلى البله وشبه ذلك كما قال تعالى ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة وإنما قصد بذكر ذلك هنا للاستدلال على قدرته تعالى على مسخ الكفار كما قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم وما علمناه الشعر وما ينبغي له الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك رد على الكفار في قولهم إنه شاعر وكان صلى الله عليه وسلم لا ينظم الشعر ولا يزنه وإذا ذكر بيت شعر كسر وزنه فإن قيل قد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب وروي أيضا عنه صلى

الله عليه وسلم هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت وهذا الكلام على وزن الشعر فالجواب أنه ليس بشعر وأنه لم يقصد به الشعر وإنما جاء موزونا بالاتفاق لا بالقصد فهو كالكلام المنثور ومثل هذا يقال في مثل ما جاء في القرآن من الكلام الموزون ويقتضي قوله وما ينبغي له تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الشعر لما فيه من الأباطيل وإفراط التجاوز حتى يقال إن الشعر أطيبه أكذبه وليس كل الشعر كذلك فقد قال صلى الله عليه وسلم إن من الشعر لحكمة وقد أكثر الناس في ذم الشعر ومدحه وإنما الإنصاف قول الشافعي الشعر كلام والكلام منه حسن ومنه قبيح إن هو إلا ذكر الضمير للقرآن يعني أنه ذكر لله أو تذكير للناس أو شرف لهم لينذر من كان حيا أي حي القلب والبصيرة ويحق القول على الكافرين أي يجب عليهم العذاب أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما علمت أيدينا أنعاما مقصد الآية تعديد النعم وإقامة الحجة والأيدي هنا عند أهل التأويل عبارة عن القدرة وعند أهل التسليم من المتشابه الذي يجب الإيمان به وعلمه عند الله فمنها ركوبهم الركوب بفتح الراء هو المركوب ولهم فيها منافع يعني الأكل منها والحمل عليها والانتفاع بالجلود والصوف وغيره ومشارب يعني الألبان لا يستطيعون نصرهم الضمير في يستطيعون للأصنام وفي نصرهم للمشركين ويحتمل العكس ولكن الأول أرجح فإنه لما ذكر أن المشركين اتخذوا الأصنام لينصروهم أخبر أن الأصنام لا يستطيعون نصرهم فخاب أملهم ... 560

167 وهم لهم جند محضرون الضمير الأول للمشركين والثاني للأصنام يعني أن المشركين يخدمون الأصنام ويتعصبون لهم حتى أنهم لهم كالجند وقيل بالعكس بمعنى أن الأصنام جند محضرون لعذاب المشركين في الآخرة والأول أرجح لأنه تقبيح لحال المشركين فلا يحزنك قولهم تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم معللة لما بعدها

أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة براهين على الحشر يوم القيامة ورد على من أنكر ذلك والنطفة هي نطفة المني التي خلق الإنسان منها ولا شك أن الإله الذي قدر على خلق الإنسان من نطفة قادر على أن يخلقه مرة أخرى عند البعث وسبب الآية أن العاصي بن وائل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال يا محمد من يحيي هذا وقيل إن الذي جاء بالعظم أمية بن خلف وقيل أبي بن خلف فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم الله يحييه ويميتك ثم يحييك ويدخلك جهنم فإذا هو خصيم مبين أي متكلم قادر على الخصام يبين ما في نفسه بلسانه وضرب لنا مثلا إشارة إلى قول الكافرين من يحيي هذا العظم ونسي خلقه أي نسي الاستدلال بخلقته الأولى على بعثه والنسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الذهول أو الترك وهي رميم أي بالية متفتتة قل يحييها الذي أنشأها أول مرة استدلال بالخلقة الأولى على البعث وهو بكل خلق عليم أي يعلم كيف يخلق كل

شيء فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد فنائها والخلق هنا يحتمل أن يكون مصدرا أو بمعنى المخلوق الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا هذا دليل آخر على إمكان البعث وذلك أن الذين أنكروه من الكفار والطبائعيين قالوا طبع الموت يضاد طبع الحياة فكيف تصير العظام حية فأقام الله عليهم الدليل من الشجر الأخضر الممتلىء ماء مع مضادة طبع الماء للنار ويعني بالشجر زناد العرب وهو شجر المرخ والعفار فإنه يقطع من كل واحد منهما غصنا أخضر يقطر منه الماء فيسحق المرخ على

العفار فتنقدح النار بينهما قال ابن عباس ليس من شجرة إلا وفيها نار إلا العناب ولكنه في المرخ والعفار أكثر أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم هذا دليل آخر على البعث بأن الإله الذي قدر على خلق السموات والأرض على عظمهما وكبر أجرامهما قادر على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها والضمير في مثلهم يعود على الناس وهو الخلاق العليم ذكر في هذين الاسمين أيضا استدلال على البعث وكذلك في قوله إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون لأن هذا عبارة عن قدرته على جميع الأشياء ولا شك أن الخلاق العليم القدير لا يصعب عليه إعادة الأجساد فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء في هذا استدلال على البعث وتنزيه لله عما نسبه الكفار إليه من العجز عن البعث فإنهم ما قدروا الله حق قدره وكل من أنكر البعث فإنما أنكره لجهله بقدرة الله سبحانه وتعالى ... 561

---

168 سورة الصافات
والصافات صفا تقديره والجماعات الصافات ثم اختلف فيها فقيل هي الملائكة التي تصف في السماء صفوفا لعبادة الله وقيل هو من يصف من بني آدم في الصلوات والجهاد والأول أرجح لقوله حكاية عن الملائكة وإنا لنحن الصافون فالزاجرات زجرا هي الملائكة تزجر السحاب وغيرها وقيل الزاجرون بالمواعظ من بني آدم وقيل هي آيات القرآن المتضمنة للزجر عن المعاصي فالتاليات ذكرا هي الملائكة تتلو القرآن والذكر وقيل هم التالون للقرآن والذكر من بني آدم وهي كلها أشياء أقسم الله بها على أنه واحد ورب المشارق يعني مشارق الشمس وهي ثلاثمائة وستون مشرقا وكذلك المغارب فإنها تشرق كل يوم من أيام السنة في مشرق منها وتغرب في مغرب واستغنى بذكر المشارق عن ذكر المغارب لأنها معادلة لها فتفهم من ذكرها بزينة الكواكب قرئ بإضافة الزينة إلى الكواكب والزينة تكون مصدرا واسما لما يزان به فإن كان مصدرا فهو مضاف إلى الفاعل تقديره بأن زينة الكواكب اسما أو مضاف إلى المفعول تقديره بأن زينا الكواكب وإن كانت اسما فالإضافة بيان للزينة وقرئ بتنوين زينة وخفض الكواكب على البدل ونصب الكواكب على أنها مفعول بزينة أو بدل من موضع زينة وحفظا منصوب على المصدر تقديره وحفظناها حفظا أو مفعول من أجله والواو زائدة أو محمول على المعنى لأن المعنى إنا جعلنا

الكواكب زينة للسماء وحفظا مارد أي شديد الشر لا يسمعون إلى الملأ الأعلى الضمير في يسمعون للشياطين والملأ الأعلى هم الملائكة الذين يسكنون في السماء والمعنى أن الشياطين منعت من سماع أحاديث الملائكة وقرئ يسمعون بتشديد السين والميم ووزنه يتفعلون والسمع طلب السماع فنفى السماع على القراءة الأولى ونفى طلبه على القراءة بالتشديد والأول أرجح لقوله إنهم عن السمع لمعزولون ولأن ظاهر الأحاديث أنهم يستمعون لكنهم لا يسمعون شيئا منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم

لأنهم يرمون بالكواكب ويقذفون أي يرجمون يعني بالكواكب وهي التي يراها الناس تنقض قال النقاش ومكي ليست الكواكب الراجمة للشياطين بالكواكب الجارية في السماء لأن تلك لا ترى حركتها وهذه الراجمة ترى حركتها لقربها منا قال ابن عطية وفي هذا نظر دحورا أي طردا وإبعادا وإهانة لأن الدحر الدفع بعنف وإعرابه مفعول من أجله أو مصدر من يقذفون على المعنى أو مصدر في موضع الحال تقديره مدحورين عذاب واصب أي دائم لأنهم يرجمون ... 562

---

169 بالنجوم في الدنيا ثم يقذفون في جهنم إلا من خطف الخطفة من في وضع رفع بدل من الضمير في قوله لا يسمعون والمعنى لا تسمع الشياطين أخبار السماء إلا الشيطان الذي خطف الخطفة شهاب ثاقب أي شديد الإضاءة فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا الضمير لكفار قريش والاستفتاء نوع من السؤال وكأنه سؤال من يعتبر قوله ويجعل حجة لأن جوابهم عن السؤال مما تقوم به الحجة عليهم ومن خلقنا يراد به ما تقدم ذكره من الملائكة والسموات والأرض والمشارق والكواكب وقيل يراد به ما تقدم من الأمم والأول أرجح لقراءة ابن مسعود أم من عددنا ومقصد الآية إقامة الحجة عليهم في إنكارهم البعث في الآخرة كأنه يقول هذه المخلوقات أشد خلقا منكم فكما قدرنا على خلقهم كذلك نقدر على إعادتكم بعد فنائكم إنا خلقناهم من طير لازب اللازب اللازم أي يلزم ما جاوره ويلصق به ووصفه بذلك يراد به ضعف خلقة بني آدم بل عجبت ويسخرون أي عجبت يا محمد من ضلالهم وإعراضهم عن الحق أو عجبت من قدرة الله على هذه المخلوقات العظام المذكورة وقرئ عجبت بضم التاء وأشكل ذلك على من يقول إن التعجب مستحيل على الله فتأولوه بمعنى أنه جعله على حال يتعجب منها الناس وقيل تقديره قل يا محمد عجبت وقد جاء التعجب من الله في القرآن والحديث كقوله صلى الله عليه وسلم يعجب ربك من شاب ليس له صبوة وهو صفة فعل وإنما جعلوه مستحيلا على الله لأنهم قالوا إن التعجب استعظام خفي سببه والصواب أنه لا يلزم أن يكون خفي السبب بل هو لمجرد الاستعظام فعلى هذا لا يستحيل على الله ويسخرون تقديره وهم يسخرون منك أو من البعث وإذا رأوا آية يستسخرون الآية هنا العلامة كانشقاق القمر ونحوه وروي أنها نزلت في مشرك اسمه ركانة أراه النبي صلى الله عليه وسلم آيات فلم يؤمن ويستسخرون معناه

يسخرون فيكون فعل واستعمل بمعنى واحد وقيل معناه يستدعي بعضهم بعضا لأن يسخر وقيل يبالغون في السخرية

(2/420)

أئذا كنا ترابا الآية معناها استبعادهم وقد تقدم الكلام على الاستفهامين في الرعد أو آباؤنا بفتح الواو دخلت همزة الإنكار على واو العطف وقرئ بالإسكان عطفا بأو قل نعم وأنتم داخرون أي قل تبعثون والداخر الصاغر الذليل زجرة واحدة هي النفخة في الصور للقيام من القبور فإذا هم ينظرون يحتمل أن يكون من النظر بالأبصار أو من الانتظار أي ينتظرون ما يفعل بهم فهذا يوم الدين يحتمل أن يكون من كلامهم مثل الذي قبله أو مما يقال لهم مثل الذي بعده احشروا الآية خطاب للملائكة خاطبهم به الله تعالى أو خاطب به بعضهم بعضا وأزواجهم يعني نساؤهم المشركات وقيل يعني أصنامهم وقرناءهم من الجن والإنس وما كانوا يعبدون يعني الأصنام والآدميين الذين كانوا يرضون بذلك فاهدوهم إلى صراط الجحيم أي دلوهم على طريق جهنم ليدخلوها إنهم مسئولون يعني إنهم يسألون عن أعمالهم توبيخا لهم وقيل يسألون ... 563

(2/421)

---

170 عن قول لا إله إلا الله والأول أرجح لأنه أهم ويحتمل أن يسألوا عن عدم تناصرهم على وجه التهكم بهم فيكون مسئولون عاملا فيما بعده والتقدير يقال لهم ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا وقد كنتم في الدنيا تقولون نحن جميع منتصر مستسلمون أي منقادون عاجزون عن الانتصار قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين الضمير في قالوا للضعفاء من الكفار خاطبوا الكبراء منهم في جهنم أو للإنس خاطبوا الجن واليمين هنا يحتمل ثلاث معان الأول أن يراد بها طريق الخير والصواب وجاءت العبارة عن ذلك بلفظ اليمين كما أن العبارة عن الشر بالشمال والمعنى أنهم قالوا لهم إنكم كنتم تأتوننا عن طريق الخير فتصدوننا عنه والثاني أن يراد به القوة والمعنى على هذا أنكم كنتم تأتوننا بقوتكم وسلطانكم فتأمروننا بالكفر وتمنعوننا من الإيمان والثالث أن يراد بها اليمين التي يحلف بها أي كنتم تأتوننا بأن تحلفوا لنا أنكم على الحق فنصدقكم في ذلك ونتبعكم قالوا بل لم تكونوا مؤمنين الضمير في قالوا للكبراء من الكفار أو للشياطين والمعنى أنهم قالوا لأتباعهم ليس الأمر كما ذكرتم بل كفرتم باختياركم فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون أي وجب العذاب علينا وعليكم وإنا لذائقون معمول القول وحذف معمول ذائقون تقديره وجب القول بأنا ذائقون العذاب فأغويناكم إنا كنا غاوين أي دعوناكم إلى الغي لأنا كنا على غي فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون أي إن المتبوعين والأتباع مشتركون في عذاب النار يقولون إنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون الضمير في يقولون لكفار قريش ويعنون بشاعر مجنون محمد صلى الله عليه وسلم فرد الله عليهم بقوله بل جاء الحق أي جاء بالتوحيد والإسلام وهو الحق وصدق المرسلين الذين جاؤا قبله لأنه جاء بمثل ما جاؤا به ويحتمل المعنى أن يكون صدقهم لأنهم أخبروا

بنبوته فظهر صدقهم لما بعث عليه الصلاة والسلام إلا عباد الله المخلصين استثناء

(2/422)

منقطع بمعنى لكن وقرئ مخلصين بفتح اللام وكسرها في كل موضع وقد تقدم تفسيره على سرر متقابلين السرر جمع سرير وتقابلهم في بعض الأحيان للسرور بالأنس وفي بعض الأحيان ينفرد كل واحد بقصره يطاف عليهم بكأس من معين الذين يطوفون عليهم الولدان حسبما ورد في الآية الأخرى والكأس الإناء الذي فيه خمر قاله ابن عباس وقيل الكأس إناء واسع الفم ليس له مقبض سواء كان فيه خمر أم لا والمعين الجاري الكثير ووزنه فعيل والميم فيه أصلية وقيل هو مشتق من العين والميم زائدة ووزنه مفعول لذة أي ذات لذة فوصفها بالمصدر ... 564

(2/423)

---

171 اتساعا
لا فيها غول الغول اسم عام في الأذى والضير ومنه يقال غاله يغوله إذا أهلكه وقيل الغول وجع في البطن وقيل صداع في الرأس وإنما قدم المجرور هنا تعريضا بخمر الدنيا لأن الغول فيها ولا هم عنها ينزفون أي لا يسكرون من خمر الجنة ومنه النزيف وهو السكران وعن هنا سببية كقولك فعلته عن أمرك أي لا ينزفون بسبب شربها قاصرات الطرف معناه أنهن قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهن عين جميع عيناء وهو الكبيرة العينين في جمال كأنهن بيض مكنون قيل شبههن في اللون ببيض النعام فإنه بياض خالطه صفرة حسنة وكذلك قال امرىء القيس (كبكر مقناة البياض بصفرة) وقيل إنما التشبيه بلون قشر البيضة الداخلي الرقيق وهو المكنون المصون تحت القشرة الأولى وقيل أراد الجوهر المصون فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون هذا إخبار عن تحدث أهل الجنة قال الزمخشري هذه الجملة معطوفة على يطاف عليهم والمعنى أنهم يشربون فيتحدثون على الشراب بما جرى لهم في الدنيا إني كان لي قرين قيل إن هذا القائل وقرينه من البشر مؤمن وكافر وقيل إن قرينه كان من الجن يقول ائنك لمن المصدقين معناه أنه كان يقول له على وجه الإنكار أتصدق بالدنيا والآخرة لمدينون أي مجازون ومحاسبون على الأعمال ووزنه مفعول وهو من الدين بمعنى الجزاء والحساب قال هل أنتم مطلعون أي قال ذلك القائل لرفقائه في الجنة أو للملائكة أو لخدامه هل أنتم مطلعون على النار لأريكم ذلك العزيز فيها وروي أن في الجنة كوى ينظرون أهلها منها إلى النار في سواء الجحيم أي في وسطها قال تالله إن كدت لتردين أي تهلكن بإغوائك والردى الهلاك وهذا خطاب خاطب به المؤمن قرينه الذي في النار من المحضرين في العذاب أفما نحن بميتين هذا من كلام المؤمن خطاب لقرينه أو خطابا لرفقائه في الجنة ولهذا قال نحن فأخبر عن نفسه وعنهم ويحتمل أن يكون من

كلامه وكلامهم جميعا إن هذا لهو الفوز العظيم يحتمل أن يكون من كلام المؤمن أو من كلامه وكلام رفقائه في الجنة أو من كلام الله تعالى وكذلك يحتمل هذه الوجوه في قوله لمثل هذا فليعمل العاملون والأول أرجح فيه أن يكون من كلام الله تعالى لأن الذي بعده من كلام الله فيكون متصلا به ولأن الأمر بالعمل إنما هو حقيقة في الدنيا ففيه تحضيض على العمل الصالح أذلك خير أم شجرة الزقوم الإشارة بذلك إلى نعيم الجنة وكل ما ذكر من وصفها وقال الزمخشري الإشارة إلى قوله رزق معلوم والنزل الضيافة وقيل الرزق الكثير وجاء التفضيل هنا بين شيئين ليس بينهما اشتراك لأن الكلام تقرير وتوبيخ إنا جعلناها فتنة للظالمين قيل سببها أن أبا جهل وغيره لما سمعوا ذكر شجرة الزقوم قالوا كيف يكون في النار شجرة والنار تحرق ... 565

172 الشجر فالفتنة على هذا الابتلاء في الدنيا وقيل معناه عذاب الظالمين في الآخرة والمراد بالظالمين هنا الكفار إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم أي تنبت في قعر جهنم وترتفع أغصانها إلى دركاتها طلعها كأنه رؤس الشياطين الطلع ثمر النخل فاستعير لشجرة الزقوم وشبه برءوس الشياطين مبالغة في قبحه وكراهته نه قد تقرر في نفوس الناس كراهتها وإن لم يروها ولذلك يقال للقبيح المنظر وجه شيطان وقيل رؤس الشياطين شجرة معروفة باليمن وقيل هو صنف من الحيات لشوبا من حميم أي مزاجا من ماء حار فإن قيل لم عطف هذه الجملة بثم فالجواب من وجهين أحدهما أنه لترتيب تلك الأحوال في الزمان فالمعنى أنهم يملؤن البطون من شجر الزقوم وبعد ذلك يشربون الحميم والثاني أنه لترتيب مضاعفة العذاب فالمعنى أن شربهم للحميم أشد مما ذكر قبله يهرعون الإهراع الإسراع الشديد ولقد نادانا نوح أي دعانا فالمعنى دعاؤه بإهلاك قومه ونصرته عليهم من الكرب العظيم يعني الغرق وجعلنا ذريته هم الباقين أهل الأرض كلهم من ذرية نوح لأنه لما غرق الناس في الطوفان ونجا نوح ومن كان معه في السفينة تناسل الناس من أولاده الثلاثة سام وحام ويافث وتركنا عليه في الآخرين معناه أبقينا عليه ثناء جميلا في الناس إلى يوم القيامة سلام على نوح في العالمين هذا التسليم من الله على نوح عليه السلام وقيل إن هذه الجملة مفعول تركنا وهي محكية أي تركنا هذه الكلمة تقال له يعني أن الخلق يسلمون عليه فيبتدأ بالسلام على القول الأول لا على الثاني والأول أظهر ومعنى في العالمين على القول الأول تخصيصه بالسلام عليه بين العالمين كما تقول أحب فلانا في الناس أي أحبه خصوصا من بين الناس ومعناه على القول الثاني أن السلام عليه ثابت في العالمين وهذا الخلاف يجري حيث ما ذكر ذلك في هذه السورة وإن من شيعته لإبراهيم الشيعة الصنف المتفق فمعنى من شيعته من على دينه في

التوحيد والضمير يعود على نوح وقيل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والأول أظهر إذ جاء ربه عبارة عن إخلاصه وإقباله على الله تعالى بكليته وقيل المراد المجيء بالجسد بقلب سليم أي سليم من الشرك والشك وجميع العيوب أئفكا آلهة دون الله تريدون الإفك الباطل وإعرابه هنا مفعول من أجله وآلهة مفعول به وقيل ائفكا مفعول به وآلهة بدل منه وقيل أئفكا مصدر في موضع الحال تقديره آفكين أي كاذبين والأول أحسن ... 566

173 فما ظنكم برب العالمين المعنى أي شيء تظنون برب العالمين أن يعاقبكم به وقد عبدتم غيره أو أي شيء تظنون أنه هو حتى عبدتم غيره كما تقول ما ظنك بفلان إذا قصدت تعظيمه فالمقصد على المعنى الأول تهديد وعلى الثاني تعظيم لله وتوبيخ لهم فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم روي أن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه فدعوه إلى الخروج معهم فحينئذ قال إني سقيم ليمتنع عن الخروج معهم فيكسر أصنامهم إذا خرجوا لعيدهم وفي تأويل ذلك ثلاثة أقوال الأول أنها كانت تأخذه الحمى في وقت معلوم فنظر في النجوم ليرى وقت الحمى واعتذر عن الخروج لأنه سقيم من الحمى والثاني أن قومه كانوا منجمين وكان هو يعلم أحكام النجوم فأوهمهم أنه استدل بالنظر في علم النجوم أنه يسقم فاعتذر بما يخلف من السقم عن الخروج معهم والثالث أن معنى نظر في النجوم أنه نظر وفكر فيما يكون من أمره معهم فقال إني سقيم والنجوم على هذا ما ينجم من حاله معهم وليست بنجوم السماء وهذا بعيد وقوله إني سقيم على حسب هذه الأقوال يحتمل أن يكون حقا لا كذب فيه ولا تجوز أصلا ويعارض هذا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات أحدها قوله إني سقيم ويحتمل أن يكون كذبا صراحا وجاز له ذلك لهذا الاحتمال لأنه فعل ذلك من أجل الله إذ قصد كسر الأصنام ويحتمل أن يكون من المعاريض فإن أراد أنه سقيم فيما يسقبل لأن كل إنسان لا بد له أن يمرض أو أراد أنه سقيم النفس من كفرهم وتكذيبهم له وهذان التأويلان أولى لأن نفي الكذب بالجملة معارض للحديث والكذب الصراح لا يجوز على الأنبياء عند أهل التحقيق أما المعاريض فهي جائزة فتولوا عنه مدبرين أي تركوه إعراضا عنه وخرجوا إلى عيدهم وقيل إنه أراد بالسقم الطاعون وهو داء يعدي فخافوا منه وتباعدوا عنه مخافة العدوى فراغ أي مال فقال ألا تأكلون إنما قال ذلك على وجه الاستهزاء بالذين يعبدون تلك الأصنام ضربا باليمين

أي يمين يديه وقيل بالقوة وقيل بالحلف وهو قوله تالله لأكيدن أصنامكم والأول أظهر وأليق بالضرب وضربا مصدر في موضع الحال يزفون أي يسرعون قال أتعبدون ما تنحتون أي تنجرون والنحت النجارة إشارة إلى صنعهم للأصنام

من الحجارة والخشب والله خلقكم وما تعملون ذهب قوم إلى أن ما مصدرية والمعنى الله خلقكم وأعمالكم وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد وقيل إنها موصولة بمعنى الذي والمعنى الله خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها وهذا أليق بسياق الكلام وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام وقيل إنها نافية وقيل إنها استفهامية وكلاهما باطل قالوا ابنوا له بنيانا قيل البنيان في موضع النار وقيل بل كان للمنجنيق الذي رمى عنه فأرادوا به كيدا يعني حرقه بالنار فجعلناهم الأسفلين أي المغلوبين وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين قيل إنه قال هذا بعد خروجه من النار وأراد أنه ذاهب أي مهاجر إلى الله فهاجر إلى أرض الشام وقيل إنه قال ذلك قبل أن يطرح في النار وأراد أنه ذاهب إلى ربه بالموت لأنه ظن أن النار تحرقه وسيهدين على القول الأول يعني الهدى إلى صلاح ... 567

---

174 الدين والدنيا وعلى القول الثاني إلى الجنة وقالت المتصوفة معناه إني ذاهب إلى ربي بقلبي أي مقبل على الله بكليتي تاركا سواه رب هب لي من الصالحين يعني ولدا من الصالحين فبشرناه بغلام حليم أي عاقل واختلف الناس في هذا الغلام المبشر به في هذا الموضع وهو الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال ابن عباس وابن عمر وجماعة من التابعين هو إسماعيل وحجتهم من ثلاثة أوجه الأول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنا ابن الذبيحين يعني إسماعيل عليه السلام ووالده عبد الله حين نذر والده عبد المطلب أن ينحره إن يسر الله له أمر زمزم ففداه بمائة من الإبل والثاني أن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح وبشرناه بإسحق فدل ذلك على أن الذبيح غيره والثالث أنه روي أن إبراهيم جرت له قصة الذبح بمكة وإنما كان معه بمكة إسماعيل وذهب علي بن أبي طالب وابن مسعود وجماعة من التابعين إلى أن الذبيح إسحاق وحجتهم من وجهين الأول أن البشارة المعروفة لإبراهيم بالوادي إنما كانت بإسحاق لقوله فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب والثاني أنه روي أن يعقوب كان يكتب من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله فلما بلغ معه السعي يريد بالسعي هنا العمل والعبادة وقيل المشي وكان حينئذ ابن ثلاثة عشر سنة قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك يحتمل أن يكون رأى في المنام الذبح وهو الفعل أوأمر في المنام أنه يذبحه والأول أظهر في اللفظ هنا والثاني أظهر في قوله افعل ما تؤمر ورؤيا الأنبياء حق فوجب عليه الامتثال على الوجهين فانظر ماذا ترى إن قيل لم شاوره في أمر هو حتم من الله فالجواب أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه ولكن ليعلم ما عنده فيثبت قلبه ويوطن نفسه على الصبر فأجابه بأحسن جواب فلما أسلما أي استسلما وانقادا لأمر الله وتله للجبين أي صرعه بالأرض على جبينه وللإنسان جبينان حول الجبهة وجواب لما محذوف عند البصريين تقديره

فلما أسلما كان ما كان من الأمر العظيم وقال الكوفيون جوابها تله والواو زائدة وقال بعضهم جوابها ناديناه والواو زائدة قد صدقت الرؤيا يحتمل أنه يريد بقلبك أي كانت عندك رؤيا صادقة فعملت بحسبها ويحتمل أن يريد صدقتها بعملك أي وفيت حقها من العمل فإن قيل إنه أمر بالذبح ولم يذبح فكيف قيل له صدقت الرؤيا فالجواب أنه قد بذل جهده إذ قد عزم على الذبح ولو لم يفده الله لذبحه ولكن الله هو الذي منعه من ذبحه لما فداه فامتناع ذبح الولد إنما كان من الله وبأمر الله وقد قضى إبراهيم ما عليه البلاء المبين أي الاختبار البين الذي يظهر به طاعة الله أو المحنة البينة الصعوبة وفديناه بذبح عظيم الذبح اسم لما يذبح وأراد به هنا الكبش الذي فدى به وروي أنه من كباش الجنة وقيل إنه الكبش الذي قرب به ولد آدم ووصفه بعظيم لذلك أو لأنه من عند الله أو لأنه متقبل وروي في القصص أن الذبيح قال لإبراهيم اشدد رباطي لئلا أضطرب واصرف بصرك عني ... 568

---

175 لئلا ترحمني وأنه أمر الشفرة على حلقه فلم تقطع فحينئذ جاءه الكبش من عند الله وقد أكثر الناس في قصص هذه الآية وتركناه لعدم صحتة كذلك نجزي المحسنين إن قيل لم قال هنا في قصة إبراهيم كذلك دون قوله إنا وقال في غيرها إنا فالجواب أنه قد تقدم في قصة إبراهيم نفسها إنا كذلك فأغنى عن تكرار إنا ولقد مننا على موسى وهارون يعني بالنبوة وغير ذلك من الكرب العظيم يعني الغرق أو تعذيب فرعون وإذلاله لهم ونصرناهم الضمير يعود على موسى وهارون وقومهما وقيل على موسى وهارون خاصة وعاملهما معاملة الجماعة للتعظيم وهذا ضعيف وآتيناهما الكتاب المستبين يعني التوراة ومعنى المستبين البين وفي هذه الآية وما بعدها نوع من أدوات البيان وهو الترصيع وإن إلياس لمن المرسلين إلياس من ذرية هارون وقيل إنه إدريس وقد أخطأ من قال إنه إلياس المذكور في أجداد النبي صلى الله عليه وسلم أتدعون بعلا البعل في اللغة الرب بلغة أهل اليمن وقيل بعل اسم صنم يقال له بعلبك سلام على آل ياسين آل هنا على هذه القراءة بمعنى أهل ياسين اسم لإلياس وقيل لأبيه وقيل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقرئ إلياسين بكسر الهمزة ووصل اللام ساكنة على هذا جمع إلياس أو منسوب لإلياس حذفت منه الياء كما حذفت من أعجمين وقيل سمي كل واحد من آل ياسين إلياس ثم جمعهم وقيل هو لغة في إلياس عجوز في الغابرين قد ذكر وإن يونس لمن المرسلين قد ذكرنا قصته في يونس والأنبياء إذ أبق إلى الفلك المشحون أي هرب إلى السفينة والفلك هنا واحد والمشحون المملوء وسبب هروبه غضبه على قومه حين لم يؤمنوا وقيل إنه أخبرهم أن العذاب يأتيهم في يوم معين حسبما أعلمه الله فلما رأوا قومه مخايل العذاب آمنوا فرفع الله عنهم العذاب فخاف أن ينسبوه إلى الكذب فهرب فساهم فكان من المدحضين معنى ساهم ضارب القرعة والمدحض المغلوب في القرعة والمحاجة وسبب مقارعته

أنه لما ركب السفينة وقفت ولم تجر فقالوا إنما وقفت من حدث أحدثه أحدنا فنقترع لنرى على من تخرج ... 569
176 القرعة فنطرحه فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس فطرحوه في البحر فالتقمه الحوت وهو مليم أي فعل ما يلام عليه وذلك خروجه بغير أن يأمره الله بالخروج فلولا أنه كان من المسبحين تسبيحه هو قوله لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين حسبما حكى الله عنه في الأنبياء وقيل هو قوله سبحان الله وقيل هو الصلاة واختلف على هذا هل يعني صلاته في بطن الحوت أو قبل ذلك واختلف في مدة بقائه في بطن الحوت فقيل ساعة وقيل ثلاثة أيام وقيل سبعة أيام وقيل أربعون يوما فنبذناه بالعراء العراء الأرض الفضاء التي لا شجر فيها ولا ظل وقيل يعني الساحل وهو سقيم روي أنه كان كالطفل المولود بضعة لحم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين أي أنبتناها فوقه لتظله وتقيه حر الشمس واليقطين القرع وإنما خصه الله به لأنه يجمع برد الظل ولين اللمس وكبر الورق وأن الذباب لا يقربه فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب وقيل اليقطين كل شجرة لا ساق لها كالبقول والقرع والبطيخ والأول أشهر وأرسلناه إلى مائة ألف يعني رسالته الأولى التي أبق بعدها وقيل هذه رسالة ثانية بعد خروجه من بطن الحوت والول أشهر أو يزيدون قيل أو هنا بمعنى بل وقرأ ابن عباس بل يزيدون وقيل هي بمعنى الواو وقيل هي للإبهام وقيل المعنى أن البشر إذا نظر إليهم يتردد فيقول هم مائة ألف أو يزيدون واختلف في عددهم فقيل مائة وعشرون ألفا وقيل مائة وثلاثون ألفا وقيل مائة وأربعون ألفا وقيل مائة وسبعون ألفا فآمنوا فمتعناهم إلى حين روي أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم وفرقوا بينهم وبين الأمهات وناحوا وتضرعوا إلى الله وأخلصوا فرفع الله العذاب عنهم إلى حين يعني لانقضاء آجالهم وقد ذكر الناس في قصة يونس أشياء كثيرة أسقطناها لضعف صحتها فاستفتهم ألربك

البنات ولهم البنون قال الزمخشري إن هذا معطوف على قوله فاستفتهم الذي في أول السورة وإن تباعد ما بينهما والضمير المفعول لقريش وسائر الكفار أي اسألهم على وجه التقرير والتوبيخ عما زعموا من أن الملائكة بنات الله فجعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور وتلك قسمة ضيزى ثم قررهم على ما زعموا من أن الملائكة إناث ورد عليهم بقوله وهم شاهدون ويحتمل أن يكون بمعنى الشهادة أو بمعنى الحضور أي أنهم لم يحضروا ذلك ولم يعلموه ثم أخبر عن كذبهم في قولهم ولد الله ثم قررهم على ما زعموا من أن الله اصطفى لنفسه البنات وذلك كله رد عليهم وتوبيخ لهم تعالى الله عن أقوالهم علوا كبيرا أصطفى دخلت همزة التقرير والتوبيخ على ألف الوصل فحذفت ألف الوصل مالكم هذا استفهام معناه التوبيخ وهي في موضع رفع بالابتداء والمجرور بعدها خبرها فينبغي الوقف على قوله مالكم ام لكم سلطان مبين أي برهان بين فأتوا بكتابكم تعجيز لهم لأنهم ليس لهم كتاب يحتجون به وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ... 570

177 الضمير في جعلوا لكفار العرب وفي معنى الآية قولان أحدهما أن الجنة هنا الملائكة وسميت بهذا الاسم لأنه مشتق من الاجتنان وهو الاستتار والملائكة مستورين عن أعين بني آدم كالجن والنسب الذي جعلوه بينهم وبين الله قولهم إنهم بنات الله والقول الثاني أن الجن هنا الشياطين وفي النسب الذي جعلوه بينه وبينهم قولان أحدهما أن بعض الكفار قالوا إن الله والشياطين أخوان تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا والآخر أن بعضهم قال إن الله نكح في الجن فولدت له الملائكة سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ولقد علمت الجن إنهم لمحضرون من قال إن الجن الملائكة فالضمير في قوله إنهم لمحضرون يعود على الكفار أي قد علمت الملائكة أن الكفار محضرون في العذاب ومن قال إن الجن الشياطين فالضمير يعود عليهم أي قد علمت الشياطين أنهم محضرون في العذاب إلا عباد الله المخلصين استثناء منقطع من المحضرين أو من الفاعل في يصفون والمعنى لكن عباد الله المخلصين لا يحضرون في العذاب أو لكن عباد الله المخلصين يصفونه بما هو أهله فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم هذا خطاب للكفار والمراد بما تعبدون الأصنام وغيرها وما تعبدون عطف على الضمير في إنكم ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ومعنى فاتنين مضلين والضمير في عليه يعود على ما تعبدون وعلى سببية معناها التعليل ومن هو مفعول بفاتنين والمعنى إنكم أيها الكفار وكل ما تعبدونه لا تضلون أحدا إلا من قضى الله أنه يصلى الجحيم أي لا تقدرون على إغواء الناس إلا بقضاء الله وقال الزمخشري الضمير في عليه يعود على الله تعالى وما منا إلا له مقام معلوم هذا حكاية كلام الملائكة عليهم السلام تقديره ما منا ملك إلا وله مقام معلوم وحذف الموصوف لفهم الكلام والمقام المعلوم يحتمل أن يراد به المكان الذي يقومون فيه لأن منهم من هو في السماء الدنيا وفي الثانية وفي السموات وحيث شاء

الله ويحتمل أن يراد به المنزلة من العبادة والتقريب والتشريف وإنا لنحن الصافون أي الواقفون في العبادة صفوفا ولذلك أمر المسلمون بتسوية الصفوف في صلاتهم ليقتدوا بالملائكة وليس أحد من أهل الملل يصلون صفوفا إلا المسلمون وإنا لنحن المسبحون قيل معناه المصلون لأن الصلاة يقال لها تسبيح وقيل معناه القائلون سبحان الله وفي هذا الكلام الذي قالته الملائكة رد على من قال إنهم بنات الله وشركاء له لأنهم اعترفوا على أنفسهم بالعبودية والطاعة لله والتنزيه له ويدل هذا الكلام أيضا على أن المراد بالجن قيل هذا الملائكة وقيل إنه هذا كله من كلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكلام المسليمن والأول أشهر وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين الضمير لكفار قريش وسائر العرب والمعنى أنهم كانوا قبل بعث محمد صلى الله عليه وسلم يقولون لو أرسل الله إلينا رسولا وأنزل علينا كتابا لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به الضمير للذكر أو لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأن المعنى يقتضي ذلك وإن لم يتقدم له ذكر فسوف يعلمون تهديد ووعيد لهم

على كفرهم ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ... 571

---

178 المعنى سبق القضاء بأن المرسلين منصورون على أعدائهم وإن جندنا لهم الغلبون هذا النصر والغلبة بظهور الحجة والبرهان وبهزيمة الأعداد في القتال وبالسعادة في الآخرة فتول عنهم حتى حين أي أعرض عنهم وذلك موادعة منسوخة بالسيف والحين هنا يراد به يوم بدر وقيل حضور آجالهم وقيل يوم القيامة وأبصر فسوف يبصرون هذا وعد للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد لهم أفبعذابنا يستعجلون إشارة إلى قولهم متى هذا الوعد وأمطر علينا حجارة من السماء وشبه ذلك فإذا نزل بساحتهم الساحة الفناء حول الدار والعرب تستعمل هذه اللفظة فيما يرد على الإنسان من محظور وسوء فساء صباح المنذرين الصباح مستعمل في ورود الغارات والرزايا ومقصد الآية التهديد بعذاب يحل بهم بعد أن أنذروا فلم ينفعهم الإنذار وذلك تمثيل بقوم أنذرهم ناصح بأن جيشا يحل بهم فلم يقبلوا نصحه حتى جاءهم الجيش وأهلكهم وأبصر كرر الأمر بالتولي عنهم والوعد والوعيد على وجه التأكيد وقيل أراد بالوعيد الأول عذاب الدنيا وبالثاني عذاب الآخرة فإن قيل لم قال أولا أبصرهم وقال هنا أبصر فحذف الضمير المفعول فالجواب من وجهين أحدهما أنه اكتفى بذكره أولا عن ذكره ثانيا فحذفه اقتصارا والآخر أنه حذفه ليفيد العموم فيمن تقدم وغيرهم كأنه قال أبصر جميع الكفار بخلاف الأول فإنه في قريش خاصة سبحان ربك رب العزة عما يصفون نزه الله تعالى نفسه عما وصفه به الكفار مما لا يليق به فإنه حكى عنهم في هذه السورة أقوالا كثيرة شنيعة والعزة إن أراد بها عزة الله فمعنى رب العزة ذو العزة وأضافها إليه لاختصاصه بها وإن أراد بها عزة الأنبياء والمؤمنين فمعنى رب العزة مالكها وخالقها ومن هذا قال محمد بن سحنون من حلف بعزة الله فإن أراد صفة الله فهي يمين وإن أراد العزة التي أعطى عباده فليست بيمين ثم ختم هذه السورة بالسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين فأما السلام على

المرسلين فيحتمل أن يريد به التحية أو سلامتهم من أعدائهم ويكون ذلك تكميلا لقوله إنهم لهم المنصورون وأما الحمد لله فيحتمل أن يريد به الحمد لله على ما ذكر في هذه السورة من تنزيه الله ونصرة الأنبياء وغير ذلك ويحتمل أن يريد الحمد لله على الإطلاق
سورة [ص] وتسمى سورة داود عليه السلام ص تكلمنا على حروف الهجاء في البقرة ويختص بهذا أنه قال فيه معناه صدق محمد وقيل هو حرف ... 572 179 من اسم الله الصمد أو صادق الوعد أو صانع المصنوعات والقرآن ذي الذكر هذا قسم جوابه محذوف تقديره إن القرآن من عند الله وإن محمدا لصادق وشبه ذلك وقيل جوابه في قوله صلى الله عليه وسلم إذ هو بمعنى صدق محمد وقيل جوابه إن كل إلا كذب الرسل وهذا بعيد وقيل جوابه إن ذلك

لحق تخاصم أهل النار وهذا أبعد ومعنى ذي الذكر ذي الشرف والذكر بمعنى الموعظة أو ذكر الله وما يحتاج إليه من الشريعة بل الذين كفروا في عزة وشقاق الذين كفروا يعني قريشا وبل للإضراب عن كلام محذوف وهو جواب القسم أي إن كفرهم ليس ببرهان بل هو بسبب العزة والشقاق والعزة التكبر والشقاق العداوة وقصد المخالفة وتنكيرهما للدلالة على شدتهما وتفاخم الكفار فيهما كم أهلكنا من قبلهم من قرن إخبار يتضمن تهديدا لقريش فنادوا ولات حين مناص المعنى أن القرون الذين هلكوا دعوا واستغاثوا حين لم ينفعهم ذلك ولات بمعنى ليس وهي لا النافية زيدت عليها علامة التأنيث كما زيدت في ربت وثمت ولا تدخل لات إلا على زمان واسمها مضمر وحين مناص خبرها والتقدير ليس الحين الذي دعوا فيه حين مناص والمناص المفر والنجاة من قولك ناص ينوص إذا فر وعجبوا أن جاءهم منذر منهم الضمير لقريش والمنذر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أي استبعدوا أن يبعث الله رسولا منهم ويحتمل أن يريد من قبيلتهم أو يريد من البشر مثلهم وقال الكافرون كان الأصل وقالوا ولكن وضع الظاهر موضع المضمر قصدا لوصفهم بالكفر

أجعل الآلهة إلها واحدا هذا إنكار منهم للتوحيد وسبب نزول هذه الآيات أن قريشا اجتمعوا وقالوا لأبي طالب كف ابن أخيك عنا فإنه يعيب ديننا ويذم آلهتنا ويسفه أحلامنا فكلمه أبو طالب في ذلك فقال صلى الله عليه وسلم إنما أريد منهم كلمة واحدة يملكون بها العجم وتدين لهم بها العرب فقالوا نعم وعشر كلمات معها فقال قولوا لا إله إلا الله فقاموا وأنكروا ذلك وقالوا أجعل الآلهة إلها واحدا وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا انطلاق الملأ عبارة عن خروجهم عن أبي طالب وقيل عبارة عن تفرقتهم في طرق مكة وإشاعتهم للكفر وأن امشوا معناه يقول بعضهم لبعض امشوا واصبروا على عبادة آلهتكم ولا تطيعوا محمدا فيما يدعوا إليه من عبادة الله وحده إن هذا لشيء يراد هذا أيضا مما حكى الله من كلام قريش وفي معناه وجهان أحدهما أن الإشارة إلى الإسلام والتوحيد أي إن هذا التوحيد شيء يراد منا الانقياد إليه والآخر أن الإشارة إلى الشرك والصبر على آلهتهم أي إن هذا لشيء ينبغي أن يراد ويتمسك به أو أن هذا شيء يريده الله منا لما قضى علينا به والأول أرجح لأن الإشارة فيما بعد ذلك إليه فيكون الكلام على نسق واحد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة هذا أيضا مما حكى الله عنهم من كلامهم أي ما سمعنا بالتوحيد في الملة الآخرة والمراد بالملة الآخرة ملة النصارى لأنها بعد ملة موسى وغيره وهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد وقيل المراد ملة قريش أي ما سمعنا بهذا في الملة التي أدركنا عليها آباءنا وقيل المراد الملة المنتظرة إذ كانوا يسمعون من الأحبار والكهان أن رسولا يبعث يكون آخر الأنبياء إن هذا ... 573

---

180 إلا اختلاق) هذا أيضا مما حكي من كلامهم والإشارة إلى التوحيد والإسلام ومعنى الاختلاف الكذب أنزل عليه الذكر من بيننا الهمزة للإنكار

والمعنى أنهم أنكروا أن يخص الله محمدا صلى الله عليه وسلم بإنزال القرآن عليه دونهم بل هم في شك من ذكري هذا رد عليهم والمعنى أنهم ليست لهم حجة ولا برهان بل هم في شك من معرفة الله وتوحيده فلذلك كفروا ويحتمل أن يريد بالذكر القرآن بل لما يذوقوا عذاب هذا وعيد لهم وتهديد والمعنى أنهم إنما حملهم على الكفر كونهم لم يذوقوا العذاب فإذا ذاقوه زال عنهم الشك وأذعنوا للحق أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب هذا رد عليهم فيما أنكروا من اختصاص محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة والمعنى أنهم ليس عندهم خزائن رحمة الله حتى يعطوا النبوة من شاؤا ويمنعوا من شاؤا بل يعطيها الله لمن يشاء ثم وصف نفسه بالعزيز الوهاب لأن العزيز يفعل ما يشاء والوهاب ينعم على من يشاء فلا حجة لهم فيما أنكروا أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما هذا أيضا رد عليهم والمعنى أم لهم الملك فيتصرفون فيه كيف شاؤا بل مالك الملك يفعل في ملكه ما يشاء وأم الأولى منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار وأما أم الثانية فيحتمل أن تكون كذلك أو تكون عاطفة معادلة لما قبلها فليرتقوا في الأسباب هذا تعجيز لهم وتهكم بهم ومعنى يرتقوا يصعدوا والأسباب هنا السلالم والطرق وشبه ذلك مما يوصل به إلى العلو وقيل هي أبواب السماء والمعنى إن كان لهم ملك السموات والأرض فليصعدوا إلى العرش ويدبروا الملك جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب هذا وعيد بهزيمتهم في القتال وقد هزموا يوم بدر وغيره وما هنالك صفة لجند وفيها معنى التحقير لهم والإشارة بهنالك إلى حيث وصفوا أنفسهم من الكفر والاستهزاء وقيل الإشارة إلى الارتقاء في الأسباب وهذا بعيد وقيل الإشارة إلى موضع بدر ومن الأحزاب معناه من جملة الأحزاب الذين تعصبوا للباطل

فهلكوا وفرعون ذي الأوتاد قال ابن عباس كانت له أوتاد وخشب يلعب بها وعليها وقيل كانت له أوتاد يسمرها في الناس لقتلهم وقيل أراد المباني العظام الثابتة ورجحه ابن عطية وقال الزمخشري إن ذلك استعارة في ثبات الملك كقول القائل في ظل ملك ثابت الأوتاد وأصحاب الأيكة قد ذكر وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ينظر هنا بمعنى ينتظر وهؤلاء يعني قريشا والصيحة الواحدة النفخة في الصور وهي نفخة الصعق وقيل الصيحة عبارة عما أصابهم من قتل أو شدة والأول أظهر وقد روي تفسيرها بذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم مالها من فواق فيه ثلاثة أقوال الأول ما لها رجوع أي لا يرجعون بعدها إلى الدنيا وهو على هذا مشتق من الإفاقة الثاني ما لها من ترداد أي إنما هي واحدة لا ثانية لها الثالث ما لها من تأخير ولا توقف مقدار فواق ناقة وهي ما بين حلبتي اللبن وهذا القول الثالث إنما يجري على قراءة فواق بالضم لأن فواق الناقة ... 574

---

181 بالضم والقولان الأولان على الفتح والضم وقالوا ربنا عجل لنا قطنا القط في اللغة له معنيان أحدها الكتاب والآخر النصيب وفي معناه ثلاثة أقوال أحدها

نصيبنا من الخير أي دعوا أن يعجله الله لهم في الدنيا والآخر نصيبهم من العذاب فهو كقولهم أمطر علينا حجارة من السماء الثالث صحائف أعمالنا اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب الأيد القوة وكان داود جمع قوة البدن وقوة الدين والملك والجنود والأواب الرجاع إلى الله فإن قيل ما المناسبة بين أمر الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالصبر على أقوال الكفار وبين أمره له بذكر داود فالجواب عندي أن ذكر داود ومن بعده من الأنبياء في هذه السورة فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعد له بالنصر وتفريج الكرب وإعانة له على ما أمر به من الصبر وذلك أن الله ذكر ما أنعم به على داود من تسخير الطير والجبال وشدة ملكه وإعطائه الحكمة وفصل الخطاب ثم الخاتمة له في الآخرة بالزلفى وحسن المآب فكأنه يقول يا محمد كما أنعمنا على داود بهذه النعم كذلك ننعم عليك فاصبر ولا تحزن على ما يقولون ثم ذكر ما أعطى سليمان من الملك العظيم وتسخير الريح والجن والخاتمة بالزلفى وحسن المآب ثم ذكر من ذكر بعد ذلك من الأنبياء والمقصد ذكر الإنعام عليهم لتقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم وأيضا فإن داود وسليمان وأيوب أصابتهم شدائد ثم فرجها الله عنهم وأعقبها بالخير العظيم فأمر سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بذكرهم ليعلمه أنه يفرج عنه ما يلقى من إذاية قومه ويعقبها بالنصر والظهور عليهم فالمناسبة في ذلك ظاهرة وقال ابن عطية المعنى اذكر داود ذا الأيدي في الدين فتأس به وتأيد كما تأيد وأجاب الزمخشري عن السؤال فإنه قال كأن الله قال لنبيه صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون وعظم أمر المعصية في أعين الكفار بذكر قصة داود وذلك أنه نبي كريم عند الله ثم زل زلة فوبخه الله

عليها فاستغفر وأناب فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم وهذا الجواب لا يخفى ما فيه من سوء الأدب مع داود عليه السلام حيث جعله مثالا يهدد الله به الكفار وصرح بأنه زل وأن الله وبخه على زلته ومعاذ الله من ذكر الأنبياء بمثل هذا والإشراق يعني وقت الإشراق وهو حين تشرق الشمس أي تضيء ويصفر شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها محشورة أي مجموعة كل له أواب أي كل مسبح لأجل تسبيح داود ويحتمل أن يكون أواب هنا بمعنى رجاع أي ليرجع إلى أمره وآتيناه الحكمة قيل يعني النبوة وقيل العلم والفهم وقيل الزبور وفصل الخطاب قال ابن عباس هو فصل القضاء بين الناس بالحق وقال علي بن أبي طالب هو إيجاب اليمين على المدعى عليه والبينة على المدعي وقيل أراد قول أما بعد فإنه أول من قالها وقال الزمخشري معنى فصل الخطاب البين من الكلام الذي يفهمه من يخاطب به وهذا المعنى اختاره ابن عطية وجعله من قوله تعالى إنه لقول فصل وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب جاءت هذه القصة بلفظ الاستفهام تنبيها ... 575

---

182 للمخاطب ودلالة على أنها من الأخبار العجيبة التي ينبغي أن يلقي البال لها والخصم يقع على الواحد والاثنين والجماعة كقولك عدل وزور واتفق الناس على أن هؤلاء الخصم كانوا ملائكة وروي أنهما جبريل وميكائيل بعثهما الله ليضرب بهما المثل لداود في نازلة وقع هو في مثلها فأفتى بفتيا هي واقعة عليه في نازلته ولما شعر وفهم المراد أناب واستغفر وسنذكر القصة بعد هذا ومعنى تسوروا المحراب علوا على سوره ودخلوه والمحراب الموضع الأرفع من القصر أو المسجد وهو موضع التعبد ويحتمل أن يكون المتسور المحراب اثنين فقط لأن نفس الخصومة إنما كانت بين اثنين فقط فتجيء الضمائر في تسوروا ودخلوا وفزع منهم على وجه التجوز والعبارة عن الاثنين بلفظ الجماعة وذلك جائز على مذهب من يرى أن أقل الجمع اثنان ويحتمل أنه جامع كل واحد من الخصمين جماعة فيقع على جميعهم خصم وتجيء الضمائر المجموعة حقيقة وعلى هذا عول الزمخشري إذ دخلوا على داود ففزع منهم العامل في إذ هنا تسوروا وقيل هي بدل من الأولى وأما إذ الأولى فالعامل فيها أتاك أو تسوروا ورد الزمخشري ذلك وقال إن العامل فيها محذوف تقديره هل أتاك نبأ تحاكم الخصم إذ تسوروا وإنما فزع داود منهم لأنهم دخلوا عليه بغير إذن ودخلوا من غير الباب وقيل إن ذلك كان ليلا خصمان بغى بعضنا على بعض تقديره نحن خصمان ومعنى بغى تعدى ولا تشطط أي لا تجر علينا في الحكم يقال أشط الحاكم إذا جار وقرئ في الشاذ لا تشطط بفتح التاء أي لا تبعد عن الحق يقال شط إذا بعد سواء الصراط أي وسط الطريق ويعني القصد والحق الواضح إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب هذه حكاية كلام أحد الخصمين والأخوة هنا أخوة الدين والنعجة في اللغة تقع على أنثى بقر الوحش وعلى أنثى الضأن وهي هنا عبارة عن المرأة ومعنى أكفلنيها أملكها لي وأصله اجعلها في كفالتي وقيل اجعلها كفلي أي

نصيبي ومعنى عزني في الخطاب أي غلبني في الكلام والمحاورة يقال عز فلان فلانا إذا غلبه وهذا الكلام تمثيل للقصة التي وقع داود فيها وقد اختلف الناس فيها وأكثروا القول فيها قديما وحديثا حتى قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه من حدث بما يقول هؤلاء القصاص في أمر داود عليه السلام جلدته حدين لما ارتكب من حرمة من رفع الله محله ونحن نذكر من ذلك ما هو أشهر وأقرب إلى تنزيه داود عليه السلام روي أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأة فيتزوجها إذا أعجبته وكانت لهم عادة في ذلك لا ينكرونها وقد جاء عن الأنصار في أول الإسلام شيء من ذلك فاتفق أن وقعت عين داود على امرأة رجل فأعجبته فسأله النزول عنها ففعل وتزوجها داود عليه السلام فولد له منها سليمان عليه السلام وكان لداود تسع وتسعون امرأة فبعث الله إليه ملائكة مثالا لقصته فقال أحدهما إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة إشارة إلى التسع والتسعين امرأة التي كانت لداود ولي نعجة واحدة إشارة إلى أن ذلك الرجل لم تكن له إلا تلك المرأة الواحدة فقال أكفلنيها إشارة إلى سؤال داود من الرجل النزول عن امرأته فأجابه داود عليه

السلام بقوله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه فقامت الحجة عليه بذلك فتبسم الملكان عند ذلك ... 576

---

183 وذهبا ولم يرهما فشعر داود أن ذلك عتاب من الله له على ما وقع فيه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ولا تقتضي هذه القصة على هذه الرواية أن داود عليه السلام وقع فيما لا يجوز شرعا وإنما عوتب على أمر جائز كان ينبغي له أن يتنزه عنه لعلو مرتبته ومتانة دينه فإنه قد يعاتب الفضلاء على ما لا يعاتب عليه غيرهم كما قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين وأيضا فإنه كان له تسع وتسعون امرأة فكان غنيا عن هذه المرأة فوقع العتاب على الاستكثار من النساء وإن كان جائزا وروي هذا الخبر على وجه آخر وهو أن داود انفرد يوما في محرابه للتعبد فدخل عليه طائر من كوة فوقع بين يديه فأعجبه فمد يده ليأخذه فطار على الكوة فصعد داود ليأخذه فرأى من الكوة امرأة تغتسل عريانة فأعجبته ثم انصرف فسأل عنها فأخبر أنها امرأة رجل من جنده وأنه خرج للجهاد مع الجند فكتب داود إلى أمير تلك الحرب أن يقدم ذلك الرجل يقاتل عند التابوت وهو موضع قل ما تخلص أحد منه فقدم ذلك الرجل فقاتل حتى قتل شهيدا فتزوج داود امرأته فعوتب على تعريضه ذلك الرجل للقتل وتزوجه امرأته بعده مع أنه كان له تسع وتسعون امرأة سواها وقيل إن داود هم بذلك كله ولم يفعله وإنما وقعت المعاتبة على همه بذلك وروي أن السبب فيما جرى له مثل ذلك أنه أعجب بعلمه وظهر منه ما يقتضي أنه لا يخاف الفتنة على نفسه ففتن بتلك القصة وروي أيضا أن السبب في ذلك أنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب والتزم أن يبتلى كما ابتلوا فابتلاه الله بما جرى له في تلك القصة قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه سؤال مصدر مضاف إلى المفعول وإنما تعدى بإلى لأنه تضمن معنى الإضافة كأنه قال بسؤال نعجتك مضافة أو مضمومة إلى نعاجه فإن قيل كيف قال له داود لقد ظلمك قبل أن يثبت عنده ذلك فالجواب أنه روي أن الآخر اعترف بذلك وحذف ذكر اعترافه اختصارا ويحتمل أن يكون قوله لقد ظلمك على تقدير صحة قوله وقد قيل إن قوله

لأحد الخصمين لقد ظلمك قبل أن يسمع حجة الآخر كانت خطيئته التي استغفر منها وأناب وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الخلطاء هم الشركاء في الأموال ولكن الخلطة أعم من الشركة ألا ترى أن الخلطة في المواشي ليست بشركة في رقابها وقصد داود بهذا الكلام الوعظ للخصم الذي بقي والتسلية بالتأسي للخصم الذي بقي عليه وقليل ما هم ما زائدة للتأكيد وظن داود أنما فتناه ظن هنا بمعنى شعر بالأمر وقيل بمعنى أيقن وفتناه معناه اختبرناه وخر راكعا وأناب معنى خر ألقى بنفسه إلى الأرض وإنما حقيقة ذلك في السجود فقيل إن الركوع هنا بمعنى السجود وقيل خر من ركوعه ساجدا بعد أن ركع ومعنى أناب تاب وروي أنه بقي ساجدا أربعين يوما يبكي حتى نبت

البقل من دموعه وهذا الموضع فيه سجدة عند مالك خلافا للشافعي إلا أنه اختلف في مذهب مالك هل يسجد عند قوله وأناب أو عند قوله وحسن مآب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب الزلفى القربة والمكانة الرفيعة والمآب المرجع في الآخرة يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض تقديره ... 577

184 قال الله يا داود وخلافة داود بالنبوة والملك قال ابن عطية لا يقال خليفة الله إلا لنبي وأما الملوك والخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله وقول الناس فيهم خليفة الله تجوز وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا أي عبثا بل خلقهما الله بالحق للاعتبار بهما والاستدلال على خالقهما ذلك ظن الذين كفروا المعنى أن الكفار لما أنكروا الحشر والجزاء كانت خلقة السموات والأرض عندهم باطلا بغير الحكمة فإن الحكمة في ذلك إنما تظهر في الجزاء الأخروي
أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم هنا استفهامية يراد بها الإنكار أي أن الله لا يجعل المؤمنين والمتقين كالمفسدين والفجار بل يجازي كل واحد بعمله لتظهر حكمة الله في الجزاء ففي ذلك استدلال على الحشر والجزاء وفيه أيضا وعد ووعيد إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد الصافنات جمع صافن وهو الفرس الذي يرفع إحدى رجليه أو يديه ويقف على طرف الأخرى وقيل الصافن هو الذي يسوي يديه والصفن علامة على فراهة الفرس والجياد السريعة الجري واختلف الناس في قصص هذه الآية فقال الجمهور إن سليمان عليه السلام عرضت عليه خيل كان ورثها عن أبيه وقيل أخرجتها له الشياطين من البحر وكانت ذوات أجنحة وكانت ألف فرس وقيل أكثر فتشاغل بالنظر إليها حتى غربت الشمس وفاتته صلاة العشى العصر فأسف لذلك وقال ردوا علي الخيل وطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف حتى عقرها لما كانت سبب فوات الصلاة ولم يترك منها إلا اليسير فأبدله الله أسرع منها وهي الريح وأنكر بعض العلماء هذه الرواية وقال تفويت الصلاة ذنب لا يفعله سليمان وعقر الخيل لغير فائدة لا يجوز فكيف يفعله سليمان عليه السلام وأي ذنب للخيل في تفويت الصلاة فقال بعضهم إنما عقرها ليأكلها الناس وكان زمانهم زمان مجاعة فعقرها تقربا إلى الله وقال بعضهم لم تفته الصلاة ولا عقر الخيل بل كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار

إليهم فأزالوها حتى دخلت اصطبلاتها فلما فرغ من صلاته قال ردوها علي فطفق يمسح عليها بيده كرامة لها ومحبة وقيل إن المسح عليها كان وسما في سوقها وأعناقها بوسم حبس في سبيل الله فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي معنى هذا يختلف على حسب الاختلاف في القصة فأما الذين قالوا إن سليمان عقر الخيل لما اشتغل بها حتى فاتته الصلاة فاختلفوا في هذا على ثلاثة أقوال أحدها أن الخير هنا يراد به الخيل وزعموا أن الخيل يقال لها خير

وأحببت بمعنى آثرت أو بمعنى فعل يتعدى بعن كأنه قال آثرت حب الخيل فشغلني عن ذكر ربي والآخر أن الخير هنا يراد به المال لأن الخيل وغيرها مال فهو كقوله تعالى أو ترك خيرا أي مالا والثالث ... 578

---

185 أن المفعول محذوف وحب الخير مصدر والتقدير أحببت هذه الخيل مثل حب الخير فشغلني عن ذكر ربي وأما الذين قالوا كان يصلي فعرضت عليه الخيل فأشار بإزالتها فالمعنى أنه قال إني أحببت حب الخير الذي عند الله في الآخرة بسبب ذكر ربي وشغلني ذلك عن النظر إلى الخيل حتى توارت بالحجاب الضمير للشمس وإن لم يتقدم ذكرها ولكنها تفهم من سياق الكلام وذكر العشي يقتضيها والمعنى حتى غابت الشمس وقيل إن الضمير للخيل ومعنى توارت بالحجاب دخلت اصطبلاتها والأول أشهر وأظهر ردوها علي أي قال سليمان ردوا الخيل علي فطفق مسحا بالسوق والأعناق السوق جمع ساق يعني سوق الخيل وأعناقهم أي جعل يمسحها مسحا وهذا المسح يختلف على حسب الاختلاف المتقدم هل هو قطعها وعقرها أو مسحها باليد محبة لها أو وسمها للتحبيس ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب تفسير هذه الآية يختلف على حسب الاختلاف في قصتها وفي ذلك أربعة أقوال الأول أن سليمان كان له خاتم ملكه وكان فيه اسم الله فكان ينزعه إذا دخل الخلاء توقيرا لاسم الله تعالى فنزعه يوما ودفعه إلى جارية فتمثل لها جني في صورة سليمان وطلب منها الخاتم فدفعته له روي أن اسمه صخر فقعد على كرسي سليمان يأمر وينهى والناس يظنون أنه سليمان وخرج سليمان فارا بنفسه فأصابه الجوع فطلب حوتا ففتح بطنه فوجد فيه خاتمه وكان الجني قد رماه في البحر فلبس سليمان الخاتم وعاد إلى ملكه ففتنة سليمان على هذا هي ما جرى له من سلب ملكه والجسد الذي ألقى على كرسيه هو الجني الذي قعد عليه وسماه جسدا لأنه تصور في صورة إنسان ومعنى أناب رجع إلى الله بالاستغفار والدعاء أو رجع إلى ملكه والقول الثاني أن سليمان كان له امرأة يحبها وكان أبوها ملكا كافرا قد قتله سليمان فسألته أن يضع لها صورة أبيها فأطاعها في ذلك فكانت تسجد للصورة ويسجد معها جواريها وصار صنما معبودا في داره وسليمان لا يعلم حتى مضت أربعون

يوما فلما علم به كسره فالفتنة على هذا عمل الصورة والجسد هو الصورة والقول الثالث أن سليمان كان له ولد وكان يحبه حبا شديدا فقالت الجن إن عاش هذا الولد ورث ملك أبيه فبقينا في السخرة أبدا فلم يشعر إلا وولده ميت على كرسيه فالفتنة على هذا حبه الولد والجسد هو الولد لما مات وسمي جسدا لأنه جسد بلا روح القول الرابع أنه قال لأطوفن الليلة على مائة امرأة تأتي كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل إن شاء الله فلم تحمل إلا واحدة جاءت بشق إنسان فالفتنة على هذا كونه لم يقل إن شاء الله والجسد هو شق الإنسان الذي ولد له فأما القول الأول فضعيف من طريق

النقل مع أنه يبعد ما ذكر فيه من سلب ملك سليمان وتسليط الشياطين عليه وأما القول الثاني فضعيف أيضا مع أنه يبعد أنه يعبد صنم في بيت نبي أو يأمر نبي بعمل صنم وأما القول الثالث فضعيف أيضا وأما القول الرابع فقد روي في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه لم يذكر في الحديث أن ذلك تفسير الآية قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي قدم الاستغفار على طلب الملك لأن أمور الدين كانت عندهم أهم من الدنيا فقدم الأولى والأهم فإن قيل لأي شيء قال لا ينبغي لأحد من بعدي وظاهر هذا طلب الانفراد به حتى قال فيه الحجاج ... 579

---

186 إنه كان حسودا فالجواب من وجهين أحدهما أنه إنما قال ذلك لئلا يجري عليه مثل ما جرى من أخذ الجني لملكه فقصد أن لا يسلب ملكه عنه في حياته ويصير إلى غيره والآخر أنه طلب ذلك ليكون معجزة ودلالة على نبوته فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب معنى رخاء لينة طيبة وقيل طائعة له وقد ذكرنا الجمع بين هذا وبين قوله عاصفة في الأنبياء وحيث أصاب أي حيث قصد وأراد والشياطين كل بناء وغواص الشياطين معطوف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين أي سخرنا له الريح والشياطين من يبني منهم ومن يغوص في البحر وآخرين مقرنين في الأصفاد أي آخرين من الجن موثقون في القيود والأغلال هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك الإشارة إلى الملك الذي أعطاه الله له والمعنى أن الله قال له أعط من شئت وامنع من شئت وقيل المعنى امنن على من شئت من الجن بالإطلاق من القيود وأمسك من شئت منهم في القيود والأول أحسن وهو قول ابن عباس بغير حساب يحتمل ثلاثة معان أحدها أنه لا يحاسب في الآخرة على ما فعل والآخر بغير تضييق عليك في الملك والثالث بغير حساب ولا عدد بل خارج عن الحصر وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب قد ذكر في قصة داود واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب قد ذكرنا قصة أيوب عليه السلام في الأنبياء والنصب يقال بضم النون وإسكان الصاد وبفتح النون وإسكان الصاد وبضم النون والصاد وبفتحهما ومعناه واحد وهو المشقة فإن قيل لم نسب ما أصابه من البلاء إلى الشيطان فالجواب من أربعة أوجه أحدها أن سبب ذلك كان من الشيطان فإنه روي أنه دخل على بعض الملوك فرأى منكرا فلم يغيره وقيل إنه كانت له شاة فذبحها وطبخها وكان له جار جائع فلم يعط جاره منها شيئا والثاني أنه أراد ما وسوس له الشيطان في مرضه من الجزع وكراهة البلاء فدعا إلى الله أن يدفع عنه وسوسة الشيطان بذلك والثالث أنه روي أن الله سلط الشيطان عليه ليفتنه

فأهلك ماله فصبر وأهلك أولاده فصبر وأصابه الجذام والمرض الشديد فصبر فنسب ذلك إلى الشيطان لتسليط الشيطان عليه والرابع روي أن الشيطان لقي امرأته فقال لها قولي لزوجك إن سجد لي سجدة أذهبت ما به من المرض فذكرت المرأة ذلك لأيوب فقال لها ذلك عدو الله الشيطان وحينئذ دعا اركض

برجلك هذا مغتسل بارد وشراب التقدير قلنا له اركض برجلك فضرب الأرض برجله فنبعت له عين ماء صافية باردة فشرب منها فذهب كل مرض كان داخل جسده واغتسل منها فذهب ما كان في ظاهر جسده وروي أنه ركض الأرض مرتين فنبع له عينان فشرب من أحدهما واغتسل من الأخرى ووهبنا له أهله ذكر في الأنبياء وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث الضغث القبضة من القضبان وكان أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته ... 580

---

187 مائة سوط إذا برىء من مرضه وكان سبب ذلك ما ذكرته له من لقاء الشيطان وقوله لها إن سجد لي زوجك أذهبت ما به من المرض فأمره أن يأخذ ضغثا فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة فيبر في يمينه وقد ورد مثل هذا عن نبينا صلى الله عليه وسلم في حد رجل زنى وكان مريضا فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذق نخلة فيه شماريخ مائة فضرب به ضربة واحدة ذكر ذلك أبو داود والنسائي وأخذ به بعض العلماء ولم يأخذ به مالك ولا أصحابه أولي الأيدي والأبصار الأيدي جمع يد وذلك عبارة عن قوتهم في الأعمال الصالحات وإنما عبر عن ذلك بالأيدي لأن الأعمال أكثر ما تعمل بالأيدي وأما الأبصار فعبارة عن قوة فهمهم وكثرة علمهم من قولك أبصر الرجل إذا تبينت له الأمور وقيل الأيدي جمع يد بمعنى النعمة ومعناه أولوا النعم التي أسداها الله إليهم من النبوة والفضيلة وهذا ضعيف لأن اليد بمعنى النعمة أكثر ما يجمع على أيادي وقرأ ابن مسعود أولوا الأيد بغير ياء فيحتمل أن تكون الأيدي محذوفة الياء أو يكون الأيد بمعنى القوة كقوله داود ذا الأيد إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار معنى أخلصناهم جعلناهم خالصين لنا أو أخلصناهم دون غيرهم وخالصة صفة حذف موصوفها تقديره بخصلة خالصة وأما الباء في قوله بخالصة فإن كان أخلصناهم بمعنى جعلناهم خالصين فالباء سببية للتعليل وإن كان أخلصناهم بمعنى خصصناهم فالباء لتعدية الفعل وقرأ نافع بإضافة خالصة إلى ذكرى من غير تنوين وقرأ غيره بالتنوين على أن تكون ذكر بدلا من خالصة على وجه البيان والتفسير لها والدار يحتمل أن يريد به الآخرة أو الدنيا فإن أراد به الآخرة ففي المعنى ثلاثة أقوال أحدها أن ذكرى الدار يعني به ذكرهم للآخرة وجهنم فيها والآخر أن معناه تذكيرهم للناس بالآخرة وترغيبهم للناس فيها عند الله والثالث أن معناه ثواب الآخرة أي أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة والأول أظهر وإن أراد بالدار الدنيا فالمعنى حسن

الثناء والذكر الجميل في الدنيا كقوله لسان صدق الأخيار جمع خير بتشديد الياء أو خير المخفف من خير كميت مخفف من ميت وذا الكفل ذكر في الأنبياء هذا ذكر الإشارة إلى ما تقدم في هذه السورة من ذكر الأنبياء وقيل الإشارة إلى القرآن بجملته والأول أظهر وكأن قوله هذا ذكر ختام للكلام المتقدم ثم شرع بعده في كلام آخر كما يتم المؤلف بابا ثم يقول فهذا باب ثم يشرع في آخر قاصرات الطرف ذكر في الصافات أتراب يعني أسنانهن سواء يقال فلان ترب

فلان إذا كان مثله في السن وقيل إن أسنانهن وأسنان أزواجهن سواء ما له من نفاد أي ماله من فناء ولا انقضاء هذا وإن للطاغين لشر مآب تقديره الأمر هذا لما تم ذكر أهل الجنة ختمه بقوله هذا ثم ابتدأ وصف ... 581

---

188 أهل النار ويعني بالطاغين الكفار
هذا فليذوقوه حميم وغساق هذا مبتدأ وخبره حميم فليذوقوه اعتراف بينهما والحميم الماء الحار والغساق قرئ بتخفيف السين وتشديدها وهو صديد أهل النار وقيل ما يسيل من عيونهم وقيل هو عذاب لا يعلمه إلا الله وآخر من شكله أزواج آخر معطوف على حميم وغساق تقديره وعذاب آخر قيل يعني الزمهرير ومعنى من شكله من مثله ونوعه أي من مثل العذاب المذكور وأزواج معناه أصناف وهو صفة للحميم والغساق والعذاب الآخر والمعنى أنهما أصناف من العذاب وقال ابن عطية آخر مبتدأ واختلف في خبره فقيل تقديره ولهم عذاب آخر وقيل أزواج مبتدأ ومن شكله خبر أزواج والجملة خبر آخر وقيل أزواج خبر الآخر ومن شكله في موضع الصفة وقرئ أخر بالجمع وهو أليق أن يكون أزواج خبره لأنه جمع مثله هذا فوج مقتحم معكم الفوج جماعة من الناس والمقتحم الداخل في زحام وشدة وهذا من كلام خزنة النار خاطبوا به رؤساء الكفار الذين دخلوا النار أولا ثم دخل بعدهم أتباعهم وهو الفوج المشار إليه وقيل هو كلام أهل النار بعضهم لبعض والأول أظهر لا مرحبا بهم أي لا يلقون رحبا ولا خيرا وهو دعاء من كلام رؤساء الكفار أي لا مرحبا بالفوج الذين هم أتباع لهم قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم هذا حكاية كلام الأتباع الرؤساء لما قالوا لهم لا مرحبا بهم أجابوهم بقولهم بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا هذا أيضا من كلام الأتباع خطابا للرؤساء وهو تعليل لقولهم بل أنتم لا مرحبا بكم والضمير في قدمتموه للعذاب ومعنى قدمتموه أوجبتموه لنا بما قدمتم في الدنيا من إغوائنا وأمركم لنا بالكفر قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار هذا أيضا من كلام الأتباع دعوا إلى الله تعالى أن يضاعف العذاب لرؤسائهم الذين أوجبوا لهم العذاب فهو كقولهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا في النار والضعف زيادة المثل قالوا ما لنا لا نرى رجالا

كنا نعدهم من الأشرار الضمير في قالوا لرؤساء الكفار وقيل للطاغين والرجال هم ضعفاء المؤمنين وقيل إن القائلين لذلك أبو جهل لعنه الله وأمية بن خلف وعتبة بن ربيعة وأمثالهم وأن الرجال المذكورين هم عمار وبلال وصهيب وأمثالهم واللفظ أعم من ذلك والمعنى أنهم قالوا في جهنم ما لنا لا نرى في النار رجالا كنا في الدنيا نعدهم من الأشرار أتخذناهم سخريا قرئ أتخذناهم بهمزة قطع ومعناها توبيخ أنفسهم على اتخاذهم المؤمنين سخريا وقرىء بألف وصل على أن يكون الجملة صفة لرجال وقرىء سخريا بضم السين من التسخير بمعنى الخدمة وبالكسر بمعنى الاستهزاء أم زاغت عنهم الأبصار هذا يحتمل ثلاثة أوجه أحدها أن يكون معادلا لقولهم ما لنا لا نرى رجالا والمعنى ما

لنا لا نراهم في جهنم فهم ليسوا فيها أم هم فيها ولكن زاغت عنهم أبصارنا ومعنى زاغت عنهم مالت فلم نرهم الثاني أن يكون معادلا لقولهم أتخذناهم سخريا والمعنى أتخذناهم سخريا وأم زاغت الأبصار على هذا مالت عن النظر إليهم احتقارا لهم الثالث أن تكون أم منقطعة بمعنى بل والهمزة فلا تعادل شيئا مما قبلها إن ذلك لحق الإشارة إلى ما تقدم من حكاية أقوال أهل النار ... 582

---

189 ثم فسره بقوله تخاصم أهل النار وإعراب تخاصم بدل من حق أو خبر مبتدأ مضمر قل هو نبأ عظيم النبأ الخبر ويعني به ما تضمنته الشريعة من التوحيد والرسالة والدار الآخرة وقيل هو القرآن وقيل هو يوم القيامة والأول أعم وأرجح ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون الملأ الأعلى هم الملائكة ومقصد الآية الاحتجاج على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك والضمير في يختصمون للملأ الأعلى واختصامهم هو في قصة آدم حين قال لهم إني جاعل في الأرض خليفة حسبما تضمنته قصته في مواضع من القرآن وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى فقال لا أدري قال في الكفارات وهي إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطأ إلى المساجد الحديث بطوله وقيل الضمير في يختصمون للكفار أي يختصمون في الملأ الأعلى فيقول بعضهم هم بنات الله ويقولون آخرون هم آلهة تعبد وهذا بعيد إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين إذ بدل من إذ يختصمون وقد ذكرنا في البقرة معنى سجود الملائكة لآدم ومعنى كفر إبليس وذكرنا في الحجر معنى قوله تعالى من روحي قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي الضمير في قال لله عز وجل وبيدي من المتشابه الذي ينبغي الإيمان به وتسليم علم حقيقته إلى الله وقال المتأولون هو عبارة عن القدرة وقال القاضي أبو بكر بن الطيب إن اليد والعين والوجه صفات زائدة على الصفات المتقررة قال ابن عطية وهذا قول مرغوب عنه وحكى الزمخشري أن معنى خلقت بيدي خلقت بغير واسطة أستكبرت أم كنت من العالين دخلت همزة الاستفهام على ألف الوصل فحذفت ألف الوصل وأم هنا معادلة والمعنى أستكبرت الآن أم كنت قديما ممن يعلو ويستكبر وهذا على جهة التوبيخ له رجيم أي لعين مطرود إلى يوم الوقت المعلوم يعني القيامة وقد تقدم الكلام على ذلك في الحجر قال فبعزتك

لأغوينهم أجمعين الباء للقسم أقسم إبليس بعزة الله أن يغوي بني آدم قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين الضمير في قال هنا لله تعالى والحق الأول مقسم به وهو منصوب بفعل مضمر كقولك الله لأفعلن وجوابه لأملأن جهنم وقرئ بالرفع وهو مبتدأ أو خبر مبتدأ مضمر تقديره الحق يميني وأما الحق الثاني ... 583

190 فهو مفعول بأقول وقوله والحق أقول جملة اعتراض بين القسم وجوابه على وجه التأكيد للقسم وما أنا من المتكلفين أي الذين يتصنعون ويتحيلون بما ليسوا من أهله ولتعلمن نبأه بعد حين هذا وعيد أي لتعلمن صدق خبره بعد حين والحين يوم القيامة أو موتهم أو ظهور الإسلام يوم بدر وغيره
سورة الزمر
تنزيل الكتاب تنزيل مبتدأ وخبره من الله أو خبر ابتداء مضمر تقديره هذا تنزيل ومن الله على هذا الوجه يتعلق بتنزيل أو يكون خبرا بعد خبر أو خبر مبتدأ آخر محذوف والكتاب هنا القرآن أو السورة واختار ابن عطية أن يراد به جنس الكتب المنزلة وأما الكتاب الثاني فهو القرآن باتفاق بالحق يحتمل معنيين أحدهما أن يكون معناه متضمنا الحق والثاني أن يكون معناه بالاستحقاق والوجوب مخلصا له الدين أي لا يكون فيه شرك أكبر ولا أصغر وهو الرياء ألا لله الدين الخالص قيل معناه من حقه ومن واجبه أن يكون له الدين الخالص ويحتمل أن يكون معناه إن الدين الخالص هو دين الله وهو الإسلام الذي شرعه لعباده ولا يقبل غيره ومعنى الخالص الصافي من شوائب الشرك وقال قتادة الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله وقال الحسن هو الإسلام وهذا أرجح لعمومه والذين اتخذوا من دونه أولياء يريد بالأولياء الشركاء المعبودين ويحتمل أن يريد بالذين اتخذوا الكفار العابدين لهم أو الشركاء المعبودين والأول أظهر لأنه يحتاج على الثاني إلى حذف الضمير العائد على الذين تقديره الذين اتخذوهم ويكون ضمير الفاعل في اتخذوا عائدا على

غير مذكور وارتفاع الذين على الوجهين بالابتداء وخبره إما قوله إن الله يحكم بينهم أو المحذوف المقدر قبل قوله ما نعبدهم لأن تقديره يقولون ما نعبدهم والأول أرجح لأن المعنى به أكمل ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى هذه الجملة في موضع معمول قول محذوف والقول في موضع الحال أو في موضع بدل من صلة الذين وقرأ ابن مسعود قالوا ما نعبدهم بإظهار القول أي يقول الكفار ما نعبد هؤلاء الآلهة إلا ليقربونا إلى الله ويشفعوا لنا عنده ويعني بذلك الكفار الذين عبدوا الملائكة أو الذين عبدوا الأصنام أو الذين عبدوا عيسى أو عزير فإن جميعهم قالوا هذه المقالة ومعنى زلفى قربى فهو مصدر من يقربونا إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار إشارة إلى كذبهم في قولهم ليقربونا إلى الله وقوله لا يهدي في تأويله وجهان أحدهما لايهديه في حال كفره والثاني أن ذلك مخص بمن قضى عليه بالموت على الكفر أعاذنا الله من ذلك وهذا تأويل لا يهدي القوم الظالمين والكافرين حيثما وقع لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ... 584

---

191 ما يشاء) الولد يكون على وجهين أحدهما بالولادة الحقيقية وهذا محال على الله تعالى لا يجوز في العقل والثاني التبني بمعنى الاختصاص والتقريب كما يتخذ الإنسان ولد غيره ولدا لإفراط محبته له وذلك ممتنع على الله بإخبار

الشرع فإن قوله وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا يعم نفي الوجهين فمعنى الآية على ما أشار إليه ابن عطية لو أراد الله أن يتخذ ولدا على وجه التبني لاصطفى لذلك مما يخلق من موجوداته ومخلوقاته ولكنه لم يرد ذلك ولا فعله وقال الزمخشري معناه لو أراد الله اتخاذ الولد لامتنع ذلك ولكنه يصطفي من عباده من يشاء على وجه الاختصاص والتقريب لا على وجه اتخاذه ولدا فاصطفى الملائكة وشرفهم بالتقريب فحسب الكفار أنهم أولاده ثم زادوا على ذلك أن جعلوهم إناثا فأفرطوا في الكفر والكذب على الله وملائكته سبحانه هو الله الواحد القهار نزه تعالى نفسه من اتخاذ الولد ثم وصف نفسه بالواحد لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد لأنه لو كان له ولد لكان من جنسه ولا جنس له لأنه واحد ووصف نفسه بالقهار ليدل على نفي الشركاء والأنداد لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى فكيف يكون شريكا له ثم أتبع ذلك بما ذكره من خلقة السموات والأرض وما بينهما ليدل على وحدانيته وقدرته وعظمته يكور الليل على النهار التكوير اللف واللي ومنه كور العمامة التي يلتوي بعضها على بعض وهو هنا استعارة ومعناه على ما قال ابن عطية يعيد من هذا على هذا فكان الذي يطيل من النهار أو الليل يصير منه على الآخر جزءا فيستره وكأن الذي ينقص يدخل في الذي يطول فيستتر فيه ويحتمل أن يكون المعنى أن كل واحد منهما يغلب الآخر إذا طرأ عليه فشبه في ستره له بثوب يلف على الآخر لأجل مسمى يعني يوم القيامة خلقكم من نفس واحدة يعني آدم عليه السلام ثم جعل منها زوجها يعني حواء خلقها من ضلع آدم فإن قيل كيف عطف قوله ثم جعل على خلقكم بثم التي تقتضي الترتيب والمهلة

ولا شك أن خلقة حواء كانت قبل خلقة بني آدم فالجواب من ثلاثة أوجه الأول وهو المختار أن العطف إنما هو على معنى قوله واحدة لا على خلقكم كأنه قال خلقكم من نفس كانت واحدة ثم خلق منها زوجها بعد وحدتها الثاني أن ثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الوجود الثالث أنه يعني بقوله خلقكم إخراج بني آدم من صلب أبيهم كالذر وذلك كله كان قبل خلقه حواء وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يعني المذكورة في الأنعام من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين وسماها أزواجا لأن الذكر زوج الأنثى والأنثى زوج الذكر وأما أنزل ففيه ثلاثة أوجه الأول أن الله خلق أول هذه الأزواج في السماء ثم أنزلها الثاني أن معنى أنزل قضى وقسم فالإنزال عبارة عن نزول أمره وقضائه الثالث أنه أنزل المطر الذي ينبت به النبات فتعيش منه هذه الأنعام فعبر بإنزالها عن إنزال أرزاقها وهذا بعيد خلقا من بعد خلق يعني أن الإنسان يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى أن يتم خلقه ثم ينفخ فيه الروح في ظلمات ثلاث هي البطن والرحم والمشيمة وقيل صلب الأب ... 585

---

192 والرحم والمشيمة والأول أرجح لقوله بطون أمهاتكم ولم يذكر الصلب إن تكفروا فإن الله غني عنكم أي لا يضره كفركم ولا يرضى لعباده الكفر تأول

الأشعرية هذه الآية على وجهين أحدهما أن الرضا بمعنى الإرادة ويعني بعباده من قضى الله له بالإيمان والوفاة عليه فهو كقوله إن عبادي ليس لك عليهم سلطان والآخر أن الرضا غير الإرادة والعباد على هذا على العموم أي لا يرضى الكفر لأحد من البشر وإن كان قد أراد أن يقع من بعضهم فهو لم يرضه دينا ولا شرعا وأراده وقوعا ووجودا وأما المعتزلة فإن الرضا عندهم بمعنى الإرادة والعباد على العموم جريا على قاعدتهم في القدر وأفعال العباد وإن تشكروا يرضه لكم هذا عموم والشكر الحقيقي يتضمن الإيمان ولا تزر وازرة ذكر في الإسراء وإذا مس الإنسان ضر الآية يراد بالإنسان هنا الكافر بدليل قوله وجعل له أندادا والقصد بهذه الآية عتاب وإقامة حجة فالعتاب على الكفر وترك دعاء الله وإقامة الحجة على الإنسان بدعائه إلى الله في الشدائد فإن قيل لم قال هنا وإذا مس بالواو وقال بعدها فإذا مس بالفاء فالجواب أن الذي بالفاء مسبب عن قوله اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة فجاء بفاء السببية قاله الزمخشري وهو بعيد ثم إذا خوله نعمة منه خوله أعطاه والنعمة هنا يحتمل أن يريد بها كشف الضر المذكور أو أي نعمة كانت نسي ما كان يدعو إليه من قبل يحتمل أن تكون ما مصدرية أي نسي دعاء أو تكون بمعنى الذي والمراد بها الله تعالى أم من هو قانت بتخفيف الميم على إدخال همزة الاستفهام على من وقيل هي همزة النداء الأول أظهر وقرئ بتشديدها على إدخال أم على من ومن مبتدأ وخبره محذوف وهو المعادل للاستفهام تقديره أم من هو قانت كغيره وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو ما ذكر قبله وما ذكر بعده وهو قوله هل يستوي الذين يعلمون والقنوت هنا بمعنى الطاعة والصلاة بالليل وآناء الليل ساعاته قل يا

عباد الذين آمنوا الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة ومعناها التأنيس لهم والتنشيط على الهجرة للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة يحتمل أن يتعلق في هذه الدنيا بأحسنوا والمعنى الذين أحسنوا في الدنيا لهم حسنة في الآخرة أو يتعلق بحسنة والحسنة على هذا حسن الحال والعافية في الدنيا والأول أرجح وأرض الله واسعة يراد البلاد المجاورة للأرض التي هاجروا منها والمقصود من ذلك الحض على الهجرة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب هذا يحتمل وجهين أحدهما أن الصابر يوفى أجره ولا يحاسب على أعماله فهو من الذين يدخلون الجنة بغير حساب والثاني أن أجر الصابرين بغير حصر بل أكثر من ... 586

---

193 أن يحصر بعدد أو وزن وهذا قول الجمهور وأمرت لأن أكون أول المسلمين اللام هنا يجوز أن تكون زائدة أو للتعليل ويكون المفعول على هذا محذوف فإن قيل كيف عطف أمرت على أمرت والمعنى واحد فالجواب أن الأول أمر بالعبادة والإخلاص والثاني أمر بالسبق إلى الإسلام فهما معنيان اثنان وكذلك قوله قل الله أعبد ليس تكرارا لقوله أمرت أن أعبد الله لأن الأول إخبار

بأنه مأمور بالعبادة والثاني إخبار بأنه يفعل العبادة وقدم اسم الله تعالى للحصر واختصاص العبادة به وحده فاعبدوا ما شئتم من دونه هذا تهديد ومبالغة في الخذلان والتخلية لهم على ما هم عليه ظلل جمع ظلة بالضم وهو ما غشي من فوق كالسقف فقوله من فوقهم بين وأما من تحتهم فسماه ظلة لأنه سقف لمن تحتهم فإن جهنم طبقات وقيل سماه ظلة لأنه يلتهب ويصعد من أسفلهم إلى فوقهم والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها قيل إنها نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وسعد وسعيد وطلحة والزبير إذ دعاهم أبو بكر الصديق إلى الإيمان فآمنوا وقيل نزلت في أبي ذر وسلمان وهذا ضعيف لأن سلمان إنما أسلم بالمدينة والآية مكية والأظهر أنها عامة والطاغوت كل ما عبد من دون الله وقيل الشياطين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه قيل يستمعون القول على العموم فيتبعون القرآن لأنه أحسن الكلام وقيل يستمعون القرآن فيتبعون بأعمالهم أحسنه من العفو الذي هو أحسن من الانتصار وشبه ذلك وقيل هو الذي يستمع حديثا فيه حسن وقبيح فيتحدث بالحسن ويكف عما سواه وهذا قول ابن عباس وهو الأظهر وقال ابن عطية هو عام في جميع الأقوال والقصد الثناء على هؤلاء ببصائر ونظر سديد يفرقون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ فيتبعون الأحسن من ذلك وقال الزمخشري مثل هذا المعنى أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار فيها وجهان أحدهما أن يكون الكلام جملة واحدة تقديره أفمن حق عليه كلمة العذاب أأنت

تنقذه فموضع من في النار موضع المضمر والهمزة في قوله أفأنت هي الهمزة التي في قوله أفمن وهي همزة الإنكار كررت للتأكيد والثاني أن يكون التقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب تتأسف عليه فحذف الخبر ثم استأنف قوله أفأنت تنقذ من في النار وعلى هذا ... 587
194 يوقف على العذاب والأول أرجح لعدم الإضمار فسلكه ينابيع في الأرض معنى سلكه أدخله وأجراه والينابيع جمع ينبوع وهو العين وفي هذا دليل على أن ماء العيون من المطر مختلفا ألوانه أي أصنافه كالقمح والأرز والفول وغير ذلك وقيل ألوانه الخضرة والحمرة وشبه ذلك وفي الوجهين دليل على الفاعل المختار ورد على أهل الطبائع أفمن شرح الله صدره للإسلام تقديره أفمن شرح الله صدره كالقاسي قلبه وروي أن الذي شرح الله صدره للإسلام علي بن أبي طالب وحمزة والمراد بالقاسية قلوبهم أبو لهب وأولاده واللفظ أعم من ذلك من ذكر الله قال الزمخشري من هنا سببية أي قلوبهم قاسية من أجل ذكر الله وهذا المعنى بعيد ويحتمل عندي أن يكون قاسية تضمن معنى خالية فلذلك تعدى بمن والمعنى أن قلوبهم خالية من ذكر الله الله نزل أحسن الحديث يعني القرآن كتابا بدل من أحسن أو حال منه متشابها معناه هنا أنه يشبه بعضه بعضا في الفصاحة والنطق بالحق وأنه ليس فيه تناقض ولا اختلاف مثاني جمع مثان أي تثنى فيه القصص وتكرر ويحتمل أن يكون مشتقا من الثناء لأنه يثني فيه على الله فإن قيل مثاني جمع فكيف وصف به المفرد فالجواب أن القرآن ينقسم فيه إلى سور وآيات كثيرة فهو جمع بهذا الاعتبار ويجوز أن يكون كقولهم برمة أعشار وثوب أخلاق أو يكون تمييزا من متشابها كقولك

حسن شمائل ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله إن قيل كيف تعدى تلين بإلى فالجواب أنه تضمن معنى فعل تعدى بإلى كأنه قال تميل أو تسكن أو تطمئن قلوبهم إلى ذكر الله فإن قيل لم ذكرت الجلود أولا وحدها ثم ذكرت القلوب بعد ذلك معها

فالجواب أنه لما قال أولا تقشعر ذكر الجلود وحدها لأن القشعريرة من وصف الجلود لا من وصف غيرها ولما قال ثانيا تلين ذكر الجلود والقلوب لأن اللين توصف به الجلود والقلوب أما لين القلوب فهو ضد قسوتها وأما لين الجلود فهو ضد قشعريرتها فاقشعرت أولا من الخوف ثم لانت بالرجاء ذلك هدى الله يحتمل أن تكون الإشارة إلى القرآن أو إلى الخشية واقشعرار الجلود أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب الخبر محذوف كما تقدم في نظائره تقديره أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب كمن هو آمن من العذاب ومعنى يتقي يلقى النار بوجهه ليكفها عن نفسه وذلك أن الإنسان إذا لقي شيئا من المخاوف استقبله بيديه وأيدي هؤلاء مغلولة فاتقوا النار بوجوههم ذوقوا ما كنتم تكسبون أي ذوقوا جزاء ما كنتم تكسبون من الكفر والعصيان قرآنا عربيا نصب على الحال أو بفعل مضمر على المدح ... 588

---

195 غير ذي عوج أي ليس فيه تضاد ولا اختلاف ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر وقيل معناه غير مخلوق وقيل غير ذي لحن
فإن قيل لم قال غير ذي عوج ولم يقل غير معوج فالجواب أن قوله غير ذي عوج أبلغ في نفي العوج عنه كأنه قال ليس فيه شيء من العوج أصلا رجلا فيه شركاء متشاكسون أي متنازعون متظالمون وقيل متشاجرون وأصله من قولك رجل شكس إذا كان ضيق الصدر والمعنى ضرب هذا المثل لبيان حال من يشرك بالله ومن يوحده فشبه المشرك بمملوك بين جماعة من الشركاء يتنازعون فيه والمملوك بينهم في أسوأ حال وشبه من يوحد الله بمملوك لرجل واحد فمعنى قوله سالما لرجل أي خالصا له وقرئ سلما بغير ألف والمعنى واحد إنك ميت وإنهم ميتون في هذا وعد للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفار فإنهم إذا ماتوا جميعا وصاروا إلى الله فاز من كان على الحق وهلك من كان على الباطل وفيه أيضا إخبار بأنه صلى الله عليه وسلم سيموت لئلا يختلف الناس في موته كما اختلفت الأمم في غيره وقد جاء أنه لما مات صلى الله عليه وسلم أنكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه موته حتى احتج عليه أبو بكر الصديق بهذه الآية فرجع إليها تختصمون قيل يعني الاختصام في الدماء وقيل في الحقوق والأظهر أنه اختصام النبي صلى الله عليه وسلم مع الكفار في تكذيبهم له فيكون من تمام ما قبله ويحتمل أن يكون على العموم في اختصام الخلائق فيما بينهم من المظالم وغيرها فمن أظلم ممن كذب على الله المعنى لا أحد أظلم ممن كذب على الله ويريد بالكذب على الله هنا ما نسبوا إليه من الشركاء والأولاد وكذب بالصدق أي كذب بالإسلام والشريعة

والذي جاء بالصدق وصدق به قيل الذي جاء بالصدق النبي صلى الله عليه وسلم والذي صدق به أبو بكر وقيل الذي جاء بالصدق جبريل والذي صدق به محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الذي جاء بالصدق الأنبياء والذي صدق به المؤمنون واختار ابن عطية أن يكون على

العموم وجعل الذي للجنس كأنه قال الفريق الذي لأنه في مقابلة من كذب على الله وكذب بالصدق والمراد به العموم أليس الله بكاف عبده تقوية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم وإزالة للخوف الذي كان الكفار يخوفونه ولئن سألتهم الآية احتجاج ... 589
196 على التوحيد ورد على المشركين هل هن كاشفات ضره الآية رد على المشركين وبرهان على الوحدانية وروي أن سببها أن المشركين خوفوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من آلهتم فنزلت الآية مبينة أنهم لا يقدرون على شيء فإن قيل كيف قال كاشفات وممسكات بالتأنيث فالجواب أنها لا تعقل فعاملها معاملة المؤنث وأيضا ففي تأنيثها تحقير لها وتهكم بمن عبدها اعملوا على مكانتكم تهديد ومسالمة منسوخة بالسيف بالحق ذكر في أول السورة الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها هذه الآية إعتبار ومعناها أن الله يتوفى النفوس على وجهين احدها وفاة كاملة حقيقية وهي الموت والآخر وفاة النوم لأن النائم كالميت في كونه لا يبصر ولا يسمع ومنه قوله وهو الذي يتوفاكم بالليل وتقديرها ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت أي يمسك الأنفس التي قضى عليها بالموت الحقيقي ومعنى إمساكها أنه لا يردها إلى الدنيا ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى أي يرسل الأنفس النائمة وإرسالها هو ردها إلى الدنيا والأجل المسمى هو أجل الموت الحقيقي وقد تكلم الناس في النفس والروح وأكثروا القول في ذلك بالظن دون تحقيق والصحيح أن هذا مما استأثر الله بعلمه لقوله قل الروح من أمر ربي أم اتخذوا من دون الله شفعاء أم هنا بمعنى بل وهمزة الإنكار والشفعاء هم الأصنام وغيرها لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أولو كانوا دخلت همزة الاستفهام على واو الحال تقديره يشفعون وهم لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا أي هو مالكها فلا يشفع أحد إليه إلا بإذنه وفي هذا

رد على الكفار في قولهم إن الأصنام تشفع لهم
وإذا ذكر الله وحده الآية معناها أن الكفار يكرهون توحيد الله ويحبون الإشراك به ومعنى اشمأزت انقبضت من شدة الكراهة وروي أن هذه الآية نزلت حين قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النجم فألقى الشيطان في أمنيته حسبما ذكرنا في الحج فاستبشر الكفار بما ألقى الشيطان من تعظيم اللات والعزى فلما أذهب الله ما ألقى الشيطان استكبروا واشمأزوا وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون أي ظهر لهم يوم القيامة خلاف ما كانوا ... 590

197 يظنون لأنهم كانوا يظنون ظنونا كاذبة قال الزمخشري المراد بذلك تعظيم العذاب الذي يصيبهم أي ظهر لهم من عذاب الله ما لم يكن في حسابهم فهو كقوله في الوعد فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقيل معناها عملوا أعمالا حسبوها حسنات فإذا هي سيئات وقال الحسن ويل لأهل الربا من هذه الآية وهذا على أنها في المسلمين والظاهر أنها في الكفار وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن معنى حاق حل ونزل وقال ابن عطية وغيره إن هذا على حذف مضاف تقديره حاق بهم جزاء ما كانوا به يستهزؤن ويحتمل أن يكون الكلام دون حذف وهو أحسن ومعناه حاق بهم العذاب الذي كانوا به يستهزؤن لأنهم كانوا في الدنيا يستهزؤن إذا خوفوا بعذاب الله ويقولون متى هذا الوعد قال إنما أوتيته على علم يحتمل وجهين أحدهما وهو الأظهر أن يريد على علم مني بالمكاسب والمنافع والآخر على علم الله باستحقاقي لذلك وإنما هنا تحتمل وجهين أحدهما وهو الأظهر أن تكون ما كافة وعلى علم في موضع الحال والآخر أن تكون ما اسم إن وعلى علم خبرها وإنما قال أوتيته بالضمير المذكر وهو عائد على النعمة للحمل على المعنى بل هي فتنة رد على الذي قال إنما أوتيته على علم قد قالها الذين من قبلهم يعني قارون وغيره قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله قال علي بن أبي طالب وابن مسعود هذه أرجى آية في القرآن وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية واختلف في سببها فقيل نزلت في وحشي قاتل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لا يغفر له ما وقع فيه من قتل حمزة وقيل نزلت في قوم آمنوا ولم يهاجروا ففتنوا فافتتنوا ثم ندموا وظنوا أنهم لا توبة لهم وهذا قول عمر بن الخطاب وقد كتب بها إلى هشام بن العاص لما جرى له ذلك وقيل نزلت في قوم من أهل الجاهلية قالوا ما ينفعنا الإسلام لأننا قد زنينا وقتلنا النفوس فنزلت الآية فيهم

ومعناها مع ذلك على العموم في جميع الناس إلى يوم القيامة على تفصيل نذكره وذلك أن الذين أسرفوا على أنفسهم إن أراد بهم الكفار فقد اجتمعت الأمة على أنهم إذا أسلموا غفر لهم كفرهم وجميع ذنوبهم لقوله صلى الله عليه وسلم الإسلام يجب ما قبله وأنهم إن ماتوا على الكفر فإن الله لا يغفر لهم بل يخلدهم في النار وإن أراد به العصاة من المسلمين فإن العاصي إذا تاب غفر له ذنوبه وإن لم يتب فهو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له فالمغفرة المذكورة في هذه الآية يحتمل أن يريد بها المغفرة للكفار إذا أسلموا أو للعصاة إذا تابوا أو للعصاة وإن لم يتوبوا إذا تفضل الله عليهم بالمغفرة والظاهر أنها نزلت في الكفار وأن المغفرة المذكورة هي لهم إذا أسلموا ... 591

198 والدليل على أنها في الكفار ما ذكر بعدها إلى قوله قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم يعني اتبعوا القرآن وليس المعنى أن بعض القرآن أحسن من بعض لأنه حسن كله إنما المعنى أن يتبعوا بأعمالهم ما فيه من الأوامر ويجتنبوا ما فيه من النواهي فالتفضيل الذي يقتضيه أحسن إنما هو في الاتباع وقيل يعني اتبعوا الناسخ دون المنسوخ وهذا بعيد أن تقول نفس في موضع مفعول من أجله تقديره كراهة أن تقول نفس وإنما ذكر النفس لأن المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكفار في جنب الله أي في حق الله وقيل في أمر الله وأصله من الجنب بمعنى الجانب ثم استعير لهذا المعنى الساخرين أي المستهزئين بلى جواب للنفس التي حكى كلامها ولا يجاوب ببلى إلا النفي وهي هنا جواب لقوله لو أن الله هداني لكنت من المتقين لأنه في معنى النفي لأن لو حرف امتناع وتقرير الجواب بل قد جاءك الهدى من الله بإرساله الرسل وإنزاله الكتب وقال ابن عطية هي جواب لقوله لو أن لي كرة فإن معناه يقتضي أن العمر يتسع للنظر فقيل له بلى على وجه الرد عليه والأول أليق بسياق الكلام لأن قوله قد جاءتك آياتي تفسير لما تضمنته بلى وجوههم مسودة يحتمل أن يريد سواد اللون حقيقة أو يكون عبارة عن شدة الكرب بمفازتهم أصله من الفوز والتقدير بسبب فوزهم وقيل معناه بفضائلهم وهو على كل شيء وكيل أي قائم بتدبير كل شيء مقاليد مفاتيح وقيل خزائن واحدها مقليد وقيل إقليد وقيل لا واحد لها من لفظها وأصلها كلمة فارسية وقال عثمان بن عفان سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقاليد السموات والأرض فقال هي لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله وأستغفر الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير فإن صح هذا الحديث فمعناه أن من قال هذه

الكلمات صادقا مخلصا نال الخيرات والبركات من السموات والأرض لأن هذه الكلمات توصل إلى ذلك فكأنها مفاتيح له والذين كفروا الآية قال الزمخشري إنها متصلة بقوله وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم وما بينهما من الكلام اعتراض
أفغير الله منصوب بأعبد تأمروني حذفت إحدى النونين ... 592
199 تخفيفا وقرئ بإدغام إحدى النونين في الأخرى لئن أشركت ليحبطن عملك دليل على إحباط عمل المرتد مطلقا خلافا للشافعي في قوله لا يحبط عمله إلا إذا مات على الكفر فإن قيل الموحى إليهم جماعة والخطاب بقوله لئن أشركت لواحد فالجواب أنه أوحى إلى كل واحد منهم على حدته فإن قيل كيف خوطب الأنبياء بذلك وهم معصومون من الشرك فالجواب أن ذلك على الفرض والتقدير أي لو وقع منهم شرك لحبطت أعمالهم لكنهم لم يقع منهم شرك بسبب العصمة ويحتمل أن يكون الخطاب لغيرهم وخوطبوا هم ليدل المعنى على غيرهم بالطريق الأولى وما قدروا الله حق قدره أي ما عظموه حق تعظيمه ولا وصفوه بما يجب له ولا نزهوه عما لا يليق به والضمير في

قدروا لقريش وقيل لليهود والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه المقصود بهذا تعظيم جلال الله والرد على الكفار الذين ما قدروا الله حق قدره ثم اختلف الناس فيها كاختلافهم في غيرها من المشكلات فقالت المتأولة إن القبضة واليمين عبارة عن القدرة وقال ابن الطيب إنها صفة زائدة على صفات الذات وأما السلف الصالح فسلموا علم ذلك إلى الله ورأوا أن هذا من المتشابه الذي لا يعلم علم حقيقته إلا الله وقد قال ابن عباس ما معناه إن الأرض في قبضته والسموات مطويات كل ذلك بيمينه وقال ابن عمر ما معناه إن الأرض في قبضة اليد الواحدة والسموات مطويات باليمين الأخرى لأن كلتا يديه يمين ونفخ في الصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل وهذه النفخة نفخة الصعق وهو الموت وقد قيل إن قبلها نفخة الفزع ولم تذكر في هذه الآية إلا

من شاء الله قيل يعني جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت ثم يميتهم الله بعد ذلك وقيل استثناء الأنبياء وقيل الشهداء ثم نفخ فيه أخرى هي نفخة القيام قيام ينظرون قيل إنه من النظر وقيل من الانتظار أي ينتظرون ما يفعل بهم ووضع الكتاب يعني صحائف الأعمال وإنما وحدها لأنه أراد الجنس وقيل هو اللوح المحفوظ وجيء بالنبيين ليشهدوا على قومهم والشهداء يحتمل أن يكون جمع شاهد أو جمع شهيد في سبيل الله والأول أرجح لأن فيه الوعيد معنى ولأنه أليق بذكر الأنبياء الشاهدين والمراد على هذا أمة محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم يشهدون على الناس وقيل يعني الملائكة الحفظة وقضي بينهم الضمير لجميع الخلق زمرا في الموضعين جمع زمرة وهي الجماعة من الناس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول زمرة يدخلون الجنة وجوههم على مثل القمر ليلة البدر والزمرة الثانية على مثل أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ... 593

---

200 ذلك منازل خزنتها جمع خازن حيث وقع كلمة العذاب يعني القضاء السابق بعذابهم وفتحت أبوابها إنما قال في الجنة وفتحت أبوابها بالواو وقال في النار فتحت بغير واو لأن أبواب الجنة كانت مفتحة قبل مجيء أهلها والمعنى حتى إذا جاؤها وأبوابها مفتحة فالواو واو الحال وجواب إذا على هذا محذوف وأما أبواب النار فإنها فتحت حين جاؤها فوقع قوله فتحت جواب الشرط فكأنه بغير واو وقال الكوفيون الواو في أبواب الجنة واو الثمانية لأن أبواب الجنة ثمانية وقيل الواو زائدة وفتحت هو الجواب وأورثنا الأرض يعني أرض الجنة والوراثة هنا استعارة كأنهم ورثوا موضع من لم يدخل الجنة نتبوأ أي ننزل من الجنة حيث نشاء ونتخذه مسكنا حافين من حول العرش أي محدقين به دائرين حوله وقضي بينهم الضمير لجميع الخلق كالموضع الأول ويحتمل هنا أن يكون للملائكة والقضاء بينهم توفية أجورهم على حسب منازلهم وقيل الحمد لله رب العالمين يحتمل أن يكون القائل لذلك الملائكة أو جميع الخلق أو

أهل الجنة لقوله وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العاليمن تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع وأوله سورة غافر ... 594
| 4 | الجزء الرابع ... 595

2
أول الجزء الرابع وحتى سورة الناس

سورة غافر
حم تقدم الكلام على حروف الهجاء وتختص حم بأن معناها حم الأمر أي قضى وقال ابن عباس الر و حم و ن هي حروف الرحمن (تنزيل الكتاب) ذكر في الزمر ذي الطول أي ذى الفضل والإنعام وقيل الطول الغني والسعة فلا يغررك تقلبهم في البلاد جعل لا يغررك بمعنى لا يحزنك ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفار والأحزاب يراد بهم عاد وثمود وغيرهم ليأخذوه أي ليقتلوه ليدحضوا أي ليبطلوا به الحق حقت كلمة ربك أي وجب قضاؤه ومن حوله عطف على الذين يحملون ويؤمنون به إن قيل ما فائدة قوله ويؤمنون به ومعلوم أن حملة العرش ومن حوله يؤمنون بالله فالجواب أن ذلك إظهار لفضيلة الإيمان وشرفه قال ذلك الزمخشري وقال إن فيه فائدة أخرى وهى أن معرفة حملة العرش بالله تعالى من طريق النظر والاستدلال كسائر الخلق لا بالرؤية وهذه نزعته إلى مذهب المعتزلة في استحالة رؤية الله وسعت كل شيء رحمة وعلما أصل الكلام وسعت رحمتك وعلمك كل شيء فالسعة في المعنى مسندة إلى الرحمة والعلم وإنما أسندتا إلى الله تعالى في اللفظ لقصد المبالغة في وصف الله تعالى بهما كان ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء وقهم السيآت يحتمل أن يكون المعنى قهم السيئات نفسها ... 596

---

3 بحيث لا يفعلونها أو يكون المعني قهم جزاء السيآت فلا تؤاخذهم بها إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم المقت البغض الذي يوجبه ذنب أوعيب وهذه الحال تكون للكفار عند دخولهم النار فإنهم إذا دخلوها مقتوا أنفسهم أي مقت بعضهم بعضا ويحتمل أن يمقت كل واحد منهم نفسه فتناديهم الملائكة وتقول لهم مقت الله لكم في الدنيا على كفركم أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم فقوله لمقت الله مصدرمضاف إلى الفاعل وحذف المفعول لدلالة مفعول مقتكم عليه وقوله إذ تدعون ظرف العامل فيه مقت الله عاما من طريق المعني ويمتنع أن يعمل فيه من طريق قوانين النحو لأن مقت الله مصدر فلا يجوز أن يفصل بينه وبين بعض صلته فيحتاج أن يقدر للظرف عامل وعلى هذا أجاز بعضهم الوقف على قوله أنفسكم والابتداء بالظرف وهذا ضعيف لأن المراعي المعنى وقد جعل الزمخشري مقت الله عاما في الظرف ولم يعتبر الفصل قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين هذه الآية كقوله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم فالموتة الأولى عبارة

عن كونهم عدما أو كونهم في الأصلاب أو في الآرحام والموتة الثانية الموت المعروف والحياة الآولى حياة الدنيا والحياة الثانية حياة البعث في القيامة وقيل الحياة الأولى حياة الدنيا والثانية الحياة في القبر والموتة الأولى الموت المعروف والموتة الثانية بعد حياة القبر وهذا قول فاسد لأنه لابد من الحياة للبعث فتجيء الحياة ثلاث مرات فإن قيل كيف اتصال قولهم أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين بما قبله فالجواب أنهم كانوا في الدنيا يكفرون بالبعث فلمادخلوا النار مقتوا أنفسهم على ذلك فأقروا به حينئذ ليرضوا الله بإقرارهم حينئذ فقولهم أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين إقرار بالبعث على أكمل الوجوه طمعا منهم أن يخرجوا عن المقت الذي مقتهم الله إذ كانوا يدعون إلى الإسلام فيكفرون فاعترفنا بذنوبنا الفاء هنا رابطة معناها التسبب فإن قيل

كيف يكون قولهم أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين سببا لاعترافهم بالذنوب فالجواب أنهم كانوا كافرين بالبعث فلمارأوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم علموا أن الله قادر على البعث فاعترفوا بذنوبهم وهي إنكار البعث وما أوجب لهم أنكاره من المعاصي فإن من لم يؤمن بالآخرة لا يبالي بالوقوع في المعاصي ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم الباء سببية للتعليل والإشارة بذلكم يحتمل أن تكون للعذاب الذي هم فيه أو إلى مقت الله لهم أو مقتهم لأنفسهم والأحسن أن تكون إشارة إلى ما يقتضيه سياق الكلام وذلك أنهم لما قالوا فهل إلى خروج من سبيل كأنهم قيل لهم لا سبيل إلى الخروج فالإشارة بقوله ذلكم إلى عدم خروجهم من النار يريكم آياته يعني العلامات الدالة عليه من مخلوقاته ومعجزات رسله وينزل لكم من السماء رزقا يعني المطر رفيع الدرجات يحتمل أن يكون المعنى مرتفع الدرجات فيكون بمعنى العالي أو رافع ... 597

---

4 درجات عبادة في الجنة وفي الدنيا يلقى الروح يعني الوحي من أمره يحتمل أن يريد الأمر الذي هو واحد الأمور أو الأمر بالخبر فعلى الأول تكون من للتبعيض أو لابتداء الغاية وعلى الثاني تكون لابتداء الغاية أو بمعنى الباء يوم التلاق يعني يوم القيامة وسمى بذلك لأن الخلائق يلتقون فيه وقيل لأنه يلتقي فيه أهل السموات والأرض وقيل لأنه يلتقي الخلق مع ربهم والفاعل في ينذر ضمير يعود على من يشاء أو على الروح أو على الله لمن الملك اليوم هذا من كلام الله تعالى تقريرا للخلق يوم القيامة فيجيبونه ويقولون لله الواحد القهار وقيل بل هو الذي يجيب نفسه لأن الخلق يسكتون هيبة له وقيل إن القائل لمن الملك اليوم ملك يوم الآزفة يعني القيامة ومعناه القريبة إذ القلوب لدى الحناجر معناه أن القلوب قد صعدت من الصدور لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر فيحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجاز عبربه عن شدة الخوف والحناجر جمع حنجرة وهي الحلق كاظمين أي محزونين حزنا شديدا كقوله فهو كظيم وقيل معناه يكظمون حزنهم أي يطمعون أن يخفوه والحال تغلبهم وانتصابه على الحال من أصحاب القلوب لأن معناه قلوب الناس أو من المفعول في

أنذرهم أو من القلوب وجمعها جمع المذكر لما وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء ما للظالمين من حميم أي صديق مشفق (ولا شفيع يطاع) يحتمل أن يكون نفي الشفاعة وطاعة الشفيع أو نفي طاعة الشفيع خاصة كقولك ما جاءني رجل صالح فنفيت الصلاح وإن كان قد جاءك رجل غير صالح والأول أحسن لأن الكفار ليس لهم من يشفع فيهم يعلم خائنة الأعين أي استراق النظر والخائنة مصدر بمعنى الخيانة أو وصف للنظرة وهذا الكلام متصل بما تقدم من ذكر الله واعتراض في أثناء ذلك بوصف القيامة لما استطرد اليه من قوله لينذر يوم التلاق وسلطان مبين حجة ظاهرةوهي المعجزات قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه هذا القتل غير القتل

الذي كانوا يقتلون أو لا قبل ميلاد موسى وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه المعنى أنه لا يبالي بدعاء موسى لربه ولا يخاف من ذلك إن قتله ويظهر من قوله ذروني أنه كان في الناس من ينازعه في قتل موسى وذلك يدل على أن فرعون كان قد اضطرب أمره بظهور معجزات ... 598
5 موسى أو أن يظهر في الأرض الفساد يعني فساد أحوالهم في الدنيا وقرىء وأن يظهر بالواو وبأو ويظهر بفتح الياء ورفع الفساد على الفاعليه وبضم الياء ونصب الفساد على المفعولية وقال موسى إني عذت الآية لما سمع موسى ماهم به فرعون من قتله استعاذ بالله فعصمه الله منه وقال من كل متكبر ليشمل فرعون وغيره وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح وقال رجل مؤمن من آل فرعون قيل اسم هذا الرجل حبيب وقيل حزقيل وقيل شمعون بالشين المعجمة وروي أن هذا الرجل المؤمن كان ابن عم فرعون فقوله من آل فرعون صفة للمؤمن وقيل كان من بني إسرائيل فقوله من آل فرعون على هذا يتعلق بقوله يكتم إيمانه والأول أرجح لأنه لا يحتاج فيه إلى تقديم وتأخير ولقوله فمن ينصرنا من بأس الله لأن هذا كلام قريب شفيق ولأن بني إسرائيل حينئذ كانوا أذلاء بحيث لا يتكلم أحد منهم بمثل هذا لكلام و أن يقول في موضع المفعول من أجله تقديره أتقتلونه من أجل أن يقول ربي الله وإن يك كاذبا فعليه كذبه أى إن كان موسى كاذبا في دعوى الرسالة فلا يضركم كذبه فلأي شيء تقتلونه فإن قيل كيف قال وإن يك كاذبا بعد أن كان قد آمن به فالجواب أنه لم يقل ذلك على وجه التكذيب له وإنما قاله على وجه الفرض والتقدير وقصد بذلك المحاجة لقومه فقسم أمر موسى إلى قسمين ليقيم عليهم الحجة في ترك قتله على كل وجه من القسمين وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم قيل إن بعض هنا بمعنى كل وذلك بعيد وإنما قال بعض ولم يقل كل مع أن الذي يصيبهم هو كل ما يعدهم ليلاطفهم في الكلام ويبعد عن التعصب لموسى ويظهر

النصيحة لفرعون وقومه فيرتجي إجابتهم للحق وقال الذي آمن هو المؤمن المذكور أولا وقيل هو موسى عليه السلام وهذا بعيد وإنما توهموا ذلك لأنه

صرح هنا بالإيمان وكان كلام المؤمن أولا غير صريح بل كان فيه تورية وملاطفة لقومه اذ كان يكتم ايمانه والجواب أنه كتم إيمانه أول الأمر ثم صرح به بعد ذلك وجاهرهم مجاهرة ظاهرة لما وثق بالله حسبما حكى الله من كلامه الى قوله فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله يوم التناد يعني يوم القيامة وسمى بذلك لأن المنادي ينادي الناس وذلك قوله يوم ندعو كل أناس وقيل لأن بعضهم ينادي بعضا أي ينادي أهل الجنة ... 599

---

6 أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا وينادي أهل النار أن أفيضوا علينا من الماء يوم تولون مدبرين أي منطلقين إلى النار وقيل هاربين من النار ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات قيل هو يوسف بن يعقوب وقيل هو يوسف بن ابراهيم بن يوسف بن يعقوب والبينات التي جاء بها يوسف لم تعين لنا واختلف هل أدركه فرعون موسى أو فرعون آخر قبله لأن كل من ملك مصر يقال له فرعون قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كلامهم هذا لا يدل على أنهم مؤمنون برسالة يوسف وإنما مرادهم لم يأت أحد يدعى الرسالة بعد يوسف قاله ابن عطية وقال الزمخشري إنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته الذين يجادلون بدل من مسرف مرتاب وإنما جاز إبدال الجمع من المفرد لأنه في معنى الجمع كأنه قال كل مسرف كبر مقتا فاعل كبر مصدر يجادلون وقال الزمخشري الفاعل ضمير من هو مسرف الأسباب الأسباب هنا الطرق وقيل الأبواب وكررها للتفخيم وللبيان فأطلع بالرفع عطف على أبلغ وبالنصب بإضمار أن في جواب لعل لأن الترجي غير واجب فهو كالتمني في انتصاب جوابه ولا نقول إن لعل أشربت معنى ليت كما قال بعض النحاة تباب أي خسران متاع أي يتمتع به قليلا فإن قيل لم كرر المؤمن نداء قومه مرارا فالجواب أن ذلك لقصد التنبيه لهم وإظهار الملاطفة والنصيحة فإن قيل لم جاء بالواو في قوله وياقوم في الثالث دون الثاني فالجواب أن الثاني بيان للأول وتفسير فلم يصح عطفه عليه بخلاف الثالث فإنه كلام آخر فصح عطفه عليه ماليس لي به علم أي ليس لي علم بربوبيته والمراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال وأشرك به ماليس بإله وإذا لم يكن إلهالم يصح علم ربوبيته لاجرم إي لابد ولا شك ليس له دعوة قال ابن عطية ليس له قدر ولا حق ... 600

---

7 يجب أن يدعي إليه كأنه قال أتدعونني إلى عبادة ما لا خطر له في الدنيا ولا في الآخرة ويحتمل اللفظ أن يكون معناه ليس له دعوة قائمة أي لا يدعي أحد إلى عبادته فوقاه الله سيئات ما مكروا دليل على أن من فوض أمره إلى الله عز وجل كان الله معه النار يعرضون عليها النار بدل من سوء العذاب أو مبتدأ أو خبر مبتدأ مضمر وعرضهم عليها من حين موتهم إلى يوم القيامة وذلك مدة البرزخ بدليل قوله ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب واستدل أهل السنة بذلك على صحة ما ورد من عذاب القبر وروي أن أرواحهم في أجواف

طيور سود تروح بهم وتغدو إلى النار غدوا وعشيا قيل معناه في كل غدوة وعشية من أيام الدنيا وقيل المعنى على تقدير ما بين الغدوة والعشية لأن الآخرة لاغدوة فيها ولا عشية لخزنة جهنم إن قيل هلا قال الذين في النار لخزنتها فلم صرح باسمها فالجواب أن في ذكر جهنم تهويلا ليس في ذكر الضمير وما دعاء الكافرين إلا في ضلال يحتمل أن يكون من كلام خزنة جهنم فيكون متصلا بقوله فادعوا أو يكون من كلام الله تعالى استئنافا إنا لننصر رسلنا قيل إن هذا خاص فيمن أظهره الله على الكفار وليس بعام لأن من الأنبياء من قتله قومه كز كريا ويحيى والصحيح أنه عام والجواب عما ذكروه أن زكريا ويحيى لم يكونا من الرسل إنما كانا من الأنبياء الذين ليسوا بمرسلين وإنما ضمن الله نصر الرسل خاصة لانصر الأنبياء كلهم ويوم يقوم الأشهاد يعني يوم القيامة والأشهاد جمع شاهد أو شهيد ويحتمل أن يكون بمعنى الحضور أو الشهادة على الناس أو الشهادة في سبيل الله والأظهر أنه بمعنى الشهادة على الناس لقوله فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم يحتمل أنهم لا يعتذرون أو يعتذرون ولكن لا تنفعهم معذرتهم والأول أرجح لقوله ولا يؤذن لهم فيعتذرون فنفي الاعتذار والانتفاع به إن وعد الله حق يعني وعده لسيدنا محمد صلى

الله عليه وسلم بالنصر والظهور على أعدائه الكفار بالعشى والإبكار قيل العشي صلاة العصر والإبكار صلاة الصبح وقيل العشي بعد العصر إلى الغروب والإبكار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس إن الذين يجادلون يعني كفار قريش إن في ... 601
8 صدورهم إلا كبر) أي تكبر وتعاظم يمنعهم من أن يتبعوك أو ينقادوا إليك وقيل كبرهم أنهم أرادوا النبوة لأنفسهم ورأوا أنهم أحق بها والأول أظهر لأن إرادتهم النبوة لأنفسهم حسد والأول هو الكبر ما هم ببالغيه أي لايبلغون ما يقتضيه كبرهم من الظهور عليك ومن نيل النبوة
فاستعذ بالله أي استعذ من شرهم لأنهم أعداء لك واستعذ من مثل حالهم في الكبر والحسد واستعذ بالله في جميع أمورك على الإطلاق لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس الخلق هنا مصدر مضاف إلى المفعول والمراد به الاستدال على البعث لأن الإله الذي خلق السموات والأرض على كبرها قادر على إعادة الأجسام بعد فنائها وقيل المراد توبيخ الكفار المتكبرين كأنه قال خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس فما بال هؤلاء يتكبرون علىخالقهم وهم من أصغر مخلوقاته وأحقرهم والأول أرجح لوروده في مواضع من القرآن لأنه قال بعده إن الساعة لآتية لا ريب فيها فقدم الدليل ثم ذكر المدلول وقال ربكم ادعوني أستجب لكم الدعاء هنا هو الطلب والرغبة وهذا وعد مقيدبالمشيئة وهي موافقة القدر لمن أراد أن يستجيب له وقيل ادعوني هنا بمعنى اعبدوني بدليل قوله بعده إن الذين يستكبرون عن عبادتي وقوله صلى الله عليه وسلم الدعاء هو العبادة ثم تلا الآية وأستجب لكم على هذا القول بمعنى أغفر لكم أو أعطيكم أجوركم والأول أظهر ويكون قوله ويستكبرون عن عبادتي بمعني يستكبرون عن الرغبة إلى كما قال صلى الله عليه وسلم من لم

يسأل الله يغضب عليه وأما قوله صلى الله عليه وسلم الدعاء هو العبادة فمعناه أن الدعاء والرغبة إلى الله هي العبادة لأن الدعاء يظهر فيه

افتقار العبد وتضرعه إلى الله داخرين أي صاغرين لتسكنوا فيه ذكر في يونس ورزقكم من الطيبات يعني المستلذات لأنه إذا جاء ذكر الطيبات في معرض الإنعام فيرادبه المستلذات وإذا جاء في معرض التحليل والتحريم فيرادبه الحلال والحرام الحمد لله رب العالمين هذا متصل بما قبله قال ذلك ابن عطية والزمخشري وتقديره ادعوه مخلصين قائلين الحمد لله رب العالمين ولذلك قال ابن عباس من قال لا إله إلا الله فليقل الحمد لله رب العالمين ويحتمل ... 602

---

9 أن يكون الحمد لله استئنافا ثم يخرجكم طفلا أراد الجنس ولذلك أفرد لفظه مع أن الخطاب لجماعة ثم لتبلغوا أشدكم ذكر الأشد في سورة يوسف عليه السلام واللام تتعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا وكذلك لتكونوا وأما لتبلغوا أجلا مسمى فمتعلق بمحذوف آخر تقديره فعل ذلك بكم لتبلغوا أجلا مسمى وهو الموت أو يوم القيامة
ألم تر إلى الذين يجادلون يعني كفار قريش وقيل هم أهل الأهواء كالقدرية وغيرهم وهذا مردود بقوله الذين كذبوا بالكتاب إلا إن جعلته منقطعا ما قبله وذلك بعيد إذا لأغلال في أعناقهم العامل في إذ يعلمون وجعل الظرف الماضي من الموضع المستقبل لتحقق الأمر يسحبون في الحميم أي يحرون والحميم الماء الشديد الحرارة ثم في النار يسجرون هذا من قولك سجرت التنور اذا ملأته بالنار فالمعنى أنهم يدخلون فيها كما يدخل الحطب في التنور ولذلك قال مجاهد في تفسيره توقد بهم النار تمرحون من المرح وهو الأشر والبطر وقيل الفخر والخيلاء فبئس مثوى المتكبرين إن قيل قياس النظم أن يقول بئس مدخل الكافرين لأنه تقدم قبله ادخلوا فالجواب أن الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثوى فإمانرينك بعض الذي نعدهم أصل إما نرينك إن نريك ودخلت ما الزائدة بعد إن الشرطية وجواب الشرط محذوف تقديره إن أريناك بعض الذي نعدهم من العذاب قرت عينك بذلك وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا يرجعون فننتقم منهم أشد الانتقام منهم من قصصنا عليك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى بعث ثمانية آلاف رسول وفي حديث آخر أربعة آلاف وفي حديث أبي ذر إن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا منهم الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر فذكر الله بعضهم في القرآن فهم الذين قص عليه ولم يذكر سائرهم فهم الذين لم يقصص عليه فاذا جاء أمر الله قضى بالحق قال الزمخشري أمر الله القيامة وقال ابن عطية المعنى اذا أراد ... 603

10 الله إرسال رسول قضي ذلك ويحتمل أن يريد بأمر الله اهلاك المكذبين للرسل لقوله وخسر هنالك المبطلون هنالك في الموضعين يراد به الوقت والزمان وأصله ظرف مكان ثم وضع موضع الزمان الأنعام هي الإبل والبقر والضأن والمعز فقوله لتركبوا منها يعني الإبل ومنها تأكلون يعني اللحوم والمنافع منها اللبن والصوف وغير ذلك ولتبلغوا عليها حاجة
يعني قطع المسافة البعيدة وحمل الأثقال على الإبل وتحملون يريد الركوب عليها وإنما كرره بعد قوله لتركبوا منها لأنه أراد الركوب الأول المتعارف في القرى والبلدان وبالحمل عليها الأسفار البعيدة قاله ابن عطية ويريكم آياته هذا عموم بعد ما قدم من الآيات المخصوصة ولذلك وبخهم بقوله فأى آيات الله تنكرون فرحوا بما عندهم من العلم الضمير يعود على الأمم المكذبين وفي تفسير علمهم وجوه أحدها أنه ما كانوا يعتدون من أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون والثاني أنه علمهم بمنافع الدنيا ووجوه كسبها والثالث أنه علم الفلاسفة الذين يحتقرون علوم الشرائع وقيل الضمير يعود على الرسل أى فرحوا بما أعطاهم الله من العلم بالله وشرائعه أو بما عندهم من العلم بأن الله ينصرهم على من يكذبهم وأما الضمير في وحاق بهم فيعود على الكفار باتفاق ولذلك ترجح أن يكون الضمير في فرحوا يعود عليهم ليتسق الكلام سنة الله انتصب على المصدرية والله سبحانه أعلم .
سورة فصلت حم السجدة
أي بينت وقيل قطعت إلى سور وآيات قرآنا عربيا منصوب بفعل مضمر على التخصيص أو حال أو مصدر (لقوم يعلمون) معناه يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل إذا نظروا فيها وذلك هو العلم الذي يوجب التكليف وقيل معناه يعلمون الحق والإيمان فالأول عام وهذا خاص والأول أولى لقوله ... 604

11 فأعرض أكثرهم لأن الإعراض ليس من صفة المؤمنين وقيل يعلمون لسان العرب فيفهمون القرآن إذ هو بلغتهم وقوله لقوم يتعلق بتنزيل أو فصلت والأحسن أن يكون صفة لكتاب فهم لا يسمعون أي لا يقبلون ولا يطيعون وعبر عن ذلك بعدم السماع على وجه المبالغة في أكنة جمع كان وهو الغطاء ومن بيننا و بينك حجاب عبارة عن بعدهم عن الاسلام فاعمل إننا عاملون قيل معناه اعمل على دينك إننا عاملون على ديننا فهي متاركة وقيل اعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك فهو تهديد الذين لا يؤتون الزكاة هي زكاة المال وإنما خصها بالذكر لصعوبتها على الناس ولإنها من أركان الإسلام وقيل يعني بالزكاة التوحيد وهذا بعيد وإنما حمله على ذلك لأن لآيات مكية لم تفرض الزكاة إلا بالمدينة والجواب أن المراد الفقه في طاعة الله مطلقا وقد كانت مأمورا بها بمكة أجر غير ممنون أي غير مقطوع من قولك مننت الحبل إذا قطعته وقيل غير منقوص قيل غير محصور وقيل لايمن عليهم به لأن المن يكدر الإحسان أندادا أي أمثالا وأشباها من الأصنام وغيرها رواسي يعني الجبال وبارك فيها أكثر خيرها وقدر فيها أقواتها أي أرزاق أهلها ومعاشهم وقيل يعني أقوات الأرض من المعادن وغيرها من الأشياء التي بها قوام الأرض والأول

أظهر فى أربعة أيام يريد أن الأربعة كملت باليومين الأولين فخلق الأرض في يومين وجعل فيها ما ذكر في يومين فتلك أربعة أيام وخلق السموات في يومين فتلك ستة أيام حسبما ذكر في مواضع كثيرة ولو كانت هذه الأربعة الأيام زيادة على اليومين المذكورين قبلها لكانت الجملة ثمانية أيام بخلاف ما ذكر في المواضع الكثيرة سواء بالنصب مصدر تقديره استوت استواء قاله الزمخشري وقال ابن عطية انتصب على الحال للسائلين قيل معناه لمن سأل عن أمرها وقيل معناه للطالبين لها ويعني بالطلب على هذا حاجة الخلق إليها وحرف الجر يتعلق بمحذوف على

القول الأول تقديره يبين ذلك لمن سأل عنه ويتعلق بقدر على القول الثاني تم استوى إلى السماء أي قصد إليها ويقتضي هذا الترتيب أن الأرض خلقت قبل السماء فإن قيل كيف الجمع بين ذلك وبين قوله والأرض بعد ذلك دحاها فالجواب أنها خلقت قبل السماء ثم دحيت بعد ذلك وهي دخان روى أنه كان العرش على الماء فأخرج إليه من الماء دخان فارتفع فوق الماء فأيبس الماء فصار أرضا ثم خلق السموات من الدخان المرتفع فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها هذه عبارة عن لزوم طاعتهما كما يقول الملك لمن تحت يده افعل كذا شئت أو أبيت أي لابد لك من فعله وقيل تقديره ائتيا طوعا وإلا أتيتما كرها ومعنى هذا الإتيان تصويرهما على الكيفية التي أرادها الله وقوله لهما ائتيا مجاز وهو عبارة عن تكوينه ... 605

---

12 لها وكذلك قولهما أتينا طائعين عبارة عن أنهما لم يمتنعا عليه حين أراد تكوينهما وقيل بل ذلك حقيقة وأنطق الله الأرض والسماء بقولهما أتينا طائعين وإنما جمع العقلاء طائعين جمع لوصفهما بأوصاف العقلاء فقضاهن سبع سموات أي صنعهن والضمير للسموات السبع وانتصابها على التمييز تفسيرا للضمير وأعاد عليها ضمير الجماعة المؤنثة لأنها لا تعقل فهو كقولك الجذوع انكسرت وجمعهما جمع المفكر العاقل في قوله طائعين لأنه وصفهما بالطوع وهو فعل العقلاء فعاملهما معاملتهم فهو كقولك رأيتهم لي ساجدين وأعاد ضمير التثنية في قوله قالتا أتينا لأنه جعل الأرض فرقة والسماء أخرى وأوحى في كل سماء أمرها أي أوحى إلي سكانها من الملائكة وإليها نفسها ما شاء من الأمور التي بها قوامها وصلاحها وأضاف الأمر إليها لأنه فيها وزينا السماء الدنيا بمصابيح يعني الشمس والقمر والنجوم وهي زينة للسماء الدنيا سواء كانت فيها أو فيما فوقها من السموات وحفظا تقديره وحفظناها حفظا ويجوز أن يكون مفعولا من أجله على المعنى كأنه قال وخلقنا المصابيح زينة وحفظا (فإن أعرضوا) الضمير لقريش صاعقة يعني واقعة واحدة شديدة وهي مستعارة من صاعقة النار وقرئ صعقة بإسكان العين وهي الواقعة من قولك صعق الرجل إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم معنى ما بين الأيدي المتقدم ومعنى ما خلف المتأخر فمعنى الآية أن الرسل جاؤهم في الزمان

المتقدم واتصلت نذارتهم إلى زمان عاد وثمود حتى قامت عليهم الحجة بذلك من بين أيديهم ثم جاءتهم رسل آخرون عند اكتمال أعمارهم فذلك من خلفهم قاله ابن عطية وقال الزمخشري معناه أتوهم من كل جانب فهو عبارة عن اجتهادهم في التبليغ اليهم وقيل أحبروهم بما أصاب من قبلهم فذلك ما بين أيديهم وأنذروهم ما يجرى عليهم في الزمان المستقبل وفي الآخرة فذلك من خلفهم أن لاتعبدوا إلا الله أن حرف عبارة وتفسير أو مصدرية على تقدير

بأن لا تعبدوا إلا الله (فإنا بما أرسلتم به كافرون) ليس فيه اعتراف الكفار بالرسالة وإنما معناه بما أرسلتم على قولكم ودعواكم وفيه تهكم ريحا صرصرا قيل إنه من الصر وهو شدة البرد فمعناه باردة وقيل إنه من قولك صرصر إذا صوت فمعناه لها صوت هائل في أيام نحسات معناه من النحس وهو ضد السعد وقيل شديدة البرد وقيل متتابعة والأول أرجح وروي أنها كانت آخر شوال من الأربعاء وقرئ نحسات بإسكان الحاء وكسرها فأما الكسر فهو جمع نحس وهو صفة وأما الإسكان فتخفيف من الكسر على وزن فعل أو وصف بالمضدر
وأما ثمود فهديناهم أي بينا لهم فهو بمعنى البيان لا بمعنى الارشاد فهم يوزعون أي يدفعون بعنف ... 606

---

13 وجلودهم يعني الجلود المعروفة وقيل هو كناية عن الفروج والأول أظهر وما كنتم تستترون الآيات يحتمل أن تكون من كلام الجلود أو من كلام الله تعالى أو الملائكة وفي معناه وجهان أحدهما لم تقدروا أن تستتروا من سمعكم وأبصاركم وجلودكم لأنها ملازمة لكم فلم يمكنكم احتراس من ذلك فشهدت عليكم والآخر لم تتحفظوا من شهادة سمعكم وأبصاركم وجلودكم لأنكم لم تبالوا بشهادتها ولم تظنوا أنها تشهد عليكم وإنما استترتم لأنكم ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وهذا أرجح لا تساق ما بعده معه ولما جاء في الحديث الصحيح عن ابن مسعود أنه قال اجتمع ثلاثة نفر قرشيان وثقفى قليل فقه قلوبهم كثير شحم بطونهم فتحدثوا بحديث فقال أحدهم أترى الله يسمع ما قلنا فقال الآخر إنه يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا فقال الآخر إن كان يسمع منا شيئا فإنه يسمعه كله فنزلت الآية أرداكم أي أهلككم من الردي بمعنى الهلاك وإن يستعتبوا فماهم من المعتبين هو من العتب بمعنى الرضا أي إن طلبوا العتبى ليس فيهم من يعطاها وقيضنا لهم قرناء أي يسرنا لهم قرناء سوء من الشياطين وغواة الإنس فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ما بين أيديهم ماتقدم من أعمالهم وما خلفهم ما هم عازمون عليه أو ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة والتكذيب بها وحق عليهم القول أي سبق عليهم القضاء بعذابهم في أمم أي في جملة أمم وقيل في بمعنى مع وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن روي أن قائل هذه المقالة أبو جهل بن هشام لعنه الله والغوا فيه المعنى لا تسمعوا إليه وتشاغلوا عند قراءته برفع

الأصوات وإنشاد الشعر وشبه ذلك حتى لا يسمعه أحد وقيل معناه قعوا فيه وعيبوه أرنا اللذين أضلانا يقولون هذا إذا دخلوا جهنم فقولهم مستقبل ذكر بلفظ الماضي لتحققه ومعنى اللذين أضلانا كل من أغوانا ... 607

---

14 من الجن والإنس وقيل المراد ولد آدم الذي سن القتل وإبليس الذي أمر بالكفر والعصيان وهذا باطل لأن ولد آدم مؤمن عاصي وإنما طلب هؤلاء من أضلهم بالكفر تحت أقدامنا أي في أسفل طبقة من النار ثم استقاموا قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه استقاموا على قولهم ربنا الله فصح إيمانهم ودام توحيدهم وقال عمر بن الخطاب المعنى استقاموا على الطاعة وترك المعاصي وقول عمر أكمل وأحوط وقول أبي بكر أرجح لما روى أنس أن رسول صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال قد قالها قوم ثم كفروا فمن مات عليها فهو ممن استقام وقال بعض الصوفية معنى استقاموا أعرضوا عما سوى الله وهذه حالة الكمال على أن اللفظ لا يقتضيه تتنزل عليهم الملائكة يعني عند الموت (ولكم فيها) الضمير للآخرة ما تدعون أي ما تطلبون ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله أى لا أحد أحسن أقولا منه ويدخل في ذلك كل من دعا الى عبادة الله أو طاعته على العموم وقيل المراد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقيل المؤذنون وهذا بعيد لأنها مكية وإنما شرع الأذان بالمدينة ولكن المؤذنون يدخلون في العموم وما يلقاها الضمير يعود على الخلق الجميل الذي يتضمنه قوله ادفع بالتي هي أحسن ذو حظ عظيم أي حظ من العقل والفضل وقيل حظ عظيم في الجنة وإما ينزغنك إن شرطية دخلت عليها ما الزائدة ونزغ الشيطان وساوسه وأمره بالسوء الذي خلقهن الضمير يعود على الليل و النهار والشمس والقمر لأن جماعة مالا يعقل كجماعة المؤنث أو كالواحدة المؤنثة وقيل إنما يعود على الشمس والقمر وجمعهما لأن الاثنين جمع وهذا بعيد الذين عند ربك الملائكة (لا يسئمون) أي لا يملون الأرض خاشعة عبارة عن قلة النبات اهتزت ذكر في الحج إن الذي أحياها لمحي الموتى تمثيل واحتجاج على صحة البعث إن الذين يلحدون في آياتنا أي يطعنون عليها وهذا الإلحاد هو بالتكذيب وقيل باللغو فيه حسبما

تقدم في السورة
أفمن يلقى في النار ... 608
15 الآية قيل إن المراد بالذي يلقى في النار أبو جهل وبالذي يآتي آمنا عثمان بن عفان وقيل عمار بن ياسر واللفظ أعم من ذلك اعملوا ما شئتم تهديد لا إباحة إن الذين كفروا بالذكر الذكر هنا القرآن باتفاق وخبر إن محذوف تقديره ضلوا أو هلكوا وقيل خبرها أولئك ينادون من مكان بعيد وذلك بعيد وإنه لكتاب عزيز أي كريم على الله وقيل منيع من الشيطان لا يأتيه الباطل أي ليس فيما تقدمه ما يبطله ولا يأتي بعده ما يبطله والمراد على الجملة أنه لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك في معناه

قولان أحدهما ما يقول الله لك من الوحي والشرائع إلا مثل ما قال للرسل من قبلك والآخر ما يقول لك الكفار من التكذيب والأذى إلا مثل ما قالت الأمم المتقدمون لرسلهم فالمراد على هذا تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بالتأسي والمراد على القول الأول أنه عليه الصلاة والسلام أتى بما جاءت به الرسل فلا تنكر رسالته إن ربك لذو مغفرة يحتمل أن يكون مستأنفا أو يكون هو المقول في الآية المتقدمة وذلك على القول الأول وأما على القول الثاني فهو مستأنف منقطع مما قبله ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته الأعجمي الذي لا يفصح ولا يبين كلامه سواء كان من العرب أو من العجم والعجمي الذي ليس من العرب فصيحا كان أو غير فصيح ونزلت الآية بسبب طعن قريش في القرآن فالمعنى أنه لو كان أعجميا لطعنوا فيه وقالوا هلا كان مبينا فظهر أنهم يطعنون فيه على أي وجه كان ءأعجمي وعربي هذا من تمام كلامهم والهمزة للإنكار والمعنى أنه لو كان القرآن أعجميا لقالوا قرآن أعجمي ورسول عربي أو مرسل إليه عربي وقيل إنما طعنوا فيه لما فيه من الكلمات العجمية كسجين واستبرق فقالوا قرآن أعجمي وعربي أي مختلط من كلام العرب والعجم وهذا يجري على قراءة أعجمي بفتح العين

في آذانهم وقر عبارة عن إعراضهم عن القرآن فكأنهم صم لا يسمعون وكذلك وهو عليهم عمى عبارة عن قلة فهمهم له أولئك ينادون من مكان بعيد فيه قولان أحدهما عبارة عن قلة فهمهم فشبههم بمن ينادي من مكان بعيد فهو لا يسمع الصوت ولا يفقه ما يقال والثاني أنه حقيقة في يوم القيامة أى ينادون من مكان بعيد ليسمعوا أهل الموقف توبيخهم والأول أليق بالكنايات التي قبلها كلمة سبقت من ربك ... 609
16 يعني القدر إليه يرد علم الساعة أي علم زمان وقوعها فإذا سئل أحد عن ذلك قال الله هو الذي يعلمها من أكمامها جمع كم بكسر الكاف وهو غلاف الثمرة قبل ظهورها ويوم يناديهم أين شركائي العامل في يوم محذوف والمراد به يوم القيامة والضمير للمشركين وقوله أين شركائي توبيخ لهم وأضاف الشركاء إلى نفسه على زعم المشركين كأنه قال الشركاء الذين جعلتم لي قالوا آذناك ما منا من شهيد المعنى أنهم قالوا أعلمناك ما منا من يشهد اليوم بأن لك شريكا لأنهم كفروا يوم القيامة بشركائهم وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل أي ضل عنهم شركاؤهم بمعنى أنهم لا يروهم حينئذ فما على هذا موصولة أو ضل عنهم قولهم الذي كانوا يقولون من الشرك فما على هذا مصدرية
وظنوا ما لهم من محيص الظن هنا بمعنى اليقين والمحيص المهرب أي علموا أنهم لا مهرب لهم من العذاب وقيل يوقف على ظنوا ويكون ما لهم استئنافا وذلك ضعيف لا يسأم الإنسان من دعاء الخير أي لا يمل من الدعاء بالمال و العافية وشبه ذلك ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة وقيل في غيره من الكفار واللفظ أعم من ذلك ليقولن هذا لي أي هذا حقي الواجب لي وليس تفضلا من الله ولا يقول هذا إلا كافر ويدل على ذلك قوله وما أظن الساعة قائمة وقوله ولئن رجعت الي ربي إن لي عنده للحسنى معناه إن بعثت تكون لي الجنة وهذا تخرص وتكبر وروي أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ونأي بجانبه ذكر

في الإسراء دعاء عريض أي كثير وذكر الله هذه الأخلاق على وجه الذم لها قل أرأيتم إن كان من عند الله الآية معناها أخبروني إن كان القرآن من عند الله ثم كفرتم به ألستم في شقاق بعيد فوضع قوله من أضل موضع الخطاب لهم سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم الضمير لقريش وفيها ثلاثة أقوال أحدها أن الآيات في الآفاق هي فتح الأقطار للمسلمين والآيات في أنفسهم هي فتح مكة فجمع ذلك وعدا للمسلمين بالظهور وتهديدا للكفار واحتجاجا عليهم بظهور الحق وخمول الباطل والثاني أن الآيات في الآفاق هي ما أصاب الأمم المتقدمة من الهلاك وفي أنفسهم يوم بدر الثالث أن الآيات في الآفاق هي خلق السماء وما فيها من العبر والآيات وفي أنفسهم خلقه بني آدم وهذا ضعيف لأنه قال سنريهم بسين الاستقبال وقد كانت السموات وخلقة بني آدم مرئية والأول هو الراجح إنه لحق الضمير للقرآن أو للإسلام محيط أي محيط بعلمه وقدرته وسلطانه ... 610

17
سورة الشورى
حم عسق الكلام فيه كسائر حروف الهجاء حسبما تقدم في سورة البقرة وقد حكى الطبري أن رجلا سأل ابن عباس عن حم عسق فأعرض عنه فقال حذيفة إنما كرهها ابن عباس لأنها نزلت في رجل من أهل بيته اسمه عبد الله يبني مدينة على نهر من أنهار المشرق ثم يخسف الله بها في آخر الزمان والرجل على هذا أبو جعفر المنصور والمدينة بغداد وقد ورد في الحديث أنها يخسف بها كذلك يوحى اليك الكاف نعت لمصدر محذوف والإشارة بذلك إلى ما تضمنه القرآن أو السورة وقيل الإشارة لقوله حم عسق فإن الله أنزل هذه الأحرف بعينها في كل كتاب أنزله وفي صحة هذا نظر الله العزيز الحكيم اسم الله فاعل بيوحى وأما على قراءة يوحى بالفتح فهو فاعل بفعل مضمر دل عليه يوحى كأن قائلا قال من الذي أوحى فقيل الله تكاد السموات يتفطرن أي يتشققن من خوف الله وعظيم جلاله وقيل من قول الكفار اتخذا الله ولدا فهي كالآية التي في مريم قال ابن عطية وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه مردود لأن الله تعالى لا يوصف به من فوقهن الضمير للسموات والمعنى يتشققن من أعلاهن وذلك مبالغة في التهويل وقيل الضمير للأرضين وهذا بعيد وقيل الضمير للكفار كأنه قال من فوق الجماعات الكافرة التي من أجل أقوالها تكاد السموات يتفطرن وهذا أيضا بعيد ويستغفرون لمن في الأرض عموم يراد به الخصوص لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض فهي كقوله ويستغفرون للذين آمنوا وقيل إن يستغفرون الذين آمنوا نسخ هذه الآية وهذا باطل لأن النسخ لا يدخل في الأخبار ويحتمل أن يريد بالاستغفار طلب الحلم عن أهل الأرض مؤمنهم وكافرهم ومعناه الإمهال لهم وأن لا يعاجلوا بالعقوبة فيكون عاما فإن قيل ما وجه اتصال قوله والملائكة

يسبحون الآية بما قبلها فالجواب أنا إن فسرنا تفطر السموات بأنه من عظمة الله فإنه يكون تسبيح الملائكة أيضا تعظيما له فينتظم الكلام وإن فسرنا

تفطرها بأنه من كفر بني آدم فيكون تسبيح الملائكة تنزيها لله تعالى عن كفر بني آدم وعن أقوالهم القبيحة أم القرى والمراد أهلها ولذلك عطف عليه من حولها يعني من الناس يوم الجمع يعني يوم القيامة ... 611
18 وسمى بذلك لأن الخلائق يجتمعون فيه أم اتخذوا أم منقطعة والأولياء هنا المعبودون من دون الله فحكمة الى الله أي ما اختلفتم فيه أنتم والكفار من أمر الدين فحكمه إلى الله بأن يعاقب المبطل ويثيب المحق أو ما اختلفتم فيه من الخصومات فتحاكموا فيه الى لنبي صلى الله عليه وسلم كقوله فردوه إلى الله والرسول من أنفسكم أزواجا يعني الإناث ومن الأنعام أزواجا يحتمل أن يريد الإناث أو الأصناف يذرؤكم فيه معنى يذرؤكم يخلقكم نسلا بعد نسل وقرنا بعد قرن وقيل يكثركم والضمير المجرور يعود على الجعل الذي يتضمنه قوله جعل لكم وهذا كما تقول كلمت زينا كلاما أكرمته فيه وقيل الضمير للتزويج الذي دل عليه قوله أزواجا وقال الزمخشري تقديره يذرؤكم في هذا التدبير وهو أن جعل الناس والأنعام أزواجا والضمير في يذرؤكم خطاب للناس والأنعام غلب فيه العقلاء على غيرهم فإن قيل لم قال يذرؤكم فيه وهلا قال يذرؤكم به فالجواب أن هذا التدبير جعا كالمنع والمعدن للبث والتكثير قاله الزمخشري ليس كمثله شيء تنزيه لله تعالى عن مشابهة المخلوقين قال كثير من الناس الكاف زائدة للتأكيد والمعنى ليس مثله شيء وقال الطبري وغيره ليست بزائدة ولكن وضع مثله موضع هو والمعنى ليس كهو شيء قال الزمخشري وهذا كما تقول مثلك لا يبخل والمراد أنت لا تبخل فنفي البخل عن مثله والمراد نفيه عن ذاته مقاليد قد ذكر شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا اتفق دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع جميع الأنبياء في أصول الاعتقادات وذلك هو المراد هنا ولذلك فسره بقوله أن أقيموا الدين يعني إقامة الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله

وكتبه وبالدار الآخرة وأما الأحكام الفروعية فاختلفت فيها الشرائع فليست ترادهنا أن أقيموا يحتمل أن تكون أن في موضع نصب بدلا من قوله ما وصى أو في موضع خفض بدلا من به أو في موضع رفع على خبر ابتداء مضمر أو تكون مفسرة لا موضع لها من الإعراب كبر على المشركين ما تدعوهم إليه أي صعب الإسلام على المشركين الله يجتبي اليه من يشاء الضمير في إليه يعود على الله تعالى وقيل على الدين وما تفرقوا يعني أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم ولولا كلمة يعني القضاء السابق بأن لا يفصل بينهم في الدنيا وإن الذين أورثوا الكتاب يعني المعاصرين لسيدنا ... 612

19 محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى وقيل يعني العرب والكتاب على هذا القرآن لفي شك منه الضمير للكتاب أو للدين أو لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك فادع أي إلى ذلك الذي شرع الله فادع الناس فاللام بمعنى إلى والإشارة بذلك إلى قوله شرع لكم من الدين أو إلى قوله ما تدعوهم إليه وقيل إن اللام بمعنى أجل والإشارة إلى التفرق والاختلاف أي لأجل ما حدث من التفرق ادع إلى الله وعلى هذا يكون قوله واستقم معطوفا وعلى الأول يكون مستأنفا فيوقف على فادع واستقم كما أمرت أي دم على ما أمرت به من عبادة الله وطاعته وتبليغ رسالته
ولا تتبع أهواءهم الضمير للكفار وأهواؤهم ما كانوا يحبون من الكفر والباطل كله وأمرت لأعدل بينكم قيل يعني العدل في الأحكام إذا تخاصموا إليه ويحتمل أن يريد العدل في دعائهم إلى دين الإسلام أي أمرت أن أحملكم على الحق لا حجة بيننا وبينكم أي لا جدال ولا مناظرة فإن الحق قد ظهر وأنتم تعاندون والذين يحاجون في الله أي يجادلون المؤمنين في دين الإسلام ويعني كفار قريش وقيل اليهود من بعد ما استجيب له الضمير يعود على الله أي من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه وقيل يعود على الدين وقيل على محمد صلى الله عليه وسلم والأول أظهر وأحسن حجتهم داحضة أي زاهقة باطلة أنزل الكتاب يعني جنس الكتاب بالحق أي بالواجب أو متضمنا الحق والميزان قال ابن عباس وغيره يعني العدل ومعنى إنزل العدل إنزال الأمر به في الكتب المنزلة وقيل يعني الميزان المعروف فإن قيل ما وجه اتصال ذكر الكتاب والميزان بذكر الساعة فالجواب أن الساعة يوم الجزاء والحساب فكأنه قال اعدلوا وافعلوا الصواب قبل اليوم الذي تحاسبون فيه على أعمالكم لعل الساعة قريب جاء قريب بالتذكير لأن تأنيث الساعة غير حقيقي ولأن المراد به وقت الساعة يستعجل بها أي يطلبون تعجيلها استهزاء بها

وتعجيزا للمؤمنين يمارون أي يجادلون ويخالفون يرزق من يشاء يعني الرزق الزائد على المضمون لكل حيوان في قوله وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها أي ما تقوم به الحياة فإن هذا على العموم لكل حيوان طول عمره ولزائد خاص بمن شاء الله حرث الآخرة عبارة عن العمل لها وكذلك حرث الدنيا وهو مستعار من حرث الأرض لأن الحراث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل نزد له في حرثه عبارة عن تضعيف الثواب نؤته منها أي نؤته منها ما قدر له لأن كل أحد لا بد أن يصل إلى ما قسم ... 613

20 له وماله في الآخرة من نصيب هذا للكفار أو لمن كان يريد الدنيا خاصة ولا رغبة له في الآخرة
أم لهم شركاء أم منقطعة للإنكار والتوبيخ والشركاء الأصنام وغيرها وقيل

الشياطين (شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) الضمير في شرعوا للشركاء وفي لهم للكفار وقيل بالعكس والأول أظهر ولم يأذن بمعنى لم يأمر والمراد بما شرعوا من البواطل في الاعتقادات وفي الأعمال كالبحيرة والوصيلة وغير ذلك ولولا كلمة الفصل أي لولا القضاء السابق بأن لا يقضى بينهم في الدنيا لقضى بينهم فيها ترى الظالمين مشفقين يعني في الآخرة ذلك الذي يبشر الله عبادة تقديره يبشر به وحذف الجار والمجرور إلا المودة في القربى فيه أربعة أقوال الأول أن القربى بمعنى القرابة وفي بمعنى من أجل والمعنى لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوني لأجل القرابة التي بيني وبينكم فالمقصد على هذا استعطاف قريش ولم يكن فيهم بطن إلا وبينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم قرابة الثاني أن القربى بمعنى الأقارب أو ذوي القربى والمعنى إلا أن تودوا أقاربي وتحفظوني فيهم والمقصد على هذا وصيه بأهل البيت الثالث أن القربى قرابة الناس بعضهم من بعض والمعنى أن تودوا أقاربكم والمقصود على هذا وصية بصلة الأرحام الرابع أن القربى التقرب إلى الله والمعنى إلا أن تتقربوا إلى الله بطاعته والاستثناء على القول الثالث والرابع منقطع وأما على الأول والثاني فيحتمل الانقطاع لأن المودة ليست بأجر ويحتمل الاتصال على المجاز كأنه قال لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فجعل المودة كالأجر يقترف أي يكتسب نزد له فيها حسنا يعني مضاعفة الثواب أم يقولون أم منقطعة للإنكار والتوبيخ فإن يشا الله يختم على قلبك فالمقصد بهذا قولان أحدهما أنه رد على الكفار في قولهم أفترى على الله كذبا أى لو افتريت على الله كذبا لختم على قلبك ولكنك لم تفتر على الله كذبا فقد هداك

وسددك والآخر أن المراد إن يشأ الله يختم على قلبك بالصبر على أقوال الكفار وتحمل أذاهم ويمح الله الباطل هذا فعل مستأنف غير معطوف على ما قبله لأن الذي قبله مجزوم وهذا مرفوع فيوقف على ما قبله ويبدأ به وفي المراد به وجهان أحدهما أنه من تمام ما قبله أي لو افتريت على الله كذبا لختم علع قلبك ومحا الباطل الذي كنت تفتريه لو افتريت والآخر أنه عد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يمحو الله الباطل وهو الكفر ويحق الحق وهو الإسلام وهو الذي يقبل التوبة عن عبادة عن هنا بمعنى من وكأنه قال التوبة الصادرة من عبادة وقبول ... 614

---

21 التوبة على ثلاثة أوجه أحدها التوبة من الكفر فهي مقبولة قطعا والثاني التوبة من مظالم العباد فهي غير مقبولة حتى ترد المظالم أو يستحل منها والثالث التوبة من المعاصي التي بين العبد وبين الله فالصحيح أنها مقبولة بدليل هذه الآية وقيل إنها في المشيئة ويعفو عن السيئات العفو مع التوبة على حسب ما ذكرنا وأما العفو دون التوبة فهو على أربعة أقسام الأول العفو عن الكفر وهو لا يكون أصلا والثاني العفو عن مظالم العباد وهو كذلك والثالث

العفو عن الذنوب الصغائر إذا اجتنبت الكبائر وهو حاصل باتفاق الرابع العفو عن الكبائر فمذهب أهل السنة في المشيئة ومذهب المعتزلة أنها لا تغفر إلا بالتوبة ويستجيب الذين آمنوا فيه ثلاثة أقوال أحدها أن معنى يستجيب يجيب والذين آمنوا مفعول والفاعل ضمير يعود على الله تعالى أي يجيبهم فيما يطلبون منه وقال الزمخشري أي أصله يستجيب للذين آمنوا فحذف اللام والثاني أن معناه يجيب والذين آمنوا فاعل أي يستجيب المؤمنون لربهم باتباع دينه والثالث أن معناه يطلب المؤمنون الإجابة من ربهم واستفعل على هذا على بابه من الطلب والأول أرجح لدلالة قوله ويزيدهم من فضله ولأنه قول ابن عباس ومعاذ بن جبل ويزيدهم من فضله أي يزيدهم مالا يطلبون زيادة على الاستجابة فيما طلبوا وهذه الزيادة روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها الشفاعة والرضوان ولو بسط الله الرزق لعبادة لبغوا في الأرض أي بغي بعضهم على بعض وطغوا لأن الغني يوجب الطغيان وقال بعض الصحابة فينا نزلت لأنا نظرنا إلى أموال الكفار فتمنيناها وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا قيل لعمر رضي الله عنه اشتد القحط وقنط الناس فقال الآن يمطرون وأخذ ذلك من هذه الآية ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اشتدي أزمة تنفرجي وينشر رحمته قيل يعني المطر فهو تكرار للمعني الأول بلفظ آخر وقيل يعني الشمس وقيل بالعموم وما بث فيهما من دابة لا

إشكال لأن الدواب في الأرض وأما في السماء فقيل يعني الملائكة وقيل يمكن أن تكون في السماء دواب لا نعلمها نحن وقيل المعنى أنه بث في احدهما فذكر الاثنين كما تقول في بني فلان كذا وإنما هو في بعضهم وهو على جمعهم إذا يشاء قدير يريد جمع الخلق في الحشر يوم القيامة وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم المعنى أن المصائب التي تصيب الناس في أنفسهم وأموالهم إنما هي بسبب الذنوب قال رسوال الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفوا الله عنه أكثر وقرئ بما كسبت بغير فاء على أن يكون ما أصابكم بمعنى الذي وقرئ بالفاء على أن يكون ما أصابكم شرطا بمعجزين قد ذكر الجواري جمع جارية وهي السفينة كالأعلام ... 615

---

22 جمع علم وهو الجبل إن يشأ يسكن الريح فيظللن روا كد على ظهره الضمير في يظللن للجواري وفي ظهره للجر أي لو أراد الله أن يسكن الرياح لبقيت السفن واقفة على ظهر البحر فالمقصود تعديد النعمة في إرسال الرياح أو تهديد بإسكانه أو يوبقهن بما كسبوا عطف على يسكن الريح ومعنى يوبقهن يهلكهن بالغرق من شدة الرياح العاصفة والضمير فيه للسفن وفي كسبوا لركابها من الناس والمعنى أنه لو شاء لأغرقها بذنوب الناس ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص أي يعلمون أنه لا مهرب لهم من الله وقرئ يعلم بالرفع على الاستئناف وبالنصب واختلف في إعرابه على قولين

أحدهما أنه نصب بإضمار أن بعد الواو لما وقعت بعد الشرط والجزاء لأنه غير واجب وأنكر ذلك الزمخشري وقال إنه شاذ فلا ينبغي أن يحمل القرآن عليه والثاني قول الزمخشري إنه معطوف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم قال ونحوه من المعطوف على التعليل المحذوف في القرآن كثير ومنه قوله ولنجعله آية للناس
كبائر الإثم ذكرنا الكبائر في النساء وقيل كبائر الإثم هو الشرك والفواحش هي الزنا واللفظ أعم من ذلك والذين استجابوا لربهم قيل يعني الأنصار لأنهم استجابوا لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم الى الاسلام ويظهر لي أن هذه الآية إشارة إلى ذكر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لأنه بدأ أولا بصفات أبي بكر الصديق ثم صفات عمر بن الخطاب ثم صفات عثمان بن عفان ثم صفات علي بن أبي طالب فكونه جمع هذه الصفات ورتبها على هذا الترتيب يدل على أنه قصد بها من اتصف بذلك فأما صفات أبي بكر فقوله الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون وإنما جعلناها صفة أبي بكر وإن كان جميعهم متصفا بها لأن أبا بكر كانت له فيها مزية لم تكن لغيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجحهم وقال صلى الله عليه وسلم أنا مدينة الإيمان وأبو بكر بابها وقال أبو بكر لو كشف

الغطاء لما ازددت إلا يقينا والتوكل إنما يقوى بقوة الإيمان أما صفات عمر فقوله والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش لأن ذلك هو التقوى وقد قال صلى الله عليه وسلم أنا مدينة التقوى وعمر بابها وقوله وإذا ما غضبوا هم يغفرون وقوله قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله نزلت في عمر وأما صفات عثمان فقوله والذين استجابوا لربهم لأن عثمان لما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الايمان تبعه وبادر إلى الاسلام وقوله وأقاموا الصلاة لأن عثمان كان كثير الصلاة بالليل وفيه نزلت أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما الآية وروى أنه كان يحيى الليل بركعة يقرأ فيها القرآن كله وقوله وأمرهم شورى بينهم لأن عثمان ولي الخلافة بالشورى وقوله ومما رزقناهم ينفقون لأن عثمان كان كثير النفقة في سبيل الله ويكفيك أنه جهز جيش العسرة وأما صفة علي فقوله والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون لأنه لما 616 ...

---

23 قاتلته الفئة الباغية قاتلها انتصار للحق وانظر كيف سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم المقاتلين لعلى الفئة الباغية حسبما ورد في الحديث الصحيح أنه قال لعمار بن ياسر تقتلك الفئة لباغية فذلك هو البغي الذي أصابه وقوله فمن عفا وأصلح فأجره على الله إشارة إلى فعل الحسن بن علي حين بايع معاوية وأسقط حق نفسه ليصلح أحوال المسلمين ويحقن دماءهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحسن إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين وقوله ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما

عليهم من سبيل إشارة إلى انتصار الحسين بعد موت الحسن وطلبه للخلافة وانتصاره من بني أمية وقوله إنما السبيل على الذين يظلمون الناس إشارة إلى بني أمية فإنهم استطالوا على الناس كما جاء في الحديث عنهم أنهم جعلوا عباد الله خولا ومال الله دولا ويكفيك من ظلمهم أنهم كانوا يلعنون علي بن أبي طالب على منابرهم وقوله ولمن صبر وغفر الآية إشارة إلى صبر أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم على مانالهم من الضر والذل طول مدة بني أمية وجزاء سيئة سيئة مثلها سمي العقوبة باسم الذنب وجعلها مثلها تحرزا من الزيادة عليها فمن عفا وأصلح فأجره على الله هذا يدل على أن العفو عن الظلمة أفضل من الانتصار لأنه ضمن الأجر في العفو وذكر الانتصار بلفظ الإباحة في قوله ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل وقيل إن الانتصار أفضل والأول أصح فإن قيل كيف ذكر الانتصار في صفات المدح في قوله والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون والمباح لامدح فيه ولا ذم فالجواب من ثلاثة أوجه أحدها أن المباح قد يمدح لأنه قيام بحق لا بباطل والثاني أن مدح الانتصار لكونه كان بعد الظلم تحرزا ممن بدأ بالظلم فكأن المدح إنما هو بترك الابتداء بالظلم والثالث إن كانت الإشارة بذلك إلى علي بن أبي طالب حسبما ذكرنا فانتصاره محمود لأن قتال أهل البغي واجب

لقوله تعالى فقاتلوا التي تبغي يعرضون عليها أي على النار خاشعين من الذل عبارة عن الذل والكآبة ومن الذل يتعلق بخاشعين ينظرون من طرف خفي فيه قولان أحدهما أنه عبارة عن الذل لأن نظر الذليل بمهابة واستكانة والآخر أنهم يحشرون عميا فلا ينظرون بأبصارهم وإنما ينظرون بقلوبهم واستبعد هذا ابن عطية والزمخشري والظرف يحتمل أن يريد به العين أو يكون مصدرا يوم القيامة يتعلق بقال أو بخسروا ألا إن الظالمين يحتمل أن يكون من كلام الذين آمنوا أو مستأنفا من كلام الله تعالى لا مرد له ... 617

---

24 ذكر في الروم من نكير أي إنكار يعني لا تنكرون أعمالكم
يهب لمن يشاء إناثا قدم الإناث اعتناء بهن وتأنيسا لمن وهبهن له قال واثلة بن الأسقع من يمن المرأة تبكيرها بأنثى قبل الذكر لأن الله بدأ بالإناث وقال بعضهم نزلت هذه الآية في الأنبياء عليهم السلام فشعيب ولوط كان لهما إناث دون ذكور وإبراهيم كان له ذكور دون إناث ومحمد صلى الله عليه وسلم جمع الإناث والذكور ويحي كان عقيما والظاهر أنها على العموم في جميع الناس أذ كل واحد منهم لا يخلو عن قسم من هذه الأقسام الأربعة التي ذكر وفي الآية من أدوات البيان التقسيم وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا الآية بين الله تعالى فيها كلامه لعبادة وجعله على ثلاثة أوجه أحدها الوحي المذكور أولا وهو الذي يكون بالهام أو منام والآخر أن يسمعه كلامه من وراء حجاب الثالث الوحي بواسطة الملك وهو قوله أو يرسل رسولا يعني ملكا فيوحي بإذنه ما يشاء إلى النبي وهذا خاص بالأنبياء والثاني خاص بموسى وبمحمد صلى الله

عليه وسلم إذ كلمه الله ليلة الإسراء وأما الأول فيكون للأنبياء والأولياء كثيرا وقد يكون لسائر الخلق ومنه وأوحي ربك إلى النحل ومنه منامات الناس أو يرسل رسولا قرىء يرسل ويوحي بالرفع على تقدير أو هو يرسل وبالنصب عطفا على وحيا لأن تقديره أن يوحي عطف على أن المقدرة وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا الروح هنا القرآن والمعنى مثل هذا الوحي وهو بإرسال ملك إليك القرآن والأمر هنا يحتمل أن يكون واحد الأمور أو يكون من الأمر بالشيء ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان المقصد بهذا شيئان أحدهما تعداد النعمة عليه صلى الله عليه وسلم بأن علمه الله ما لم يكن يعلم والآخر احتجاج على نبوته لكونه أتى بما لم يكن يعلمه ولا تعلمه من أحد فإن قيل أما كونه لم يكن يدري الكتاب فلا إشكال فيه وأما الإيمان ففيه إشكال لأن الأنبياء مؤمنون بالله قبل مبعثهم فالجواب أن

الإيمان يحتوي على معارف كثيرة وإنما كمل له معرفتها بعد بعثه وقد كان مؤمنا بالله قبل ذلك فالإيمان هنا يعني به كمال المعرفة وهي التي حصلت له بالنبوة ولكن جعلناه نورا الضمير للقرآن 618
25 سورة الزخرف
واالكتاب المبين يعني القرآن والمبين يحتمل أن يكون بمعنى البين أو المبين لغيره وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم أم الكتاب اللوح المحفوظ والمعنى أن القرآن وصف في اللوح بأنه على حكيم وقيل المعنى أن القرآن نسخ بجملته في اللوح المحفوظ ومنه كان جبريل ينقله فوصفه الله بأنه على حكيم لكونه مكتوب في اللوح المحفوظ والأول أظهر وأشهر أفنضرب عنكم الذكر صفحا الهمزة للإنكار والمعنى أنمسك عنكم الذكر ونضرب من قولك أضربت عن كذا إذا تركته والذكر يراد به القرآن أو التذكير والوعظ وصفحافيه وجهان أحدهما أنه بمعنى الإعراض تقول صفحت عنه إذا أعرضت عنه فكأنه قال أنترك تذكيركم إعراضا عنكم وإعراب صفحا على هذا مصدر من المعنى أو مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال والآخر أن يكون بمعنى العفو والغفران فكانه يقول أنمسك عنكم الذكر عفوا عنكم وغفرانا لذنوبكم وإعراب صفحا على هذا مفعول من أجله أو مصدر في موضع الحال أن كنتم قوما مسرفين قرىء بكسر الهمزة على الشرط والجواب في الكلام الذي قبله وقرىء بالفتح على أنه مفعول من أجله أشد منهم بطشا الضمير لقريش وهم المخاطبون بقوله أن كنتم قوما مسرفين فإن قيل كيف إن كنتم على الشرط بحرف إن التي معناها الشك ومعلوم أنهم كانوا مسرفين فالجواب أن في ذلك إشارة إلى توبيخهم على الإسراف وتجهيلهم في ارتكابه فكانه شيء لا يقع من عاقل فلذلك وضع حرف التوقع في موضع الواقع ومضى مثل الأولين أي تقدم في القرآن ذكر حال الأولين وكيفية إهلا كهم لما كفروا ولئن سألتهم الآية احتجاج على قريش لانهم كانوا يعترفون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض وكانوا مع

اعترافهم بذلك يعبدون غيره ومقتضى جوابهم أن يقولوا خلقهن الله فلما ذكر هذا المعنى جاءت العبارة عن الله بالعزيز العليم لأن اعترافهم بأنه خلق السموات والأرض يقتضي أن يعترفوا بأنه عزيز عليم وأما قوله الذي جعل لكم فهو من كلام الله لا من كلامهم مهادا أي فراشا على وجه التشبيه سبلا أي طرقا تمشون فيها ماء بقدر أي بمقدار ووزن معلوم وقيل معناه بقضاء كذلك تخرجون تمثيل للخروج من القبور بخروج النبات من الأرض الأزواج كلها ... 619

26 يعني أصناف الحيوان والنبات وغير ذلك
لتستووا على ظهوره الضمير يعود على ما تركبون ثم تذكروا نعمة ربكم يحتمل أن يكون هذا لذكر بالقلب أو باللسان ويحتمل أن يريد النعمة في تسخير هذا المركوب أو النعمة على الاطلاق وكان بعض السلف اذا ركب دابة يقول الحمد لله الذي هدانا للإسلام ثم يقول سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين أي مطيقين وغالبين وإنا إلى ربنا لمنقلبون اعتراف بالحشر فإن قيل ما مناسبة هذا للركوب فالجواب أن راكب السفينة أو الدابة متعرض للهلاك بما يخاف من غرق السفينة أو سقوطه عن الدابة فأمر بذكر الحشر ليكون مستعدا للموت الذي قد يعرض له وقيل يذكر عند الركوب ركوب الجنازة وجعلوا له من عباده جزءا الضمير في جعلوا لكفار العرب وفي له لله تعالى وهذا الكلام متصل بقوله ولئن سألتهم الآية والمعنى أنهم جعلوا الملائكة بنات الله فكأنهم جعلوا جزءا من عبادة نصيبا له وحظادون سائر عباده وقال الزمخشري معناه أنهم جعلوا الملائكة جزءا منه وقال بعض اللغويين الجزء في اللغة الإناث واستشهد على ذلك ببيت شعر قال الزمخشري وذلك كذب على اللغة والبيت موضوع أم اتخذ مما يخلق بنات أم للإنكار والرد على الذين قالوا إن الملائكة بنات الله ومعنى أصفاكم خصكم أي كيف يتخذ لنفسه البنات وهن أدنى وأصفاكم بالبنين وهم أعلا وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا أي إذا بشر بالأنثى وقد ذكر هذا المعنى في النحل والمراد أنهم يكرهون البنات فكيف ينسبونها إلى الله تعالى عن قولهم أو من ينشؤا في الحلية المراد بمن ينشأ في الحلية النساء والحلية هي الحلى من الذهب والفضة وشبه ذلك ومعنى ينشأ فيها يكبر وينبت في استعمالها وقرىء ينشأ بضم الياء وتشديد الشين بمعنى يربى فيها والمقصد الرد على الذين قالوا الملائكة بنات الله كأنه قال أجعلتم لله من ينشأ في الحلية وذلك صفة النقص ثم أتبعها بصفة نقص أخرى وهي قوله

وهو في الخصام غير مبين يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبين حجتها لنقص عقلها وقل ما تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني فكيف ينسب لله من يتصف بهذه النقائص وإعراب ينشأ مفعول بفعل مضمر

تقديره أجعلتم لله من ينشأ أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره أو من ينشأ في الحلية خصصتم به الله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا الضمير في جعلوا الكفار العرب فحكى عنهم ثلاثة أقوال شنيعة أحدها أنهم نسبوا إلى الله الولد والآخر أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين والثالث أنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثا وقرىء عند الرحمن بالنون والمراد به قرب الملائكة وتشريفهم كقوله والذين عند ربك وقرىء عباد بالباء جمع عبد والمراد به أيضا الاختصاص والتشريف أشهدوا خلقهم هذا رد على العرب في قولهم إن الملائكة إناثا والمعنى هم لم يشهدوا خلق الملائكة فكيف يقولون ما ليس لهم به علم ستكتب شهادتهم ويسئلون أي تكتب شهادتهم التي شهدوا بها على الملائكة ويسئلون عنها يوم القيامة ... 620

---

27 وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم الضمير في قالوا للكفار وفي عبدناهم للملائكة وقال ابن عطية للأصنام والأول أظهر وأشهر والمعنى احتجاج احتج به الذين عبدوا الملائكة وذلك أنهم قالوا لو أراد الله أن لا نعبدهم ما عبدناهم فكونه يمهلناوينعم علينا دليل على أنه يرضى عبادتنا لهم ثم رد الله عليهم بقوله ما لهم بذلك من علم يعني أن قولهم بلا دليل وحجة وإنما هو تخرص منهم أم آتيناهم كتابا من قبله أي من قبل القرآن وهذا أيضا رد عليهم لكونهم ليس لهم كتاب يحتجون به بل قالوا أنا وجدنا آباءنا على أمة أي على دين وطريقة والمعنى أنهم ليس لهم حجة وإنما هم مقلدو آبائهم وكذلك ما أرسلنا من قبلك الآية المعنى كما اتبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة اتبع كل من كان قبلهم من الكفار آباءهم بغير حجة بل بطريق التقليد المذموم قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم هذا رد على الذين اتبعوا آباءهم والمعنى قل لهم أتتبعونهم ولو جئتكم بدين أهدى من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم وقرىء قال أو لو جئتكم والفاعل ضمير يعود على النذير المتقدم وأما قراءة قل بالأمر فهو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم أمره الله أن يقول ذلك لقريش وقيل هو للنذير المتقدم أمره الله أن يقول ذلك لقومه والأول أظهر وعلى هذا تكون هذه الجملة اعتراضا بين قصة المتقدمين فإن قوله قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون حكاية عن الكفار المتقدمين وكذلك قوله فانتقمنا منهم يعني من المتقدمين إنني براء أي بريء وبراء من الأصل مصدر ثم استعمل صفة ولذلك استوى فيه الواحد والجماعة كعدل وشبهه إلا الذي فطرني يحتمل أن يكون استثناء منقطعا وذلك إن كانوا لا يعبدون الله أو يكون متصلا إن كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره وإعرابه على هذا بدل مما تعبدون فهو في موضع خفض أو منصوب على الاستثناء فهو في موضع نصب سيهدين قال هنا سيهدين وقال مرة أخرى فهو

يهدين ليدل على أن الهداية في الحال والاستقبال وجعلها كلمة باقية في عقبه ضمير الفاعل في جعلها يعود على إبراهيم عليه السلام وقيل على الله تعالى

والأول أظهر والضمير يعود على الكلمة التي قالها وهي إنني براء مما تعبدون ومعناها التوحيد ولذلك قيل يعود على الاسلام لقوله هو سماكم المسلمين من قبل وقيل يعود على لا إله ألا الله والمعنى متقارب أي جعل إبراهيم تلك الكلمة ثابتة في ذريته لعل من أشرك منهم يرجع إلى التوحيد والعقب هو الولد وولد الولد ما تناسلا أبدا
بل متعت هؤلاء وآباءهم الإشارة بهؤلاء إلى قريش وهذا الكلام متصل بما قبله لأن قريشا من عقب إبراهيم عليه السلام ... 621

---

28 فالمعنى لكن هؤلاء ليسوا ممن بقيت الكلمة فيهم بل متعتهم بالنعم والعافية فلم يشكروا عليها واشتغلوا بها عن عبادة الله حتى جاءهم الحق ورسول مبين وهو محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم الضمير في قالوا لقريش والقريتان مكة والطائف ومن القريتين معناها من إحدى القريتين كقولك يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان أي من أحدهما وقيل معناه على رجل من رجلين من القريتين فالرجل الذي من مكة الوليد بن المغيرة وقيل عتبة بن ربيعة والرجل الذي من الطائف عروة بن مسعود وقيل حبيب بن عمير ومعنى الآية أن قريشا استبعدوا نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم واقترحوا أن ينزل على أحد هؤلاء وصفوه بالعظمة يريدون الرئاسة في قومه وكثرة ماله فرد الله عليهم بقوله أهم يقسمون رحمت ربك يعني أن الله يخص بالنبوة من يشاء من عباده على ما تقتضيه حكمته وإرادته وليس ذلك بتدبير المخلوقين ولا بإرادتهم ثم أوضح ذلك بقوله نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا أي كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية وإذا كنا لم نمهل الحظوظ الفانية الحقيرة فأولى وأحرى أن لا نمهل الحظوظ الشريفة الباقية ليتخذ بعضهم بعضا سخريا وهو من التسخير في الخدمة أي رفعنا بعضهم فوق بعض ليخدم بعضهم بعضا ورحمت ربك خير مما يجمعون هذا تحقير للدنيا والمراد برحمة ربك هنا النبوة وقيل الجنة ولولا أن يكون الناس أمة واحدة الآية تحقير أيضا للدنيا ومعناها لولا أن يكفر الناس كلهم لجعلنا للكفار سقفا من فضة وذلك لهو ان الدنيا على الله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها جرعة ماء ومعارج عليها يظهرون المعارج الأدراج والسلالم ومعنى يظهرون يرتفعون ومنه فما استطاعوا أن يظهروه والسرر جمع سرير والزخرف الذهب وقيل أثاث البيت من

الستور والنمارق وشبه ذلك وقيل هو التزويق والنقش وشبه ذلك من التزيين كقولك حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا يعش من قولك عشى الرجل إذا أظلم بصره والمراد به هنا ظلمة القلب والبصيرة وقال الزمخشري يعشى بفتح الشين إذا حصلت الآفة في عينيه ويعشو بضم الشين إذا نظر نظرة الأعشى وليس به آفة فالفرق

بينهما كالفرق بين قولك عمى وتعامى فمعنى القراءة بالضم يتجاهل ويجحد مع معرفته بالحق والظاهر أن ذلك عبارة عن الغفلة وإهمال النظر ... 622

---

29 وذكر الرحمن وقال الزمخشري يريد به القرآن وقال ابن عطية يريد به ما ذكر الله به عبادة من المواعظ فالمصدر مضاف إلى الفاعل ويحتمل عندي أن يريد ذكر العبد لله ومعنى الآية أن من غفل عن ذكر الله يسر الله له شيطانا يكون له قرينا فتلك عقوبة على الغفلة عن الذكر بتسليط الشيطان كما أن من داوم على الذكر تباعد عنه الشيطان وإنهم ليصدونهم عن السبيل الضمير في إنهم للشياطين وضمير المفعول في يصدونهم لمن يعش عن ذكر الرحمن وجمع الضميرين لأن المراد به جمع حتى إذا جاءنا قرىء جاءنا بضمير الاثنين وهما من يعش وشيطانه وقرىء بغير ألف على أنه ضمير واحد وهو من يعش والضمير في قال لمن يعش وقيل للشيطان بعد المشرقين فيه قولان أحدهما أنه يعني المشرق والمغرب وغلب أحدهما في التشبيه كما قيل القمران والآخر أنه يعني المشرقين والمغربين وحذف المغربين لدلالة المشرقين عليه ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون هذا كلام يقال للكفار في الآخرة ومعناه أنهم لا ينفعهم إشتراكهم في العذاب ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل الذي أصابه والفاعل في ينفعكم قوله أنكم في العذاب مشتركون وإذ ظلمتم تعليل معناه بسبب ظلمكم وقيل الفاعل مضمر وهو التبري الذي يقتضيه قوله يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين وأنكم على هذا تعليل والأول أرجح أفأنت تسمع الصم الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد بالصم والعمى الكفار اذ كانوا لا يعقلون براهين الإسلام فإما نذهبن بك فأنا منهم منتقمون إما مركبة من إن الشرطية وما الزائدة ومقصد الآية وعيد للكفار والمعنى إن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم فإنا سننتقم منهم بعد وفاتك وإن أخرنا وفاتك إلى حين الانتقام منهم فإنا عليهم مقتدرون وهذا الانتقام يحتمل أن يريد به قتلهم يوم بدر وفتح مكة وشبه ذلك من الانتقام في الدنيا أو يريد

به عذاب الآخرة وقيل إن الضمير في منهم منتقمون للمسلمين وأن معنى ذلك أن الله قضى أن ينتقم منهم بالفتن والشدائد وأنه أكرم نبيه عليه السلام بأن توفاه قبل أن يرى الانتقام من أمته والأول أشهر وأظهر وإنه لذكر لك ولقومك الضمير في إنه للقرآن أو للإسلام والذكر هنا بمعنى الشرف وقوم النبي صلى الله عليه وسلم هم قريش وسائر العرب فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة ويكفيك أن فتحوا مشارق الأرض ومغاربها وصارت منهم الخلافة والملك وورد عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمر بعده لقريش ويحتمل أن يريد بالذكر التذكير والموعظة فقومه على هذا أمته كلهم وكل من بعث إليهم وسوف تسئلون أي تسئلون عن العمل بالقرآن وعن شكر الله عليه

واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا إن قيل كيف أمر النبي صلى الله عليه وسلم ... 623

---

30 أن يسأل الرسل المتقدمين وهو لم يدركهم فالجواب من ثلاثة أوجه الأول أنه رآهم ليلة الإسراء الثاني أن المعنى اسأل أمة من أرسلنا قبلك الثالث أنه لم يرد سؤالهم حقيقة وإنما المعنى أن شرائعهم متفقة على توحيد الله بحيث لو سئلوا أهل مع الله آلهة يعبدون لأنكروا ذلك ودانوا بالتوحيد وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها الآيات هنا المعجزات كقلب العصا حية وإخراج اليد بيضاء وقيل البراهين والحجج العقلية والأول أظهر ومعنى أكبر من أختها أنها في غاية الكبر والظهور ولم يرد تفضيلها على غيرها من الآيات إنما المعنى أنها إذا نظرت وجدت كبيرة وإذا نظرت غيرها وجدت كبيرة فهو كقول الشاعر (من تاق منهم فقل لا قيت سيدهم) هكذا قال الزمخشري ويحتمل عندي أن يريد ما نريهم من آية إلا هي أكبر مما تقدمها فالمراد أكبر من أختها المتقدمة عليها وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك ظاهر كلامهم هذا التناقض فإن قولهم يا أيها الساحر يقتضي تكذيبهم له وقولهم ادع لنا ربك يقتضي تصديقه والجواب من وجهين أحدهما أن القائلين لذلك كانوا مكذبين وقولهم ادع لنا ربك يريدون على قولك وزعمك وقولهم إننا لمهتدون وعد نووا خلافه والآخر أنهم كانوا مصدقين وقولهم يا أيها الساحر إما أن يكون عندهم غير مذموم لأن السحر كان علم أهل زمانهم وكأنهم قالوا يا أيها العالم وإما أن يكون ذلك اسما قد ألفوا تسمية موسى به من أول ما جاءهم فنطقوا به بعد ذلك من غير اعتقاد معناه ونادى فرعون في قومه يحتمل أنه ناداهم بنفسه أو أمر مناديا ينادي فيهم قال يا قوم أليس لي ملك مصر قصد بذلك الافتخار على موسى ومصر هي البلد المعروف وما يرجع إليه ومنتهى ذلك من نهر إسكندرية إلى أسوان بطول النيل وهذه الأنهار تجري من تحتي يعني الخلجان الكبار الخارجة من النيل كانت تجري تحت قصره وأعظمها أربعة أنهار نهر الإسكندرية وتنيس ودمياط ونهر طولون أفلا تبصرون

أم أنا خير مذهب سيبوية أن أم هنا متصلة معادلة والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون ثم وضع قوله أنا خير موضع تبصرون لأنهم إذا قالوا له أنت خير فإنهم عنده بصراء وهذا من وضع السبب موضع المسبب وكان الأصل أن يقول أفلا تبصرون أم تبصرون ثم اقتصر على أم وحذف الفعل الذي بعدها واستأنف قوله أنا خير على وجه الإخبار ويوقف على هذا القول على أم وهذا ضعيف وقيل أم بمعنى بل فهي منقطعة مهين أي ضعيف حقير قاله الزمخشري وغيره ولا يكاد يبين إشارة إلي ما بقي في لسان موسى من أثر الجمرة وذلك أنها كانت قد أحدثت في لسانه عقدة فلما دعا أن تحل أجيبت دعوته وبقي منها أثر كان معه لكنه ... 624

31 وقيل يعني العى في الكلام وقوله ولا يكاد يبين يقتضي أنه كان يبين لأن كاد إذا نفيت تقتضي الإثبات
فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب يريد لولا ألقاها الله إليه كرامة له ودلالة على نبوته والأسورة جمع سوار وأسوار وهو ما يجعل في الذراع من الحلى وكان الرجال حينئذ يجعلونه مقترنين أي مقترنين به لا يفارقونه أو متقارنين بعضهم مع بعض ليشهدوا له ويقيموا الحجة فاستخف قومه أي طلب خفتهم بهذه المقالة واستهوى عقولهم آسفونا أى أغضبونا فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين السلف بفتح السين واللام جمع سالف وقرىء بضمها جمع سليف ومعناه متقدم أي تقدم قبل الكفار ليكون موعظة لهم ومثلا يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون روى عن ابن عباس وغيره في تفسيره هذه الآية أنه لما نزل في القرآن ذكر عيسى ابن مريم والثناء عليه قالت قريش ما يريد محمد إلا أن نعبده نحن كما عبدت النصارى عيسى فهذا كان صدودهم من ضربه مثلا حكى ذلك ابن عطية والذي ضرب المثل على هذا هو الله في القرآن ويصدون بمعنى يعرضون وقال الزمخشري لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم امتعضوا من ذلك وقال عبد الله بن الزبعري أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم فقال صلى الله عليه وسلم هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثنى عليه خيرا وقد علمت أن النصارى عبدوه فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ففرحت قريش بذلك وضحكوا وسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ونزلت هذه الآية فالمعنى على هذا لما ضرب ابن الزبعري عيسى مثلا وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه أذا قريش من هذا المثل يصدون أي يضحكون ويصيحون من الفرح وهذا المعنى إنما

يجري على قراءة يصدون بكسر الصاد بمعنى الضجيج والصياح وقالوا ءآلهتنا خير أم هو يعنون بهو عيسى والمعنى أنهم قالوا آلهتنا خير أم عيسى فإن كان عيسى يدخل النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه لأنه خير من آلهتنا وهذا الكلام من تمام ما قبله على ما ذكره الزمخشري في تفسير الآية التي قبله وأما على ما ذكر ابن عطية فهذا ابتداء معنى آخر وحكى الزمخشري في معنى هذه الآية قولا آخر وهو أنهم لما سمعوا ذكر عيسى قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن عبدنا الملائكة وقالوا آلهتنا وهم الملائكة خير أم عيسى فمقصدهم تفضيل آلهتهم على عيسى وقيل إن قولهم أم هو يعنون به محمدا صلى الله عليه وسلم فإنهم لما قالوا إنما يريد محمد أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى قالوا أآلهتنا خير أم هو يريدون تفضيل آلهتهم على محمد والأظهر أن المراد بهو عيسى وهو قول الجمهور ويدل على ذلك تقدم

ذكره ما ضربوه لك إلا جدلا أي ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل وهو أن ... 625

---

32 يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره سواء غلبه بحق أو بباطل فإن ابن الزبعري وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى حصب جهنم ولكنهم أرادوا المغالطة فوصفهم الله بأنهم قوم خصمون إن هو إلا عبد أنعمنا عليه يعني عيسى والإنعام عليه بالنبوة والمعجزات وغير ذلك ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون في معناها قولان أحدهما لو نشاء لجعلنا بدلا منكم ملائكة يسكنون الأرض ويخلفون فيها بني آدم فقوله منكم يتعلق ببدل المحذوف أو بيخلفون والآخر لو نشاء لجعلنا منكم أي لولدنا منكم أولادا ملائكة يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم فإنا قادرون على أن نخلق من أولاد الناس ملائكة فلا تنكروا أن خلقنا عيسى من غير والد حكى ذلك الزمخشري وإنه لعلم الساعة الضمير لعيسى وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل للقرآن فأما على القول بأنه لعيسى أو لمحمد فالمعنى أنه شرط من أشراط الساعة يوجب العلم بها فسمى الشرط علما لحصول العلم به ولذلك قرىء لعلم بفتح العين واللام أى علامة وأما على القول بأنه للقرآن فالمعنى أنه يعلمكم بالساعة أولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه إنما بين البعض دون الكل لأن الأنبياء إنما يبينون أمور الدين لا أمور الدنيا وقيل بعض بمعنى كل وهذا ضعيف فاختلف الأحزاب ذكر في مريم هل ينظرون إلا الساعة أي ينتظرون والضمير لقريش أو للأحزاب الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين الأخلاء جمع خليل وهو الصديق وإنما يعادي الخليل خليله يوم القيامة لأن الضرر دخل عليه من صحبته ولذلك استثنى المتقين لأن النفع دخل على بعضهم من بعض يا عباد الآية تقديره يقول الله يوم القيامة للمتقين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون تحبرون أي تنعمون وتسرون وهم فيه مبلسون أي يأسون من الخير ونادوا يا ملك ليقض علينا ربك المعنى أنهم طلبوا الموت ليستريحوا من ... 626

---

33 العذاب وروى أن مالكا يبقى بعد ذلك ألف سنة وحينئذ يقول لهم إنكم ماكثون أي دائمون في النار لقد جئناكم بالحق الآية من كلام الله تعالى لأهل النار أو من كلام الله لقريش في الدنيا أم أبرموا أمر فإنا مبرمون الضمير لكفار قريش والمعنى أنهم إن أحكموا كيد النبي صلى الله عليه وسلم فإنا محكمون نصره وحمايته أم يحسبون الآية روى أنها نزلت في الأخنس بن شريق والأسود بن عبد يغوث اجتمعا وقال الأخنس اترى الله يسمع سرنا فقال الآخر يسمع نجوانا ولا يسمع سرنا سرهم ونجواهم السر ما يحدث الإنسان به نفسه أو غيره في خفية والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم بلى أي نسمع ورسلنا مع ذلك تكتب ما يقولون والرسل هنا الملائكة الحافظون للأعمال قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين في تأويل الآية أربعة أقوال الأول أنها احتجاج

ورد على الكفار على تقدير قولهم ومعناها لو كان للرحمن ولد كما يقول الكفار لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد كما يعظم خدم الملك ولد الملك لتعظيم والده ولكن ليس للرحمن ولد فلست بعابد إلا الله وحده وهذا نوع من الأدلة يسمى دليل التلازم لأنه علق عبادة الولد بوجوده ووجوده محال فعبادته محال ونظير هذا أن يقول المالكي إذا قصد الرد على الحنفي في تحريم النبيذ إن كان النبيذ غير مسكر فهو حلال لكنه مسكر فهو حرام القول الثاني إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبد الله وحده وكذبكم في قولكم أن له ولدا والعابدين على هذين القولين بمعنى العبادة القول الثالث أن العابدين بمعنى المنكرين يقال عبد الرجل إذا أنف وتكبر وأنكر الشيء والمعنى أن زعمتم أن للرحمن ولدا فأنا أول المنكرين لذلك وإن على هذه الأقوال الثلاثة شرطية القول الرابع قال قتادة وابن زيد إن هنا نافية بمعنى ما كان للرحمن ولد وتم الكلام ثم ابتدأ قوله فأنا أول العابدين والأول هو الصحيح لأنه طريقة معروفة في البراهين والأدلة وهو الذي عول عليه

الزمخشري وقال الطبري هو ملاطفة في الخطاب ونحوه قوله تعالى إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين وقال ابن عطية منه قوله تعالى في مخاطبة الكفار أين شركائي يعني شركائي على قولكم فذرهم الآية موادعة منسوخة بالسيف وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله أي هو الإله لأهل الأرض وأهل السماء والمجرور يتعلق بإله لأن فيه معنى الوصفية وعنده علم الساعة أي علم زمان وقوعها ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة أي لا يملك كل من عبد من دون الله أن يشفع عند الله لأن الله لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه فهو المالك للشفاعة وحده ألا من شهد بالحق وهم يعلمون اختلف هل يعني بمن شهد بالحق الشافع أو المشفوع فيه فإن أراد المشفوع فيه فالاستثناء منقطع والمعنى لا يملك المعبودون شفاعة لكن من شهد بالحق وهو عالم ... 627

---

34 به فهو الذي يشفع فيه ويحتمل على هذا أن يكون من شهد مفعولا بالشفاعة على إسقاط حرف الجر تقديره الشفاعة فيمن شهد بالحق وإن أراد بمن شهد بالحق الشافع فيحتمل أن يكون الاستثناء منقطعا وأن يكون متصلا إلا فيمن عبد عيسى والملائكة والمعنى على هذا لا يملك المعبودون شفاعة إلا من شهد بالحق وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون القيل مصدر كالقول والضمير يعود على لنبي صلى الله عليه وسلم وقرىء قيله بالنصب والخفض وقرىء في غير السبع بالرفع فأما النصب فقيل هو معطوف على سرهم ونجواهم وقيل هو معطوف على موضع الساعة لأنها مفعول أضيف إلى المصدر وقيل معطوف على مفعول محذوف تقديره يكتبون أقوالهم وقيله وأما الخفض فقيل إنه معطوف على لفظ الساعة ويحتمل أن يكون معطوفا على قوله بالحق وأما على الرفع فقيل إنه مبتدأ وخبره ما بعده وضعف

الزمخشري ذلك كله وقال إنه من باب القسم فالنصب والخفض على إضمار حرف القسم كقولك الله لأضربن زيدا والرفع كقولهم أيمن الله ولعمرك وجواب القسم قوله إن هؤلاء قوم لا يؤمنون كله قال أقسم بقيله أن هؤلاء قوم لا يؤمنون فاصفح عنهم منسوخ بالسيف وقل سلام تقديره أمري سلام أي مسالمة وقيل سلام عليكم على جهة الموادعة وهو منسوخ على الوجهين فسوف تعلمون تهديد

سورة الدخان

والكتاب المبين ذكر في الزخرف وهو قسم جوابه إنا أنزلناه وقيل إنا كنا منذرين وهو بعيد إنا أنزلناه في ليلة مباركة يعني ليلة القدر من رمضان وكيفية انزاله فيها أنه أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم نزل به جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم شيئا بعد شيء وقيل معناه أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر وقيل يعني بالليلة المباركة ليلة النصف من شعبان وذلك باطل لقوله إنا أنزلناه في ليلة القدر مع قوله شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن فيها يفرق كل أمر حكيم معنى يفرق يفصل ويخلص والأمر الحكيم أرزاق العباد

وآجالهم وجميع أمورهم في ذلك العام نسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر ليتمثل الملائكة ذلك بطول السنة القابلة وقيل إن هذا يكون ليلة النصف من شعبان وهذا باطل لما قدمنا أمر امن عندنا مفعول بفعل مضمر على الاختصاص قاله الزمخشري وقال ابن عطية نصب على المصدر وقيل على الحال مرسلين إرسال الرسل عليهم السلام وقيل ... 628

35 من إرسال الرحمة والأول أظهر فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين في هذا قولان أحدهما قول علي بن أبي طالب وابن عباس أن الدخان يكون قيل يوم القيامة يصيب المؤمن منه مثل الزكام وينضج رؤوس الكافرين والمنافقين وهو من أشراط الساعة وروى حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن أول أشراط الساعة الدخان والثاني قول ابن مسعود إن الدخان عبارة عما أصاب قريشا حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجدب فكان الرجل يرى دخانا بينه وبين السماء من شدة الجوع قال ابن مسعود خمس قد مضين الدخان و اللزام والبطشة والقمر والدوم هذا عذاب أليم يحتمل أن يكون من كلام الله تعالى أو من قول الناس لما أصابهم الدخان وهذا أظهر لأن ما بعده من كلامهم باتفاق فيكون الكلام متناسقا أنى لهم الذكرى هذا من كلام الله تعالى ومعناه استبعاد تذكير الكفار مع تكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم والواو في قوله وقد جاءهم واو الحال رسول مبين يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وقالوا معلم أي يعلمه بشر البطشة الكبرى قال ابن عباس هي يوم القيامة وقال ابن مسعود هي يوم بدر ورسول كريم يعني موسى عليه السلام أن أدوا إلى عباد الله أن هنا مفسرة نائب مناب القول وأدوا فعل أمر من الأداء وعباد الله مفعول به وهم بنو إسرائيل والمعنى أرسلوا بني إسرائيل كما قال في طه أرسل معنا بني إسرائيل وقيل عباد الله منادي والمعنى أدوا إلى الطاعة والإيمان يا عباد الله والأول أظهر وألا تعلوا أي لا

تتكبروا بسلطان أي حجة وبرهان أن ترجمون اختلف هل معناه الرجم بالحجارة أو السب والأول أظهر فاعتزلون أي اتركون وخلوا سبيلي فأسر بعبادي هذا أمر من الله لموسى عليه السلام والعباد هنا بنو إسرائيل أي اخرج بهم بالليل إنكم متبعون إخبار أن فرعون وجنوده يتبعونهم واترك البحر رهوا أي ساكنا على هيئته وقيل يابسا وروى أن موسى لما جاوز البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما ضربه فانفلق فقال الله له اتركه كما هو ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه وقيل معنى رهوا سهلا وقيل منفرجا وعيون يحتمل أن يريد الخلجان الخارجة من النيل وكانت ثم عيون في ذلك الزمان وقيل يعني الذهب والفضة وهو بعيد ومقاهم كريم فيه قولان المنابر والمساكن الحسان ونعمة من التنعم بالأرزاق وغيرها فاكهين أي متنعمين وقيل فرحين ... 629

36 وقيل أصحاب فاكهة كذلك في موضع نصب أي مثل ذلك الإخراج أخرجناهم أو في موضع رفع تقديره الأمر كذلك وأورثناها قوما آخرين يعني بني إسرائيل حكاه الزمخشري والماوردي وضعفه ابن عطية قال لأنه لم يرو في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في ذلك الزمان وقد قال الحسن إنهم رجعوا إليها ويدل على أن المراد بنو إسرائيل قوله في الشعراء وأورثناها بني إسرائيل فما بكت عليهم السماء والأرض فيه ثلاثة أقوال الأول أنه عبارة عن تحقيرهم وذلك أنه إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيمه بكت عليه السماء والأرض على وجه المجاز والمبالغة فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك لأنهم أحقر من أن يبالي بهم الثاني قيل إذا مات المؤمن بكى عليه من الأرض موضع عبادته ومن السماء موضع صعود عمله فالمعنى أن هؤلاء ليسوا كذلك لأنهم كفار أو ليس لهم عمل صالح الثالث أن المعنى ما بكى عليهم أهل السماء ولا أهل الأرض والأول أفصح وهو منزع معروف في كلام العرب وكانوا منظرين أي مؤخرين من فرعون بدل من العذاب عاليا أي متكبرا اخترناهم على علم أي كنا عالمين بأنهم مستحقون لذلك على العالمين أي على أهل زمانهم بلاء مبين أي اختبار إن هؤلاء يعني كفار قريش فأتوا بآبائنا خاطبت قريش بذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على وجه التعجيز روى أنهم طلبوا أن يحيي لهم قصي بن كلاب يسألوه عن أحوال الآخرة أهم خير أم قوم تبع كان تبع ملك من حمير وكان مؤمنا وقومه كفارا فذم الله قومه ولم يذمه وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير نبي ومعنى الآية أقريش أشد وأقوى أم قوم تبع والذين من قبلهم من الكفار وقد أهلكنا قوم تبع وغيرهم لما كفروا فكذلك نهلك هؤلاء فمقصود الكلام تهديد والذين من قبلهم عطف على قوم تبع وقيل هو مبتدأ فيوقف على ما قبله والأول أصح لاعبين حال منفية ذكرت في

الأنبياء
يوم لا يغني مولى عن مولى المولى هنا يعم الولي والقريب وغير ذلك من الموالي إلا من رحم الله استثناء منقطع إن أراد بقوله ولا هم ينصرون الكفار ومتصل إن أراد بذلك جميع الناس طعام الأثيم أي الفاجر وهو من الإثم وقيل يعني أبا جهل فالألف واللام للعهد والأظهر أنها للجنس ... 630
37 فتعم أبا جهل وغيره كالمهل هو دردى الزيت وقيل ما يذاب من الرصاص وغيره فاعتلوه أي سوقوه بتعنيف ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم المصبوب في الحقيقة إنما هو الحميم وهو الماء الحار ولكن جعل المصبوب هنا العذاب المضاف إلى الحميم مجازا لأن ذلك أبلغ وأشد تهويلا وقد جاء الأصل في قوله يصب من فوق رؤوسهم الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم يقال هذا للكافر على وجه التوبيخ والتهكم به أي كنت العزيز الكريم عند نفسك وروى أن أبا جهل قال ما بين جبليها أعز مني ولا أكرم فنزلت الآية تمترون تفتعلون من المرية وهي الشك في مقام أمين قرىء بضم الميم أي موضع اقامة وفتحها أي موضع قيام والمراد به الجنة والأمين من الأمن أي مأمون فيه وقيل من الآمنة وصف به المكان مجازا من سندس وإستبرق السندس الرقيق من الديباج والإستبرق الغليظ منه كذلك في موضع رفع أي الأمر كذلك أو في موضع نصب أي مثل ذلك زوجناهم يدعون فيها أي يدعون خدامهم إلا الموتة الأولى استثناء منقطع والمعنى لا يذوقون فيها الموت لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى خاصة قبل ذلك ولولا قوله فيها لكان متصلا لعموم لفظ الموت وقيل إلا هنا بمعنى بعد وذلك ضعيف يسرناه أي سهلناه والضمير للقرآن بلسانك أي بلغتك وهي لسان العرب فارتقب إنهم مرتقبون أي ارتقب نصرنا لك وإهلاكهم فإنهم مرتقبون ضد ذلك ففيه وعد له ووعيد لهم .
سورة الجاثية (تنزيل) ذكر في الزمر وما بعد ذلك تنبيه على الاعتبار بالموجودات وقد ذكر معناه في مواضع ويل لكل أفاك

أثيم ... 631
38 الأفاك مبالغة من الإفك وهو الكذب والأثيم من الإثم وقيل إنها نزلت في النضر بن الحارث ولفظها على العموم يصر أي يدوم على حاله من الكفر وإنما عطفه بثم لاستعظام الإصرار على الكفر بعد سماعه آيات الله واستبعاد ذلك في العقل والطبع وإذا علم من آياتنا أي إذا بلغه منها شيء ولم يرد العلم الحقيقي من ورائهم جهنم كقوله من ورائه عذاب غليظ وقد ذكر في إبراهيم وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض يعني الشمس والقمر والملائكة وبني آدم والحيوانات والنبات وغير ذلك جميعا منه أي كل نعمة فمن الله تعالى والمجرور في موضع الحال أو خبر ابتداء مضمر وقرأ ابن عباس منه قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله أمر الله المؤمنين أن يتجاوزوا عن الكفار ولا يؤاخذوهم إذا آذوهم وكان ذلك في صدر الإسلام قيل إنها منسوخة بالسيف وقيل ليست بمنسوخة لأن احتمال الأذى مندوب إليه على كل حال وأما القتال على الإسلام فليس من ذلك وروى أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب شتمه رجل من الكفار فأراد عمر أن يبطش به وأيام الله هي نعمه فالرجاء على أصله وقيل أيام الله عبارة عن عقابه فالرجاء بمعنى الخوف ويغفروا مجزوم

في جواب شرط مقدر دل عليه قل قال الزمخشري حذف معمول القول والمعنى قل لهم اغفروا يغفروا ليجزي قوما بما كانوا يكسبون فاعل يجزي ضمير يعود على الله وقريء بنون المتكلم وقال ابن عطية إن الآية وعيد فالقوم على هذا هم الذين لا يرجون أيام الله ويكسبون يعني السيئات وقال الزمخشري القوم هم الذين آمنوا وجزاؤهم الثواب بما كانوا يكسبون بكظم الغيظ واحتمال المكروه على العالمين ذكر في البقرة بينات من الأمر أي معجزات من أمر الدين جعلناك على شريعة من الأمر أي ملة ودين أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين ... 632

---

39 آمنوا) أم هنا للإنكار واجترحوا اكتسبوا والمراد بالذين اجترحوا السيئات الكفار لمقابلته بالذين آمنوا ولأن الآية مكية وقد يتناول لفظها المذنبين من المؤمنين ولذلك يذكر أن الفضيل بن عياض قرأها بالليل فما زال يرددها ويبكي طول الليل ويقول لنفسه من أي الفريقين أنت ومعناها إنكار ما حسبه الكفار من أن يكونوا هم والمؤمنون سواء في المحيا والممات وفي تأويلها مع ذلك قولان أحدهما أن المراد ليس المؤمنون سواء مع الكفار لا في المحيا ولا في الممات فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة والكفار عاشوا على الكفر والمعصية وكذلك ملتهم ليست سواء والقول الآخر أنهم استووا في المحيا في أمور الدنيا من الصحة والرزق فلا يستوون في الممات بل يسعد المؤمنون ويشقى الكافرون فالمراد بها إثبات الجزاء في الآخرة وتفضيل المؤمنين على الكافرين في الآخرة وهذا المعنى هو الأظهر والأرجح فيكون معنى الآية كقوله أفنجعل المسلمين كالمجرمين وكقوله أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار سواء محياهم ومماتهم هذه الجملة بدل من الكاف في قوله كالذين آمنوا وهي مفسرة للتشبيه وهي داخلة فيما أنكره الله مما حسبه الكفار وقيل هي كلام مستأنف والمعنى على هذا أن محيا المؤمنين ومماتهم سواء وأن محيا الكفار ومماتهم سواء لأن كل واحد يموت على ما عاش عليه وهذا المعنى بعيد والصحيح أنها من تمام ما قبلها على المعنى الذي اخترناه وأما إعرابها فمن قرأ سواء بالرفع فهو مبتدأ وخبره محياهم ومماتهم والجملة بدل من الجار والمجرور الواقع مفعولا ثانيا لنجعل ومن قرأ سواء بالنصب فهو حال أو مفعول ثان لنجعل ومحياهم فاعل بسواء لأنه في معنى مستوى ساء ما يحكمون أي ساء حكمهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين لتجزى كل نفس بما كسبت معطوف على قوله بالحق لأن فيه معنى التعليل أو على تعليل محذوف تقديره خلق

الله السموات والأرض ليدل بهما على قدرته ولتجزى كل نفس بما كسبت اتخذ إلهه هواه أي أطاعة حتى صار له كالإله وأضله الله على علم أي على علم من الله سابق وقيل على علم من هذا الضال بأنه على ضلال ولكنه يتبع الضلال معاندة ختم ذكر في البقرة فمن يهديه من بعد الله قال ابن عطية فيه حذف

مضاف تقديره من بعد إضلال الله إياه ويحتمل أن يريد فمن يهديه غير الله وقالوا الضمير لمن إتخذ إلهه هواه أو لقريش نموت ونحيا فيه أربع تأويلات أحدها أنهم أرادوا يموت قوم ويحيا قوم والآخر نموت نحن ويحيا أولادنا الثالث نموت حين كنا عدما أو نطفا ونحيا في الدنيا والرابع نموت الموت المعروف ونحيا قبله في الدنيا فوقع في اللفظ تقديم وتأخير ومقصودهم على كل وجه إنكار الآخرة ويظهر أنهم كانوا على مذهب الدهرية ... 633

---

40 بقولهم وما يهلكنا إلا الدهر فرد الله عليهم بقوله وما لهم بذلك من علم الآية قالوا ائتوا بآبائنا ذكر في الدخان قل الله يحييكم الآية رد على المنكرين للحشر والاستدلال على وقوعه بقدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة وترى كل أمة جاثية أي تجثو على الركب وتلك هيئة الخائف الذليل كل أمة تدعي الى كتابها أي إلى صحائف أعمالها وقيل الكتاب المنزل عليها والأول أرجح لقوله هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق الآية فإن قبل كيف أضاف الكتاب تارة إليهم وتارة إلى الله تعالى فالجواب أنه أضافه إليهم لأن أعمالهم ثابتة فيه وأضافه إلى الله تعالى لأنه مالكه وأنه هو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون أي نأمر الملائكة الحافظين بكتب أعمالكم وقيل إن الله يأمر الحفظة أن تنسخ أعمال العباد من اللوح المحفوظ ثم يمسكونه عندهم فتأتي أفعال العباد على ذلك فتكتبها الملائكة فذلك هو الاستنساخ وكان ابن عباس يحتج على ذلك بأن يقول لا يكون الاستنساخ إلا من أصل أفلم تكن تقديره يقال لهم ذلك وحاق ذكر مرارا اليوم ننساكم النسيان هنا بمعنى الترك وأما في قوله نسيتم فيحتمل أن يكون بمعنى الترك أو الذهول ولا هم يستعتبون من العتبى وهي الرضا 634

---

41 سورة الأحقاف
تنزيل ذكر في الزمر (إلا بالحق) ذكر مرارا وأجل مسمى يعني يوم القيامة أروني ماذا خلقوا احتجاج على التوحيد ورد على المشركين فالأمر بمعنى التعجيز شرك في السموات أي نصيب ائتوني بكتاب تعجيز لأنهم ليس لهم كتاب يدل على الإشراك بالله بل الكتب كلها ناطقة بالتوحيد أو أثارة من علم أي بقية من علم قديم يدل على ما يقولون وقيل معناه من علم تثيرونه أي تستخرجونه وقيل هو الإسناد وقيل هو الخط في الرمل وكانت العرب تتكهن به وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نبي من الأنبياء يخط في الرمل فمن وافق خطه فذاك ومن أضل الآية معناها لا أحد أضل ممن يدعو إلها لا يستجيب له وهي الأصنام فإنها لا تسمع ولا تعقل ولذلك وصفها بالغفلة عن دعائهم لأنها لا تسمعه وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء أي كان الأصنام أعداء للذين عبدوها وكانوا بعبادتهم كافرين الضمير في كانوا للأصنام أي تتبرأ الأصنام من الذين عبدوها وإنما ذكر الأصنام بضمائر مثل ضمائر العقلاء لأنه أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء من الاستجابة والغفلة والعداوة قل إن افتريته

فلا تملكون لي من الله شيئا أي لو افتريته لعاقبني الله على الافتراء عقوبة لا تقدرون على دفعها ولا تملكون شيئا من ردها عليه فكيف أفتريه وأتعرض لعقاب الله هو أعلم بما تفيضون فيه أي بما تتكلمون به يقال أفاض الرجل في الحديث إذا خاض فيه واستمر قل ما كنت بدعا من الرسل البدع والبديع من الأشياء ما لم ير مثله أي ما كنت أول رسول ولا جئت بأمر لم يجيء به أحد قبلي بل جئت بما جاء به ناس كثيرون قبلي فلأي شيء تنكرون ذلك
وما أدري ما يفعل بي ولا بكم
فيها أربعة أقوال الأول أنها في أمر الآخرة وكان ذلك قبل أن يعلم ... 635

---

42 أنه في الجنة وقبل أن يعلم أن المؤمنين في الجنة وأن الكفار في النار وهذا بعيد لأنه لم يزل يعلم ذلك من أول ما بعثه الله والثاني أنها في أمر الدنيا أي لا أدري بما يقضي الله علي وعليكم فإن مقادير الله مغيبة وهذا هو الأظهر الثالث ما أدري ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما تلزمه الشريعة الرابع أن هذا كان في الهجرة إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر أي في المنام أنه يهاجر إلى أرض بها نخل فقلق المسلمون لتأخير ذلك فنزلت هذه الآية قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به معنى الآية أرأيتم إن كان القرآن من عند الله وكفرتم به ألستم ظالمين ثم حذف قوله ألستم ظالمين وهو الجواب لأنه دل على أن الله لا يهدي القوم الظالمين وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها فالمعنى أرأيتم إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع شهادة شاهد من بني إسرائيل على مثله ثم آمن به هذا الشاهد وكفرتم أنتم ألستم أضل الناس وأظلم الناس واختلف في الشاهد المذكور على ثلاثة أقوال أحدها أنه عبد الله بن سلام فقيل على هذا إن الآية مدنية لأنه إنما أسلم بالمدينة وقيل إنها مكية وأخبر بشهادته قبل وقوعها ثم وقعت على حسب ما أخبر وكان عبد الله بن سلام يقول في نزلت الآية الثاني أنه رجل من بني إسرائيل كان بمكة الثالث أنه موسى عليه السلام ورجح ذلك الطبري والضمير في مثله للقرآن أي يشهد على مثله فيما جاء به من التوحيد والوعد والوعيد والضمير في آمن للشاهد فإن كان عبد الله بن سلام أو الرجل الآخر فإيمانه بين وإن كان موسى عليه السلام فإيمانه هو تصديقه بأمر محمد صلى الله عليه وسلم وتبشيره به وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه أي لو كان الإسلام خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء والقائلون لهذه المقالة هم أكابر قريش لما أسلم الضعفاء كبلال وعمار وصهيب وقيل بل قالها كنانة

وقبائل من العرب لما أسلمت غفار ومزينة وجهينة وقيل بل قالها اليهود لما أسلم عبد الله ابن سلام والأول أرجح لأن الآية مكية وكانت مقالة قريش بمكة وأما مقالة الآخرين فإنما كانت بعد الهجرة ومعنى الذين آمنو من أجل الذين آمنوا أي قالوا ذلك عنهم في غيبتهم وليس المعنى أنهم خاطبوهم بهذا الكلام

لأنه لو كان خطابا لقالوا ما سبقتمونا وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم أي لما لم يهتدوا قالوا هذا إفك قديم ونحو هذا ما جاء في المثل من جهل شيئا عاداه ووصفه بالقدم لأنه قد قيل قديما فإن قيل كيف تعمل فسيقولون في إذ وهي للماضي والعامل مستقبل فالجواب أن العامل في إذ محذوف تقديره إذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون قال ذلك الزمخشري ويظهر لي أن إذ هنا بمعنى التعليل لا ظرفية بمعنى الماضي فلا يلزم السؤال والمعنى أنهم قالوا هذا إفك بسبب أنهم لم يهتدوا به وقد جاءت إذ بمعنى التعليل في القرآن وفي كلام العرب ومنه ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أي بسبب ظلمكم
ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة الضمير في قبله للقرآن وكتاب موسى هو التوراة وإما ما حال ومعناه يقتدي به وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا الإشارة بهذا إلى القرآن ومعنى مصدق مصدق بما قبله من الكتب وقد ... 636

---

43 ذكرنا ذلك في البقرة ولسان حال من الضمير في مصدق وقيل مفعول بمصدق أي صدق ذا لسان عربي وهو محمد صلى الله عليه وسلم واختار هذا ابن عطية استقاموا ذكر في حم السجدة حسنا ذكر في العنكبوت حملته أمه كرها ووضعته كرها أي حملته بمشقة ووضعته بمشقة ويقال كره بفتح الكاف وضمها بمعنى واحد وحملة وفصاله ثلاثون شهرا أي مدة حمله ورضاعه ثلاثون شهرا وهذا لا يكون إلا بأنه ينقص من أحد احد الطرفين وذلك إما أن يكون مدة الحمل ستة أشهر ومدة الرضاع حولين كاملين أو تكون مدة الحمل تسعة أشهر ومدة الرضاع حولين غير ثلاثة أشهر ومن هذا أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه والعلماء أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وإنما عبر عن مدة الرضاع بالفصال وهو الفطام لأنه منتهى الرضاع بلغ أشده ذكر في يوسف وبلغ أربعين سنة هذا حد كمال العقل والقوة ويقال إن الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقيل إنها عامة في أصحاب الجنة أي في جملة أصحاب الجنة كما تقول رأيت فلانا في الناس أي مع الناس والذي قال لوالديه أف لكما قال مروان بن الحكم نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق حين كفره كان أبوه وأمه يدعوانه إلى الإسلام فيأبى ويقول لهما أف وأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك وقالت والله ما نزل في آل أبي بكر شيء من القرآن إلا براءتي ويبطل ذلك قطعا قوله تعالى أولئك الذين حق عليهم القول لأن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أسلم وكان من خيار المسلمين وكان له في الجهاد غني عظيم وقال السدى ما رأيت أعبد منه وقال ابن عباس نزلت في ابن لأبي بكر ولم يسمه ويرد ذلك ما ذكرناه عن عائشة وقيل هي على الإطلاق فيمن كان على هذه الصفة من الكفر والعقوق لوالديه ويدل على أنها عامة قوله تعالى أولئك الذين حق عليهم القول بصيغة الجمع ولو أراد واحدا بعينه لقال ذلك حق عليه القول وقد ذكرنا معنى أف في الإسراء أتعد انني أن أخرج أي أتعد

انني أنا أن أخرج من القبر إلى البعث وقد خلت القرون من قبلي أي وقد مضت قرون من الناس ولم يبعث منهم أحد
وهما يستغيثان الله الضمير لوالديه أي يستغيثان بالله من كراهتهما لما يقول منهما ثم يقولان له ويلك ثم يأمرانه بالإيمان فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين أي ... 637
44 قد سطره الأولون في كتبهم وذلك تكذيب بالبعث والشريعة ولكل درجات مما عملوا أي للمحسنين والمسيئين درجات في الآخرة بسبب أعمالهم
فدرجات أهل الجنة إلى علو ودرجات أهل النار إلى سفل وليوفيهم تعليل بفعل محذوف وبه يتعلق تقديره جعل جزاءهم درجات ليوفيهم أعمالهم ويوم يعرض العامل فيه محذوف تقديره اذكر أذهبتم طيباتكم تقديره يقال لهم أذهبتم طيباتكم والطيبات هنا الملاذ من المآكل وغيرها وقرىء أذهبتم بهمزة واحدة على الخبر وبهمزتين على التوبيخ والآية في الكفار بدليل قوله يعرض الذين كفروا وهي مع ذلك واعظة لأهل التقوى من المؤمنين ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله وقدرآه اشترى لحما أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية عذاب الهون أي العذاب الذي يقترن به هوان واذكر أخا عاد يعني هودا عليه السلام بالأحقاف جمع حقف وهو الكدس من الرمل واختلف أين كانت فقيل بالشام وقيل بين عمان ومهرة وقيل بين عمان وحضرموت والصحيح أن بلاد عاد كانت باليمن وقد خلت النذر أي تقدمت من قبله ومن بعده والنذر جمع نذير فإن قيل كيف يتصور تقدمها من بعده فالجواب أن هذه الجملة اعتراض وهي إخبار من الله تعالى أنه قد بعث رسلا متقدمين قبل هود وبعده وقيل معنى من خلفه في زمانه قل إنما العلم عند الله أي قل إن العذاب الذي قلتم ائتنا به ليس لي علم متى يكون وإنما يعلمه الله وما علي إلا أن أبلغكم ما أرسلت به فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم العارض السحاب الذي يعرض في أفق السماء والضمير في رأوه يعود على ما تعدنا أو على المرئى المبهم الذي فسره قوله

عارضا قال الزمخشري وهذا أعرب وأفصح وروي أنهم كانوا قد قحطوا مدة فلما رأوا هذا العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به فقال لهم هود عليه السلام بل هو ما استعجلتم به من العذاب وقوله ريح بدل من ما استعجلتم أو خبر ابتداء مضمر تدمر كل شيء بأمر ربها عموم يراد به الخصوص ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه هذا خطاب لقريش على وجه التهديد أي مكنا عادا فيما لم نمكنكم فيه من القوة والأموال وغير ذلك ثم أهلكناهم لما كفروا وإن هنا نافية بمعنى ما وعدل ... 638

---

45 عن ما كراهية لاجتماعها مع التي قبلها وقيل إن شرطية وجوابها محذوف تقديره إن مكناكم فيه طغيتم قال ابن عطية وهذا تنطع في التأويل
ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى يعني بلاد عاد وثمود وسبأ وغيرها والمراد إهلاك أهلها فلولا نصرهم الآية عرض معناه النفي أي لم تنصرهم آلهتهم التي

عبدوا من دون الله قربانا أي تقربوا بهم إلى الله وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وانتصاب قربانا على الحال ولا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا لاتخذوا وآلهة بدل منه لفساد المعنى قاله الزمخشري وقد أجازه ابن عطية بل ضلوا عنهم أي تلفوا لهم وغابوا عن نصرهم حين احتاجوا اليهم وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن أي أملناهم نحوك والنفر دون العشرة وروى أن الجن كانوا سبعة وكانوا كلهم ذكرانا لأن النفر الرجال دون النساء وكانوا من أهل نصيبين وقيل من أهل الجزيرة واختلف هل رآهم النبي صلى الله عليه وسلم قيل إنه لم يرهم ولم يعلم باستماعهم حتى أعلمه الله بذلك وقيل بل علم بهم واستعدلهم واجتمع معهم وقد ورد في ذلك عن عبد الله ابن مسعود أحاديث مضطربة وسبب استماع الجن أنهم لما طردوا من استراق السمع من السماء برجم النجوم قالوا ما هذا إلا لأمر حدث فطافوا بالأرض ينظرون ما أوجب ذلك حتى سمعوا قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الفجر في سوق عكاظ فاستمعوا إليه وآمنوا به أنزل من بعد موسى في هذا دلالة على أنهم كانوا على دين اليهود وقيل كانوا لم يعلموا ببعث عيسى مصدقا لما بين يديه ذكر في البقرة داعي الله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يغفر لكم من ذنوبكم من هنا للتبعيض على الأصح أي يغفر لكم الذنوب التي فعلتم قبل الإسلام وأما التي بعد الإسلام فهي في مشيئة الله وقيل معنى التبعيض أن المظالم لا تغفر وقيل إن من زائدة ويجركم من عذاب أليم أي من النار واختلف الناس هل للجن ثواب زائد على النجاة من النار أم ليس

لهم ثواب إلا النجاة خاصة ومن لا يجب داعي الله الآية يحتمل أن يكون من كلام الجن أو من كلام الله تعالى ومعنى ليس بمعجز أى لا يفوت أو لم يروا الآية احتجاج على بعث الأجساد بخلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن يقال عييت بالأمر إذا لم تعرفه فالمعنى أنه تعالى علم كيف خلق السموات والأرض وأحكم خلقتها فلا شك أنه قادر على إحياء الموتى بقادر في موضع رفع لأنه خبر أن ... 639
46 وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي في أول الآية على أن وخبرها بلى جواب لما تقدم أي هو قادر على أن يحي الموتى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي اصبر على تكذيب قومك وأولوا العزم هم نوح وإبراهيم وعيسى وموسى وقيل هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام لقوله فبهداهم اقتده وقيل كل من لقي من أمته شدة وقيل الرسل كلهم أولوا عزم فمن الرسل على هذا لبيان الجنس وعلى الأقوال المتقدمة للتبعيض ولا تستعجل لهم أي لا تستعجل نزول العذاب بهم فإنهم صائرون إليه فإنهم إذا هلكوا كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار لاستقصار أعمارهم بلاغ خبر ابتداء مضمر تقديره هذا الذي وعظتم به بلاغ بمعنى كفاية في الموعظة أو بلاغ من الرسول عليه الصلاة والسلام أى بلغ هذا المواعظ والبراهين .
سورة محمد صلى الله عليه وسلم الذين كفروا يعني كفار قريش وعموم اللفظ يعم كل كافر كما أن قوله بعد هذا والذين آمنوا يعني الصحابة وعموم اللفظ يصلح لكل مؤمن وصدوا عن سبيل الله يحتمل أن يكون صدوا بمعنى

أعرضوا فيكون غير متعد أو يكون بمعنى صدوا الناس فيكون متعديا وسبيل الله الإسلام والطاعة أضل أعمالهم أي أبطلها وأحبطها وقيل المراد بأعمالهم هنا ما أنفقوا في غزوة بدر فإن هذه الآية نزلت بعد بدر واللفظ أعم من ذلك وآمنوا بما نزل على محمد هذا تجريد للأختصاص والاعتناء بعد عموم قوله آمنوا

وعملوا الصالحات ولذلك أكده بالجملة الاعتراضية وهو قوله وهو الحق من ربهم
وأصلح بالهم قيل معناه أصلح حالهم وشأنهم وحقيقة البال الخاطر الذي في القلب وإذا صلح القلب صلح الجسد كله فالمعنى إصلاح دينهم بالإيمان والإخلاص والتقوى فضرب الرقاب أصله فاضربوا الرقاب ضربا ثم حذف الفعل وأقام المصدر مقامه والمراد اقتلوهم ولكن عبر عنه بضرب الرقاب لأنه الغالب في صفة القتل حتى إذا أثخنتموهم ... 640
47 أي هزمتموهم والإثخان أن يكثر فيهم القتل والأسر فشدوا الوثاق عبارة عن الأسر فإما منا بعد وإما فداء المن العتق والفداء فك الأسير بمال وهما جائزان فإن مذهب مالك أن الإمام مخير في الأساري بين خمسة أشياء وهي المن والفداء والقتل والاسترقاق وضرب الجزية وقيل لايجوز المن ولا الفداء لأن الآية منسوخة بقوله اقتلوا المشركين فلا يجوز على هذا إلا قتلهم والصحيح أنها محكمة وانتصب منا وفداء على المصدرية والعامل فيهما فعلان مضمران حتى تضع الحرب أوزارها الأوزار في اللغة الأثقال فالمعنى حتى تذهب وتزول أثقالها وهي آلاتها وقيل الأوزار الآثام لأن الحرب لابد أن يكون فيها إثم في أحد الجانبين واختلف في الغاية المرادة هنا فقيل حتى يسلموا الجميع فحينئذ تضع الحرب أوزارها وقيل حتى تقتلوهم وتغلبوهم وقيل حتى ينزل عيسى ابن مريم قال ابن عطية ظاهر اللفظ أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبدا كما تقول أنا فاعل ذلك الى يوم القيامة ذلك تقديره الأمر ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم أو لو شاء الله لأهلك الكفار بعذاب من عنده ولكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين وأن يبلو بعض الناس ببعض عرفها لهم أي جعلهم يعرفون منازلهم فيها فهو من المعرفة وقيل معناه طيبها لهم فهو من العرف وهو طيب الرائحة وقيل معناه شرفها ورفعها فهو من الأعراف التي هي الجبال فتعسا لهم أي عثارا وهلاكا وانتصابه على المصدرية والعامل فيه

فعل مضمر وعلى هذا الفعل عطف وأضل أعمالهم وللكافرين أمثالها أي لكفار قريش أمثال عاقبه الكفار المتقدمين من الدمار والهلاك مولى الذين آمنوا أي وليهم وناصرهم وكذلك وأن الكافرين لا مولى لهم معناه لا ناصر لهم ولا يصح أن يكون المولى هنا بمعنى السيد لأن الله مولى المؤمنين والكافرين بهذا المعنى ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله وردوا إلى الله مولاهم الحق لأن معنى المولى مختلف في الموضعين فمعنى مولاهم الحق ربهم وهذا على العموم في جميع الخلق بخلاف قوله مولى الذين آمنوا فإنه خاص بالمؤمنين

لأنه بمعنى الولي والناصر ويأكلون كما تأكل الأنعام عبارة عن كثرة أكلهم وعن غفلتهم عن النظر كالبهائم من قريتك التي أخرجتك يعني مكة وخروجه صلى الله عليه وسلم من وقت الهجرة ونسب الإخراج إلى القرية والمراد أهلها لأنهم آذوه حتى خرج أهلكناهم الضمير للقرى المتقدمة المذكورة في قوله وكأين من قرية وجمعه حملا على المعنى والمراد ... 641

(3/47)

---

48 أهلكنا أهلها أفمن كان على بينة من ربه أى على حجة ويعني به النبي صلى الله عليه وسلم كما يعني قريشا بقوله كمن زين له سوء عمله واللفظ أعم من ذلك مثل الجنة ذكر في الرعد غير آسن أي غير متغير كمن هو خالد في النار تقديره أمثل أهل الجنة المذكورة كمن هو خالد في النار فحذف هذا على التقدير والمراد به النفي وإنما حذف لدلالة التقدير المتقدم وهو قوله أفمن كان على بينة من ربه ومنهم من يستمع إليك يعني المنافقين وجاء يستمعون بلفظ الجمع رعيا لمعنى من قالوا للذين أوتو العلم روى أنه عبدالله بن مسعود ماذا قال آنفا كانوا يقولون ذلك على أحد وجهين إما احتقارا لكلامه كأنهم قالوا أي فائدة فيه وإما جهلا منهم ونسيانا لأنهم كانوا وقت كلامه معرضين عنه وآنفا معناه الساعة الماضية قريبا وأصله من استأنفت الشيء إذا ابتدأته
والذين اهتدوا زادهم هدى يعني المؤمنين والضمير في زادهم لله تعالى أو للكلام الذي قال فيه المنافقون ماذا قال آنفا وقيل يعني بالذين اهتدوا قوما من النصارى آمنوا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فاهتداؤهم هو إيمانهم بعيسى وزيادة هداهم إسلامهم فهل ينظرون إلا الساعة الضمير للمنافقين والمعنى هل ينتظرون إلا الساعة لأنها قريبة فقد جاء أشراطها أي علاماتها والذي كان قد جاء من ذلك مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه قال أنا من أشراط الساعة وبعثت أنا والساعة كهاتين فأني لهم إذا جاءتهم ذكراهم أي كيف لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة بغتة فلا يقدرون على عمل ولا تنفعهم التوبة ففاعل جاءتهم الساعة وذكراهم مبتدأ وخبره الاستفهام المتقدم والمراد به الاستبعاد فاعلم أنه لا إله إلا الله أي دم على العلم بذلك واستدل بعضهم بهذه الآية على أن النظر والعلم قبل العمل لأنه قدم قوله فاعلم على قوله واستغفر والله يعلم متقلبكم ومثواكم قيل متقلبكم تصرفكم في الدنيا

(3/48)

ومثواكم إقامتكم في القبور وقيل متقلبكم تصرفكم في اليقظة ومثواكم منامكم لولا نزلت سورة كان المؤمنون يقولون ذلك على وجه الحرص على نزول القرآن والرغبة فيه لأنهم كانوا يفرحون به ويستوحشون من إبطائة محكمة يحتمل أن يريد بالمحكمة أي ليس فيها منسوخ أو يراد متقنة وقرأ ابن مسعود سورة محدثة رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك يعني ... 642
49 المنافقين ونظرهم ذلك من شدة الخوف من القتل لأن نظر الخائف قريب من نظر المغشي عليه فأولى لهم في معناه قولان أحدهما أنه بمعنى أحق

وخبره على هذا طاعة والمعنى أن الطاعة والقول المعروف أولى لهم وأحق والآخر أن أولى لهم كلمة معناها التهديد والدعاء عليهم كقولك ويل لهم ومنه أولى لك فأولى فيوقف على أولى لهم على هذا القول ويكون طاعة ابتداء كلام تقديره طاعة وقول معروف أمثل أو المطلوب منهم طاعة وقول معروف وقولهم لك يا محمد طاعة وقول معروف بألسنتهم دون قلوبهم فإذا عزم الأمر أسند العزم إلى الأمر مجازا كقولك نهاره صائم وليلة قائم صدقوا الله يحتمل أن يريد صدق اللسان أو صدق العزم والنية وهو أظهر فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم هذا خطاب للمنافقين المذكورين خرج من الغيبة إلى الخطاب ليكون أبلغ في التوبيخ والمعنى هل يتوقع منكم الإفساد في الأرض وقطع الأرحام إن توليتم ومعنى توليتم صرتم ولاة على الناس وصار الأمر لكم وعلى هذا قيل إنها نزلت في بني أمية وقيل معناه أعرضتم عن الإسلام إن الذين ارتدوا على أدبارهم نزلت في المنافقين الذين نافقوا بعد إسلامهم وقيل نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة ثم كفروا به سؤل لهم أي زين لهم ورجاهم ومناهم وأملي لهم أي مدلهم في الأماني والآمال والفاعل هو الشيطان وقيل الله تعالى والأول أظهر لتناسب الضمير بين الفاعلين في سول وأملى

سنطيعكم في بعض الأمر قال ذلك اليهود للمنافقين وبعض الأمر يعنون به مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاربته
فكيف إذا توفتهم الملائكة أي كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة يعني ملك الموت ومن معه والفاء رابطة للكلام مع ما قبله والمعنى هذا جزعهم من ذكر القتال فكيف يكون حالهم عند الموت يضربون وجوههم ضمير الفاعل للملائكة وقيل إنه للكفار أي يضربون وجوه أنفسهم وذلك ضعيف أم حسب الآية معناها ظن المنافقون أن لن يفضحهم الله والضغن الحقد ويراد به هنا النفاق والبغض في الإسلام وأهله ولو نشاء لأريناكهم أي لو نشاء لأريناك المنافقين بأعيانهم حتى تعرفهم بعلامتهم ولكن الله ستر عليهم إبقاء ... 643

---

50 عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين وروى أن الله لم يذكر واحدا منهم باسمه (ولتعرفنهم في لحن القول) معنى لحن القول مقصده وطريقته وقيل اللحن هو الخفي المعنى كالكناية والتعريض والمعنى أنه صلى الله عليه وسلم سيعرفهم من دلائل كلامهم وإن لم يعرفه الله بهم على التعيين ولنبلونكم أي نختبركم حتى نعلم أي نعلمه علما ظاهرا في الوجود تقوم به الحجة عليكم وقد علم الله الأشياء قبل كونها ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال اللهم لا تبتلينا فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وشاقوا الرسول أي خالفوة وعادوه ونزلت الآية في المنافقين وقيل في اليهود ولا تبطلوا أعمالكم يحتمل أربعة معان أحدها

لاتبطلوا أعمالكم بالكفر بعد الإيمان والثاني لاتبطلوا حسناتكم بفعل السيئات ذكره الزمخشري وهذا على مذهب المعتزلة خلافا للأشعرية فإن مذهبهم أن السيئات لاتبطل الحسنات والثالث لا تبطلوا أعمالكم بالرياء والعجب والرابع لا تبطلوا أعمالكم بأن تقتطعوها قبل تمامها وعلى هذا أخذ الفقهاء الآية وبهذا يستدلون على أن من ابتدأ نافلة لم يجز له قطعها وهذا أبعد هذه المعاني والأول أظهر لقوله قبل ذلك في الكفار أو المنافقين وسيحبط أعمالهم فكأنه يقول يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا أعمالكم مثل هؤلاء الذين أحبط الله أعمالهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله ومشاقتهم الرسول فلن يغفر الله لهم هذا قطع بأن من مات على الكفر لا يغفر الله له وقد أجمع المسلمون على ذلك فلا تهنوا وتدعوا الى السلم أي لا تضعفوا عن مقاتلة الكفار وتبتدئوهم بالصلح فهو كقوله وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ولن يتركم أعمالكم أي لن ينقصكم أجور أعمالكم يقال وترت الرجل أتراه إذا نقصته شيئا أو أذهبت له متاعا ولا يسألكم أموالكم أي لا يسألكم جميعها إنما يسألكم ما يخف عليكم مثل ربع العشر

وذلك خفيف إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا معنى يحفكم يلح عليكم والإحفاء أشد السؤال وتبخلوا جواب الشرط ويخرج أضغانكم الفاعل الله تعالى أو البخل والمعنى يخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق هؤلاء منصوب على التخصيص أو منادى لتنفقوا في سبيل الله يعني الجهاد والزكاة ومن يبخل فإنما يبخل على نفسه أي إنما ضرر بخل على نفسه فكأنه بخلى على نفسه بالثواب الذي يستحقه بالإنفاق وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم أي يأت بقوم على خلاف صفتكم بل راغبين في الإنفاق في سبيل الله فقيل إن هذا الخطاب لقريش ... 644

---

51 والقوم غيرهم هم الأنصار وهذا ضعيف لأن الآية مدنية نزلت والأنصار حاضرون وقيل الخطاب لكل من كان حينئذ بالمدينة والقوم هم أهل اليمن وقيل فارس .
سورة الفتح
نزلت هذه السورة حين انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبيه لما أراد ان يعتمر بمكه فصده المشركون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر وهما راجعان إلى المدينة لقد نزلت علي سورة هي أحب إلي من الدنيا وما فيها إنا فتحنا لك فتحا مبينا يحتمل هذا الفتح فى اللغة أن يكون بمعنى الحكم أي حكمنا لك على أعدائك أو من الفتح بمعنى العطاء كقوله ما يفتح الله للناس من رحمة أو من فتح البلاد واختلف في المراد بهذا الفتح على أربعه أقوال الأول أنه فتح مكه وعده الله به قبل أن يكون وذكره بلفظ الماضي لتحققه وهو على هذا بمعنى فتح البلاد الثاني أنه ما جرى في الحديبية من بيعة الرضوان ومن الصلح الذى عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم مع

قريش وهو على هذا بمعنى الحكم أو بمعنى العطاء ويدل على صحة هذا القول أنه لما وقع صلح الحديبيه شق ذلك على بعض المسلمين بشروط كانت فيه حتى أنزل الله هذة السورة ويتبين أن ذلك الصلح له عاقبة محمودة وهذا هو الأصح لأنه روى أنها لما نزلت قال بعض الناس ما هذا الفتح وقد صدنا المشركون عن البيت فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالروح ورغبوا إليكم في الأمان الثالث أنه ما أصاب المسلمون بعد الحديبية من الفتوح كفتح خيبر وغيرها الرابع أنه الهداية الى الإسلام ودليل هذا القول قوله ليغفر الله لك فجعل الفتح علة للمغفرة ولا حجة في ذلك إذ يتصور في الجهاد وغيره أن يكون علة للمغفرة أيضا أو تكون اللام للصيرورة والعاقبة لا للتعليل فيكون المعنى إنا فتحنا لك فتحا مبينا فكان عاقبة أمرك أن جمع الله لك بين سعادة الدنيا والآخرة بأن غفر لك وأتم نعمته عليك وهداك

ونصرك
هو الذي أنزل السكينة أي السكون والطمأنينة يعني سكونهم في صلح الحديبية وتسليهم بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل معناه الرحمة الظانين بالله ظن السوء معناه أنهم ظنوا أن الله يخذل المؤمنين وقالوا لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وقيل معناه أنهم لا يعرفون الله بصفاته فذلك هو ظن السوء به والأول أظهر بدليل ما بعده عليهم ... 645
52 دائرة السوء) يحتمل أن يكون خبرا أو دعاء إنا أرسلناك شاهدا أي تشهد على أمتك وتعزروه أي تعظموه وقيل تنصرونه وقريء تعززوه بزايين منقوطتين والضمير في تعزروه وتوقروه للنبي صلى الله عليه وسلم وفي تسبحوه لله تعالى وقيل الثلاثة لله إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله هذا تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله ثم أكد هذا المعنى بقوله يد الله فوق أيديهم وذلك على وجه التخييل والتمثيل يريد أن يد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تعلو يد المبايعين له هي يد الله في المعنى وإن لم تكن كذلك في الحقيقة وإنما المراد أن عقد ميثاق البيعة مع الرسول عليه الصلاة والسلام كعقده مع الله كقوله من يطع الرسول فقد أطاع الله وتأول المتأولون ذلك بأن يد الله معناها النعمة أو القوة وهذا بعيد هنا ونزلت الآية في بيعة الرضوان تحت الشجرة وسنذكرها بعد فمن نكث فإنما ينكث على نفسه يعني أن ضرر نكثه على نفسه ويراد بالنكث هنا نقض البيعة سيقول لك المخلفون من الأعراب الآية سماهم بالمخلفين لأنهم تخلفوا عن غزوة الحديبية والأعراب هم أهل البوادي من العرب لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة يعتمر رأوا أنه يستقبل عدوا كثيرا من قريش وغيرهم فقعدوا عن الخروج معه ولم يكن إيمانهم متمكنا فظنوا أنه لا يرجع هو والمؤمنون من ذلك السفر ففضحهم الله في هذه السورة وأعلم رسوله صلى الله عليه وسلم بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل

إليهم وأعلمه أنهم كاذبون في اعتذارهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم يحتمل أن يريد قولهم شغلتنا أموالنا وأهلونا لأنهم كذبوا في ذلك أو قولهم فاستغفر لنا لأنهم قالوا ذلك رياء من غير صدق ولا توبة قوما بورا أي هالكين من البوار وهو الهلاك ويعني به الهلاك في الدين سيقول المخلفون الآية أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن المخلفين عن غزوة الحديبية يريدون الخروج معه إذا خرجوا إلى غزوة أخرى وهي غزوة خيبر فأمر الله بمنعهم من ذلك وأن يقول لهم لن تتبعونا يريدون أن يبدلوا كلام الله أي يريدون أن يبدلوا وعد الله لأهل الحديبية ... 646

(3/55)

---

53 وذلك أن الله وعدهم أن يعوضهم من غنيمة مكة غنيمة خيبر وفتحها وأن يكون ذلك مختصا بهم دون غيرهم وأراد المخلفون أن يشاركوهم في ذلك فهذا هو ما أرادوا من التبديل وقيل كلام الله قوله فلن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا وهذا ضعيف لأن هذه الآية نزلت بعد رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك بعد الحديبية بمدة كذلكم قال الله من قبل يريد وعده باختصاصه أهل الحديبية بغنائم خيبر فسيقولون بل تحسدوننا معناه يعز عليكم أن نصيب معكم مالا وغنيمة وبل هنا للإضراب عن الكلام المتقدم وهو قوله لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فمعناها رد أن يكون الله حكم بأن لايتبعوهم وأمابل في قوله تعالى بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا فهي إضراب عن وصف المؤمنين بالحسد وإثبات لوصف المخلفين بالجهل ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد اختلف في هؤلاء القوم على أربعة أقوال الأول أنهم هوازن ومن حارب النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر والثاني أنهم الروم إذ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتالهم في غزوة تبوك والثالث أنهم أهل الردة من بني حنيفة وغيرهم الذين قاتلهم أبو بكر الصديق والرابع أنهم االفرس ويتقوى الأول والثاني بأن ذلك ظهر في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوى المنذر بن سعيد القول الثالث بأن الله جعل حكمهم القتل أو الإسلام ولم يذكر الجزية قال وهذا لا يوجد إلا في أهل الردة قلت وكذلك هو موجود في كفار العرب إذ لا تؤخذ منهم الجزية فيقوى ذلك أنهم هوازن أو يسلمون عطف على تقاتلونهم وقال ابن عطية هو مستأنف وإن تتولوا كما توليتم من قبل يريد في غزوة الحديبية ليس على الأعمى حرج الآية معناها أن الله تعالى عذر الأعمى والأعرج والمريض في تركهم للجهاد لسبب أعذارهم لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل النار إن شاء الله أحد من أهل الشجرة الذين

(3/56)

بايعوا تحتها وفي الحديث أنهم كانوا ألفا وأربعمائة وقيل ألفا وخمسمائة وسبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ الحديبية وهي موضع

على نحو عشرة أميال من مكة أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسولا إلى أهل مكة يخبرهم أنه إنما جاء ليعتمر وأنه لا يريد حربا فلما وصل إليهم عثمان حبسه أقاربه كرامة له فصرخ صارخ أن عثمان قد قتل فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة على القتال وأن لا يفر أحد وقيل بايعوه على الموت ثم جاء عثمان بعد ذلك سالما وانعقد الصلح بين رسول الله صد وبين أهل مكة على أن يرجع ذلك العام ويعتمر في العام القابل والشجرة المذكورة كان سمرة هنالك ثم ذهبت بعد سنين فمر عمر بن الخطاب بالموضع في خلافة فاختلف الصحابة في ... 647

---

54 موضعها فعلم ما في قلوبهم يعني من صدق الإيمان وصدق العزم على ما بايعوا عليه وقيل من كراهة البيعة على الموت وهذا باطل لأنه ذم للصحابة وقد ذكرنا السكينة وأثابهم فتحا قريبا يعني فتح خيبر وقيل فتح مكة والأول أشهر أي جعل الله ذلك ثوابا لهم على بيعة الرضوان زيادة على ثواب الآخرة وأما المغانم المذكورة أولا فهي غنائم خيبر وهي المعطوفة على الفتح القريب وأما المغانم الكثيرة التي وعدهم الله وهي المذكورة ثانيا فهي كل ما يغنم المسلمون إلى يوم القيامة والإشارة بقوله فعجل لكم هذه إلى خيبر وقيل إن المغانم التي وعدهم هي خيبر والإشارة بهذه إلى صلح الحديبية وكف أيدي الناس عنكم أي كف أهل مكة عن قتالكم في الحديبية وقيل كف اليهود وغيرهم عن إضرار نسائكم وأولاذكم بينما خرجتم إلى الحديبية ولتكون آية للمؤمنين أي تكون هذه الفعلة وهي كف أيدي الناس عنكم آية للمؤمنين يستدلون بها على النصر واللام تتعلق بفعل محذوف تقديره فعل الله ذلك لتكون آية
وأخرى لم تقدروا عليها يعني فتح مكة وقيل فتح بلاد فارس والروم وقيل مغانم هوازن في حنين والمعنى لم تقدروا أنتم عليها وقد أحاط الله بها بقدرته ووهبها لكم وإعراب أخرى عطف على عجل لكم هذه أو مفعول بفعل مضمر تقديره أعطاكم أخرى أو مبتدأ ولو قاتلكم الذين كفروا يعني أهل مكة سنة الله أي عادته والإشارة إلى يوم بدر وقيل الإشارة إلى نصر الأنبياء قديما وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم روى في سببها أن جماعة من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية ليصيبوا من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث إاليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في جماعة من المسلمين فهزموهم وأسروا منهم قوما وساقوهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلقهم فكف أيدي الكفار هو أن هزموا وأسروا وكف أيدي المؤمنين عن الكفار هو إطلاقهم من الأسر وسلامتهم من القتل وقوله

من بعد أن أظفركم عليهم يعني من بعدما أخذتموهم أسارى هم الذين كفروا يعني أهل مكة وصدوكم عن المسجد الحرام يعني أنهم منعوهم عن العمرة بالمسجد الحرام عام الحديبية والهدى معكوفا أن يبلغ محله الهدى ما يهدي

إلى البيت من الأنعام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ساق حينئذ مائة بدنة وقيل سبعين ليهديها والمعكوف المحبوس ومحله موضع نحره يعني مكة والبيت وإعراب الهدى عطف على الضمير المفعول في صدوكم ومعكوفا حال من الهدى وأن يبلغ مفعول بالعكف فالمعنى صدوكم عن المسجد الحرام وصدوا الهدى عن أن يبلغ محله والعكف المذكور يعني به منع المشركين للهدى عن بلوغ مكة أو حبس المسلمين بالهدى بينما ينظرون في أمورهم ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم الآية تعليل لصرف الله ... 648

(3/59)

---

55 المؤمنين عن استئصال أهل مكة بالقتل وذلك أنه كان بمكة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يخفون إيمانهم فلو سلط الله المسلمين على أهل مكة لقتلوا أولئك المؤمنين وهم لا يعرفونهم ولكن كفهم رحمة للمؤمنين الذين كانوا بين أظهرهم وجواب لولا محذوف تقديره لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لسلطناكم عليهم أن تطئوهم في موضع بدل من رجال ونساء أو بدل من الضمير المفعول في لم تعلموهم والوطء هنا الإهلاك بالسيف وغيره فتصيبكم منهم معرة أي تصيبكم من قتلهم مشقة وكراهة واختلف هل يعني الإثم في قتلهم أو الدية أو الكفارة أو الملامة أو عيب الكفار لهم بأن يقولوا قتلوا أهل دينهم أو تألم نفوسهم من قتل المؤمنين وهذا أظهر لأن قتل المؤمن الذي لا يعلم إيمانه وهو بين أهل الحرب لا إثم فيه ولا دية ولا ملامة ولا عيب ليدخل الله في رحمته من يشاء يعني رحمة للمؤمنين الذين كانوا بين أظهر الكفار بأن كف سيوف المسلمين عن الكفار من أجلهم أو رحمة لمن شاء من الكفار بأن يسلموا بعد ذلك واللام تتعلق بمحذوف يدل عليه سياق الكلام تقديره كان كف القتل عن أهل مكة ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا معنى تزيلوا تميزوا عن الكفار والضمير للمؤمنين المستورين الإيمان أي لو انفصلوا عن الكفار لعذبنا الكفار فقوله لعذبنا جواب لو الثانية وجواب الأولى محذوف كما ذكرنا ويحتمل أن يكون لعذبنا جواب لو الأولى وكررت لو الثانية تأكيدا إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية يعني أنفة الكفر وهي منعهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين عن العمرة ومنعهم من أن يكتب في كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم ومنعهم من أن يكتب محمد رسول الله وقولهم لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك والعامل في إذ جعل محذوف تقديره اذكر أو قوله لعذبنا والسكينة هي سكون المسلمين ووقارهم حين جرى ذلك
وألزمهم كلمة التقوى قال

(3/60)

الجمهور هي لا إله إلا الله وقد روى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لا إله إلا الله محمد رسول الله وقيل لا إله إلا الله والله أكبر وهذه كلها متقاربة وقيل هي بسم الله الرحمن الرحيم التي أبى الكفار أن تكتب وكانوا

أحق بها وأهلها أي كانوا كذلك في علم الله وسابق قضائه لهم أحق بها من اليهود والنصارى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رأى في منامه عند خروجه إلى العمرة أنه يطوف بالبيت هو وأصحابه بعضهم محلقون وبعضهم مقصرون وروى أنه أتاه ملك في النوم فقال له لتدخلن المسجد الحرام الآية فأخبر الناس برؤياه ذلك فظنوا أن ذلك يكون في ذلك العام فلما صده المشركون عن العمرة عام الحديبية قال المنافقون أين الرؤيا ووقع في نفوس المسلمين شئ من ذلك فأنزل الله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق أي تلك الرؤيا صادقة وسيخرج تأويلها بعد ذلك فاطمأنت قلوب المؤمنين وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام المقبل هو وأصحابه فدخلوا مكة واعتمروا وأقاموا بمكة ثلاثة أيام وظهر صدق رؤياه وتلك عمرة القضية ثم فتح مكة بعد ذلك ثم حج هو وأصحابه وصدق في هذا الموضع ... 649

---

56 يتعدى إلى مفعولين وبالحق يتعلق بصدق أو بالرؤيا على أن يكون حالا منها إن شاء الله لما كان الاستثناء بمشيئة الله يقتضي الشك في الأمر وذلك محال على الله اختلف في هذا الاستثناء على خمسة أقوال الأول أنه استثناء قاله الملك الذي رآه النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فحكى الله مقالته كما وقعت والثاني أنه تأديب من الله لعباده ليقولون إن شاء الله في كل أمر مستقبل والثالث أنه استثناء بالنظر إلى كل إنسان على حدته لأنه يمكن أن يتم له الأمر أو يموت أو يمرض فلا يتم له والرابع أن الاستثناء راجع إلى قوله آمنين لا لدخول المسجد والخامس أن إن شاء الله بمعنى إذا شاء الله محلقين رؤسكم ومقصرين الحلق والتقصير من سنة الحج والعمرة والحلق أفضل من التقصير لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله المحلقين ثلاثا ثم قال في المرة الأخيرة والمقصرين فعلم مالم تعلموا يريد ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة فإنه لما انعقد الصلح وارتفعت الحرب ورغب الناس في الإسلام فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الحديبية في ألف وخمسمائة وقيل ألف وأربعمائة وغزا غزوة الفتح بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف فجعل من دون ذلك فتحا قريبا يعني فتح خيبر وقيل بيعة الرضوان وقيل صلح الحديبية وهذا هو الأصح لأن عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أفتح هو يا رسول الله قال نعم وقيل هو فتح مكة وهذا ضعيف لأن معنى قوله من دون ذلك قبل دخول المسجد الحرام وإنما كان فتح مكة بعد ذلك فإن الحديبية كانت عام ستة من الهجرة وعمرة القضية عام سبعة وفتح مكة عام ثمانية ليظهره على الدين كله ذكر في براءة وكفى بالله شهيدا أي شاهدا بأن محمدا رسول الله أو شاهدا بإظهار دينه والذين معه يعني جميع أصحابه وقيل من شهد معه الحديبية وإعراب الذين معطوف على محمد رسول الله صفته وأشداء خبر عن الجميع وقيل الذين معه مبتدأ وأشداء خبره

ورسول الله خبر محمد ورجح ابن عطية هذا والأول عندي أرجح لأن الوصف بالشدة والرحمة يشمل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأما على ما اختاره ابن عطية فيكون الوصف بالشدة والرحمة مختصا بالصحابة دون النبي صلى الله عليه وسلم وما أحق النبي صلى الله عليه وسلم بالوصف بذلك لأن الله قال فيه بالمؤمنين رءوف رحيم وقال جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم فهذه هي الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين سيماهم في وجوههم السيما العلامة وفيه ستة أقوال الأول أنه الأثر الذي يحدث في جبهة المصلي من كثرة السجود والثاني أنه أثر التراب في الوجه الثالث أنه صفرة الوجه من السهر والعبادة والرابع حسن الوجه لما ورد في لحديث من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وهذا الحديث غير صحيح بل وقع فيه غلط من الراوي فرفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو غير مروي عنه الخامس أنه الخشوع السادس أن ذلك يكون في الآخرة يجعل الله لهم نورا من أثر السجود كما يجعل غرة من أثر الوضوء وهذا بعيد لأن قوله تراهم ركعا سجدا وصف حالهم في الدنيا فكيف يكون سيماهم في وجوههم كذلك والأول أظهر وقد كان بوجه علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب وعلي بن عبدالله بن العباس أثر ظاهر من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة أي وصفهم فيها وتم الكلام ... 650

---

57 هنا ثم ابتدأ قوله ومثلهم في الإنجيل كزرع وقيل إن مثلهم في الإنجيل عطف على مثلهم في التوراة ثم ابتدأ قوله كزرع وتقديره هم كزرع والأول أظهر ليكون وصفهم في التوراة بما تقدم من الأوصاف الحسان وتمثيلهم في الإنجيل بالزرع المذكور بعد ذلك وعلى هذا يكون مثلهم في الإنجيل بمعنى التشبيه والتمثيل وعلى القول الآخر يكون المثل بمعنى الوصف كمثلهم في التوراة كزرع أخرج شطأه هذا مثل ضربه الله للإسلام حيث بدأ ضعيفا ثم قوى وظهر وقيل الزرع مثل للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه بعث وحده وكان كالزرع حبة واحدة ثم كثر المسلمون فهم كالشطء وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل ويقال بإسكان الطاء وفتحها بمد وبدون مد وهي لغات فآزره أي قواه وهو من الموازرة بمعنى المعاونة ويحتمل أن يكون الفاعل الزرع والمفعول شطأه أو بالعكس لأن كل واحد منهما يقوى الآخر وقيل معناه ساواه طولا فالفاعل على هذا الشطأ ووزن آزره فاعله وقيل أفعله وقرئ بقصر الهمزة على وزن فعل فاستغلظ أي صار غليظا فاستوى على سوقه جمع ساق أي قام الزرع على سوقه وقيل قوله كزرع يعني النبي صلى الله عليه وسلم أخرج شطأه بأبي بكر فآزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي بن أبي طالب ليغيظ بهم الكفار تعليل لما دل عليه المثل المتقدم من قوة المسلمين فهو يتعلق بفعل يدل عليه الكلام تقديره جعلهم الله كذلك ليغيظ بهم الكفار وقيل يتعلق بوعد وهو بعيد منهم لبيان الجنس لا للتبعيض لأنه وعد عم جميعهم رضي الله عنهم .

سورة الحجرات

لا تقدموا بين يدي الله ورسوله فيه ثلاثة أقوال أحدها لا تتكلموا بأمر قبل أن يتكلم هو به ولا تقطعوا في أمر إلا بنظره والثاني لا تقدموا الولاة بمحضره فإنه

يقدم من شاء والثالث لا تتقدموا بين يديه اذا مشى وهذا إنما يجري على قراءة يعقوب لا تقدموا بفتح التاء والقاف والدال والأول هو الأظهر لأن عادة العرب الاشتراك

في الرأي وأن يتكلم كل أحد بما يظهر له فربما فعل ذلك قوم مع النبي صلى الله عليه وسلم فنهاهم الله عن ذلك ولذلك قال مجاهد معناه لا تفتاتوا على الله شيئا حتى يذكره على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وإنما قال بين يدي الله لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يتكلم بوحي من الله
لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي أمر الله المؤمنين أن يتأدبوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأدب كرامة له ... 651
58 وتعظيما وسببها أن بعض جفاة الأعراب كانوا يرفعون أصواتهم أن تحبط أعمالكم مفعول من أجله تقديره مخافة أن تحبط أعمالكم إذا رفعتم أصواتكم فوق صوته أو جهرتم له بالقول صلى الله عليه وسلم فالمفعول من أجله يتعلق بالفعلين معا من طريق المعنى وأما من طريق الإعراب فيتعلق عند البصريين بالثاني وهو لا تجهر وعند الكوفيين بالأول وهو لا ترفعوا أصواتكم وهذا الإحباط لأن قلة الأدب معه صلى الله عليه وسلم والتقصير في توقيره يحبط الحسنات وإن فعله مؤمن لعظيم ما وقع فيه من ذلك وقيل إن الآية خطاب للمنافقين وهذا ضعيف لقوله في أولها يا أيها الذين آمنوا وقوله وأنتم لا تشعرون فإنه لا يصح أن يقال هذا لمنافق فانه يفعله جرأة وهو يقصده إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأنه لما نزلت لآية قبلها قال أبو بكر والله يا رسول الله لا أكلمنك إلا سرا وكان عمر يخفي كلامه حين يستفهمه النبي صلى الله عليه وسلم ولفظها مع ذلك على عمومه ومعنى امتحن اختبر فوجدها كما يجب مثل ما يختبر الذهب بالنار فيوجد طيبا وقيل معناها دربها للتقوى حتى صارت قوية على احتماله بغير تكلف وقيل معناه أخلصها الله للتقوى إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون الحجرات جمع حجرة وهي قطعة من الأرض يحجر عليها بحائط وكان لكل واحدة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حجرة ونزلت الآية في وفد بني تميم

قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فدخلوا المسجد ودنوا من حجرات أزواج النبي ووقفوا خارجها ونادوا يا محمد اخرج إلينا فكان في فعلهم ذلك جفاء وبداوة وقلة توقير فتربص رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة ثم خرج إليهم فقال له واحد منهم وهو الأقرع بن حابس يا محمد إن مدحي زين وذمي شين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحك ذلك الله تعالى أكثرهم لا يعقلون يحتمل وجهين أحدهما أن يكون فيهم قليل ممن يعقل ونفي العقل عن أكثرهم لا عن جميعهم والآخر أن يكون جميعهم ممن لا يعقل وأوقع القلة موضع النفي والأول أظهر في مقتضى اللفظ والثاني أبلغ في الذم ولو أنهم

صبروا حتى تخرج إليهم لكان خير لهم يعني خيرا في الثواب وفي انبساط نفس النبي صلى الله عليه وسلم وقضائه حوائجهم وإنكار فعلهم فيه تأديب لهم وتعليم لغيرهم إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ زكاتهم فروى أنه كان معاديا لهم فأراد إذايتهم فرجع من بعض طريقه فكذب عليهم وقال للنبي صلى الله عليه وسلم إنهم قد منعوني الصدقة وطردوني وارتدوا فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بغزوهم ونظر في ذلك فورد وفدهم منكرين لذلك وروى أن الوليد بن عقبة لما قرب منهم خرجوا إليه متلفين له فرآهم على بعد ففزع منهم وظن بهم الشر فانصرف فقال ما قال وروى أنه بلغه أنهم قالوا لا نعطيه صدقة ولا نطيعه فانصرف وقال ما قال فالفاسق المشار اليه في الآية هو الوليد بن عقبة ولم يزل بعد ذلك يفعل ... 652

---

59 أفعال الفساق حتى صلى بالناس صلاة الصبح أربع ركعات وهو سكران ثم قال لهم أزيدكم إن شئتم ثم هي باقية في كل من اتصف بهذه الصفة إلى آخر الدهر وقرئ فتبينوا من التبين وتثبتوا بالثاء من التثبت ويقوى هذه القراءة أنها لما نزلت روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال التثبت من الله والعجلة من الشيطان واستدل بهذه الآية القائلون بقبول خبر الواحد لأن دليل الخطاب يقتضي أن خبر غير الفاسق مقبول قال المنذر البلوطي وهذه الآية ترد على من قال إن المسلمين كلهم عدول لأن الله أمر بالتبين قبل القبول فالمجهول الحال يخشى أن يكون فاسقا أن تصيبوا قوما بجهالة في موضع المفعول من أجله تقديره مخافة أن تصيبوا قوما بجهالة والإشارة إلى قتال بني المصطلق لما ذكر عنهم الوليد ما ذكر لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم أي لشقيتم والعنت المشقة وإنما قال لو يطيعكم لم يقل لو أطاعكم للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم والحق خلاف ذلك وإنما الواجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم وذلك أن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم خير وأصوب من رأى غيره ولو أطاع الناس في رأيهم لهلكوا فالواجب عليهم الانقياد إليه والرجوع إلى أمره وإلى ذلك الإشارة بقوله ولكن الله حبب إليكم الإيمان الآية

وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما اختلف في سبب نزولها فقال الجمهور هو ما وقع بين المسلمين وبين المتحزبين منهم لعبد الله بن أبي بن سلول حين مربه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوجه الى زيارة سعد بن عبادة في مرضه فبال حمار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبدالله بن أبي للنبي صلى الله عليه وسلم لقد آذانى من نتن حمارك فرد عليه عبد الله بن رواحة وتلاحا الناس حتى وقع بين الطائفتين ضرب بالجريد وقيل بالحديد وقيل سببها أن فريقين من الأنصار وقع بينهما قتال فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جهد

ثم حكمها باق إلى آخر الدهر وإنما قال اقتتلوا ولم يقل اقتتلا لأن الطائفة في معنى القوم والناس فهي في معنى الجمع فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى أمر الله في هذه الآية بقتال الفئة الباغية وذلك إذا تبين أنها باغية فأما الفتن التي تقع بين المسلمين فاختلف العلماء فيها على قولين أحدهما أنه لا يجوز النهوض في شئ منها ولا القتال وهو مذهب سعد بن أبي وقاص وأبي ذر وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم وحجتهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال المسلم كفر وأمره عليه الصلاة والسلام بكسر السيوف في الفتن والقول الثاني أن النهوض فيها واجب لتكف الطائفة الباغية وهذا قول علي وعائشة وطلحة والزبير وأكثر الصحابة وهو مذهب مالك وغيره من الفقهاء وحجتهم هذه الآية فإذا فرعنا على القول الأول فإن دخل داخل على من اعتزل الفريقين منزلة يريد نفسه أو ماله فليدفعه عن نفسه وإن أدى ذلك إلى قتله لقوله صلى الله عليه وسلم من قتل دون نفسه أو ماله فهو شهيد وإذا فرعنا على القول الثاني فاختلف مع من يكون النهوض في الفتن فقيل مع السواد الأعظم وقيل مع العلماء وقيل مع من يرى أن الحق معه ... 653

60 وحكم القتال في الفتن أن لا يجهز على جريح ولا يطلب هارب ولا يقتل أسير ولا يقسم فئ حتى تفئ أي ترجع إلى الحق فأصلحوا بين أخويكم إنما ذكره بلفظ التثنية لأن أقل من يقع بينهم البغي اثنان وقيل أراد بالأخوين الأوس والخزرج وقرئ بين إخوتكم بالتاء على الجمع وقرئ بين إخوانكم بالنون على الجمع أيضا لا يسخر قوم من قوم نهى عن السخرية وهي الاستهزاء بالناس عسى أن يكونوا خيرا منهم أي لعل المسخور منه خير من الساخر عند الله وهذا تعليل للنهي ولا نساء من نساء لما كان للقوم لا يقع إلا على الذكور عطف النساء عليهم ولا تلمزوا أنفسكم أي لا يطعن بعضكم على بعض واللمز العيب سواء كان بقول أو إشارة أو غير ذلك وسنذكر الفرق بينه وبين الهمز في سورة الهمزة وأنفسكم هنا بمنزلة قوله فسلموا على أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب أي لا يدع أحد أحدا بلقب والتنابز بالألقاب التداعي بها وقد أجاز المحدثون أن يقال الأعمش والأعرج ونحوه إذا دعت إليه الضرورة ولم يقصد النقص والاستخفاف بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان يريد بالاسم أن يسمى الإنسان فاسقا بعد أن سمى مؤمنا وفي ذلك ثلاثة أوجه أحدها استقباح الجمع بين الفسق وبين الإيمان فمعنى ذلك أن من فعل شيئا من هذه الأشياء التي نهى عنها فهو فاسق وإن كان مؤمنا والآخر بئس ما يقوله الرجل للآخر يا فاسق بعد إيمانه كقولهم لمن أسلم من اليهود يا يهودي الثالث أن يجعل من فسق غير مؤمن وهذا على مذهب المعتزلة اجتنبوا كثيرا من الظن يعني ظن السوء بالمسلمين وأما ظن الخير فهو حسن إن بعض الظن إثم قيل في معنى الإثم هنا الكذب لقوله صلى الله عليه وسلم الظن أكذب الحديث لأنه قد لا يكون مطابقا للأمر وقيل إنما يكون إثما إذا تكلم به وأما إذا لم يتكلم به فهو في

فسحه لأنه لا يقدر على دفع الخواطر واستدل بعضهم بهذه الآية على صحة سد الذرائع في الشرع لأنه أمر باجتناب كثير من

الظن وأخبر أن بعضه إثم فأمر باجتناب الأكثر من الإثم احترازا من الوقوع في البعض الذي هو إثم
ولا تجسسوا أي لا تبحثوا عن مخبآت الناس وقرأ الحسن تحسسوا بالحاء والتجسس بالجيم في الشر وبالحاء في الخير وقيل التجسس ما كان من وراء والتحسس بالحاء الدخول والاستعلام ولا يغتب بعضكم بعضا المعنى لا يذكر أحدكم من أخيه المسلم ما يكره لو سمعه والغيبة هي ما يكره الإنسان ذكره من خلقه أو خلقه أو دينه أو أفعاله أو غير ذلك وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال الغيبة أن تذكر أخاك المؤمن بما يكره قيل يا رسول الله وإن كان حقا قال إذا قلت باطلا فذلك بهتان وقد رخص في الغيبة في مواضع منها في التجريح في الشهادة والرواية والنكاح وشبه وفي التحذير من أهل الضلال ... 654

---

61 أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه شبه الله الغيبة بأكل لحم ابن آدم ميتا والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم ثم زاد في تقبيحه أن جعله ميتا لأن الجيفة مستقذرة ويجوز أن يكون ميتا حال من الأخ أو من لحمه وقيل فكرهتموه إخبار عن حالهم بعد التقرير كأنه لما قررهم قال هل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا أجابوا فقالوا لا نحب ذلك فقال لهم فكرهتموه وبعد هذا محذوف تقديره فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي تشبهه وحذف هذا لدلالة الكلام عليه وعلى هذا المحذوف يعطف قوله واتقوا الله قاله أبو علي الفارسي وقال الرماني كراهة هذا اللحم يدعو اليها الطبع وكراهة الغيبة يدعو إليها العقل وهو أحق أن يجاب لأنه بصير عالم والطبع أعمى جاهل وقال الزمخشري في هذه الآية مبالغات كثيرة منها الاستفهام الذي معناه التقرير ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحد من الأحدين لا يحب ذلك ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله ميتا ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الانسان حتى جعله أخا له
يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الذكر والأنثى هنا آدم وزوجه قال ابن عطية ويحتمل أن يريد الجنس كأنه قال إنا خلقنا كل واحد منكم من ذكر وأنثى والأول أظهر وأصح لقوله صلى الله عليه وسلم أنتم من آدم وآدم من التراب ومقصود الآية التسوية بين الناس والمنع مما كانت العرب تفعله من التفاخر بالأحساب والطعن في الأنساب فبين الله أن الكرم والشرف عند الله ليس بالحسب والنسب إنما هو بالتقوى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله وروي أن سبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم فقالوا كيف نزوج

بناتنا لموالينا وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا الشعوب جمع شعب بفتح الشين وهو أعظم

من القبيلة وتحته القبيلة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة وهم القرابة الأدنون فمضر وربيعه وأمثالهما شعوبا وقريش قبيلة وبني عبد مناف بطن وبنو هاشم فخذ ويقال بإسكان الخاء فرقا بينه وبين الجارحة وبنو عبد المطلب فصيلة وقيل الشعوب في العجم والقبائل في العرب والأسباط في بني إسرائيل ومعنى لتعارفوا ليعرف بعضكم بعضا قالت الأعراب آمنا نزلت في بني أسد بن خزيمة وهي قبيلة كانت تجاور المدينة أظهروا الإسلام وكانوا إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا فأكذبهم الله في قولهم آمنا وصدقهم لو قالوا أسلمنا وهذا على أن الايمان هو التصديق بالقلب والاسلام هو الانقياد بالنطق بالشهادتين والعمل بالجوارح فالإسلام والإيمان في هذا الموضع متباينان في المعنى وقد يكونان متفقان وقد يكون الاسلام أعم من الايمان فيدخل فيه الايمان حسبما ورد في مواضع أخر وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا معنى لا يلتكم لا ينقصكم شيئا من أجور أعمالكم وفيه لغتان يقال لات وعليه قراءة نافع لا يلتكم بغير همز ويقال ألت وعليه قراءة من قرأ لا يألتكم بهمزة قبل اللام فإن قيل كيف يعطيهم أجور أعمالهم وقد قال إنهم لم يؤمنوا ولا يقبل عمل إلا من مؤمن فالجواب أن طاعة ... 655

---

62 الله ورسوله تجمع صدق الإيمان وصلاح الأعمال فالمعنى إن رجعتم عما أنتم عليه من الإيمان بألسنتكم دون قلوبكم وعملتم أعمالا صالحة فإن الله لا ينقصكم منها شيئا ثم لم يرتابوا أي لم يشكوا في إيمانهم وفي ذلك تعريض بالأعراب المذكورين بأنهم في شك وكذلك قوله في هؤلاء أولئك هم الصادقون تعريض أيضا بالأعراب إذ كذبوا في قولهم آمنا وإنما عطف ثم لم يرتابوا بثم إشعارا بثبوت إيمانهم في الأزمنة المتراخية المتطاولة وجاهدوا يريد جهاد الكفار لأنه دليل على صحة الإيمان ويبعد أن يريد جهاد النفس والشيطان لقوله بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله يمنون عليك أن أسلموا نزلت في بني أسد أيضا فإنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إنا آمنا بك واتبعناك ولم نحاربك كما فعلت هوازن وغطفان وغيرهم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان أي هداكم للإيمان على زعمكم ولذلك قال إن كنتم صادقين ويمن عليكم يحتمل أن يكون بمعنى ينعم عليكم أو بمعنى يذكر إنعامه وهذا أحسن لأنه في مقابلة يمنون عليك .

سورة [ق]

تكلمنا على حروف الهجاء في أول سورة البقرة ويختص ق بأنه قيل إنه من اسم الله القاهر أو القدير وقيل هو اسم للقرآن وقيل اسم للجبل الذي يحيط بالدنيا والقرآن المجيد من المجد وهو الشرف والكرم وجواب هذا القسم محذوف تقديره ما ردوا أمرك بحجة وما كذبوك ببرهان وشبه ذلك وعبر عن

هذا المحذوف وقع الإضراب ببل وقيل الجواب ما يلفظ من قول وقيل إن في ذلك لذكرى وقيل قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وهذه الأقوال ضعيفة متكلفة بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم الضمير في عجبوا لكفار قريش والمنذر هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقيل الضمير لجميع الناس واختاره ابن عطية قال ولذلك قال تعالى فقال الكافرون أي الكافرون من الناس والصحيح أنه لقريش وقوله قال الكافرون وضع الظاهر موضع المضمر لقصد ذمهم بالكفر كما تقول جاءني فلان فقال الفاجر كذا إذا

قصدت ذمه وقوله منذر منهم إن كان الضمير لقريش فمعنى منهم من قبيلتهم يعرفون صدقه وأمانته وحسبه فيهم وإن كان الضمير لجميع الناس فمعنى منهم إنسان مثلهم وتعجبهم يحتمل أن يكون من أن بعث الله بشرا أو من الأمر الذي يتضمنه الإ نذار وهو ... 656
63 الحشر ويؤيد هذا ما يأتي بعد أئذا متنا وكنا ترابا العامل في إذا محذوف تقديره أنبعث إذا متنا ذلك رجع بعيد الرجع مصدر رجعته والمراد به البعث بعد الموت ومعنى بعيد أي بعيد الوقوع عندهم وقيل الرجع الجواب أي جوابهم هذا بعيد عن الحق وعلى هذا يكون قوله ذلك رجع بعيد من كلام الله تعالى وأما على الأول فهو حكاية كلام الكفار وهو أظهر قد علمنا ما تنقص الأرض منهم هذا رد على الكفار في إنكارهم للبعث معناه
قد علمنا ما تنقص الأرض منهم
من لحومهم وعظامهم فلا يصعب علينا بعثهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جسد ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب وقيل المعنى قد علمنا ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم والأول قول ابن عباس والجمهور وهو أظهر وعندنا كتاب حفيظ يعني اللوح المحفوظ ومعنى حفيظ جامع لا يشذ عنه شئ وقيل معناه محفوظ من التغيير والتبديل بل كذبوا بالحق لما جاءهم هذا الإضراب أتبع به الإضراب الأول للدلالة على أنهم جاؤا بما هو أقبح من تعجبهم وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوة وما تضمنته من الإخبار بالحشر وغير ذلك وقال ابن عطية هذا الاضراب عن كلام محذوف تقديره ما أجادوا النظر ونحو ذلك فهم في أمر مريج أي مضطرب لأنهم تارة يقولون شاعر وتارة ساحر وغير ذلك من أقوالهم وقيل معناه منكر وقيل ملتبس وقيل مختلط وزيناها يعني بالنجوم وما لها من فروج أي من شقوق وذلك دليل على إتقان الصنعة رواسي يعني الجبال من كل زوج بهيج أي من كل نوع جميل ماء مباركا يعني المطر كله وقيل الماء المبارك ماء مخصوص ينزله الله كل سنة وليس كل

المطر يتصف بالمبارك وهذا ضعيف حب الحصيد هو القمح والشعير ونحو ذلك مما يحصد باسقات أي طويلات) طلع نضيد الطلع أول ما يظهر من الثمر وهو أبيض منضد كحب الرمان فما دام ملتصقا بعضه ببعض فهو نضيد فإذا تفرق

فليس بنضيد كذلك الخروج تمثيل لخروج الموتى من القبور بخروج النبات من الأرض وأصحاب الرس قوم كانت لهم بئر عظيم وهي الرس بعث إليهم نبي فجعلوه في الرس وردموا عليه فأهلكهم الله وأصحاب الأيكة يعني قوم شعيب وقد ذكر وقوم تبع ذكر في الدخان فحق وعيد أي حل بهم الهلاك أفعيينا بالخلق الأول يقال عي بالأمر إذا لم يعرف علمه والخلق الأول خلق الإنسان من نطفة ثم من علقة ... 657

---

64 وقيل يعني خلق آدم وقيل خلق السموات والأرض والأول أظهر ومقصود الآية الاستدلال بالخلقة الأولى على البعث والهمزة للإنكار
بل هم في لبس من خلق جديد أي هم في شك من البعث وإنما نكر الخلق الجديد لأنه كان غير معروف عند الكفار المخاطبين وعرف الخلق الأول لأنه معروف معهود ولقد خلقنا الإنسان يعني جنس الإنسان ومعنى توسوس به نفسه تحدثه نفسه في فكرتها وذلك أخفى الأشياء وقيل يعني آدم ووسوسته عند أكله من الشجرة والأول أظهر وأشهر ونحن أقرب إليه من حبل الوريد هو عرق كبير في العنق وهما وريدان عن يمين وشمال وهذا مثل في فرط القرب والمراد به قرب علم الله واطلاعه على عبده وإضافة الحبل إلى الوريد كقولك مسجد الجامع أو يراد بالحبل العاتق إذ يتلقى المتلقيان يعني الملكين
الحافظين الكاتبين للأعمال والتلقي هو تلقى الكلام بحفظه وكتابته والعامل في إذ نحن أقرب وقيل مضمر تقديره اذكر واختاره ابن عطية عن اليمين وعن الشمال قعيد أي قاعد وقيل مقاعد بمعنى مجالس ورده ابن عطية بأن المقاعد إنما يكون مع قعود الإنسان والقاعد يكون على جميع هيئة الإنسان وإنما أفرده وهما أثنان لأن التقدير عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقيين فحذف أحدهما لدلالة الآخر عليه وقال الفراء لفظ قعيد يدل على الاثنين والجماعة فلا يحتاج إلى حذف ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد العتيد الحاضر وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن مقعد الملكين على الشفتين قلمهما اللسان ومدادهما الريق وعموم الآية يقتضي أن الملكين يكتبان جميع أعمال العبد ولذلك قال الحسن وقتادة يكتبان جميع الكلام فيثبت الله من ذلك الحسنات والسيئات ويمحو غير ذلك وقال عكرمة إنما تكتب الحسنات والسيئات لاغير وجاءت سكرة الموت بالحق أي بلقاء الله أو فراق الدنيا وفي مصحف عبدالله ابن مسعود وجاءت سكرة الحق بالموت وكذلك قرأها أبو بكر الصديق

وإنما قال جاءت بالماضي لتحقق الأمر وقربه وكذلك ما بعده من الأفعال ذلك ما كنت منه تحيد أي تفر وتهرب والخطاب للإنسان سائق وشهيد السائق ملك يسوقه وأما الشهيد فقيل ملك آخر يشهد عليه وهو الأظهر وقيل صحائف الأعمال وقيل جوارح الإنسان لقد كنت في غفلة من هذا خطاب للإنسان الذي يقتضيه قوله كل نفس يريد أنه كان غافلا عما لقى في الآخرة وقيل هو خطاب

لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أي كنت في غفلة من هذا القصص وهذا في غاية الضعف لأنه خروج عن سياق الكلام فكشفنا عنك غطاءك قيل كشف الغطاء معاينته أمور الآخرة فبصرك اليوم حديد أي يبصر مالم يبصره قبل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وقال قرينه هذا مالدي عتيد القرين هنا الشيطان الذي كان يغويه وقيل الملك الذي يتولى عذابه في جهنم والأول أرجح لأنه هو القرين المذكور بعد ولقوله ... 658

---

65 نقيض له شيطانا فهو له قرين ومعنى قوله هذا ما لدي عتيد أي هذا الإنسان حاضر لدى أعتدته ويسرته لجهنم وكذلك المعنى إن قلنا إن القرين هو الملك السائق وإن قلنا إنه أحد الزبانية فمعناه هذا العذاب لدى حاضر ويحتمل أن يكون ما في قوله مالدي موصوفة أوموصولة فإن كانت موصوفة فعتيد وصف لها وإن كانت موصولة فعتيد بدل منها أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف وما هي خبر المبتدأ على هذه الوجوه ويحتمل أن يكون عتيد الخبر وتكون ما بدلا من هذا أو منصوبة بفعل مضمر ألقيا في جهنم الخطاب للملكين السائق والشهيد وقيل إنه خطاب لواحد على أن يكون بالنون المؤكدة الخفيفة ثم أبدل منها ألف أو على أن يكون معناه ألق ألق مثنى مبالغة وتأكيدا أو على أن يكون على عادة العرب من مخاطبة الاثنين كقولهم خليلي وصاحبي وهذا كله تكلف بعيد ومما يدل على أن الخطاب لإثنين قوله فألقياه في العذاب الشديد مناع للخير قيل مناع للزكاة المفروضة والصحيح العموم مريب شاك في الدين فهو من الريب بمعنى الشك الذي جعل يحتمل أن يكون مبتدأ وخبره فألقياه وأدخل فيه ألفا لتضمنه معنى الشرط أو يكون بدلا أو صفة ويكون فألقياه تكرارا للتوكيد قال قرينه ربنا ما أطغيته القرين هنا شيطانه الذي وكل به في الدنيا بلا خلاف ومعنى ما أطغيته ما أوقعته في الطغيان ولكنه طغى باختياره وإنما حذف الواو هنا لأن هذه جملة مستأنفة بخلاف قوله وقال قرينه قبل هذا فإنه عطف لا تختصموا لدي خطاب للناس وقرنائهم من الشياطين ما يبدل القول لدي أي قد حكمت بتعذيب الكفار فلا تبديل لذلك وقيل معناه لا يكذب أحد لعلمي بجميع الأمور فالإشارة على هذا إلى قول القرين ما أطغيته وتقول هل من مزيد الفعل مسند إلى جهنم وقيل إلى خزنتها من الملائكة والآول أظهر واختلف هل تتكلم جهنم حقيقة أو مجازا بلسان الحال والأظهر أنه حقيقة وذلك على الله يسير ومعنى قولها هل من مزيد

إنما تطلب الزيادة وكانت لم تمتلئ وقيل معناه لا مزيد أي ليس عندي موضع للزيادة فهي على هذا قد امتلأت والأول أظهر وأرجح لما ورد في الحديث لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يلقى فيها الجبار قدمه وفي الحديث كلام ليس هذا موضعه والمزيد يحتمل أن يكون مصدرا كالمحيض أو اسم مفعول فإن كان مصدرا فوزنه مفعل وإن كان اسم مفعول فوزنه مفعول وأزلفت الجنة أي قربت ثم أكد ذلك بقوله غير بعيد لكل أواب أي كثير الرجوع

إلى الله فهو من آب يؤوب إذا رجع وقيل هو المسبح لله من قوله يا جبال أوبي معه حفيظ أي حافظ لأوامر الله فيفعلها ولنواهيه فيتركها
من خشي الرحمن بالغيب أي اتقى الله وهو غائب عن الناس فالمجرور في موضع الحال ومن خشي بدل أو مبتدأ فإن قيل كيف قرن بالخشية الاسم الدال على الرحمة فالجواب أن ذلك لقصد المبالغة في الثناء على من يخشى الله لأنه يخشاه مع علمه برحمته وعفوه قال ذلك الزمخشري ويحتمل أن يكون ... 659

---

66 الجواب عن ذلك أن الرحمن صار يستعمل استعمال الاسم الذي ليس بصفة كقولنا الله ولدينا مزيد قيل معناه النظر إلى وجه الله كقوله الحسنى وزيادة وقيل يعني ما لم يخطر على قلوبهم كما ورد في الحديث مما يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال أعددت لعبادي الصالحين مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هم أشد منهم بطشا الضمير في هم للقرون المتقدمة وفي منهم لكفار قريش فنقبوا في البلاد أي طافوا فيها وأصله دخولها من أنقابها أو من التنقب عن الأمر بمعنى البحث عنه هل من محيص أي قالوا هل من مهرب من الله أو من العذاب لمن كان له قلب أي قلب واع يعقل ويفهم أو ألقى السمع وهو شهيد أي استمع وهو حاضر القلب وما مسنا من لغوب اللغوب الإعياء والتعب فاصبر على ما يقولون يعني كفار قريش وغيرهم وسبح بحمد ربك يحتمل أن يريد التسبيح باللسان أو يريد الصلاة وقد ذكر الزمخشري فيه الوجهين وقال ابن عطية معناه صل بإجماع من المتأولين وهي على هذا إشارة إلى الصلوات الخمس فقبل طلوع الشمس الصبح وقبل الغروب الظهر والعصر ومن الليل المغرب والعشاء وقيل هي النوافل وأدبار السجود قال عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما الركعتين بعد المغرب وقال ابن عباس هي النوافل بعد الفرائض وقيل الوتر واستمع معناه انتظر فهو عامل في يوم يناد على أنه مفعول به صريح وقيل المعنى استمع لما نقص عليك من أهوال القيامة فعلى هذا لا يكون عاملا في يوم يناد فيوقف على استمع والأول أظهر يوم يناد المناد من مكان قريب المنادي هنا إسرافيل الذي ينفخ في الصور وقيل إنما وصفه بالقرب لأنه يسمعه جميع الخلق وقيل المكان صخرة بيت المقدس وإنما وصفها بالقرب لقربها من مكة وقيل لقربها من السماء لأنها أقرب إلى الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلا وهذا ضعيف يوم الخروج يعني خروج الناس من القبور ويوم

تشقق العامل في هذا الظرف معنى قوله حشر علينا يسير أو هو بدل مما قبله وما أنت عليهم بجبار أي بقهار تقهرهم على الإيمان كقوله لست عليهم بمصيطر وقيل إخبار بأنه صلى الله عليه وسلم رؤف بهم غير جبار عليهم وهذا أظهر فذكر بالقرآن من يخاف وعيد كقوله إنما تنذر الذين يخشون ربهم لأنه لا ينفع التذكير إلا من يخاف ... 660

67 سورة الذاريات
والذاريات ذروا هي الرياح تذرو التراب وغيره ومنه قوله تعالى تذروه الرياح وانتصب ذروا على المصدرية فالحاملات وقرا هي السحاب تحمل المطر والوقر الحمل وهو مفعول به فالجاريات يسرا هي السفن تجري في البحر وإعراب يسرا صفة لمصدر محذوف ومعناه بسهولة فالمقسمات أمرا هي الملائكة تقسم أمر الملكوت من الأرزاق والآجال وغير ذلك وأمرا مفعول به وقيل إن الحاملات وقرا السفن وقيل جميع الحيوان الحامل وقيل إن الجاريات يسرا السحاب وقيل الجواري من الكواكب والأول أشهر وهو قول علي بن أبي طالب إنما توعدون لصادق هذا جواب القسم ويحتمل توعدون أن يكون من الوعد أو من الوعيد والأظهر أنه يراد به البعث في الآخرة وهو يشمل الوعد والوعيد وإن الدين لواقع الدين هنا الجزاء وقيل الحساب والسماء ذات الحبك أي ذات الطرائق مثل الطرائق التي تكون في الماء إذا هبت عليه الرياح وكذلك حبك الزرع وهي الطرائق التي فيه وقيل الحبك النجوم وقيل زينة السماء وقيل حسن خلقتها وواحد الحبك حباك أو حبيكة إنكم لفي قول مختلف يحتمل أن يكون خطابا لجميع الناس لأنهم اختلفوا فمنهم مؤمن ومنهم كافر ويحتمل أن يكون خطابا للكفار خاصة لأنهم اختلفوا فقال بعضهم ساحر وقال بعضهم كاهن وقال بعضهم شاعر يؤفك عنه من أفك معنى يؤفك يصرف والضمير في عنه يحتمل أربعة أوجه أحدها أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أو للقرآن أو للإسلام والمعنى يصرف عن الإيمان به من صرف أي من سبق في علم

الله أنه مصروف الثاني أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين والمعنى يصرف عن الأيمان به من صرف الثالث أن يكون الضمير للقول المختلف والمعنى يصرف عن ذلك القول إلى الاسلام من قضى الله بسعادته وهذا القول حسن إلا أن عرف الاستعمال في أفك ويؤفك إنما هو في العرف من خير إلى شر وهذا من شر إلى خير الرابع أن يكون الضمير للقول المختلف وتكون عن سببية والمعنى يصرف بسبب ذلك القول من صرف عن الايمان
قتل الخراصون دعاء عليهم كقولهم قاتلك الله وقيل قتل بمعنى لعن قال ابن عطية واللفظ لا يقتضي ذلك وقال الزمخشري أصله الدعاء بالقتل ثم جرى مجرى لعن وقبح والخراصون الكذابون وأصل الخرص التخمين والقول بالظن والاشارة إلى الكفار وقيل إلى الكهان والأول أظهر الذين هم في غمرة ساهون الغمرة ... 661

---

68 ما يغطى عقل الانسان وأصله من غمرة الماء والمراد به هنا الجهلة والغفلة عن النظر يسئلون أيان يوم الدين أي يقولون متى يوم الدين على وجه الاستبعاد والاستخفاف يوم هم على النار يفتنون هذا جواب عن سؤالهم ومعنى يفتنون يحرقون ويعذبون ومنه قيل للحرة فتين لأن الشمس أحرقت حجارتها

ويحتمل أن يكون يومهم معربا والعامل فيه مضمر تقديره يقع ذلك يوم هم على النار يفتنون وأن يكون مبنيا لإضافته إلى مبنى وعلى هذا يجوز أن يكون في موضع نصب بالفعل المضمر حسبما ذكرنا أو في موضع رفع والتقدير هو يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم أي يقال لهم ذوقوا حرقتكم آخذين ما آتاهم ربهم يعني يأخذون في الجنة ما أعطاهم ربهم من الخيرات والنعيم وقيل المعنى آخذين في الدنيا ما آتاهم ربهم من شرعه والأول أظهر وأرجح لدلالة الكلام عليه
كانوا قليلا من الليل ما يهجعون الهجوع النوم وفي معنى الآية قولان أحدهما وهو الصحيح أنهم كانوا ينامون قليلا من الليل ويقطعون أكثر الليل بالسهر في الصلاة والتضرع والدعاء والآخر أنهم كانوا لا ينامون بالليل قليلا ولا كثيرا ويختلف الإعراب باختلاف المعنيين فأما على القول الأول ففي الإعراب أربعة أوجه الأول أن يكون قليلا خبر كانوا وما يهجعون فاعل بقليلا لأن قليلا صفة مشبهة باسم الفاعل وتكون ما مصدرية والتقدير كانوا قليلا هجوعهم من الليل والثاني مثل هذا إلا أن ما موصولة والتقدير كانوا قليلا الذي يهجعون فيه من الليل والثالث أن تكون ما زائدة وقليلا ظرف والعامل فيه يهجعون والتقدير كانوا يهجعون وقتا قليلا من الليل والرابع مثل هذا إلا أن قليلا صفة لمصدر محذوف والتقدير كانوا يهجعون هجوعا قليلا وأما على القول الثاني ففي الإعراب وجهان أحدهما أن تكون ما نافية وقليلا ظرف والعامل فيه يهجعون والتقدير كانوا ما يهجعون قليلا من الليل والآخر أن تكون ما نافية وقليلا خبر كان والمعنى كانوا

قليلا في الناس ثم ابتدأ بقوله من الليل ما يهجعون وكلا الوجهين باطل عند أهل العربية لأن ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها فظهر ضعف هذا المعنى لبطلان إعرابه وبالأسحار هم يستغفرون أي يطلبون من الله مغفرة ذنوبهم والأسحار آخر الليل وقد جاء في الحديث أن الله تعالى يقول في الثلث الآخر من الليل من يستغفرني فأغفر له وقيل معنى يستغفرون يصلون وهذا بعيد من اللفظ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم الحق هنا نوافل الصدقات وقيل المراد الزكاة وهذا بعيد لأن الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة وقيل إن الآية منسوخة بالزكاة وهذا لا يحتاج إليه لأن النسخ إنما يكون مع التعارض ولا تعارض بين الزكاة والنوافل وتسمية النوافل بالحق كقوله حقا على المحسنين وإن كان غير واجب وقال بعض العلماء حق سوى الزكاة ورجحه ابن عطية واختلف الناس في المحروم حتى قال الشعبي أعياني أن أعلم ما المحروم وقيل المحروم الذي ليس له في بيت المال سهم وقيل الذي أجيحت ثمرته وقيل الذي ماتت ماشيته وقيل هو الكلب ... 662

---

69 وهذه أمثله والمعنى الجامع لها أن المحروم الذي حرمه الله المال بأي وجه كان

وفي أنفسكم إشارة إلى ما في خلقة الإنسان من الآيات والعبر ولقد قال بعض العلماء فيه أن فيه خمسة آلاف حكمة وقال بعضهم الإنسان نسخة مختصرة من العالم وفي السماء رزقكم وما توعدون معنى في السماء رزقكم المطر وقيل القضاء والقدر ويحتمل أن يكون ما توعدون من الوعد والوعيد والكل في السماء ولذلك قيل يعني الجنة والنار وقيل الخير والشر إنه الحق هذا جواب القسم والضمير لما تقدم من الآيات أو الرزق أو لما توعدون مثل ما أنكم تنطقون أي حق مثل نطقكم لا يمكن الشك فيه وما زائدة وقرئ مثل بالنصب والرفع فالرفع صفة لحق والنصب على الحال من حق أو من الضمير المستتر فيه أو صفة لحق وبني لإضافته إلى مبني أو لتركيبه مع ما فيصير نحو أينما وكلما هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين المراد بالاستفهام في مثل هذا التفخيم والتهويل وضيف إبراهيم هم الملائكة الذين جاؤا ليبشروه بالولد وبإهلاك قوم لوط ووصفهم بالمكرمين لأنهم مكرمون عند الله ولأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم لأنه خدمهم بنفسه وعجل لهم الضيافة والعامل في إذ دخلوا على هذا المكرمين ويحتمل أن يكون العامل فيه محذوف تقديره اذكر فقالوا سلاما نصب هذا لأنه في معنى الطلب وهو مفعول بفعل مضمر ورفع الثاني لأنه خبر تقديره أمري سلام وهذا على أن يكون السلام بمعنى السلامة وإن كان بمعنى التحية فإنما رفع الثاني ليدل على إثبات السلام فيكون قد حياهم بأكثر مما حيوه وينتصب السلام الأول على هذا على المصدرية تقديره سلمنا عليك سلاما ويرتفع الثاني بالابتداء تقديره سلام عليكم قوم منكرون أي لم يعرفهم قال ألا تأكلون يحتمل أن يكون ألاحضا على الأكل أو تكون الهمزة للإنكار دخلت على لا النافية فإوجس منهم خيفة إنما خاف منهم لما لم ياكلوا وبشروه بغلام عليم هو إسحاق عليه السلام

لقوله فبشرناها بإسحاق في صرة أي صيحة وذلك قولها ياويلتا أألد وأنا عجوز وهو من صر القلم وغيره إذا صوت وقيل معناه في جماعة من النساء فصكت وجهها أي ضربته حياء منهم وتعجبا من ولادتها وهي عجوز وقالت عجوز عقيم تقديره قالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد أو تقديره أتلد عجوز عقيم قال فما خطبكم أي ما شأنكم وخبركم والخطب أكثر ما يقال في الشدائد قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين يعني قوم سيدنا لوط وقد ذكرنا الحجارة ومسومة في هود فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين الضمير المجرور لقرية قوم سيدنا لوط لأن الكلام يدل عليها وإن لم يتقدم ذكرها والمراد بالمؤمنين لوط وأهله أمرهم الله بالخروج ... 663

---

70 من القرية لينجوا من العذاب الذي أصاب أهلها ووصفهم بالمؤمنين وبالمسلمين لأنهم جمعوا الوصفين وقد ذكرنا معنى الإسلام والإيمان في الأحزاب

وفي موسى معطوف على قوله وفي الأرض آيات للموقنين أو على قوله

وتركنا فيها آية فتولى بركنه معنى تولى أعرض عن الإيمان وركنه سلطانه وقوته وقالوا ساحر أو مجنون أي قالوا إن موسى ساحر أو مجنون فأو للشك أو للتقسيم وقيل بمعنى الواو وهذا ضعيف ولا يستقيم هنا وهو مليم أي فعل مايلام عليه يعني فرعون الريح العقيم وصفها بالعقم لأنها لا بركة فيها من إنشاء المطر أو إلقاح الشجر كالرميم أي الفاني المنقطع والعموم هنا يراد به الخصوص فيما أذن للريح أن تهلكه وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فيه قولان أحدهما أن الحين هي الثلاثة الأيام بعد عقرهم الناقة والآخر أن الحين من بعد ما بعث صالح عليه السلام إلى حين هلاكهم وعلى هذا يكون فعتوا مترتبا بعد تمتعهم وأما على الأول فيكون إخبارا عن حالهم غير مرتب على ما قبله فأخذتهم الصاعقة يعني الصيحة التي صاحها جبريل وهم ينظرون أي يعاينونها لأنها كانت بالنهار والسماء بنيناها بأيد أي بقوة وانتصاب السماء بفعل مضمر وإنا لموسعون فيه ثلاثة أقوال أحدها أن معناه قادرون فهو من الوسع وهو الطاقة ومنه على الموسع قدره أي القوي على الإنفاق والآخر جعلنا السماء واسعة أو جعلنا بينها وبين الأرض سعة والثالث أوسعنا الأرزاق بمطر السماء فنعم الماهدون الماهد الموطئ للموضع ومن كل شئ خلقنا زوجين أي نوعين مختلفين كالليل والنهار والسواد والبياض والصحة والمرض وغير ذلك ففروا إلى الله أمر بالرجوع إليه بالتوبة والطاعة وفي اللفظ تحذير وترهيب أتواصوا به توقيف وتعجيب أي هم بمثابة من أوصى بعضهم بعضا أن يقول ذلك فتول عنهم منسوخ بالسيف فما أنت بملوم أي قد بلغت الرسالة فلالوم عليك وما خلقت

الجن والإنس إلا ليعبدون قيل معناه خلقتهم لكي آمرهم بعبادتي وقيل ليتذللوا لي فإن جميع الإنس والجن متذلل ما أريد ... 664
71 منهم من رزق) أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم وما أريد أن يطعمون أي لا أريد أن يطعمون لأني منزه عن الأكل وعن صفات البشر وأنا غني عن العالمين وقيل المعنى ما أريد أن يطعموا عبيدي فحذف المضاف تجوزا وقيل معناه ما أريد أن ينفعوني لأني غني عنهم وعبرعن النفع العام بالإطعام والأول أظهر المتين أي الشديد القوة فإن للذين ظلموا ذنوبا الذنوب النصيب ويريد به هنا نصيبا من العذاب وأصل الذنوب الدلو والمراد بالذين ظلموا كفار قريش وبأصحابهم من تقدم من الكفار فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون يحتمل أن يريد يوم القيامة أو يوم هلاكهم ببدر والأول أرجح لقوله في المعارج ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون يعني يوم القيامة
سورة الطور
والطور هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وقيل الطور كل جبل فكأنه أقسم بجنس الجبال وكتاب مسطور قيل هو اللوح المحفوظ وقيل القرآن وقيل صحائف الأعمال في رق منشور الرق في اللغة الصحيفة وخصصت في العرف بما كان من جلد والمنشور خلاف المطوي والبيت المعمور هو بيت في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبدا وبهذا عمرانه وهو حيال الكعبة وقيل البيت المعمور الكعبة وعمرانها بالحجاج والطائفين والأول أظهر وهو قول علي وابن عباس والسقف

المرفوع يعني السماء والبحر المسجور هو بحر الدنيا وقيل بحر في السماءتحت العرش والأول أظهر وأشهر ومعنى المسجور المملوء ماء وقيل الفارغ من الماء ويروى أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة واللغة تقتضي الوجهين لأن اللفظ من الأضداد وقيل معناه الموقد نارا من قولك سجرت التنور واللغة أيضا تقتضي هذا وروى أن جهنم في البحر إن عذاب ربك لواقع هذا جواب القسم

(3/88)

ويعني عذاب الآخرة
يوم تمور السماء مورا أي تجئ وتذهب وقيل تدور وقيل تتشقق والعامل في الظرف واقع ودافع أو محذوف الذين هم في خوض يلعبون الخوض التخبط في الأباطيل شبه يخوض الماء يوم يدعون أي يدفعون بتعنيف ويوم بدل من الظرف المتقدم أفسحر هذا توبيخ للكفار ... 665
72 على ما كانوا يقولونه في الدنيا من أن القرآن سحر أم أنتم لا تبصرون توبيخ أيضا لهم وتهكم بهم أي هل أنتم لا تبصرون هذا العذاب الذي حل بكم كما كنتم في الدنيا لا تبصرون الحقائق اصبروا أو لا تصبروا ليس المراد بذلك الأمر بالصبر ولا النهي عنه وإنما المراد التسوية بين الصبر وعدمه في أن كل واحد من الحالين لا ينفعهم ولا يخفف عنهم شيئا من العذاب إنما تجزون ما كنتم تعملون هذا تعليل لما ذكر من عذابهم وليس تعليلا للصبر ولا لعدمه كما قال بعض الناس فاكهين يحتمل أن يكون معناه أصحاب فاكهة فيكون نحو لابن وتامر أو يكون من الفكاهة بمعنى السرور ووقاهم معطوف على قوله في جنات أو على آتاهم ربهم أو تكون الواو للحال كلوا واشربوا أي يقال لهم كلوا هنيئا صفة لمصدر محذوف تقديره كلوا أكلا هنيئا ويحتمل أن يكون وقع موقع فعل تقديره هنأكم الأكل والشرب بحور عين الحور جمع حوراء وهي الشديدة بياض بياض العين وسواد سوادها والعين جمع عيناء وهي الكبيرة العينين مع جمالها وإنما دخلت الباء في قوله بحور لأنه تضمن قوله زوجناهم معنى قرناهم قاله الزمخشري وقال إن الذين آمنوا معطوف على بحور عين أي قرناهم بحور للتلذذ بهن وبالذين آمنوا للأنس معهم والأظهر أن الكلام تم في قوله بحور عين ويكون والذين آمنوا مبتدأ خبره ألحقنا والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم معنى الآية ما ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقر

(3/89)

بهم عينه فذلك كرامة للأبناء بسبب الآباء قيل إن ذلك في الأولاد الذين ماتوا صغارا وقيل على الإطلاق في الأبناء المؤمنين وبإيمان في موضع الحال من الذرية والمعنى أنهم اتبعوا آباءهم في الإيمان وقال الزمخشري إن هذا المجرور يتعلق بألحقنا والمعنى عنده بسبب الإيمان ألحقنا بهم ذريتهم والأول أظهر فإن قيل لم قال بإيمان بالتنكير فالجواب أن المعنى بشئ من الايمان لم

يكونوا به أهلا لدرجة آبائهم ولكنهم لحقوا بهم كرامة للآباء فالمراد تقليل إيمان الذرية ولكنه رفع درجتهم فكيف إذا كان إيمانا عظيما وما ألتناهم من عملهم من شئ أي ما أنقصناهم من ثواب أعمالهم بل وفينا لهم أجورهم وقيل المعنى ألحقنا ذريتهم بهم وما نقصناهم شيئا من ثواب أعمالهم بسبب ذلك بل فعلنا ذلك تفضلا زيادة إلى ثواب أعمالهم والضمير على القولين يعود على الذين آمنوا وقيل إنه يعود على الذرية كل امرئ بما كسب رهين أي مرتهن فإما أن تنجيه حسناته وإما أن تهلكه سيئاته وأمددناهم بفاكهة الإمداد هو الزيادة ... 666

---

73 مرة بعد مرة
يتنازعون فيها كأسا أي يتعاطونها إذهم جلساء على الشراب لالغو فيها ولا تأثيم اللغو الكلام الساقط والتأثيم الذنب فهي بخلاف خمر الدنيا غلمان لهم يعني خدامهم كأنهم لؤلؤ مكنون اللؤلؤ الجوهر والمكنون المصون وذلك لحسنه وقيل هو الذي لم يخرج من الصدف قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين أي كنا في الدنيا خائفين من الله والإشفاق شدة الخوف السموم أشد الحر وقيل هو من أسماء جهنم إنا كنا من قبل ندعوه يحتمل أن يكون بمعنى نعبده أو من الدعاء بمعنى الرغبة ومن قبل يعنون في الدنيا قبل لقاء الله إنه هو البر الرحيم البر الذي يبر عباده ويحسن إليهم وقرئ أنه بفتح الهمزة على أن يكون مفعولا من أجله أو يكون هذا اللفظ هو المدعو به وقرئ بكسرها على الاستئناف فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي ذكر الناس ثم نفي عنه ما نسبه إليه الكفار من الكهانة والجنون ومعنى بنعمة ربك بسبب إنعام الله عليك أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون أم في هذا الموضع وفيما بعده للاستفهام بمعنى الإنكار والتربص الانتظار وريب المنون حوادث الدهر وقيل الموت وكانت قريش قد قالت إنما هو شاعر ننتظر به ريب المنون فيهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء كزهير والنابغة قل تربصوا أمر على وجه التهديد أم تأمرهم أحلامهم بهذا الأحلام العقول أي كيف تأمرهم عقولهم بهذا والاشارة إلى قولهم هو شاعر أو إلى ماهم عليه من الكفر واالتكذيب وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز كقوله أصلاتك تأمرك أم هم قوم طاغون أم هنا بمعنى بل ويحتمل أن تكون بمعنى بل وهمزة الاستفهام بمعنى الإنكار كما هي في هذه المواضع كلها أم يقولون تقوله أي اختلقه من تلقاء نفسه وضمير الفاعل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول للقرآن فليأتوا بحديث مثله رد عليهم وإقامة حجة عليهم

والأمر هنا للتعجيز
أم خلقوا من غير شئ فيه ثلاثة أقوال أحدها أن معناه أم خلقوا من غير رب أنشأهم واستعبدهم فهم من أجل ذلك لا يعبدون الله الثاني أم خلقوا من غير

أب ولا أم كالجمادات فهم لا يؤمرون ولا ينهون كحال الجمادات الثالث أم خلقوا من غير أن يحاسبوا ولا يجازوا بأعمالهم فهو على هذا كقوله أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا أم هم الخالقون معناه أهم الخالقون لأنفسهم بحيث لا يعبدون الخالق أم هم الخالقون للمخلوقات بحيث يتكبرون أم عندهم خزائن ربك المعنى أعندهم خزائن الله بحيث يستغنون عن عبادته وقيل أعندهم خزائن الله بحيث يعطون من شاءوا ويمنعون من شاءوا ويخصون بالنبوة من شاءوا أم هم ... 667

(3/92)

---

74 المصيطرون) أي الأرباب الغالبون وقيل المسيطر المسلط القاهر أم لهم سلم يستمعون فيه يعني أم لهم سلم يصعدون به إلى السماء فيسمعون ما تقول الملائكة بحيث يعلمون صحة دعواهم ثم عجزهم بقوله فليأت مستمعهم بسلطان مبين أي بحجة واضحة على دعواهم أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون معناه أتسألهم عن الإسلام أجرة فيثقل عليهم غرمها فيشق عليهم اتباعك أم عندهم الغيب فهم يكتبون المعنى أعندهم علم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه حتى يقولوا لا نبعث وإن بعثنا لا نعذب وقيل المعنى فهم يكتبون للناس سننا وشرائع من عبادة الأصنام وتسييب السوائب وشبه ذلك أم يريدون كيدا إشارة إلى كيدهم في دار الندوة بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث تشاوروا في قتله أو إخراجه فالذين كفروا هم المكيدون أي المغلوبون في الكيد والذين كفروا يعني من تقدم الكلام فيهم وهم كفار قريش فوضع الظاهر موضع المضمر ويحتمل أن يريد جميع الكفار أم لهم إله غير الله المعنى هل لهم إله غير الله يعصمهم من عذاب الله ويمنعهم منه وحصر الله في هذه الآية جميع المعاني التي توجب التكبر والبعد من الدخول في الإسلام ونفاها عنهم ليبين أن تكبرهم من غير موجب وكفرهم من غير حجة وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم كانوا قد طلبوا أن ينزل عليهم كسفا من السماء فالمعنى أنهم لو رأوا الكسف ساقطا عليهم لبلغ بهم الطغيان والجهل والعناد أن يقولوا ليس بكسف وإنما هو سحاب مركوم أي كثيف بعضه فوق بعض فذرهم منسوخ بالسيف يومهم الذي فيه يصعقون يعني يوم القيامة والصعقة فيه هي النفخة الأولى وقيل غير ذلك والصحيح ما ذكرنا لقوله في المعارج عن يوم القيامة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون عذابا دون ذلك يعني قتلهم يوم بدر وقيل الجوع بالقحط وقيل عذاب القبر واصبر لحكم ربك أي اصبر على تكذيبهم لك وإمهالنا لهم فإنا نريك وسبح بحمد ربك

(3/93)

حين تقوم فيه ثلاثة أقوال أحدها أنه قول سبحان الله ومعنى حين تقوم من كل مجلس وقيل أراد حين تقوم وتقعد وفي كل حال وجعل القيام مثالا الثاني أنه الصلوات النوافل والثالث أنه الصلوات الفرائض فحين تقوم الظهر والعصر أي حين تقوم من نوم القائلة ومن الليل المغرب والعشاء وإدبار النجوم الصبح ومن قال هي النوافل جعل إدبار النجوم ركعتي الفجر ... 668

75 سورة النجم
والنجم إذا هوى
فيه ثلاثة أقوال أحدها أنها الثريا لأنها غلب عليها التسمية بالنجم ومعنى هوى غرب وانتشر يوم القيامة الثاني أنه جنس النجوم ومعنى هوى كما ذكرنا أو انقضت ترجم الشياطين الثالث أنه من نجوم القرآن وهي الجملة التي تنزل وهوى على هذا معناه نزل ما ضل صاحبكم وما غوى هذا جواب القسم والخطاب لقريش وصاحبكم هو النبي صلى الله عليه وسلم فنفى عنه الضلال واالغي والفرق بينهما أن الضلال بغير قصد والغي بقصد وتكسب وما ينطق عن الهوى أي ليس يتكلم بهواه وشهوته إنما يتكلم بما يوحي الله إليه أن هو إلا وحي يوحى يعني القرآن علمه شديد القوى ضمير المفعول للقرآن أو للنبي صلى الله عليه وسلم والشديد القوى جبريل وقيل الله تعالى والأول أرجح لقوله ذي قوة عند ذي العرش والقوى جمع قوة ذو مرة أي ذو قوة وقيل ذو هيئة حسنة والأول هو الصحيح في اللغة فاستوى أي استوى جبريل في الجو إذ رآه النبي صلى الله عليه وسلم وهو بحراء وقيل معنى استوى ظهر في صورته على ستمائة جناح قد سد الأفق بخلاف ما كان يتمثل به من الصور إذا نزل بالوحي وكان ينزل في صورة دحية وهو بالأفق الأعلى الضمير لجبريل وقيل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والأول أصح ثم دنى فتدلى الضميران لجبريل أي دنا من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فتدلى في الهواء وهو عند بعضهم من المقلوب تقديره فتدلى فدنا فكان قاب قوسين أو أدنى القاب مقدار المسافة أي كان جبريل من

سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام في القرب بمقدار قوسين عربيتين ومعناه من طرف العود إلى الطرف الآخر وقيل من الوتر إلى العود وقيل ليس القوس التي يرمي بها وإنما هي ذراع تقاس بها المقادير ذكره الثعلبي وقال إنه من لغة أهل الحجاز وتقدير الكلام فكان مقدار مسافة جبريل من سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام مثل مسافة قوسين ثم حذفت هذه المضافات ومعنى أو أدنى أو أقرب وأو هنا مثل قوله أو يزيدون وأشبه التأويلات فيها أنه إذا نظر إليه البشر احتمل عنده أن يكون قاب قوسين أو يكون أدنى وهذا الذي ذكرنا أن هذه الضمائر المتقدمة لجبريل هو الصحيح وقد ورد ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح وقيل إنها لله تعالى وهذا القول يرد عليه الحديث والعقل إذ يجب تنزيه الله تعالى عن تلك الأوصاف من الدنو والتدلي وغير ذلك فأوحى إلى عبده ما أوحى في هذه الضمائر ثلاثة أقوال الأول أن المعنى أوحى الله إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى الثاني ... 669

---

76 أوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى وعاد الضمير على الله في القولين لأن سياق الكلام يقتضي ذلك وإن لم يتقدم ذكره فهو كقوله إنا أنزلناه في ليلة

القدر الثالث أوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى وفي قوله ما أوحى إبهام مراد يقتضي التفخيم والتعظيم ما كذب الفؤاد ما رأى أي ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم ما رآه بعينه بل صدق بقلبه أن الذي رآه بعينه حق والذي رأى هو جبريل يعني حين رآه بمقدار ملأ الأفق وقيل رأى ملكوت السموات والأرض والأول أرجح لقوله ولقد رأه نزلة أخرى وقيل الذي رآه هو الله تعالى وقد أنكرت ذلك عائشة وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك فقال نوراني أراه أفتمارونه على ما يرى هذا خطاب لقريش والمعنى أتجادلونه على ما يري وكانت قريش قد كذبت لما قال إنه رأى ما رأى ولقد رآه نزلة أخرى هذا لقد رأى محمد جبريل عليهما الصلاة والسلام مرة أخرى وهو ليلة الإسراء وقيل ضمير المفعول لله تعالى وأنكرت ذلك عائشة وقالت من زعم أن محمدا رأى ربه ليلة الإسراء فقد أعظم الفرية على الله تعالى عند سدرة المنتهى هي شجرة في السماء السابعة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمرتها كالقلال وورقها كآذان الفيلة وسميت سدرة المنتهى لأن إليها ينتهي علم كل عالم ولا يعلم ما وراءها إلا الله تعالى وقيل سميت بذلك لأن ما نزل من أمر الله يلتقي عندها فلا يتجاوزها ملائكة العلو إلى أسفل ولا يتجاوزها ملائكة السفل إلى أعلى عندها جنة المأوى يعني أن الجنة التي وعدها الله عباده هي عند سدرة المنتهى وقيل هي جنة أخرى تأوى إليها أرواح الشهداء والأول أظهر وأشهر إذ يغشى السدرة ما يغشى فيه إبهام لقصد التعظيم قال ابن مسعود غشيها فراش من ذهب وقيل كثرة الملائكة وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فغشيها ألوان لا أدري ما هي وهذا أولى أن تفسر به الآية ما زاغ البصر وما طغى أي ما

زاغ بصر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عما رآه من العجائب بل أثبتها وتيقنها وما طغى أي ما تجاوز ما رأى إلى غيره لقد رأى من آيات ربه الكبرى يعني ما رأى ليلة الإسراء من السموات والجنة والنار والملائكة والأنبياء وغير ذلك ويحتمل أن تكون الكبرى مفعولا أو نعتا لآيات ربه والمعنى يختلف على ذلك أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى هذه أوثان كانت تعبد من دون الله فخاطب الله من كان يعبدها من العرب على وجه التوبيخ لهم وقال ابن عطية الرؤيا هنا رؤية العين لأن الأوثان المذكورة أجرام مرئية فأما اللات فصنم كان بالطائف وقيل كان بالكعبة وأما العزى فكانت صخرة بالطائف وقيل شجرة فبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها تدعو بالويل فضربها بالسيف حتى قتلها وقيل كانت بيتا تعظمه العرب وأصل لفظ العزى مؤنثة الأعز وأما مناة فصخرة كانت لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة وكانت أعظم هذه الأوثان قال ابن عطية ولذلك قال تعالى الثالثة الأخرى فأكدها بهاتين الصفتين وقال الزمخشري الأخرى ذم وتحقير أي المتأخرة ... 670

---

77 الوضيعة القدر ومنه وقالت أخراهم لأولاهم ألكم الذكر وله الأنثى كانوا يقولون إن الملائكة وهذه الأوثان بنات الله فأنكر الله عليهم ذلك أي كيف تجعلون لأنفسكم الأولاد الذكور وتجعلون لله البنات التي هي عندكم حقيرة بغيضة وقد ذكر هذا المعنى في النحل وغيرها ويحتمل أن يكون أنكر عليهم جعل هذه الأوثان شركاء لله تعالى مع أنهن إناث والإناث حقيرة بغيضة عندهم تلك إذا قسمة ضيزى أي هذه القسمة التي قسمتم جائرة غير عادلة يعني جعلهم الذكور لأنفسهم والإناث لله تعالى ووزن ضيزى فعلى بضم الفاء ولكنها كسرت لأجل الياء التي بعدها إن هي إلا أسماء سميتموها الضمير للأوثان وقد ذكر هذا المعنى في الأعراف في قوله أتجادلونني في أسماء إن يتبعون إلا الظن يعني أنهم يقولون أقوالا بغير حجة كقولهم إن الملائكة بنات الله وقولهم إن الأصنام تشفع لهم وغير ذلك أم للإنسان ما تمنى أم هنا للإنكار والانسان هنا جنس بني آدم أي ليس لأحد ما يتمنى بل الأمر بيد الله وقيل إن الإشارة إلى ما طمع فيه الكفار من شفاعة الأصنام وقيل إلى قول العاصي بن وائل لأوتين مالا وولدا وقيل هو تمنى بعضهم أن يكون نبيا والأحسن حمل اللفظ على إطلاقه وكم من ملك في السموات الآية رد على الكفار في قولهم إن الأوثان تشفع لهم كأنه يقول الملائكة الكرام لا تغني شفاعتهم شيئا إلا بإذن الله فكيف أوثانكم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى معناه أن الملائكة لا يشفعون لشخص إلا بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة فيه ويرضى عنه ليسمون الملائكة تسمية الأنثى يعني قولهم إن الملائكة بنات الله ثم رد عليهم بقوله وما لهم به من علم ذلك مبلغهم من العلم أي إلى ذلك انتهى علمهم لأنهم علموا ما ينفع في الدنيا ولم يعلموا ما ينفع في الآخرة ليجزي اللام متعلقة بمعنى ما قبلها والتقدير أن الله ملك أمر السموات والأرض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا

وقيل يتعلق بضل واهتدى كبائر الإثم ذكرنا الكبائر في النساء إلا اللمم فيه أربعة أقوال الأول أنه صغائر الذنوب فالاستثناء على هذا منقطع الثاني أنه الإلمام بالذنوب على وجه الفلتة والسقطة دون دوام عليها الثالث أنه ما ألموا به في الجاهلية من الشرك والمعاصي الرابع أنه الهم بالذنوب وحديث النفس به دون أن يفعل أجنة جمع جنين
فلا تزكوا أنفسكم أي لا تنسبوا أنفسكم إلى الصلاح والخير قال ابن ... 671

---

78 عطية ويحتمل أن يكون نهى عن أن يزكي بعض الناس بعضا وهذا بعيد لأنه تجوز التزكية في الشهادة وغيرها أفرأيت الذي تولى الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وقيل نزلت في العاصي بن وائل وأكدى أي قطع العطاء وأمسك وإبراهيم الذي وفي قيل في طاعة الله في ذبح ولده وقيل وفي تبليغ الرسالة وقيل وفي شرائع الإسلام وقيل وفي الكلمات التي ابتلاه الله بهن وقيل وفي هذه العشر الآيات ألا تزر وازرة وزر أخرى ذكر فيما تقدم وهذه الجملة تفسير

لما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام
وأن ليس للإنسان إلا ما سعى
السعي هنا بمعنى العمل وظاهرها أنه لا ينتفع أحد بعمل غيره وهي حجة لمالك في قوله لا يصوم أحد عن وليه إذا مات وعليه صيام واتفق العلماء على أن الأعمال المالية كالصدقة والعتق يجوز أن يفعلها الإنسان عن غيره ويصل نفعها إلى من فعلت عنه واختلفوا في الأعمال البدنية كالصلاة والصيام وقيل إن هذه الآية منسوخة بقوله ألحقنا بهم ذريتهم والصحيح أنها محكمة لأنها خبر والأخبار لا تنسخ وفي تأويلها ثلاثة أقوال الأول أنها إخبار عما كان في شريعة غيرنا فلا يلزم في شريعتنا الثاني أن للإنسان ما عمل بحق وله ما عمل له غيره بهبة العامل له فجاءت الآية في إثبات الحقيقة دون ما زاد عليها الثالث أنها في الذنوب وقد اتفق أنه لا يحتمل أحد ذنب أحد ويدل على هذا قوله بعدها ألا تزر وازرة وزر أخرى وكأنه يقول لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ولا يؤاخذ إلا بذنب نفسه وأن سعيه سوف يرى قيل معناه يراه الخلق يوم القيامة والأظهر أنه صاحبه لقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره وأن إلى ربك المنتهى فيه قولان أحدهما أن معناه إلى الله المصير في الآخرة والآخر أن معناها أن العلوم تنتهي إلى الله ثم يقف العلماء عند ذلك وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا فكرة في الرب وأنه هو أضحك وأبكى قيل معناه أضحك أهل الجنة وأبكى أهل

النار وهذا تخصيص لا دليل عليه وقيل أبكى السماء بالمطر وأضحك الأرض بالنبات وهذا مجاز وقيل خلق في بني آدم الضحك والبكاء والصحيح أنه عبارة عن الفرح والحزن لأن الضحك دليل على السرور والفرح كما أن البكاء دليل على الحزن فالمعنى أن الله تعالى أحزن من شاء من عباده وأسر من شاء وأمات وأحيا يعني الحياة المعروفة والموت المعروف وقيل أحيا بالإيمان وأمات بالكفر والأول أرجح لأنه حقيقة من نطفة يعني المني إذا تمنى من قولك أمنى الرجل إذا خرج منه المني النشأة الأخرى يعني الإعادة للحشر وتمنى يعني أكسب عباده المال وهو من قنية المال وهو كسبه وادخاره وقيل معنى أقنى أفقر وهذا لا تقتضيه اللغة وقيل معناه أرضى وقيل قنع عبده الشعرى نجم في السماء وتسمى كلب الجبار وهما شعريان وهما الغميصاء والعبور وخصها بالذكر دون سائر النجوم لأن ... 672

---

79 بعض العرب كان يعبدها عادا الأولى وصفها بالأولى لآنها كانت في قديم الزمان فهي الأولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة وقيل أنما سميت أولى لأن ثم عادا أخرى متأخرة وهذا لا يصح وقرأ نافع عادا الأولى بإدغام تنوين عاد في لام الأولى بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام وضعف المزنى والمبرد هذه القراءة وهمز قالون الأولى دون ورش وقرأ الباقون على الأصل بكسر تنوين عادا وإسكان لام الأولى وثمود فما أبقى أي ما أبقى منهم أحدا وقيل ما أبقى عليهم والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى هي مدينة قوم لوط ومعنى أهوى

طرحها من علو إلى أسفل وفي قوله ما غشى تعظيم للأمر فبأي آلاء ربك تتمارى هذا مخاطبة للإنسان على الإطلاق معناه بأي نعم ربك تشك هذا نذير من النذر الأولى يعني القرآن أو النبي صلى الله عليه وسلم ومعنى من النذر الأولى من نوعها وصفتها أزفت الآزفة أي قربت القيامة كاشفة يحتمل لفظة ثلاثة أوجه أن يكون مصدرا كالعافية أي ليس لها كشف وأن يكون بمعنى كاشف والتاء للمبالغة كعلامة وأن يكون صفة لمحذوف تقديره نفس كاشفة أو جماعة كاشفة ويحتمل معناه وجهين أحدهما أن يكون من الكشف بمعنى الإزالة أي ليس لها من يزيلها إذا وقعت والآخر أن يكون بمعنى الاطلاع أي ليس لها من يعلم وقتها إلا الله أفمن هذا الحديث تعجبون الإشارة إلى القرآن وتعجبهم منه إنكاره وأنتم سامدون أي لاعبون لاهون وقيل غافلون مفرطون فاسجدوا لله واعبدوا هذا موضع سجدة عند الشافعي وغيره وقد قال ابن مسعود قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسجد وسجد كل من كان معه سورة القمر
اقتربت الساعة أي قربت القيامه ومعنى قربها أنها بقي لها من الزمان قليل بالنسبة إلى ما مضى ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعه كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى وانشق القمر هذا إخبار بما جرى في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم

وذلك أن قريشا سألته آية فأراهم انشقاق القمر فقال صلى الله عليه وسلم اشهدوا وقال ابن مسعود انشق القمر فرأيته فرقتين فرقة وراء الجبل وأخرى دونه وقيل معنى انشق القمر أنه ينشق يوم القيامة وهذا قول باطل ترده الأحاديث الصحيحة الواردة بانشقاق القمر وقد اتفقت الأمة على وقوع ذلك وعلى تفسير الآية بذلك إلا من لا يعتبر
قوله وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر هذه الضمائر لقريش والآية المشار إليها انشقاق القمر وعند ذلك قالت ... 673

---

80 قريش سحر محمد القمر ومعنى مستمر دائم وقيل معناه ذاهب يزول عن قريب وقيل شديد وهو على هذا المعنى من المرة وهي القوة وكل أمر مستقر أي كل شئ لا بد له من غاية فالحق يحق والباطل يبطل ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر الأنباء هنا يراد بها ما ورد في القرآن من القصص والبراهين والمواعظ ومزدجر اسم مصدر بمعنى الازدجار أو اسم موضع بمعنى أنه مظنة أن يزدجر به حكمة بالغة بدل من ما فيه أو خبر ابتداء مضمر فما تغن النذر يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية لمعنى الاستبعاد والإنكار فتول عنهم أي أعرض عنهم لعلمك أن الإنذار لا ينفعهم يوم يدع الداع إلى شئ نكر العامل في يوم مضمر تقديره اذكر أو قوله يخرجون بعد ذلك وليس العامل فيه تول عنهم لفساد المعنى فقد تم الكلام في قوله تول عنهم فيوقف عليه وقيل المعنى تول عنهم أي يوم يدع الداع والأول أظهر وأشهر والداعي جبريل أو إسرافيل إذ

ينفخ في الصور والشئ النكر الشديد الفظيع وأصله من الإنكار أي هو منكور لأنه لم يرقط مثله والمراد به يوم القيامة خشعا أبصارهم كناية عن الذلة وانتصب خشعا على الحال من الضمير في يخرجون يخرجون من الأجداث أي من القبور كأنهم جراد منتشر شبههم بالجراد في خروجهم من الأرض فكأنه استدلال على البعث كالاستدلال بخروج النبات وقيل إنما شبههم بالجراد في كثرتهم وأن بعضهم يموج في بعض مهطعين أي مسرعين وقيل ناظرين إلى الداع فكذبوا عبدنا يعني نوح عليه السلام ووصفه هنا بالعبودية تشريفا له واختصاصا وازدجر أي زجروه بالشتم والتخويف وقالوا له لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين فدعا ربه أني مغلوب فانتصر أي قد غلبني الكفار فانتصر لي أو انتصر لنفسك وقالت المتصوفة معناه قد غلبتني نفسي حين دعوت على قومي فانتصر مني وهذا بعيد ضعيف ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر عبارة عن كثرة المطر فكأنه يخرج من

أبواب وقيل فتحت في السماء أبواب يومئذ حقيقة والمنهمر الكثير فالتقى الماء ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدر أي قد قضى في الأزل ويحتمل أن يكون المعنى أنه قدر بمقدار معلوم وروى في ذلك أنه علا فوق الأرض أربعين ذراعا وحملناه على ذات ألواح ودسر يعني السفينة والدسر هي المسامير واحدها دسار وقيل هي مقادم السفينة وقيل أضلاعها والأول أشهر تجرى بأعيننا عبارة عن حفظ الله ورعيه لها جزاء لمن كان كفر أي جزاء لنوح وقيل جزاء لله تعالى والأول أظهر وانتصب جزاء على أنه مفعول من أجله والعامل فيه ما تقدم من فتح أبواب السماء وما بعده من الأفعال ... 674

---

81 أي جعلنا ذلك كله جزاء لنوح ويحتمل أن يكون قوله كفر من الكفر بالدين والتقدير لمن كفر به فحذف الضمير أو يكون من الكفر بالنعمة لأن نوحا عليه السلام نعمة من الله كفرها قومه فلا يحتاج على هذا إلى الضمير المحذوف ولقد تركناها آية الضمير للقصة المذكورة أو الفعلة أو السفينة وروى في هذا المعنى أنها بقيت على الجودى حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة فهل من مدكر تحضيض على الادكار فيه ملاطفة جميلة من الله لعباده ووزن مدكر مفتعل وأصله مدتكر ثم أبدل من التاء دالا وأدغمت فيها الدال فكيف كان عذابي ونذر توقيف فيه تهديد لقريش والنذر جمع نذير ولقد يسرنا القرآن للذكر أي يسرناه للحفظ وهذا معلوم بالمشاهدة فإنه يحفظه الأطفال الأصاغر وغيرهم حفظا بالغا بخلاف غيره من الكتب وقد روى أنه لم يحفظ شئ من كتب الله عن ظهر قلب إلا القرآن وقيل معنى الآية سهلناه للفهم والاتعاظ به لما تضمن من البراهين والحكم البليغة وإنما كرر هذه الآية البليغة وقوله فذوقوا عذابي ونذر لينبه السامع عند كل قصة فيعتبر بها إذ كل قصة من القصص التي ذكرت عبرة وموعظة فختم كل واحدة بما يوقظ السامع من الوعيد في قوله فكيف كان عذابي ونذر ومن الملاطفة في قوله ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر

ريحا صرصرا أي مصوتة فهو من الصرير يعني الصوت وقيل معناه باردة فهو من الصر يوم نحس مستمر روى أنه كان يوم أربعاء حتى رأى بعضهم أن كل يوم أربعاء نحس وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال آخر أربعاء من الشهر يوم نحس مستمر تنزع الناس أي تقلعهم من مواضعهم كأنهم أعجاز نخل منقعر أعجاز النخل هي أصولها والمنقعر المنقطع فشبه الله عادا لما هلكوا بذلك لأنهم طوال عظام الأجساد كالنخل وقيل كانت الريح تقطع رؤسهم فتبقى أجسادا بلا رؤوس فشبههم بأعجاز النخل لأنها دون أغصان وقيل كانوا حفروا حفرا يمتنعون بها من الريح فهلكوا فيها فشبههم

بأعجاز النخل إذا كانت في حفرها أبشر هو صالح عليه السلام وانتصب بفعل مضمر والمعنى أنهم أنكروا أن يتبعوا بشرا وطلبوا أن يكون الرسول من الملائكة ثم زادوا أن أنكروا أن يتبعوا واحدا وهم جماعة كثيرون وسعر أي عناد وقيل معناه جنون وقيل معناه هم و غم وأصله من السعير بمعنى النار وكأنه احتراق النفس بالهم ءألقى الذكر عليه من بيننا أنكروا أن يخصه الله بالنبوة دونهم وذلك جهل منهم فإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء أشر بطر متكبر ونبئهم أن الماء قسمه بينهم أي لهم يوم وللناقة يوم من غير أن يتعدوا على الناقة فالضمير في نبئهم يعود على ثمود وعلى الناقة تغليبا للعقلاء وقيل إن الضمير لثمود والمعنى لا يتعدى بعضهم على بعض كل شرب محتضر أي مشهود فنادوا صاحبهم يعني عاقر الناقة واسمه قدار ... 675

---

82 وهو أحيمر ثمود وأشقاها فتعاطى أي اجترأ على أمر عظيم وهو عقر الناقة وقيل تعاطى السيف صيحة واحدة صاح بها جبريل صيحة فماتوا منها فكانوا كهشيم المحتظر الهشيم هو ما تكسر وتفتت من الشجر وغيرها والمحتظر الذي يعمل الحظيرة وهي حائط من الأغصان أو القصب ونحو ذلك أو يكون تحليقا للمواشي أو السكنى فشبه الله ثمود لما هلكوا بما يتفتت من الحظيرة من الأوراق وغيرها وقيل المحتظر المحترق حاصبا ذكر في العنكبوت فتماروا بالنذر تشككوا ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم الضيف هنا هم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى لوط ليهلكوا قومه وكان قومه قد ظنوا أنهم من بني آدم وأرادوا منهم الفاحشة فطمس الله على أعينهم فاستوت مع وجوههم وقيل إن الطمس عبارة عن عدم رؤيتهم لهم وأنهم دخلوا منزل لوط فلم يروا فيه أحدا أكفاركم خير من أولائكم هذا خطاب لقريش على وجه التهديد والهمزة للإنكار ومعناه هل الكفار منكم خير عند الله من الكفار المتقدمين المذكورين بحيث أهلكناهم لما كذبوا الرسل وتنجون أنتم وقد كذبتم رسلكم بل الذي أهلكهم يهلككم أم لكم براءة في الزبر معناه أم لكم في كتاب الله براءة من العذاب أم يقولون نحن جميع منتصر أي نحن نجتمع وننتصر لأنفسنا بالقتال سيهزم الجمع ويولون الدبر هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيهزم جمع قريش وقد ظهر ذلك يوم بدر وفتح مكة إن المجرمين في ضلال

وسعر المراد بالمجرمين هنا الكفار وضلالهم في الدنيا والسعر لهم في الآخرة وهو الاحتراق وقيل أراد بالمجرمين القدرية لقوله في الرد عليهم إنا كل شئ خلقناه بقدر والأول أظهر يسحبون في النار أي يجرون فيها إنا كل شئ خلقناه بقدر المعنى أن الله خلق كل شئ بقدر أي بقضاء معلوم سابق في الأزل ويحتمل أن يكون معنى بقدر بمقدار في هيئته وصفته وغير ذلك والأول أرجح وفيه حجة لأهل السنة على القدرية وانتصب كل شئ بفعل مضمر

يفسره خلقناه وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر عبارة عن سرعة التكوين ونفوذ أمر الله والواحدة يراد بها الكلمة وهي ... 676
83 قوله كن ولقد أهلكنا أشياعكم يعني أشياعكم من الكفار وكل شئ فعلوه في الزبر أي كل ما فعلوه مكتوب في صحائف الأعمال مستطر أي مكتوب وهو من السطر تقول سطرت واستطرت بمعنى واحد والمراد الصغير والكبير من أعمالهم وقيل جميع الأشياء ونهر يعني أنهار الماء والخمر واللبن والعسل واكتفى باسم الجنس في مقعد صدق أي في مكان مرضي
سورة الرحمن عز وجل
الرحمن علم القرآن
هذا تعديد نعمة على من علمه الله القرآن وقيل معنى علم القرآن جعله علامة وآية لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والأول أظهر وارتفع الرحمن بالابتداء والأفعال التي بعده أخبار متواليه ويدل على ذلك مجيئها بدون حرف عطف خلق الإنسان قيل جنس الناس وقيل يعني آدم وقيل يعني سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولا دليل على التخصيص والأول أرجح علمه البيان يعني النطق والكلام الشمس والقمر بحسبان أي يجريان في الفلك بحسبان معلوم وترتيب مقدر وفي ذلك دليل على الصانع الحكيم المريد القدير والنجم والشجر يسجدان النجم عند ابن عباس النبات الذي لا ساق له كالبقول والشجر النبات الذي له ساق وقيل النجم جنس نجوم السماء والسجود عبارة عن التذلل والانقياد لله تعالى وقيل سجود الشمس غروبها وسجود الشجر ظله ووضع الميزان يعني الميزان المعروف الذي يوزن به الطعام وغيره وكرر ذكره اهتماما به وقيل أراد العدل ولا تخسروا الميزان أي لا تنقصوا إذا وزنتم للأنام أي للناس وقيل الإنس والجن وقيل الحيوان كله الأكمام يحتمل أن يكون جمع كم بالضم وهو ما يغطي ويلف النخل من الليف وبه شبه كم القميص أو يكون جمع كم بكسر الكاف وهو غلاف الثمرة العصف ورق الزرع وقيل التين والريحان قيل هو الريحان المعروف وقيل كل مشموم

طيب الريح من النبات وقيل هو الرزق فبأي آلاء ربكما تكذبان الآلاء هي النعم واحدها إلى على وزن معي وقيل إلى على وزن قضى وقيل ألى على وزن أمد أو على وزن حصر والخطاب للثقلين الإنس والجن بدليل قوله سنفرغ لكم أيها الثقلان روى أن هذه الآية لما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت

أصحابه فقال جواب الجن خير من سكوتكم إني لما قرأتها على الجن قالوا لا نكذب بشئ من آلاء ربنا وكرر هذه الآية تأكيدا ومبالغة وقيل إن كل موضع منها يرجع إلى معنى الآية التي قبله فليس ... 677

---

84 بتأكيد لأن التأكيد لا يزيد على ثلاث مرات
خلق الإنسان من صلصال كالفخار الإنسان هو آدم والصلصال الطين اليابس فإذا طبخ فهو فخار وخلق الجان من مارج من نار الجان الجن يعني إبليس والد الجن والمارج اللهيب المضطرب من النار رب المشرقين ورب المغربين يريد مشرق الشمس والقمر ومغرب الشمس والقمر وقيل مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما مرج البحرين يلتقيان ذكر في الفرقان أي يلتقي ماء هذا وماء هذا وذلك إذا نزل المطر في البحر على القول بأن البحر العذب هو المطر وأما على القول بأن البحر العذب هو الأنهار والعيون فالتقاؤهما بانصباب الأنهار في البحر وأما على قول من قال إن االبحرين بحر فارس وبحر الروم أو بحر القلزم واليمن فضعيف لقوله في الفرقان هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وكل واحد من هذه أجاج والمراد بالبحرين في هذه السورة ما أراد في الفرقان بينهما برزخ أي حاجز يعني جرم الأرض أو حاجز من قدرة الله لا يبغيان أي لا يبغى أحدهما على الآخر بالاختلاط وقيل لا يبغيان على الناس بالفيض يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان اللؤلؤ كبار الجوهر والمرجان صغاره وقيل بالعكس وقيل إن المرجان أحجار حمر قال ابن عطية وهذا هو الصواب وأما قوله منهما ولا يخرج إلا من أحدهما فقد تكلمنا عليه في فاطر وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام يعني السفن وسماها منشآت لأن الناس ينشؤنها وقرئ بكسر الشين بمعنى أنها تنشئ السير أو تنشئ الموج والأعلام الجبال شبه السفن بها كل من عليها فان الضمير في عليها للأرض يدل على ذلك سياق الكلام وإن لم يتقدم لها ذكر ويعني بمن عليها بني آدم وغيرهم من الحيوان ولكنه غلب العقلاء ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام الوجه هنا عبارة عن الذات وذو الجلال صفة الذات لأن من أسمائه تعالى الجليل ومعناه يقرب من معنى العظيم وأما وصفه بالإكرام فيحتمل أن يكون بمعنى أنه يكرم عباده كما قال

ولقد كرمنا بني آدم أو بمعنى أن عباده يكرمونه بتوحيده وتسبيحه وعبادته يسأله من في السموات والأرض المعنى أن كل من في السموات والأرض يسأل حاجته من الله فمنهم من يسأله بلسان المقال وهم المؤمنون ومنهم من يسأله بلسان الحال لافتقار الجميع إليه كل يوم هو في شأن المعنى أنه تعالى يتصرف في ملكوته تصرفا يظهر في كل يوم من العطاء والمنع والإماتة والإحياء وغير ذلك وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها فقيل له وما ذلك الشأن قال من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين وسئل بعضهم كيف قال كل يوم هو في شأن والقلم قد جف بما هو

كائن إلى يوم القيامة فقال هو في شأن يبديه لا في شأن يبتديه سنفرغ لكم أيه الثقلان معناه الوعيد كقولك لمن تهدده سأفرغ لعقوبتك وليس المراد التفرغ من ... 678

---

85 شغل ويحتمل أن يريد انتهاء مدة الدنيا وإنه حينئذ ينقضي شأنها فلا يبقى إلا شأن الآخرة فعبر عن ذلك بالتفرغ قال جعفر بن محمد سمى الإنس والجن ثقلين كأنهما ثقلا بالذنوب إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا هذا كلام يقال للجن والإنس يوم القيامة أي إن قدرتم على الهروب والخروج من أقطار السموات والأرض فافعلوا وروى أنهم يفرون يومئذ لما يرون من أهوال القيامة فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أحاطت بالأرض فيرجعون وقيل بل خوطبوا بذلك في الدنيا والمعنى إن استطعتم الخروج عن قهر الله وقضائه عليكم فافعلوا وقوله فانفذوا أمر يراد به التعجيز لا تنفذون إلا بسلطان أي لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وليس لكم قوة يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس الشواظ لهيب النار والنحاس الدخان وقيل هو الصفر يذاب ويصب على رؤسهم وقرئ شواظ بضم الشين وكسرها وهما لغتان وقرئ نحاس بالرفع عطف على شواظ وبالخفض عطف على نار فإذا انشفت السماء جواب إذا قوله فيومئذ وقال ابن عطية جوابها محذوف فكانت وردة كالدهان معنى وردة حمراء كالوردة وقيل هو من الغرس الورد قال قتادة السماء اليوم خضراء ويوم القيامة حمراء و الدهان جمع دهن كالزيت وشبهه شبه السماء يوم القيامة به لأنها تذاب من شدة الهول وقيل يشبه لمعانها بلمعان الدهن وقيل إن الدهان هو الجلد الأحمر فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان السؤال المنفي هنا هو على وجه الاستخبار وطلب المغفرة إذ لا يحتاج إلى ذلك لأن المجرمين يعرفون بسيماهم ولأن أعمالهم معلومة عند الله مكتوبة في صحائفهم وأما السؤال الثابت في قوله فوربك لنسألنهم أجمعين وغيره فهو سؤال على وجه الحساب والتوبيخ فلا تعارض بين المنفي والمثبت وقيل إن ذلك باختلاف المواطن والأول أحسن يعرف المجرمون بسيماهم يعني بعلامتهم وهي سواد الوجوه وغير ذلك والمجرمون هنا الكفار بدليل قوله هذه جهنم التي

يكذب بها المجرمون فيؤخذ بالنواصي والأقدام قيل معناه يؤخذ بعض الكفار بناصيته وبعضهم بقدميه وقيل بل يؤخذ كل واحد بناصيته وقدميه فيطوى ويطرح في النار يطوفون بينها وبين حميم آن الحميم الماء السخن والآن الشديد الحرارة وقيل الحاضر من قولك آن الشئ إذا حضر والأول أظهر ولمن خاف مقام ربه جنتان مقام ربه القيام بين يديه للحساب ومنه يوم يقوم الناس لرب العالمين وقيل قيام الله بأعماله ومنه أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وقيل معناه لمن خاف ربه وأقحم المقام كقولك خفت جانب فلان واختلف ... 679

86 هل الجنتان لكل خائف على انفراده أو للصنف الخائف وذلك مبني على قوله لمن خاف مقام ربه هل يراد به واحد أو جماعة وقال الزمخشري إنما قال جنتان لأنه خاطب الثقلين فكأنه قال جنة للإنس وجنة للجن ذواتا أفنان ثنى ذات هنا على الأصل لأن أصله ذوات قاله ابن عطية والأفنان جمع فنن وهو الغصن أو جمع فن وهو الصنف من الفواكه وغيرها من كل فاكهة زوجان أي نوعان وجنا الجنتين دان الجنا هو ما يجتنى من الثمار ودان قريب وروى أن الإنسان يجتني الفاكهة في الجنة على أي حال كان من قيام أو قعود أو اضطجاع لأنها تتدلى له إذا أرادها وفي قوله جنا الجنتين ضرب من ضروب التجنيس قاصرات الطرف ذكر في الصافات
لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان المعنى أنهن أبكار ولم يطمثهن معناه لم يفتضهن وقبل الطمث الجماع سواء كان لبكر أو غيرها ونفى أن يطمثهن إنس أو جان مبالغة وقصدا للعموم فكأنه قال لم يطمثهن شئ وقيل أراد لم يطمث نساء الإنس إنس ولم يطمث نساء الجن جن وهذا القول بأن الجن يدخلون الجنة ويتلذذون فيها بما يتلذذ البشر كأنهن الياقوت والمرجان شبه النساء بالياقوت والمرجان في الحمرة والجمال وقد ذكرنا المرجان في أول السورة هل جزاء الإحسان إلا الإحسان المعنى أن جزاء من أحسن بطاعة الله أن يحسن الله إليه بالجنة ويحتمل أن يكون الإحسان هنا هو الذي سأل عنه جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وذلك هو مقام المراقبة والمشاهدة فجعل جزاء ذلك الإحسان بهاتين الجنتين ويقوى هذا أنه جعل هاتين الجنتين الموصوفتين هنا لأهل المقام العلى وجعل جنتين دونها لمن كان دون ذلك فالجنتان االمذكورتان أولا للسابقين والجنتان المذكورتين ثانيا بعد ذلك لأصحاب اليمين حسبما ورد في الواقعة وانظر كيف جعل أوصاف هاتين الجنتين أعلى من أوصاف الجنتين اللتين بعدهما فقال هنا عينان تجريان وقال

في الآخرتين عينان نضاختان والجرى أشد من النضخ وقال هنالك من كل فاكهة زوجان وقال هنا فاكهة ونخل ورمان وكذلك صفة الحور هنا أبلغ من صفتها هنالك وكذلك صفة البسط ويفسر ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم جنتان من ذهب آنيتهما وكل ما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وكل ما فيهما مدهامتان أي تضربان إلى السواد من شدة الخضرة عينان نضاختان أي تفوران بالماء والنضخ بالخاء المعجمة أشد من النضخ بالحاء المهملة فاكهة ونخل ... 680

87 ورمان) خص النخل والرمان بالذكر بعد دخولهما في الفاكهة تشريفا لهما وبيانا لفضلهما على سائر الفواكه وهذا هو التجريد
خيرات حسان
خيرات جمع خيرة وقال الزمخشري وغيره أصله خيرات بالتشديد ثم خفف كميت وقرئ بالتشديد قالت أم سلمة يا رسول الله أخبرني عن قوله تعالى خيرات حسان قال خيرات الأخلاق حسان الوجوه حور مقصورات في الخيام الحور جمع حوراء والمقصورات المحجوبات لأن النساء يمدحن بملازمة البيوت ويذممن بكثرة الخروج والخيام هي البيوت التي من الخشب والحشيش ونحو ذلك وخيام الجنة من اللؤلؤ متكئين على رفرف خضر الرفرف البسط وقيل الوسائد وقيل رياض الجنة وعبقري حسان العبقري الطنافس وقيل الزرابي وقيل الديباج الغليظ وهو منسوب إلى عبقري وتزعم العرب أنه بلد الجن فإذا أعجبتها شئ نسبته إليه تبارك اسم ربك ذكر تبارك في الفرقان وغيرها والاسم هنا يراد به المسمى على الأظهر وقرأ الجمهور ذي الجلال بالياء صفة لربك وقرأ ابن عامر بالواو صفة للاسم وقد ذكر معنى ذي الجلال والإكرام
سورة الواقعة
روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبدا ولما حضرت ابن مسعود الوفاة قيل له ما تركت لبناتك قال تركت لهن سورة الواقعة إذا وقعت الواقعة يعني إذا قامت القيامة فالواقعة اسم من أسماء القيامة تدل على هو لها كالطامة والصاخة وقيل الواقعة الصيحة وهي النفخة في الصور وقيل الواقعة صخرة بيت المقدس تقع يوم القيامة وهذا بعيد ليس لوقعتها كاذبة يحتمل ثلاثة أوجه الأول أن تكون الكاذبة مصدر كالعافية والمعنى ليس لها كذب ولا رد الثاني أن تكون كاذبة صفة محذوف كأنه قال ليس لها حالة كاذبة أي هي صادقة الوقوع ولا بد وهذا المعنى قريب من الأول الثالث أن يكون التقدير ليس لها نفس كاذبة أي تكذيب في إنكار البعث لأن كل نفس تؤمن حينئذ خافضة رافعة تقديره هي خافضة رافعة

فينبغي أن يوقف على ما قبله لبيان المعنى والمراد بالخفض والرفع أنها تخفض أقواما إلى النار وترفع أقواما إلى الجنة وقيل ذلك عبارة عن هولها لأن السماء تنشق والأرض تتزلزل وتمر والجبال تنسف فكأنها تخفض بعض هذه الأجرام وترفع بعضها إذا رجت الأرض رجا أي زلزلت وحركت تحريكا شديدا وإذا هنا بدل من إذا ... 681
88 وقعت ويحتمل أن يكون العامل فيه خافضة رافعة وبست الجبال بسا أي فتتت وقيل سيرت هباء منبثا الهباء ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ولا تكاد ترى إلا في الشمس إذا دخلت على كوة قاله ابن عباس وقال علي بن أبي طالب هو ما تطاير من حوافر الدواب من التراب وقيل ما تطاير من شررالنار فإذا طفى لم يوجد شيئا والمنبث المتفرق وكنتم أزواجا ثلاثة هذا خطاب لجميع الناس لأنهم ينقسمون يوم القيامة إلى هذه الأصناف الثلاثة وهم السابقون وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فأما السابقون فهم أهل الدرجات العلا في الجنة وأما أصحاب اليمين فهم سائر أهل الجنة وأما أصحاب الشمال فهم أهل

النار فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة هذا ابتداء خبر فيه معنى التعظيم كقولك زيد ما زيد والميمنة يحتمل أن تكون مشتقة من اليمن وهو ضد الشؤم وتكون المشأمة به مشتقة من الشؤم أو تكون الميمنة من ناحية اليمين والمشأمة من ناحية الشمال واليد الشؤمى هي الشمال وذلك لأن العرب تجعل الخير من اليمين والشر من الشمال أو لأن أهل االجنة يحملون إلى جهة اليمين وأهل النار يحملون إلى جهة الشمال أو يكون من أخذ الكتاب باليمين أو الشمال والسابقون السابقون الأول مبتدأ والثاني خبره على وجه التعظيم كقولك أنت أنت أو على معنى أن السابقين إلى طاعة الله هم السابقون إلى الجنة وقيل إن السابقون الثاني صفة للأول أو تأكيد والخبر أولئك المقربون والأرجح أن يكون الثاني خبر الأول لأنه في مقابلة قوله أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما

أصحاب المشأمة وعلى هذا يوقف على السابقون الثاني ويبتدئ بما بعده ثلة من الأولين وقليل من الآخرين الثلة الجماعة من الناس فالمعنى أن السابقين من الأولين أكثر من السابقين من الآخرين والأولون هم أول هذه الأمة والآخرون المتأخرون من هذه الأمة والدليل على ذلك ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الفرقتان في أمتي وذلك لأن صدر هذه الأمة خير ممن بعدهم فكثر السابقون من السلف الصالح وقلوا بعد ذلك ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم وقيل إن الفرقتين في أمة كل نبي فالسابقون في كل أمة يكثرون في أولها ويقلون في آخرها وقيل أن الأولين هم من كان قبل هذه الأمة والآخرين هم هذه الأمة فيقتضي هذا أن السابقين من الأمم المتقدمة أكثر من السابقين من هذه الأمة وهذا بعيد وقيل إن السابقين يراد بهم الأنبياء لأنهم كانوا في أول الزمان أكثر مما كانوا في آخره على سرر موضونة السرر جمع سرير والموضونة المنسوجة وقيل المشبكة بالدر والياقوت وقيل معناه متواصلة قد أدنى بعضها من بعض متقابلين أي وجوه بعضهم إلى بعض ولدان مخلدون الولدان صغار الخدم والمخلدون الذين لا يموتون وقيل المقرطون بالخلدات وهي ضرب من الإفراط والأول أظهر بأكواب وأباريق الأكواب جمع كوب وهو الإناء وهو الذي لا أذن له ولا خرطوم يمسك به والأباريق جمع إبريق وهو الإناء الذي له خرطوم أو أذن يمسك وكأس من معين ذكر في الصافات ... 682

---

89 لا يصدعون عنها ولا ينزفون أي لا يلحق رءوسهم الصداع الذي يصيب من خمر الدنيا وقيل لا يفرقون عنها فهو من الصدع وهو الفرقة ومعنى لا ينزفون لا يسكرون وفاكهة مما يتخيرون قيل يتخيرون ما شاؤا لكثرتها وقيل مخيرة مرضية وحور عين قدمنا معناه وقرئ بالرفع على تقدير فيها حور أو عطف على الضمير في متكئين أو على ولدان وبالخفض عطف على المعنى كأنه قال ينعمون بهذا كله وبحور عين وقيل خفض على الجوار كامثال اللؤلؤ المكنون

شبههن باللؤلؤ في البياض ووصفه بالمكنون لأنه أبعد عن تغيير حسنه وسألت أم سلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا التشبيه فقال صفاؤهن كصفاء الدر في الأصداف الذي لا تمسه الأيدي لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما اللغو الكلام الساقط كالفحش وغيره والتأثيم مصدر بمعنى لا يؤثم أحد هناك نفسه ولا غيره إلا قيلا سلاما سلاما انتصب سلاما على أنه بدل من قيلا أو صفة له أو مفعول به لقيلا لأن معناه قولا ومعنا السلام على هذا التحية والمعنى أنهم يفشون السلام فيسلمون سلاما بعد سلام ويحتمل أن يكون معناه السلامة فينتصب بفعل مضمر تقديره أسلموا سلاما وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين هذا مبتدأ وخبره قصد به التعظيم فيوقف عليه ويبتدأ بما بعده ويحتمل أن يكون الخبر في سدر ويكون ما أصحاب اليمين اعتراضا والأول أحسن وكذلك إعراب أصحاب الشمال في سدر مخضود السدر شجر معروف قال ابن عطية هو الذي يقال له شجر أم غيلان وهو كثير في بلاد المشرق وهي في بعض بلاد الأندلس دون بعض والمخضود الذي لا شوك له كأنه خضد شوكه وذلك أن سدر الدنيا له شوك فوصف سدر الجنة بضد ذلك وقيل المخضود هو الموقر الذي انثنت أغصانه من كثرة حمله فهو على هذا من خضد الغصن إذا ثناه وطلح منضود الطلح شجر عظيم كثير الشوك قاله ابن عطية وقال الزمخشري هو شجر الموز وحكى ابن عطية هذا عن علي بن أبي طالب وابن عباس وقرأ علي بن أبي

طالب وطلع منضود بالعين فقيل له إنما هو وطلح بالحاء فقال ما للطلح والجنة فقيل له أنصلحها في المصحف فقال المصحف اليوم لا يغير والمنضود الذي تنضد بالثمر من أعلاه إلى أسفله حتى لا يظهر له ساق وظل ممدود أي منبسط لا يزول لأنه لا تنسخه الشمس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها اقرؤا إن شئتم وظل ممدود وماء مسكوب أي مصبوب وذلك عبارة عن كثرته وقيل المعنى أنه جار في غير أخاديد وقيل المعنى أنه يجري من غير ساقية ولا دلو ولا تعب لا مقطوعة ولا ممنوعة أي لا ينقطع إبانها كفاكهة الدنيا فإن شجر الجنة يثمر في كل وقت ولا تمتنع ببعد تناولها ولا بغير ذلك من وجوه المنع وفرش مرفوعة هي الأسرة وقد روى ارتفاع السرير منها مسيرة خمسمائة عام وقيل هي النساء وهذا بعيد إنا أنشأناهن الضمير لنساء الجنة فإن سياق الكلام يقتضي ذلك وإن لم يتقدم ذكرهن ولكن تقدم ذكر الفرش ... 683

---

90 وهي تدل على النساء وأما من قال إن الفرش هي النساء فالضمير عائد عليها وقيل يعود على الحور العين المذكورة قبل هذا وذلك بعيد فإن ذلك في وصف جنات السابقين وهذا في وصف جنات أصحاب اليمين ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقا آخر في غاية الحسن بخلاف الدنيا فالعجوز ترجع شابة والقبيحة ترجع حسنة فجعلناهن أبكارا روى أنهن دائمات

البكارة متى عاود الوطء وجدها بكرا عربا جمع عروب وهي المتوددة إلى زوجها بإظهار محبته وعبر عنهن ابن عباس بأنهن العواشق لأزواجهن وقيل هي الحسنة الكلام أترابا لأصحاب اليمين أي مستويات في السن مع أزواجهن وروى أنهن يكونون في سن أبناء ثلاث وثلاثين عاما ولأصحاب اليمين يتعلق بقوله أنشأناهن على ما قاله الزمخشري ويحتمل أن يتعلق بأترابا وهذا هو الذي يقتضيه المعنى أي أترابا لأزواجهن ثلة من الأولين وثلة من الآخرين أي جماعة من أول هذه الأمة وجماعة من آخرها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الفرقنان من أمتي وفي ذلك رد على من قال إنهما من غير هذه الأمة وتأمل كيف جعل أصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين بخلاف السابقين فإنهم قليل في الآخرين وذلك لأن السابقين في أول هذه الأمة أكثر منهم في آخرها لفضيلة السلف الصالح وأما أصحاب اليمين فكثير في أولها وآخرها في سموم وحميم وظل من يحموم السموم الحر الشديد والحميم الماء الحار جدا واليحموم هو الأسود وظل من يحموم هو الدخان في قول الجمهور وقيل سرادق النار المحيط بأهلها فإنه يرتفع من كل جهة حتى يظلهم وقيل هو جبل في جهنم وكانوا يصرون على الحنث العظيم معنى يصرون يدومون من غير إقلاع والحنث هو الإثم وقيل هو الشرك وقيل هو الحنث في اليمين أو اليمين الغموس أئذا متنا الآية معناها أنهم أنكروا البعث بعد الموت وقد ذكرنا قراءة الاستفهامين في الرعد وآباؤنا في الصافات أيها الضالون خطابا

لكفار قريش وسائر الكفار فشاربون عليه الضمير للمأكول فشاربون شرب الهيم وزن الهيم فعل بضم الفاء وكسرت الهاء لأجل الياء وهو جمع أهيم وهو الجمل الذي أصابه الهيام بضم الهاء وهو داء معطش يشرب معه الجمل حتى يموت أو يسقم والأنثى هيماء وقيل جمع هائم وهائمة وقيل الهيم الرمال التي لا تروى من الماء وهو على هذا جمع هيام بفتح الهاء وقرئ شرب بضم الشين واختلف هل هو مصدر أو اسم المشروب وقرئ بالفتح وهو مصدر فإن قيل كيف عطف قوله فشاربون على شاربون ومعناهما واحد فالجواب أن المعنى مختلف لأن الأول يقتضي الشرب مطلقا والآخر يقتضي الشرب الكثير المشبه لشرب الهيم هذا نزلهم النزل أول ما يأكله الضيف فكأنه يقول هذا أول عذابهم فما ظنك بسائره فلولا تصدقون تحضيض على التصديق إما بالخالق تعالى وإما بالبعث لأن ... 684

---

91 الحلقة الأولى دليل عليه أفرأيتم ما تمنون هذه الآية وما بعدها تتضمن إقامة براهين على الوحدانية وعلى البعث وتتضمن أيضا وعيد وتعديد نعم ومعنى تمنون تقذفون المني في رحم المرأة أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون هذا توقيف يقتضي أن يجيبوا عليه بأن الله هو الخالق لا إله إلا هو نحن قدرنا بينكم الموت أي جعلناه مقدرا بآجال معلومة وأعمار منها طويل وقصير

ومتوسط وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون المسبوق على الشئ هو المغلوب عليه بحيث لا يقدر عليه ونبدل أمثالكم معناه نهلككم ونستبدل قوما غيركم وقيل نمسخكم قردة وخنازير وننشئكم معناه نبعثكم بعد هلاككم وفيما لا تعلمون معناه ننشئكم في خلقة لا تعلمونها على وجه لا تصل عقولكم إلى فهمه فمعنى الآية أن الله قادر على أن يهلكهم وعلى أن يبعثهم ففيها تهديد واحتجاج على البعث فلولا تذكرون تحضيض على التذكير والاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة وفي هذا دليل على صحة القياس أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون المراد بالزراعة هنا إنبات ما يزرع وتمام خلقته لأن ذلك مما انفرد الله به ولا يدعيه غيره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقولن أحدكم زرعت ولكن يقول حرثت والمراد بالحرث قلب الأرض وإلقاء الزريعة فيها وقد يقال لهذا زرع ومنه قوله يعجب الزراع لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون الحطام اليابس المفتت وقيل معناه تبن بلا قمح فظلتم تفكهون أي تطرحون الفاكهة وهي المسرة يقال رجل فكه إذا كان مسرورا منبسط النفس ويقال تفكه إذا زالت عنه الفكاهة فصار حزينا لأن صيغة تفاعل تأتي لزوال الشئ كقولهم تحرج وتأثم إذا زال عنه الحرج والإثم فالمعنى صرتم تحزنون على الزرع لو جعله الله حطاما وقد عبر بعضهم عن تفكهون بأن معناه تتفجعون وقيل تدمون وقيل تعجبون وهذه معان متقاربة والأصل ما ذكرنا إنا لمغرمون بل نحن محرومون تقديره

تقولون ذلك لو جعل الله زرعكم حطاما والمغرم المعذب لأن الغرام هو أشد العذاب ويحتمل أن يكون من الغرم أي مثقلون بما غرمنا من النفقة على الزرع والمحروم الذي حرمه الله الخير من المزن هي السحاب والأجاج الشديد الملوحة فإن قيل لم ثبتت اللام في قوله لو نشاء لجعلناه حطاما وسقطت في قوله لو نشاء جعلناه أجاجا فالجواب من وجهين أحدهما أنه أغنى إثباتها أولا عن إثباتها ثانيا مع قرب الموضعين والآخر أن هذه اللام تدخل للتأكيد فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن الطعام أوكد من الشراب لأن الإنسان لا يشرب إلا بعد أن يأكل النار التي تورون أي تقدحونها من الزناد والزناد قد يكون من حجرين ومن حجر وحديده ومن شجر وهو المرخ والعصار ولما كانت عادة العرب في زنادهم من شجر قال الله تعالى ءأنتم أنشأتم شجرتها أي الشجرة التي تزند ... 685

---

92 النار منها وقيل أراد بالشجرة نفس النار كأنه يقول نوعها أو جنسها فاستعار الشجرة لذلك وهذا بعيد نحن جعلناها تذكرة أي تذكر بنار جهنم ومتاعا للمقوين المتاع ما يتمتع به ويحتمل المقوين أن يكون من الأرض القواء وهي القيا في ومعنى المقوين الذين دخلوا في القواء ولذلك عبر ابن عباس عنه بالمسافرين ويحتمل أن يكون من قولهم أقوى المنزل إذا خلا فمعناه الذين خلت بطونهم أو موائدهم من الطعام ولذلك عبر بعضهم عنه بالجائعين فلا

أقسم بمواقع النجوم لا في هذا الموضع وأمثاله زئداة وكأنها زيدت لتأكيد القسم أو لاستفتاح الكلام نحو ألاوقير هي نافية لكلام الكفار كأنه يقول لا صحة لما يقول الكفار وهذا ضعيف والأول أحسن لأن زيادة لا كثيرة معروفة في كلام العرب ومواقع النجوم فيه قولان أحدهما قال ابن عباس إنها نجوم القرآن إذ نزل على النبي صلى الله عليه وسلم مقطعا بطول عشرين سنة فكل قطعة منه نجم والآخر قول كثير من المفسرين أن النجوم الكواكب ومواقعها مغاربها ومساقطها وقيل مواضعها من السماء وقيل انكدارها يوم القيامة وإنه لقسم لو تعلمون عظيم هذه جملة اعتراض بين القسم وجوابه وقوله لو تعلمون اعتراض بين الموصوف وصفته فهو اعتراض في اعتراض والمقصود بذلك تعظيم المقسم به وهو مواقع النجوم وجواب القسم إنه لقرآن كريم وأعاد الضمير على القرآن لأنه المعنى يقتضيه أو لأنه مذكور على قول من قال إن مواقع النجوم نزول القرآن في كتاب مكنون أي مصون والمراد بهذا االكتاب المكنون المصاحف التي كتب فيها القرآن أو صحف القرآن التي بأيدي الملائكة عليهم لسلام لا يمسه إلا المطهرون الضمير يعود على الكتاب المكنون ويحتمل أن يعود على القرآن المذكور قبله إلا أن هذا ضعيف لوجهين أحدهما أن مس الكتاب حقيقة ومس القرآن مجاز والحقيقة أولى من المجاز والآخر أن الكتاب أقرب والضمير يعود على أقرب مذكور فإذا قلنا إنه يعود على الكتاب

المكنون فإن قلنا إن الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الملائكة فالمطهرون يراد بهم الملائكة لأنهم مطهرون من الذنوب والعيوب والآية إخبار بأنه لا يمسه إلا هم دون غيرهم وإن قلنا إن الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الناس فيحتمل أن يريد بالمطهرين المسلمين لأنهم مطهرون من الكفر أو يريد المطهرين من الحدث الأكبر وهي الجنابة أو الحيض فالطهارة على هذا الاغتسال أو المطهرين من الحدث الأصغر فالطهارة على هذا الوضوء ويحتمل أن يكون قوله لا يمسه خبرا أو نهيا على أنه قد أنكر بعض الناس أن يكون نهيا وقال لو كان نهيا لكان بفتح السين وقال المحققون إن النهي يصح مع ضم السين لأن الفعل المضاعف إذا كان مجزوما أو اتصل به ضمير االمفرد المذكر ضم عند التقاء الساكنين إتباعا لحركة الضمير وإذا جعلناه خبرا فيحتمل أن يقصد به مجرد الإخبار أو يكون خبرا بمعنى النهي وإذا كان لمجرد الإخبار فالمعنى أنه لا ينبغي أن يمسه إلا المطهرون أي هذا حقه وإن وقع خلاف ذلك واختلف الفقهاء فيمن يجوز له مس المصحف على حسب الاحتمالات في الآية فأجمعوا على أنه لا يجوز أن لا يمسه كافر لأنه إن أراد بالمطهرين المسلمين فذلك ظاهر وإن أراد الطهارة من الحدث فالإسلام حاصل مع ذلك وأما الحدث ففيه ثلاثة أقوال الأول أنه لا يجوز أن يمسه الجنب ولا الحائض ولا المحدث حدثا أصغر وهو ... 686

---

93 قول مالك وأصحابه ومنعوا أيضا أن يحمله بعلاقة أو وسادة وحجتهم الآية على أن يراد بالمطهرين الطهارة من الحدث الأكبر والأصغر وقد احتج مالك في الموطأ بالآية على المسألة ومن حجتهم أيضا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر الثاني أنه يجوز مسه للجنب والحائض والمحدث حدثا أصغر وهو مذهب أحمد بن حنبل والظاهرية وحملوا المطهرون على أنهم المسلمون والملائكة أو جعلوا لا يمسه لمجرد الإخبار والقول الثالث أنه يجوز مسه بالحدث الأصغر دون الأكبر ورخص مالك في مسه على غير وضوء للمعلم والصبيان لأجل المشقة واختلفوا في قراءة الجنب للقرآن فمنعه الشافعي وأبو حنيفة مطلقا وأجازه الظاهرية مطلقا وأجاز مالك قراءة الآية اليسيرة واختلف في قراءة الحائض والنفساء للقرآن عن ظهر قلب فعن مالك في ذلك روايتان وفرق بعضهم بين اليسير والكثير أفبهذا الحديث أنتم مدهنون هذا خطاب للكفار والحديث المشار اليه هو القرآن ومدهنون معناه متهاونون وأصله من المداهنة وهي لين الجانب والموافقة بالظاهر لا بالباطن قال ابن عباس معناه مكذبون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون قال ابن عطية أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر إنه نزل بنوء كذا وكذا والمعنى تجعلون شكر رزقكم التكذيب فحذف شكر لدلالة المعنى عليه وقرأ علي ابن أبي طالب وتجعلون شكركم أنكم تكذبون وكذلك قرأ ابن عباس إلا أنه قرأ تكذبون بضم التاء والتشديد كقراءة الجماعة وقراءة علي بفتح التاء وإسكان الكاف من الكذب أي يكذبون في قولهم نزل المطر بنوء كذا ومن هذا المعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى يقول أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكوكب وكافر بي مؤمن بالكوكب فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكوكب كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب والمنهي عنه في هذا الباب أن يعتقد

أن للكوكب تأثيرا في المطر وأما مراعاة العوائد التي أجراها الله تعالى فلا بأس به لقوله صلى الله عليه وسلم إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة وقد قال عمر للعباس وهما في الاستسقاءكم بقي من نوء الثريا فقال العباس العلماء يقولون إتها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعا قال ابن الطيب فما مضت سبع حتى مطروا وقيل إن معنى الآية تجعلون سبب رزقكم تكذيبكم للنبي صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا يقولون إن آمنا به حرمنا الله الرزق كقولهم إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا فأنكر الله عليهم ذلك وإعراب أنكم على هذا القول مفعول بتجعلون على حذف مضاف تقديره تجعلون سبب رزقكم التكذيب ويحتمل أن يكون مفعولا من أجله تقديره تجعلون رزقكم حاصلا من أجل أنكم تكذبون وأما على القول الأول فإعراب أنكم تكذبون مفعول لاغير فلولا إذا بلغت الحلقوم لولا هنا عرض والضمير في بلغت للنفس لأن سياق الكلام يقتضي ذلك وبلوغها للحلقوم حين الموت والفعل الذي دخلت عليه لولا هو قوله ترجعونها أي هلا رددتم النفس حين الموت ومعنى الآية احتجاج على البشر وإظهار لعجزهم لأنهم اذا حضر أحدهم

الموت لم يقدروا أن يردوا روحه إلى جسده وذلك دليل على أنهم عبيد مقهورون وأنتم حينئذ تنظرون هذا خطاب لمن يحضر الميت من ... 687

---

94 أقاربه وغيرهم يعني تنظرون إليه ولا تقدرون له على شئ ونحن أقرب إليه منكم يحتمل أن يريد قرب نفسه تعالى بعلمه واطلاعه أو قرب الملائكة الذين يقبضون الأرواح فيكون من قرب المسافة ولكن لا تبصرون إن أراد بقوله نحن أقرب الملائكة فقوله لا تبصرون من رؤية العين وإن أراد نفسه تعالى فهو من رؤية القلب فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين لولا هنا عرض كالأولى وكررت للتأكيد والبيان لما طال الكلام والفعل الذي دخلت عليه لولا الأولى والثانية قوله ترجعونها أي هلا رددتم النفس إلى الجسد إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين وغير مربوبين ومقهورين فافعلوا ذلك إن كنتم صادقين في كفركم وترتيب الكلام فلولا ترجعون النفس إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين فارجعوا إن كنتم صادقين فأما إن كان من المقربين الضمير في كان للمتوفى وكرر هنا ما ذكره في أول السورة من تقسيم الناس إلى ثلاثة أصناف السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فالمراد بالمقربين هنا السابقون المذكورن هناك فروح وريحان الروح الاستراحة وقيل الرحمة روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ فروح بضم الراء ومعناه الرحمة وقيل الخلود أي بقاء الروح وأما الريحان فقيل إنه الرزق وقيل الاستراحة وقيل الطيب وقيل الريحان المعروف وفي قوله روح وريحان ضرب من ضروب التجنيس فسلام لك من أصحاب اليمين معنى هذا على الجملة نجاة أصحاب اليمين وسعادتهم والسلام هنا يحتمل أن يكون بمعنى السلامة أو التحية والخطاب في ذلك يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أو لأحد من أصحاب االيمين فأن كان النبي صلى الله عليه وسلم فالسلام بمعنى السلامة والمعنى سلام لك يا محمد منهم أي لا ترى منهم إلا السلامة من العذاب وإن كان الخطاب لأحد من أصحاب اليمين فالسلام بمعنى التحية والمعنى سلام لك أي تحية لك يا صاحب اليمين من إخوانك وهم أصحاب اليمين أي يسلمون

عليك فهو كقوله إلا قيلا سلاما سلاما أو يكون بمعنى السلامة والتقدير سلامة لك يا صاحب اليمين ثم يكون قوله من أصحاب اليمين خبر ابتداء مضمر تقديره أنت من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين يعني الكفار وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة فنزل من حميم النزل أول شئ يقدم للضيف إن هذا لهو حق اليقين الإشارة إلى ما تضمنته هذه السورة من أحوال الخلق في الآخرة وحق اليقين معناه الثابت من اليقين وقيل إن الحق واليقين بمعنى واحد فهو من إضافة الشئ إلى نفسه كقوله مسجد الجامع واختار ابن عطية أن يكون كقولك في أمر توكده هذا يقين اليقين أو صواب الصواب بمعنى أنه نهاية الصواب فسبح باسم ربك العظيم لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم فلما نزلت سبح اسم

ربك الأعلى قال عليه السلام اجعلوها في سجودكم فلذلك استحب مالك وغيره أن يقول في السجود سبحان ربي الأعلى وفي الركوع سبحان ربي العظيم وأوجبه الظاهرية ويحتمل أن يكون المعنى تسبيح الله بذكر أسمائه والاسم هنا جنس الأسماء والعظيم صفة للرب أو يكون الاسم هنا واحدا والتعظيم صفة له وكأنه أمره أن يسبح بالاسم الأعظم ويؤيد هذا ويشير إليه اتصال
سورة الحديد
بها وفي أولها التسبيح وجملة من أسماء الله وصفاته قال ابن عباس اسم الله العظيم الأعظم موجود ... 688

---

95 في ست أيات من أول سورة الحديد وروى أن الدعاء عند قراءتها مستجاب سورة الحديد
سبح لله ما في السموات والأرض
هذا التسبيح المذكور هنا وفي أوائل سائر السور المسبحات يحتمل أن يكون حقيقة أو أن يكون بلسان الحال لأن كل ما في السموات والأرض دليل على وجود الله وقدرته وحكمته والأول أرجح لقوله ولكن لا تفقهون تسبيحهم وذكر التسبيح هنا وفي الحشر والصف بلفظ الماضي وفي الجمعة والتغابن بلفظ المضارع وكل واحد منهما يقتضي الدوام هو الأول والآخر أي ليس لوجوده بداية ولا لبقائه نهاية والظاهر والباطن أي الظاهر للعقول بالأدلة والبراهين الدالة على الباطن الذي لا تدركه الأبصار أو الباطن الذي لا تصل العقول إلى معرفة كنه ذاته وقيل الظاهر العالي على كل شئ فهو من قولك ظهرت على الشئ إذا علوت عليه والباطل الذي بطن كل شئ أي علم باطنه والأول أظهر وأرجح ودخلت الواو بين هذه الصفات لتدل على أنه تعالى جامع لها مع اختلاف معانيها وفي ذلك مطابقة لفظية وهي من أحسن أدوات البيان ثم استوى على العرش قد ذكروا كذلك ما بعده وهو معكم أينما كنتم يعني أنه حاضر مع كل أحد بعلمه وإحاطته وأجمع العلماء على تأويل هذه الآية بذلك يولج الليل ذكر في الحج ولقمان وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه يعني الإنفاق في سبيل الله وطاعته وروى أنها نزلت في الإنفاق في غزوة تبوك وعلى هذا روى أن قوله فالذين آمنوا منكم وأنفقوا نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنه جهز جيش العسرة يومئذ ولفظ الآية مع ذلك عام وحكمها باق لجميع الناس وقوله مستخلفين فيه يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله لأنه خلقها ولكنه متعكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكها أن تنفقوها فيه ويحتمل أن يكون جعلكم مستخلفين عمن كان قبلكم فورثتم عنه الأموال فأنفقوها قبل أن

تخلفوها لمن بعدكم كما خلفها لكم من كان قبلكم والمقصود على كل وجه تحريض على الإنفاق وتزهيد في الدنيا وما لكم لا تؤمنون بالله معناه أي شئ

يمنعكم من الإيمان والرسول يدعوكم إليه بالبراهين القاطعة ... 689
96 والمعجزات الظاهرة فقوله ما لكم استفهام يراد به الإنكار ولا تؤمنون في موضع الحال من معنى الفعل الذي يقتضيه مالكم والواو في قوله والرسول يدعوكم واو الحال وقد أخذ ميثاقكم يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما جعل في العقول من النظر الذي يؤدي إلى الإيمان أو يكون الميثاق الذي أخذه على بني آدم حين أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى هو الذي ينزل على عبده آيات يعني سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم والعبودية هنا للتشريف والاختصاص والآيات هنا القرآن وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله الآية معناه أي شئ يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله والله يرث ما في السموات والأرض اذا فني أهلها ففي ذلك تحريض على الإنفاق وتزهيد في الدنيا لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل الفتح هنا فتح مكة وقيل صلح الحديبية والأول أظهر وأشهر ومعنى الآية التفاوت في الأجر والدرجات بين من أنفق في سبيل الله وقاتل قبل فتح مكة وبين من أنفق وقاتل بعد ذلك فإن الإسلام قبل الفتح كان ضعيفا والحاجة إلى الانفاق والقتال كانت أشد ويؤخذ من الآية أن من أنفق في شدة أعظم أجرا ممن أنفق في حال الرخاء وفي الآية حذف دل عليه الكلام تقديره لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل مع من أنفق من بعد الفتح وقاتل ثم حذف ذلك لدلالة قوله أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وفي هذا المعنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه يعني السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وخاطب بذلك من جاء بعدهم من سائر الصحابة ويدخل في الخطاب كل من يأتي إلى

يوم القيامة
وكلا وعد الله الحسنى أي كل واحدة من الطائفتين الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح وبعده وعدهم الله الجنة من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ذكر في البقرة يوم ترى العامل في الظرف أجر كريم أو تقدير اذكر يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم قيل إن هذا النور استعارة يراد به الهدى والرضوان والصحيح هو قول الجمهور أنه حقيقة وقد روى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فالمعنى على هذا أن المؤمنين يكون لهم يوم القيامة نور يضئ قدامهم وعن يمين كل واحد منهم وقيل يكون أصله في أيمانهم يحملونه فينبسط نوره قدامهم وروى أن نور كل أحد على قدر إيمانه فمنهم من يكون نوره كالنخلة ومنهم من يضئ ما قرب من قدميه ومنهم من يضئ مرة ويهم بالإطفاء مرة قال ابن عطية ومن هذه الآية أخذ الناس مشى المعتق بالشمعة قدام معتقة إذا مات بشراكم اليوم جنات أي يقال لهم ذلك يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم يوم بدل من يوم ترى ... 690

---

97 أو متعلق بالفوز العظيم أو بمحذوف تقديره اذكر ومعنى الآية أن كل مؤمن مظهر للإيمان يعطى يوم القيامة نورا فيبقى نور المؤمنين وينطفئ نور المنافقين فيقول المنافقون للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم أي نأخذ منه ونستضئ به ومعنى انظرونا انتظرونا وذلك لأن المؤمنين يسرعون إلى الجنة كالبرق الخاطف والمنافقون ليسوا كذلك ويحتمل أن يكون من النظر أي انظروا إلينا لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فاستضاؤا بنورهم ولكن يضعف هذا لأن نظر إذا كان بمعنى النظر بالعين بتعدي بإلي وقرئ أنظرونا بهمزة قطع ومعناه أخرونا أي أمهلونا في مشيكم حتى نلحقكم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا يحتمل أن يكون هذا من قول المؤمنين أو قول الملائكة ومعناه الطرد للمنافقين والتهكم بهم لأنهم قد علموا أن ليس وراءهم نور ووراءكم ظرف العامل فيه ارجعوا وقيل إنه لا موضع له من الإعراب وأنه كما لو قال ارجعوا ومعنى هذا الرجوع ارجعوا إلى الموقف فالتمسوا فيه النور أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل الإيمان أو ارجعوا خائبين وتنحوا عنا فالتمسوا نورا آخر فلا سبيل لكم إلى هذا النور (فضرب بينهم بسور له باب) أي ضرب بين المؤمنين والمنافقين بسور يفصل بينهم وفي ذلك السور باب لأهل الجنة يدخلون منه وقيل إن هذا السور هو الأعراف وهو سور بين الجنة والنار وقيل هو الجدار الشرقي من بيت المقدس وهذا بعيد باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب باطنه هو جهة المؤمنين وظاهره هو جهة المنافقين وهي خارجة كقوله ظاهر المدينة أي خارجها والضمير في باطنه وظاهره يحتمل أن يكون للسور أو للباب والأول أظهر ينادونهم ألم نكن معكم أي ينادي المنافقين المؤمنين فيقولون لهم ألم نكن معكم في الدنيا يريدون إظهارهم الإيمان فتنتم أنفسكم أي أهلكتموها وأضللتموها بالنفاق وتربصتم أي أبطأتم بإيمانكم وقيل تربصتم الدوائر بالنبي صلى الله عليه وسلم

وبالمسلمين وارتبتم أي شككتم في الإيمان وغرتكم الأماني أي طول الأمل والتمني ومن ذلك أنهم كانوا يتمنون أن يهلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أو يهزمون إلى غير ذلك من الأماني الكاذبة حتى جاء أمر الله أي الفتح وظهور الإسلام أو موت المنافقين على الحال الموجبة للعذاب الغرور هو الشيطان هي مولاكم أي هي أولى بكم وحقيقة المولى الولي الناصر فكأن هذا استعارة منه أي لاولى لكم تأوون إليه إلا النار
ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله معنى ألم يأن ألم يحن يقال أني الأمر إذا حان وقته وذكر الله يحتمل أن يريد به القرآن أو الذكر أو التذكير بالمواعظ وهذه آية موعظة وتذكير قال ابن عباس عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاثةعشر سنة من نزول والقرآن وسمع الفضيل بن عياض قارئا يقرأ هذه الآية فقال قد آن فكان سبب رجوعه إلى الله وحكى أن عبد الله بن المبارك أخذ العود في صباه ليضربه فنطق بهذه الآية فكسره ابن المبارك وتاب إلى ... 691

98 الله ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل عطف ولا يكونوا على أن تخشع ويحتمل أن يكون نهيا والمراد التحذير من أن يكون المؤمنون كأهل الكتب المتقدمة وهم اليهود والنصارى فطال عليهم الأمد أي مدة الحياة وقيل انتظار القيامة وقيل انتظار الفتح والأول أظهر اعلموا أن الله يحي الأرض بعد موتها أي يحييها بإنزال المطر وإخراج النبات وقيل أنه تمثيل للقلوب أي يحي الله القلوب بالمواعظ كما يحي الأرض بالمطر وفي هذا تأنيس للمؤمنين الذين ندبوا إلى أن تخشع قلوبهم والأول أظهر وأرجح لأنه الحقيقة إن المصدقين والمصدقات بتشديد الصاد من الصدقة وأصله المتصدقين وكذلك قرأ أبي بن كعب وقرئ بالتخفيف من التصديق أي صدقوا الرسول عليه الصلاة والسلام وأقرضوا الله معطوف على المعنى كأنه قال إن الذين تصدقوا وأقرضوا وقد ذكرنا معنى أقرضوا في قوله من ذا الذي يقرض الله الصديقون مبالغة من الصدق أو من التصديق وكونه من الصدق أرجح لأن صيغة فعيل لاتبنى إلا من فعل ثلاثي في الأكثر وقد حكى بناؤها من رباعي كقولهم رجل مسيك من أمسك والشهداء عند ربهم يحتمل أن يكون الشهداء مبتدأ وخبره ما بعده أو يكون معطوفا على الصديقين فإن كان مبتدأ ففي المعنى قولان أحدهما أنه جمع شهيد في سبيل الله فأخبر أنهم عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والآخر أنه جمع شاهد ويراد به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأنهم يشهدون على قومهم وإن كان معطوفا ففي المعنى قولان أحدهما أنه جمع شهيد فوصف الله المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء أي جمعوا الوصفين وروى في هذا المعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مؤمنو أمتي شهداء وتلا هذه الآية والآخر أنه جمع شاهد لأن المؤمنين يشهدون على الناس كقوله لتكونوا شهداء على الناس لهم أجرهم ونورهم هذا خبر عن الشهداء خاصة إن كان مبتدأ أو خبر عن المؤمنين إن كان الشهداء معطوفا ونورهم هو النور الذي يكون لهم

يوم القيامة حسبما ذكر في هذه السورة وقيل هو عبارة عن الهدى والإيمان كمثل غيث أعجب الكفار نباته الآية معناها تشبيه الدنيا بالزرع الذي ينبته الغيث في سرعة تغيره بعد حسنه وتحطمه بعد ظهوره والكفار هنا يراد به الزرع فهو من قوله كفرت الحب اذا سترته تحت الأرض وخصهم بالذكر لأنهم أهل البصر بالزرع والفلاحة فلا يعجبهم إلا ما هو حقيق أن يعجب وقيل أراد الكفار بالله وخصهم بالذكر لأنهم أشد إعجابا بالدنيا وأكثر حرصا عليها سابقوا إلى مغفرة من ربكم أي سابقوا إلى الأعمال التي تستحقون بها المغفرة فقيل المعنى كونوا ... 692

99 في أول صف من القتال وقيل احضروا تكبيرة الإحرام مع الإمام وقيل كونوا أول داخل إلى المسجد وأول خارج منه وهذه أمثله والمعنى العام

المسابقة إلى جميع الأعمال الصالحات وقد استدل بها قوم على الصلاة أن في أول الوقت أفضل وجنة عرضها كعرض السماء والأرض السماء هنا يراد به جنس السموات بدليل قوله في آل عمران وقد ذكرنا هناك معنى عرضها ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها المعنى أن الأمور كلها مقدرة مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله كتب مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء والمصيبة هنا عبارة عن كل ما يصيب من خير أو شر وقيل أراد به المصيبة في العرف وهو ما يصيب من الشر وخص ذلك بالذكر لأنه أهم على الناس وفي الأرض يعني القحوط والزلازل وغير ذلك وفي أنفسكم يعني الموت والمرض والفقر وغير ذلك ونبرأها معناه نخلقها والضمير يعود على المصيبة أو على أنفسكم أو على الأرض وقيل يعود على جميعها لأن المعنى صحيح في كلها لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم المعنى فعل الله ذلك وأخبركم به لكيلا تسلموا لقضاء الله ولا تكترثوا بأمور الدنيا ومعنى لا تأسوا لا تحزنوا أي فلا تحزنوا على ما فاتكم منها ولا تفرحوا فيها وقرأ الجمهور بما آتاكم بالمد أي بما أعطاكم الله من الدنيا وقرأ أبو عمرو بما أتاكم بالقصر أي بما جاءكم من االدنيا فإن قيل إن الإنسان لا يملك نفسه أن يفرح بالخير ويحزن للشر كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما اتى بمال كثير اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا فالجواب أن النهي عن الفرح إنما هو عن الذي يقود إلى الكبر والطغيان وعن الحزن الذي يخرج عن الصبر والتسليم كل مختال فخور المختال صاحب الخيلاء والفخور شديد الفخر على الناس الذين يبخلون بدل من كل مخال

فخور أو خبر ابتداء مضمر تقديره هم الذين أو منصوب بإضمار أعني أو مبتدأ وخبره محذوف وأنزلنا معهم الكتاب والميزان الكتاب هنا جنس الكتب والميزان العدل وقيل الميزان الذي يوزن به وروى أن جبريل نزل بالميزان ودفعه إلى نوح وقال له مر قومك يزنوا به وأنزلنا الحديد خبر عن خلقه وإيجاده بالإنزال وقيل بل أنزله حقيقة لأن آدم نزل من الجنة ومعه المطرقة والإبرة فيه بأس شديد يعني أنه يعمل منه سلاح للقتال ولذلك قال ... 693

---

100 وليعلم الله من ينصره ورسله والمنافع للناس سكك الحرث والمسامير وغير ذلك فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون أي من ذرية نوح وإبراهيم مهتدون قليلون وأكثرهم فاسقون لأن منهم اليهود والنصارى وغيرهم وقفينا ذكر في البقرة وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة هذا ثناء عليهم بمحبة بعضهم في بعض كما وصف أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم رحماء بينهم ورهبانية ابتدعوها الرهبانية هي الانفراد في الجبال والانقطاع عن الناس في الصوامع ورفض النساء وترك الدنيا ومعنى ابتدعوها أي أحدثوها من غير أن يشرعها الله لهم وإعراب رهبانية معطوف على رأفة ورحمة أي جعل الله في

قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية وابتدعوها صفة للرهبانية والجعل هنا بمعنى الخلق والمعتزلة يعربون رهبانية مفعولا بفعل مضمر يفسره ابتدعوها لأن مذهبهم أن الإنسان يخلق أفعاله فأعربوها على مذهبهم وكذلك أعربها أبو علي الفارسي وذكر الزمخشري الوجهين ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كتبنا هنا بمعنى فرضنا وشرعنا وفي هذا قولان أحدهما أن الاستثناء منقطع والمعنى ما كتبنا عليهم الرهبانية ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله والآخر أن الاستثناف متصل والمعنى كتبناها عليهم إبتغاء رضوان الله والأول أرجح لقوله ابتدعوها ولقراءة عبد الله بن مسعود ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها فما رعوها حق رعايتها أي لم يدوموا عليها ولم يحافظوا على الوفاء بها يعني أن جميعهم لم يرعوها وإن رعاها بعضهم والضمير في رعوها للذين ابتدعوا الرهبانية وكان يجب عليهم إتمامها وإن لم يكتبها الله سبحانه وتعالى عليهم لأن من دخل في شئ من النوافل يجب عليه إتمامه وقيل الضمير لمن جاء بعد الذين ابتدعوا الرهبانية من أتباعهم وآمنوا برسوله إن قيل كيف خاطب الذين آمنوا وأمرهم بالإيمان وتحصيل الحاصل لا ينبغي فالجواب من وجهين أحدهما أن معنى آمنوا

دوموا على الإيمان واثبتوا عليه والآخر أنه خطاب لأهل الكتاب فالمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويؤيد هذا قوله يؤتكم كفلين من رحمته أي نصيبين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي الحديث ويجعل لكم نورا تمشون به يحتمل أن يريد النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين يوم القيامة أو يكون عبارة عن الهدى ويؤيد الأول أنه مذكور في هذه السورة ويؤيد الثاني قوله وجعلنا له نورا يمشي به في الناس لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شئ من فضل الله لا في قوله لئلا زائدة والمعنى ليعلم أهل الكتاب وكذلك قرأها ابن عباس ... 694

---

101 وقرأ ابن مسعود لكيلا يعلم والمعنى إن كان الخطاب لأهل الكتاب يا أهل الكتاب آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أن لا يقدروا على شئ من فضل الله الذي وعد من آمن منكم وهو تضعيف الأجر والنور والمغفرة لأنهم لم يسلموا فلم ينالوا شيئا من ذلك وإن كان الخطاب للمسلمين فالمعنى ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أنهم لا يقدرون أن ينالوا شيئا مما أعطى الله المسلمين من تضعيف الأجر والنور والمغفرة وقد روى في سبب نزول الآية أن اليهود افتخرت على المسلمين فنزلت الآية في الرد عليهم وهو يقوى هذا القول وروى أيضا أن سببها أن الذين أسلموا من أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المسلمين بأنهم يؤتيهم الله أجرهم مرتين فنزلت الآية معلمة أن المسلمين مثلهم في ذلك

سورة المجادلة

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها نزلت الآية في خولة بنت حكيم وقيل خولة بنت ثعلبة وقيل خولة بنت خويلد وقيل اسمها جميلة وكانت امرأة أوس بن الصامت الأنصاري أخى عبادة بن الصامت فظاهر منها وكان الظهار في الجاهلية يوجب تحريما مؤبدا فلما فعل أوس ذلك جاءت امرأته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله إن أوسا أكل شبابي ونشرت له بطني فلما كبرت ومات أهلي ظاهر مني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيتك إلا قد حرمت عليه فقالت يا رسول الله لا تفعل إني وحيدة ليس لي أهل سواه فراجعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل مقالته فراجعته فهذا هو جدالها وتشتكي إلى الله كانت تقول اللهم إني أشكو إليك حالي وانفرادي وفقري وروى أنها كانت تقول اللهم إن لي منه صبية صغارا إن ضممتهم إلى جاعوا وإن ضممتهم إليه ضاعوا والله يسمع تحاوركما المحاورة هي المراجعة في الكلام قالت عائشة رضي الله عنها سبحان من وسع سمعه الأصوات لقد كنت حاضرة وكان بعض كلام خولة يخفى علي وسمع الله كلامها ونزل القرآن في ذلك

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زوجها وقال له أتعتق رقبة فقال والله ما أملكها فقال أتصوم شهرين متتابعين فقال والله ما أقدر فقال له أتطعم ستين مسكينا فقال لا أجد إلا أن يعينني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعونة وصلاة يريد الدعاء فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا وقيل بثلاثين صاعا ودعا له فكفر بالإطعام وأمسك زوجته الذين يظاهرون منكم من نسائهم قرئ يظاهرون بألف بعد الظاء وبحذفها وبالتشديد والتخفيف والمعنى واحد وهو إيقاع الظهار والظهار المجمع عليه هو أن يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي ويجرى مجرى ذلك عند مالك تشبيه الزوجة بكل امرأة محرمة على التأبيد كالبنت والأخت وسائر المحرمات بالنسب والمحرمات بالرضاع والمصاهرة سواء ذكر لفظ الظهر ... 695

---

102 أو لم يذكره كقوله أنت علي كأمي أو كبطن أمي أو يدها أو رجلها خلافا للشافعي فإن ذلك كله عنده ليس بظهار لأنه وقف عند لفظ الآية وقاس مالك عليها لأنه رأى أن المقصد تشبيه حلال بحرام ماهن أمهاتهم رد الله بهذا على من كان يوقع الظهار ويعتقده حقيقة وأخبر تعالى أن تصير الزوجة أما باطل فإن الأم في الحقيقة إنما هي الوالدة وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور فالمنكر هو الذي لا تعرف له حقيقة والزور هو الكذب وإنما جعله كذبا لأن المظاهر يصير امرأته كأمه وهي لا تصير كذلك أبدا والظهار محرم ويدل على تحريمه أربعة أشياء أحدها قوله تعالى ماهن أمهاتهم فإن ذلك تكذيب للمظاهر والثاني أنه سماه منكرا والثالث أنه سماه زورا والرابع قوله وإن الله لعفو غفور فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب وهو مع ذلك لازم للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة والذين يظاهرون من نسائهم

ثم يعودون لما قالوا اختلف الناس في معنى قوله ثم يعودون لما قالوا على ستة أقوال الأول أنه إيقاع الظهار في الإسلام فالمعنى أنهم كانوا يظاهرون في الجاهلية فإذا فعلوه في الإسلام فذلك عود إليه هذا قول ابن قتيبة فتجب الكفارة عنده بنفس الظهار بخلاف أقوال غيره فإن الكفارة لا تجب إلا بالظهار والعود معا الثاني أن العود هو وطأ الزوجة روى ذلك عن مالك فلا تجب الكفارة على هذا حتى يطأ فإذا وطئ وجبت عليه الكفارة سواء أمسك المرأة أو طلقها أو ماتت الثالث أن العود هو العزم على الوطئ وروى هذا أيضا عن مالك فإذا عزم على الوطء وجبت الكفارة سواء أمسك المرأة أو طلقها أو ماتت الرابع أن العود هو العزم على الوطئ وعلى إمساك الزوجة وهذا أصح الروايات عن مالك الخامس أنه العزم على الإمساك خاصة وهذا مذهب الشافعي فإذا ظاهر ولم يطلقها بعد الظهار وجبت الكفارة السادس أنه تكرار الظهار مرة أخرى وهذا مذهب الظاهرية وهو ضعيف لأنهم لا يرون

الظهار يوجب حكما في أول مرة وإنما يوجب في الثانية وإنما نزلت الآية فيمن ظاهر الأول مرة فذلك يرد عليهم ويختلف معنى لما قالوا باختلاف هذه الأقوال فأما علة قول ابن قتيبة والظاهرية فما مصدرية والمعنى يعودون لقولهم وأما على سائر الأقوال فما بمعنى الذي والمعنى يعودون للوطء الذي حرموه أو للعزم عليه أو للإمساك الذي تركوه أو للعزم عليه فتحرير رقبة جعل الله الكفارة في الظهار على ثلاثة أنواع مرتبة لا ينتقل إلى الثاني حتى يعجز عن الأول ولا ينتقل إلى الثالث حتى يعجز عن الثاني فالأول تحرير رقبة والثاني صيام شهرين متتابعين والثالث إطعام ستين مسكينا فأما الرقبة فاشترط مالك أن تكون مؤمنة لأن مذهبه حمل المطلق على المقيد وجاءت هنا مطلقة وجاءت في كفارة القتل مقيدة بالأيمان وأما صيام الشهرين فاشترط فيه التتابع فإن أفسد الصائم التتابع باختياره ابتدأه من أوله باتفاق وإن أفسده بعذر كالمرض والنسيان فقال مالك يبنى على ما كان فيه وقال أبو حنيفة يبتدئ وروى القولان عن الشافعي وأما الإطعام فمشهور مذهب مالك أنه مد لكل مسكين بمد هشام واختلف في مد هشام فقيل إنه مدان غير ثلث بمد النبي صلى الله عليه وسلم وقيل إنه مد وثلث وقيل إنه مدان وقال الشافعي وابن القصار يطعم مدا بمد النبي صلى الله عليه وسلم لكل مسكين ولا يجزيه إلا كمال عدد الستين فإن أطعم مسكينا واحدا ستين يوما لم يجزه عند مالك والشافعي خلافا لأبي حنيفة وكذلك إن أطعم ... 696

---

103 ثلاثين مرتين والطعام يكون من غالب قوت البلد من قبل أن يتماسا مذهب مالك والجمهور أن المسيس هنا يراد به الوطء وما دونه من اللمس والتقبيل فلا يجوز للمظاهر أن يفعل شيئا من ذلك حتى يكفر وقال الحسن والثوري أراد الوطء خاصة فأباحا ما دونه قبل الكفارة وذكر الله قوله من قبل أن يتماسا في التحريم والصوم ولم يذكره في الإطعام فاختلف العلماء في

ذلك فحمل مالك الإطعام على ما قبله ورأى أنه لا يكون إلا قبل المسيس وجعل ذلك من المطلق الذي يحمل على المقيد وقال أبو حنيفة يجوز للمظاهر إذا كان من أهل الإطعام أن يطأ قبل الكفارة لأن الله لم ينص في الإطعام أنه قبل المسيس ذلك لتؤمنوا قال ابن عطية الإشارة إلى الرخصة في النقل من التحرير إلى الصوم وقال الزمخشري المعنى ذلك البيان والتعليم لتؤمنوا وهذا أظهر لأنه أعم
إن الذين يحادون الله أي يخالفون ويعادون كبتوا أي هلكوا وقيل لعنوا وقيل كبت الرجل اذا بقي خزيانا ونزلت الآية في في المنافقين واليهود ما يكون من نجوى ثلاثة يحتمل أن يكون النجوى هنا بمعنى الكلام الخفي فيكون ثلاثة اصناف إليه بمعنى الجماعة من الناس فيكون ثلاثة بدل أو صفة والأول أحسن إلا هو رابعهم يعني بعلمه وإحاطته وكذلك سادسهم وهو معهم إينما كانوا ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى نزل في قوم من اليهود كانوا يتناجون فيما بينهم ويتغامزون على المؤمنين فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فعادوا وقيل نزلت في المنافقين والأول أرجح لقوله وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله لأن هذا من فعل اليهود والأحسن أن المراد والمنافقين معا لقوله ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم فنزلت الآية في الطائفتين وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله كانت اليهود يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون السام عليك يا محمد بدلا من السلام عليكم والسام الموت وهو ما أرادوه بقولهم

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لهم وعليكم فسمعتهم عائشة يوما فقالت بل عليكم السام واللعنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مهلا يا عائشة إن الله يكره الفحش والتفحش فقال أما سمعت ما قالوا قال أما سمعت ما قلت لهم إني قلت وعليكم ويريد بقوله ما لم يحيك به الله قوله تعالى قل الحمد الله وسلام على عباده الذين اصطفى ويقولون ... 697
104 في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) كانوا يقولون لو كان نبيا لعذبنا الله بإذايته فقال الله حسبهم جهنم أي يكفيهم ذلك عذابا إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا قيل يعني النجوى بالاثم والعدوان ومعصية الرسول وحذف وصفها بذلك لدلالة الأول عليه وقيل أراد نجوى اليهود والمنافقين ويؤيد هذا قوله ليجزي الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا اختلف في سبب نزول الآية فقيل نزلت في مقاعد الحرب والقتال وقيل نزلت بسبب ازدحام الناس في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرصهم على القرب منه وقيل أقام النبي صلى الله عليه وسلم قوما ليجلس أشياخا من أهل بدر في مواضعهم فنزلت الآية ثم اختلفوا هل هي مقصورة على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أو هي عامة في جميع المجالس فقال قوم إنها مخصوصة ويدل على ذلك قراءة المجلس بالإفراد وذهب الجمهور إلى أنها عامه ويدل على ذلك قراءة المجالس بالجمع وهذا هو الأصح ويكون المجلس بالإفراد على هذا للجنس والتفسيح المأمور به هو التوسع دون القيام ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقم أحد من مجلسه ثم يجلس الرجل فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا وقد اختلف في هذا النهي عن القيام من المجلس

لأحد هل هو على التحريم أو الكراهة يفسح الله لكم أي يوسع لكم في جنته ورحمته وإذا قيل انشزوا فانشزوا أي إذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك واختلف في هذا النشوز المأمور به فقيل إذا دعوا إلى قتال أو صلاة أو فعل طاعة وقيل

(3/148)

إذا أمروا بالقيام من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يحب الانفراد أحيانا وربما جلس قوم حتى يؤمروا بالقيام وقيل المراد القيام في المجلس للتوسع
يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا االعلم درجات فيها قولان أحدهما يرفع الله المؤمنين العلماء درجات فقوله والذين أوتوا العلم درجات صفة للذين آمنوا كقوله جاءني العاقل الكريم وأنت تريد رجلا واحدا والثاني يرفع الله المؤمنين والعلماء الصنفين جميعا درجات فالدرجات على الأول للمؤمنين بشرط أن يكونوا علماء وعلى الثاني للمؤمنين الذين ليسوا علماء وللعلماء أيضا ولكن بين درجات العلماء وغيرهم تفاوت يوجد في موضع آخر كقوله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وقوله علية الصلاة والسلام فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلا وقوله عليه السلام يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء فإذا كان لهم فضل على العابدين والشهداء فما ظنك بفضلهم على سائر المؤمنين إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة قال ابن عباس سببها أن قوما من شبان ... 698

(3/149)

---

105 المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي صلى الله عليه وسلم في غير حاجة لتظهر منزلتهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم سمحا لا يرد أحدا فنزلت الآية مشددة في أمر المناجاة وقيل سببها أن الأغنياء غلبوا الفقراء على مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم وهذه الآية منسوخة باتفاق نسخها قوله بعدها ءأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقة الآية فأباح الله لهم المناجاة دون تقديم صدقة بعد أن كان أوجب تقديم الصدقة قبل مناجاته عليه السلام
واختلف هل كان هذا النسخ بعد أن عمل بالآية أم لا فقال قوم لم يعمل بها أحد وقال قوم عمل بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه روى أنه كان له دينارا فصرفه بعشرة دراهم وناجاه عشر مرات تصدق في كل مرة منها بدرهم وقيل تصدق في كل مرة بدينار ثم أنزل الله الرخصة لمن كان قادرا على الصدقة وأما من لم يجد فالرخصة لم تزل ثابتة له بقوله فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم وتاب الله عليكم التوبة هنا يراد بها عفو الله عنهم في تركهم للصدقة التي أمروا بها أو تخفيفها بعد وجوبها فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة أي دوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم دون ما كنتم قد كلفتم من الصدقة عند المناجاة ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوما من اليهود وهم الذين غضب الله عليهم ماهم منكم ولا

منهم يعني أن المنافقين ليسوا من المسلمين ولا من اليهود فهو كقوله فيهم مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ويحلفون على الكذب وهم يعلمون يعني أن المنافقين كانوا إذا عوتبوا على سوء أقوالهم وأفعالهم حلفوا أنهم ما قالوا ولا فعلوا وقد صدر ذلك منهم مرارا كثيرة هي مذكورة في السير وغيرهم اتخذوا أيمانهم جنة أصل الجنة ما يستتر به ويتقي به المحذور كالترس ثم استعمل هنا استعارة لأنهم كانوا يظهرون الإسلام لتعصم دماؤهم وأموالهم وقرئ اتخذوا بكسر الهمزة استحوذ

عليهم الشيطان أي غلب عليهم وتملك نفوسهم في الأذلين أي في جملة الأذلين أي معهم
كتب الله أي قضى وقدر لا تجد قوما الآية معناها لا تجد مؤمنا يحب كافرا ولو كان أقرب الناس إليه وهذه حال المؤمن الصادق الإيمان ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يقاتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم إذا كانوا ... 699
106 كفارا فقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه يوم أحد وقتل مصعب بن عمير أخاه عزيز بن عمير يوم أحد ودعا أبو بكر الصديق ابنه يوم بدر للبراز فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقعد وقيل إن الآية نزلت في حاطب حين كتب إلى المشركين يخبرهم بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم والأحسن أنها على العموم وقيل نزلت فيمن يصحب السلطان وذلك بعيد يوادون هذه مفاعلة من المودة فتقتضي أن المودة من الجهتين من حاد الله أي عاداه وخالفه كتب في قلوبهم الإيمان أي أثبته فيها كأنه مكتوب وأيدهم بروح منه أي بلطف وهدى وتوفيق وقيل بالقرآن وقيل بجبريل أولئك حزب الله هذه في مقابلة قوله أولئك حزب الشيطان والحزب هم الجماعة المتحزبون لمن أضيفوا إليه
سورة الحشر
نزلت هذه السورة في يهود بني النضير وكانوا في حصون بمقربة من المدينة وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فأرادوا غدره فأطلعه الله على ذلك فخرج إليهم وحاصرهم إحدى وعشرين ليلة حتى صالحوه على أن يخرجوا من حصونهم فخرجوا منها وتفرقوا في البلاد هو الذي أخرج الذين كفروا يعني بني النضير لأول الحشر في معناه أربعة أقوال أحدها أنه حشر القيامة أي خروجهم من حصونهم أول الحشر والقيام من القبور آخره وروى في هذا المعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم امضوا هذا أول الحشر وأنا على الأثر الثاني أن المعنى لأول موضع الحشر وهو الشام وذلك أن أكثر بني النضير خرجوا إلى الشام وقد جاء في الأثر أن حشر القيامة إلى أرض الشام وروى في هذا

المعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبني النضير اخرجوا قالوا إلى أين قال إلى أرض المحشر الثالث أن المراد الحشر في الدنيا الذي هو الجلاء

والإخراج فإخراجهم من حصونهم أول الحشر وإخراج أهل خيبر آخره الرابع أن معناه أخراجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم لأنه أول قتال قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال الزمخشري اللام في قوله لأول بمعنى عند كقولك جئت لوقت كذا ما ظننتم أن يخرجوا يعني لكثرة عدتهم ومنعة حصونهم فأتاهم الله عبارة عن أخذ الله لهم يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين أما إخراب المؤمنين فهو هدم أسوار الحصون ليدخلوها وأسند ... 700

(3/152)

---

107 ذلك إلى الكفار في قوله يخربون لأنه كان بسبب كفرهم وغدرهم وأما إخراب الكفار لبيوتهم فلثلاثة مقاصد أحدها حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الأزقة ويحصنوا ما خربه المسلمون من الأسوار والثاني ليحملوا معهم ما أعجبهم من الخشب والسواري وغير ذلك الثالث أن لا تبقى مساكنهم مبنية للمسلمين فهدموها شحا عليها فاعتبروا يا أولى الأبصار استدل الذين أثبتوا القياس في الفقه بهذه الآية واستدلالهم بها ضعيف خارج عن معناها ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا الجلاء هو الخروج عن الوطن فالمعنى لولا أن كتب الله على بني النضير خروجهم عن أوطانهم لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة ولهم مع ذلك عذاب النار شاقوا ذكر في الأنفال ما قطعتم من لينة اللينة هي النخلة وقيل هي الكريمة من النخل وقيل النخلة التي ليست بعجوة وقيل ألوان النخل المختلط وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل على حصون بني النضير قطع المسلمون بعض نخلهم وأحرقوه فقال بنو النضير ما هذا إلا فساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد فنزلت الآية معلمة أن كل ما جرى من قطع أو إمساك فإن الله أذن للمسلمين في ذلك ليخزي الفاسقين يعني بني النضير واستدل بعض الفقهاء بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب فإن الله قد صوب فعل من قطع النخل ومن تركها واختلف العلماء في قطع شجر المشركين وتخريب بلادهم فأجازه الجمهور لهذه الآية ولإقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم على تحريق نخل بني النضير وكرهه قوم لوصية أبى بكر الصديق رضي الله عنه الجيش الذي وجهه إلى الشام أن لا يقطعوا شجرا مثمرا ومأأفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب معنى أفاء الله جعله فيئا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأوجفتم من الوجيف وهو سرعة السير والركاب هي الإبل والمعنى أن ما أعطى الله رسوله من أموال بني النضير لم يمش

(3/153)

المسلمون إليه بخيل ولا إبل ولا تعبوا فيه ولا حصلوه بقتال ولكن حصل بتسليط رسوله صلى الله عليه وسلم على بني النضير فأعلم الله من هذه الآية أن ما أخذه من بني النضير وما أخذه من فدك فهو فئ خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم يفعل فيه ما يشاء لأنه لم يوجف عليها ولا قوتلت كبير قتال فهما بخلاف الغنيمة التي تؤخذ بالقتال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم

لنفسه من أموال بني النضير قوت عياله وقسم سائرها في المهاجرين ولم يعط الأنصار منها شيئا غير أن أبا دجانة وسهل بن حنيف شكوا فاقة فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم منها سهما هذا قول جماعة وقال عمر بن الخطاب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منها على أهله نفقه سنة وما بقي جعله في السلاح والكراع عدة في سبيل الله وقال قوم من العلماء وكذلك كل ما فتحه الأئمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة يأخذون منه حاجتهم ويصرفون باقيه في مصالح المسلمين ... 701

---

108 ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول الآية اضطرب الناس في تفسير هذه الآية وحكمها اضطرابا عظيما فإن ظاهرها أن الأموال التي تؤخذ للكفار تكون لله وللرسول ومن ذكر بعد ذلك ولا يخرج منها خمس ولا تقسم على من حضر الوقيعة وذلك يعارض ما ورد في الأنفال من إخراج الخمس وقسمة سائر الغنيمة على من حضر الوقيعة فقال بعضهم إن هذه الآية منسوخة بآية الأنفال وهذا خطأ لأن آية الأنفال نزلت قبل هذه بمدة وقال بعضهم إن آية الأنفال في الأموال التي تغنم ما عدا الأرض وأن هذه الآية في أرض الكفار قالوا ولذلك لم يقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرض مصر والعراق بل تركها لمصالح المسلمين وهذا التخصيص لا دليل عليه وقيل غير ذلك والصحيح أنه لا تعارض بين هذه الآية وبين آية الأنفال فإن آية الأنفال في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل والركاب فهذا يخرج منه الخمس ويقسم باقيه على الغانمين وأما هذه الآية ففي حكم الفئ وهو ما يؤخذ من أموال الكفارمن غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب وإذا كان كذلك فكل واحدة من الآيتين في معنى غير معنى الأخرى ولها حكم غير حكم الأخرى فلا تعارض بينهما ولا نسخ وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفئ وفي الأنفال لفظ الغنيمة وقد تقرر في الفقه الفرق بين الفئ والغنيمة وأن حكمهما مختلف قاله أبو محمد بن الفرس وهو قول الجمهور وبه قال مالك وجميع أصحابه وهو أظهر الأقوال وأما فعل عمر في أرض مصر والعراق فالصحيح أنه فعل ذلك لمصلحة المسلمين بعد استطابة نفوس الغانمين بقوله تعالى ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى يريد بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كما كانت أموال بني النضير ولكنه حذف هذا لقوله في الآية قبل هذا فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب فاستغني بذكر ذلك أولا عن ذكره ثانيا ولذلك لم تدخل الواو العاطفة في هذه الجملة لأنها من تمام الأولى فهي غير أجنبية منها فإنه بين في الآية

الأولى حكم أموال بني النضير وبين في هذه الآية حكم ما كان مثلها من أموال غيرهم على العموم ويصرف الفئ فيما يصرف فيه خمس الغنائم لأن الله سوى بينهما في قوله لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وقد ذكرنا ذلك في الأنفال فأغنى عن إعادته وقد ذكرنا في الأنفال معنى قوله لله وللرسول وما بعد ذلك كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم أي كيلا

يكون الفئ الذي أفاء الله على رسوله من أهل القرى دولة ينتفع به الأغنياء دون الفقراء وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حينئذ فقراء ولم يعط الأنصار منها شيئا فإنهم كانوا أغنياء فقال بعض الأنصار لنا سهمنا من هذا الفئ فأنزل الله هذه الآية والدولة بالضم والفتح مل يدول الإنسان أي يدور عليه من الخير ويحتمل أن يكون من المداولة أي كي لا يتداول ذلك المال الأغنياء بينهم ويبقى الفقراء بلا شئ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا نزلت الفئ بسبب المذكور أي ما أتاكم الرسول من الفئ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا فكأنها أمر للمهاجرين بأخذ الفئ ونهي للأنصار عنه ولفظ الآية مع ذلك عام في أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو نواهيه ولذلك استدل بها عبد الله بن مسعود على المنع من لبس المحرم المخيط ولعن الواشمة ... 702

---

109 والواصلة في القرآن لورود ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم للفقراء
هذا بدل من قوله لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ليبين بذلك أن المراد المهاجرين ووصفهم بأنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم لأنهم هاجروا من مكة وتركوا فيها أموالهم وديارهم والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم هم الأنصار والدار هي المدينة لأنها كانت بلدهم والضمير في قبلهم للمهاجرين فإن قيل كيف قال تبوؤا الدار والإيمان وإنما تتبوأ الدار أي تسكن ولا يتبوأ الإيمان فالجواب من وجهين الأول أن معناه تبوؤا الدار وأخلصوا الإيمان فهو كقولك فعلفتها تبنا وماء باردا تقديره علفتها تبنا وسقيتها ماء باردا الثاني أن المعنى أنهم جعلوا الإيمان كانه موطن لهم لتمكنهم فيه كما جعلوا المدينة كذلك فإن قيل قوله من قبلهم يقتضي أن الأنصار سبقوا المهاجرين بنزول االمدينة وبالإيمان فأما سبقهم لهم بنزول المدينة فلا شك فيه لأنها كانت بلدهم وأما سبقهم لهم بالإيمان فمشكل لأن أكثر المهاجرين أسلم قبل الأنصار فالجواب من وجهين أحدهما أنه أراد بقوله من قبلهم من قبل هجرتهم والآخر أنه أراد تبوؤا الدار مع الإيمان معا أي جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان لا بتبؤئ الدار فيكون الإيمان على هذا مفعولا معه وهذا الوجه أحسن لأنه جواب عن هذا السؤال وعن السؤال الأول فإنه إذا كان الإيمان مفعولا معه لم يلزم السؤال الأول إذ لا يلزم إلا إذا كان الإيمان معطوفا على الدار ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أتوا قيل إن الحاجة هنا بمعنى الحسد ويحتمل أن تكون بمعنى الاحتجاج على أصلها والضمير في يجدون للأنصار وفي أوتوا للمهاجرين والمعنى أن الأنصار تطيب نفوسهم بما يعطاه المهاجرون من الفئ وغيره ولا يجدون في صدورهم شيئا بسبب ذلك ويؤثرون على أنفسهم أي يؤثرون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الاحتياج والخصاصة

هي الفاقة وروى أن سبب هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قسم هذه القرى على المهاجرين دون الأنصار قال للأنصار إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديارکم وشاركتموهم في هذه الغنيمة وإن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذه فقالوا بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة وروى أيضا أن سببها أن رجلا من الأنصار أضاف رجلا من المهاجرين فذهب الأنصاري بالضيف إلى منزله فقالت له امرأته والله ما عندنا إلا قوت الصبيان فقال لها نومي صبيانك وأطفئ السراج وقدمي ما عندك للضيف ونوهمه نحن أنا نأكل ولا نأكل ففعلا ذلك فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عجب الله من فعلكما البارحة ونزلت الآية ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون شح النفس هو البخل والطمع وفي هذا إشارة إلى أن الأنصار وقاهم الله شح أنفسهم فمدحهم الله بذلك وبأنهم يؤثرون على أنفسهم وبأنهم لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتى ... 703

---

110 المهاجرون وأنهم يحبون المهاجرين والذين جاؤامن بعدهم هذا معطوف على المهاجرين والأنصار المذكورين قبل فالمعنى أن الفئ للمهاجرين والأنصار ولهؤلاء الذين جاءوا من بعدهم ويعنى بهم الفرقة الثالثة من الصحابة وهم من عدا المهاجرين والأنصار كالذين أسلموا يوم فتح مكة وقيل يعني من جاء بعد الصحابة وهم التابعون ومن تبعهم إلى يوم القيامة وعلى هذا حملها مالك فقال إن من قال في أحد من الصحابة قول سوء فلاحظ له في الغنيمة والفئ لأن الله وصف الذين جاؤوا بعد الصحابة بأنهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فمن قال ضد ذلك فقد خرج عن الذين وصفهم الله ألم تر الى الذين نافقوا الآية نزلت في عبد الله ابن أبي بن سلول وقوم من المنافقين بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم اثبتوا في حصونكم فإنا معكم كيف ما تقلبت حالكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا أي لا نسمع فيكم قول قائل ولا نطيع من يأمرنا بخذلانكم ثم كذبهم الله في هذه المواعيد التي وعدوا بها فإن قيل كيف قال لئن نصروهم ليولن الأدبار بعد قوله لاينصرونهم فالجواب أن المعنى على الفرض والتقدير أي لو فرضنا أن ينصروهم لولوا الأدبار لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله الرهبة هي الخوف والمعنى أن المنافقين واليهود يخافون الناس أكثر مما يخافون الله لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر أي لا يقدرون على قتالكم مجتمعين إلا وهم في قرى محصنة بالأسوار والخنادق أو من وراء الحيطان دون أن يخرجوا إليكم بأسهم بينهم شديد يعني عداوة بعضهم لبعض تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى أي تظن أنهم مجتمعون بالألفة والمودة وقلوبهم متفرقة بالمخالفة والشحناء كمثل الذين من قبلهم قريبا أي هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير فكانوا أمثالهم وقيل يعني أهل بدر

الكفار فإنهم قبلهم ومثلا لهم في أن غلبوا وقهروا والأول أرجح لأن قوله قريبا يقتضي أنهم كانوا قبلهم بمدة يسيره وذلك أوقع على بني قينقاع وأيضا فإن تمثيل بني النضير ببني قينقاع أليق لأنهم يهود مثلهم وأخرجوا من ديارهم كما فعل بهم وذلك هو المراد بقوله ذاقوا وبال أمرهم وقريبا ظرف زمان
كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر مثل الله المنافقين الذين أغووا يهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك بالشيطان فإنه يغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه والمراد بالشيطان والإنسان هنا الجنس وقيل أراد الشيطان الذي أغوى قريشا يوم بدر وقال لهم إني جار لكم وقيل المراد بالإنسان برصيص العابد فإنه استودع امرأة فزين له الشيطان ... 704

---

111 الوقوع عليها فحملت فخاف الفضيحة فزين له الشيطان قتلها فلما وجدت مقتولة تبين ما فعل فتعرض له الشيطان قال له اسجد لي أنجيك فسجد له فتركه الشيطان وقال له إني برئ منك وهذا ضعيف في النقل والأول أرجح فكان عاقبتهما أنهما في النار الضميران يعودان على الشيطان والإنسان وفي ذلك تمثيل للمنافقين واليهود ولتنظر نفس ما قدمت لغد هذا أمر بأن تنظر كل نفس ما قدمت من أعمالها ليوم القيامة ومعنى ذلك محاسبة النفس لتكف عن السيئات وتزيد من الحسنات وإنما عبر عن يوم القيامة بغد تقريبا له لأن كل ما هو آت قريب فإن قيل لم كرر الأمر بالتقوى فالجواب من وجهين أحدهما أنه تأكيد والآخر وهو الأحسن أنه أمرا ولا بالتقوى استعدادا ليوم القيامة ثم أمر به ثانيا لأن الله خبير بما يعملون فلما اختلف الموجبات كرره مع كل واحد منهما ولا تكونوا كالذين نسوا الله يعني الكفار والنسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الترك أو الغفلة أي نسوا حق الله فأنساهم حقوق أنفسهم والنظر لها لو أنزلنا هذا القرآن على جبل الآية توبيخ لابن آدم على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن فإنه إذا كان الجبل يخشع ويتصدع لو سمع القرآن فما ظنك بابن آدم عالم الغيب والشهادة أي يعلم ما غاب عن المخلوقين وما شاهدوه وقيل الغيب الآخرة والشهادة الدنيا والعموم أحسن القدوس مشتق من التقديس وهو التنزه عن صفات المخلوقين وعن كل نقص وعيب وصيغة فعول للمبالغة كالسبوح السلام في معناه قولان أحدهما الذي سلم عباده من الجور والآخر السليم من النقائص وأصله مصدر بمعنى السلامة وصف به مبالغة أو على حذف مضاف تقديره ذو السلام المؤمن فيه قولان أحدهما أنه من الأمن أي الذي أمن عباده والآخر أنه من الإيمان أي المصدق لعباده في إيمانهم أو في شهادتهم على الناس يوم القيامة أو المصدق نفسه في أقواله المهيمن في معناه ثلاثة أقوال الرقيب والشاهد والأمين

قال الزمخشري أصله مؤيمن بالهمزة ثم أبدلت هاء الجبار في معناه قولان أحدهما أنه من الإجبار بمعنى القهر والآخر أنه من الجبر أي يجبر عباده برحمته والأول أظهر المتكبر أي الذي له التكبر حقا البارئ أي الخالق يقال أبرأ الله

الخلق أي خلقهم ... 705
112 ولكن البارئ والفاطر يراد بهما الذي برأ الخلق واخترعه المصور أي خالق االصور له الأسماء الحسنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة قال المؤلف قرأت القرآن على الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن الكماد فلما بلغت إلى آخر سورة الحشر قال لي ضع يدك على رأسك فقلت له ولم ذلك قال لأني قرأت على القاضي أبي علي بن أبى الأحوص فلما انتهيت إلى خاتمة الحشر قال لي ضع يدك على رأسك وأسند الحديث إلى عبد الله بن مسعود قال قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم فلما انتهيت إلى خاتمة الحشر قال لي ضع يدك على رأسك قلت ولم ذاك يا رسول الله فداك أبي وأمي قال أقرأني جبريل القرآن فلما انتهيت إلى خاتمة الحشر قال لي ضع يدك على رأسك يا محمد قلت ولم ذاك قال إن الله تبارك وتعالى افتتح القرآن فضرب فيه فلما انتهى إلى خاتمة سورة الحشر أمر الملائكة أن تضع أيديها على رؤوسها فقالت يا ربنا ولم ذاك قال إنه شفاء من كل داء إلا السام والسام الموت

سورة الممتحنة

لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء العدو يطلق على الواحد والجماعة والمراد به هنا كفار قريش وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى مكة عام الحديبية فورى عن ذلك بخيبر فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر وأخبر هو جماعة من كبار أصحابه بقصده إلى مكة منهم حاطب فكتب بذلك حاطب إلى قوم من أهل مكة فجاء الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من السماء فبعث علي بن أبي طالب والزبير والمقداد وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها

ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فانطلقوا حتى وجدوا المرأة فقالوا لها أخرجي الكتاب فقالت ما معي كتاب ففتشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئا فقال بعضهم ما معها كتاب فقال علي بن أبي طالب ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذب الله والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك قالت أعرضوا عني فأخرجته من قرون رأسها وقيل أخرجته من حجزتها فجاؤا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لحاطب من كتب هذا قال أنا يا رسول الله ولكن لا تعجل علي فوالله ما فعلت ذلك ارتدادا عن ديني ولا رغبة في الكفر ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسها فأحببت أن تكون لي عندهم يد يرعونني بها في قرابتي فقال عمر بن الخطاب دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق حاطب إنه من أهل بدر وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم لا تقولوا الحاطب إلا خيرا فنزلت الآية عتابا لحاطب وزجرا عن أن يفعل أحد مثل فعله وفيها مع ذلك تشريف له لأن الله شهد له بالإيمان في قوله يا أيها الذين آمنوا تلقون إليهم بالمودة عبارة عن إيصال المودة إليهم وألقى يتعدى بحرف جر وبغير حرف جر كقوله ألقيت عليك ... 706

113 محبة مني) وهذه الجملة في موضع الحال من الضمير في قوله لا تتخذوا أو في موضع الصفة لأولياء أو استئناف وقد كفروا حال من الضمير في لا تتخذوا أو في تلقون
يخرجون الرسول وإياكم أي يخرجون الرسول ويخرجونكم يعني إخراجهم من مكة فإنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا منها مهاجرين إلى المدينة ومنهم من خرج إلى أرض الحبشة أن تؤمنوا مفعول من أجله أي يخرجونكم من اجل إيمانكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي جواب هذا الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه وهو لا تتخذوا والتقدير إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء وجهادا مصدر في موضع الحال أو مفعول من أجله وكذلك ابتغاء إن يثقفوكم معناه إن يظفروا بكم وودوا لو تكفرون أي تمنو أن تكفروا فتكونون مثلهم قال الزمخشري وإنما قال ودوا بلفظ الماضي بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع لأنهم أرادوا كفركم قبل كل شئ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم إشارة إلى ما قصد حاطب من رعي قرابته يوم القيامة يفصل بينكم يحتمل أن يكون من الفصل بالحكم بينهم أو من الفصل بمعنى التفريق أي يفرق بينكم وبين قرابتكم يوم القيامة وقيل إن العامل في يوم القيامة ما قبله وذلك بعيد قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه الأسوة هو الذي يقتدي به فأمر الله المسلمين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالذين معه في عداوة الكفار والتبرئ منهم ومعنى والذين معه من آمن به من الناس وقيل الأنبياء الذين كانوا في عصره وقريبا من عصره ورجح ابن عطية هذا القول بما ورد في الحديث أن إبراهيم عليه السلام قال لزوجته ما على الأرض مؤمن بالله غيري وغيرك برآء جمع برئ كفرنا بكم أي كذبناكم في أقوالكم ويحتمل أن يكون عبارة عن إفراط البغض والمقاطعة لهم إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك هذا استثناء من قوله أسوة حسنة فالمعنى اقتدوا بهم في

عداوتهم للكفار ولا تقتدوا بهم في هذا لأن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وقيل الاستثناء من التبري والقطيعة والمعنى تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار إلا أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له ربنا عليك توكلنا هذا من كلام سيدنا إبراهيم عليه السلام والذين معه وهو متصل بما قبل 707 ...
114 الاستثناء فهو من جملة ماأمروا أن يقتدوا به ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا في معناه قولان أحدهما لا تنصرهم علينا فيكون ذلك لهم فتنة وسبب ضلالهم لأنهم يقولون غلبناهم فيكون ذلك لهم لأنا على الحق وهم على الباطل والآخر لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا ورجح ابن عطية هذا لأنه دعاء لأنفسهم وأما على القول الأول فهو دعاء للكفار ولكن مقصدهم ليس الدعاء للكفار وإنما هو دعاء لأنفسهم بالنصر بحيث لا يفتتن الكفار بذلك عسى الله أن

يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم فامتثلوا ذلك على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة فعلم الله صدقهم فآنسهم بهذه الآية ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذ سائر قريش وقيل المودة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب سيد قريش ورد ابن عطية هذا القول بأن تزوج أم حبيبة كان قبل نزول هذه الآية لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين رخص الله للمسلمين في مبرة من لم يقاتلهم من الكفار واختلف فيهم على أربعة أقوال الأول أنهم قبائل من العرب منهم خزاعة وبنو الحارث بن كعب كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه الثاني أنهم كانوا من كفار قريش لم يقاتلوا المسلمين ولا أخرجوهم من مكة والآية على هذين القولين منسوخة بالقتال الثالث أنهم النساء والصبيان وفي هذا ورد أن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت يا رسول الله

إن أمي قدمت على وهي مشركة أفأصلها قال نعم صلي أمك الرابع أنه أراد من كان بمكة من المؤمنين الذين لم يهاجروا وأما الذين نهى الله عن مودتهم لأنهم قاتلوا المسلمين وظاهروا على إخراجهم فهم كفار قريش
يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن
أي اختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن وإنما سماهن مؤمنات لظاهر حالهن وقد اختلف في هذا الامتحان على ثلاثة أقوال أحدها أن تستحلف المرأة أنها ما هاجرت لبغضها في زوجها ولا لخوف وغير ذلك من أعراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة والثاني أن يعرض عليها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله والثالث أن تعرض عليها الشروط المذكورة بعد هذا من ترك الإشراك والسرقة وقتل أولادهن وترك الزنا والبهتان والعصيان فإذا أقرت بذلك فهو امتحانها قالته عائشة رضي الله تعالى عنها فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار نزلت هذه الآية أثر صلح الحديبية وكان ذلك الصلح قد تضمن أن يرد المسليمن إلى الكفار وكل من جاء ... 708

---

115 مسلما من الرجال والنساء فنسخ الله أمر النساء بهذه الآية ومنع من رد المؤمنة إلى الكفار إذا هاجرت إلى المسلمين وكانت المرأة التي هاجرت حينئذ أميمة بنت بشر امرأة حسان بن الدحداحة وقيل سبيعة الأسلمية ولما هاجرت جاء زوجها فقال يا محمد ردها علينا فإن ذلك في الشرط الذي لنا عليك فنزلت الآية فامتحنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يردها وأعطى مهرها لزوجها وقيل نزلت في أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط هربت من زوجها إلى المسلمين واختلف في الرجال هل حكمهم في ذلك كالنساء فلا تجوز المهادنة على رد من أسلم منهم أو يجوز حتى الآن على قولين والأظهر الجواز لأنه إنما نسخ ذلك في النساء لاهن حل لهم ولا هم

يحلون لهن هذا تعليل للمنع من رد المرأة إلى الكفار وفيه دليل على ارتفاع النكاح بين المشركين والمسلمات وآتوهم ما أنفقوا يعني أعطوا الكفار ما أعطوا نساءهم من الصدقات اذا هاجرن ثم أباح للمسلمين تزوجهن بالصداق ولا تمسكوا بعصم الكوافر العصم جمع عصمة أي النكاح فأمر الله المسلمين أن يفارقوا نساءهم الكوافر يعني المشركات من عبدة الأوثان فالآية على هذا محكمة وقيل يعني كل كافرة فعلى هذا نسخ منها جواز تزوج الكتابيات لقوله والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وروى أن الآية نزلت في امرأة لعمر بن الخطاب كانت كافرة فطلقها واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا أي اطلبوا من الكفار ما أنفقتم من الصدقات على أزواجكم اللاتي فررن إلى الكفار وليطلب الكفار منكم ما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين وإن فاتكم شئ من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا معنى فاتكم شئ من أزواجكم إلى الكفار هروب نساء المسلمين إلى الكفار والخطاب في قوله فعاقبتم وآتوا الذين ذهبت أزواجهم للمسلمين وقوله عاقبتم ليس من العقاب على الذنب وإنما هو من العقبى أى أصبتم عقبى وهي

الغنيمة أو من التعاقب على الشئ كما يتعاقب الرجلان على الدابة اذا ركبها هذا مرة وهذا مرة أخرى فلما كان نساء المسلمين يهربون إلى الكفار ونساء الكفار يهربون إلى المسلمين جعل ذلك كالتعاقب على النساء وسبب الآية أنه لما قال الله واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا قالوا الكفار لا يرضى بهذا الحكم ولا نعطي صداق من هربت زوجته إلينا من المسلمين فأنزل الله هذه الآية الأخرى وأمر الله المسلمين أن يدفعوا الصداق لمن هربت زوجته إلينا من المسلمين إلى الكفار ويكون هذا المدفوع من مال الغنائم على قول من قال إن معنى فعاقبتم غنمتم وقيل من مال الفئ وقيل من الصدقات التي كانت تدفع للكفار إذا فر أزواجهم إلى المسلمين فأزال الله دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه وهذه الأحكام التي تضمنتها هذه الآية قد ارتفعت لأنها نزلت في قضايا معينة وهي مهادنة النبي صلى الله عليه وسلم مع مشركي العرب ثم زالت هذه الأحكام بارتفاع الهدنة فلا تجوز مهادنة المشركين من العرب إنما هو في حقهم الإسلام أو السيف وإنما تجوز مهادنة أهل الكتاب والمجوس لأن الله قال في المشركين اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وقال في أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية وقال النبي صلى الله عليه وسلم ... 709

---

116 في المجوس سنوا بهم سنة أهل الكتاب يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك هذه البيعة بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايعهن بالكلام ولا تمس يده يد امرأة ورد هذا في الحديث الصحيح عن عائشة وروى أنه صلى الله عليه وسلم لف على يده ثوبا كثيفا ثم لمس النساء يده كذلك وقيل إنه غمس يده في إناء فيه ماء ثم دفعه

إلى النساء فغمسن أيديهن فيه ولا يأتين بهتان معناه عند الجمهور أن تنسب المرأة إلى زوجها ولدا ليس له وكانت المرأة تلتقط الولد فتقول لزوجها هذا ولدي منك وإنما قال يفترينه بين أيديهن وأرجلهن لأن بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها وفرجها الذي تلده به بين رجليها واختار ابن عطية أن يكون البهتان هنا على العموم بأن ينسب للرجل غير ولده أو تفتري على أحد بالقول أو تكذب فيما ائتمنها الله عليه من الحيض والحمل وغير ذلك وإلى هذا أشار بعض الناس بأن قال بين أيديهن يراد به اللسان والفم وبين الأرجل يراد به الفرج ولا يعصينك في معروف أي لا يعصينك فيما جاءت به الشريعة من الأوامر والنواهي ومن ذلك النهي عن النياحة وشق الجيوب ووصل الشعر وغير ذلك مما كان نساء الجاهلية يفعلنه وورد في الحديث أن النساء لما بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه االمبايعة فقررهن على أن لا يسرقن قالت هند بنت عتبة وهي امرأة أبي سفيان بن حرب يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح فهل على إن أخذت من ماله بغير إذنه فقال لها خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف فلما قررهن على أن لا يزنين قالت هند يا رسول الله أتزني الحرة فقال عليه الصلاة والسلام لا تزني الحرة يعني في غالب المرأة وذلك أن الزنا في قريش إنما كان في الاماء فلما قال ولا يقتلن أولادهن قالت نحن ربيناهم صغارا وقتلتهم أنت ببدر كبارا فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقفهن على أن لا يعصينه في معروف قالت ما جلسنا

هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك وهذه المبايعة للنساء غير معمول بها اليوم لأنه أجمع العلماء على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا فإما أن تكون منسوخة ولم يذكر الناسخ أو يكون ترك هذه الشروط لأنها قد تقررت وعلمت من الشرع بالضرورة فلا حاجة إلى اشتراطها لا تتولوا قوما غضب الله عليهم يعني اليهود وكان بعض فقراء المسلمين يتودد إليهم ليصيبوا من أموالهم وقيل يعني كفار قريش والأول أظهر لأن الغضب قد صار عرفا لليهود كقوله غير المغضوب عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور من قال إن القوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود فمعنى يئسوا من الآخرة يئسوا من خير الآخرة والسعادة فيها ومن قال إن القوم الذين غضب الله عليهم هم كفار قريش فالمعنى يئسوا من وجود الآخرة وصحتها لأنهم مكذبون بها تكذيبا جزما وقوله كما يئس الكفار من أصحاب القبور يحتمل وجهين أحدهما أن يريد كما يئس الكفار المكذبون بالبعث من بعث أصحاب القبور فقوله من أصحاب ... 710

---

117 يتعلق بيئس وهو على حذف مضاف والآخر أن يكون من أصحاب القبور لبيان الجنس أي كما يئس الذين في القبور من سعادة الآخرة لأنهم تيقنوا أنهم يعذبون فيها
سورة الصف أو سورة الحواريين

(لم تقولون مالا تفعلون) في سببها ثلاثة أقوال أحدها قول ابن عباس أن جماعة قالوا وددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى الله فنعمله ففرض الله الجهاد فكرهه قوم فنزلت الآية والآخر أن قوما من شبان المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا ويقولون فعلنا وصنعنا وذلك كذب فنزلت الآية زجرا لهم والثالث أنها نزلت في المنافقين لأنهم كانوا يقولون للمؤمنين نحن معكم ومنكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك وهذا ضعيف لأنه خاطبهم بقوله يا أيها الذين آمنوا إلا أن يريد أنهم آمنوا بزعمهم وفيما يظهرون ومع ذلك فحكم الآية على العموم في زجر من يقول ما لا يفعل كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون كان بعض السلف يستحي أن يعظ الناس لأجل هذه الآية ويقول أخاف من مقت الله والمقت هو البغض لريبة أو نحوها وانتصب مقتا على التمييز وأن تقولوا فاعل وقيل فاعل كبر محذوف تقديره كبر فعلكم مقتا وأن تقولوا بدل من الفاعل المحذوف أو خبر ابتداء مضمر إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ورود هذه الآية هنا دليل على أن الآية التي قبلها في شأن القتال وقال بعض الناس قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان لأن التراص فيه يتمكن أكثر مما يتمكن للفرسان قاله ابن عطية وهذا ضعيف خفي على قائله مقصد الآية وليس المراد نفس التراص وإنما المراد الثبوت والجد في القتال كأنهم بنيان مرصوص المرصوص هو الذي يضم بعضه إلى بعض وقيل هو المعقود بالرصاص ولا يبعد أن يكون هذا أصل اللفظ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني كانوا يؤذونه بسوء الكلام وبعصيانه وتنقيصه وانظر في الأحزاب ولا تكونوا كالذين آذوا موسى وقد تعلمون أني رسول الله إليكم هذا إقامة حجة عليهم

وتوبيخ لهم وتقبيح لإذايته مع علمهم بأنه رسول الله ولذلك أدخل قد الدالة على التحقيق
فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم
هذه عقوبة على الذنب بذنب وزيغ القلب هو ميله عن الحق وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إنما قال موسى يا قوم وقال عيسى يا بني إسرائيل لأنه لم يكن له فيهم أب مصدقا لما بين يدي من التوراة معناه مذكور في البقرة في قوله مصدقا لما معكم ومبشرا برسول عن كعب أن الحواريين قالوا لعيسى يا روح ... 711

---

118 الله هل بعدنا من أمة قال نعم أمة أحمد حكماء علماءأتقياء أبرار اسمه أحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الله الناس على قدمي وأنا العاقب فلا نبي بعدي وأحمد مشتق من الحمد ويحتمل أن يكون فعلا سمى به أو يكون صفة سمى بها كأحمد ويحتمل أن يكون بمعنى حامد أو بمعنى محمود كمحمد فلما جاءهم بالبينات يحتمل أن يريد عيسى أو

محمد عليهما الصلاة والسلام ويؤيد الأول اتصاله بما قبله ويؤيد الثاني قوله وهو يدعي إلى الإسلام لأن الداعي إلى الإسلام هو محمد صلى الله عليه وسلم يريدون ليطفؤا نور الله ذكر في براءة تؤمنون بالله الآية تفسير للتجارة المذكورة قال الأخفش هو عطف بيان عليها يغفر لكم جزم في جواب تؤمنون لأنه بمعنى الأمر وقد قرأه ابن مسعود آمنوا وجاهدوا على الأمر لأنه يقتضي التحضيض وأخرى تحبونها ارتفع أخرى على أنه خبر ابتداء مضمر تقديره ولكم نعمة أخرى أو انتصب على أنه مفعول بفعل مضمر تقديره ويمنحكم أخرى نصر من الله تفسير لأخرى فهو بدل منها وبشر المؤمنين قال الزمخشري عطف على تؤمنون بالله لأنه في معنى الأمر كونوا أنصار الله جمع ناصر وقد غلب اسم الأنصار على الأوس والخزرج سماهم الله به وليس ذلك المراد هنا كما قال عيسى ابن مريم هذا التشبيه محمول على المعنى لأن ظاهره كونوا أنصار الله كقول عيسى والمعنى كونوا أنصار الله كما قال الحواريون حين قال لهم عيسى من أنصاري إلى الله وقد ذكر في آل عمران معنى الحواريين وأنصاري إلى الله فأصبحوا ظاهرين قيل إنهم ظهروا بالحجة وقيل إنهم غلبوا الكفار بالقتال بعد رفع عيسى عليه السلام وقيل إن ظهور المؤمنين منهم هو بمحمد صلى الله عليه وسلم

سورة الجمعة

القدوس ذكر في الحشر هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يعني سيدنا

محمدا صلى الله عليه وسلم ... 712

119 والأميين هم العرب وقد ذكر معنى الأمي في الأعراف

وآخرين منهم عطفا على الأميين وأراد بهؤلاء فارس وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء الآخرون فأخذ بيد سلمان الفارسي وقال لو كان العلم بالثريا لناله رجال من هؤلاء يعني فارس وقيل هم الروم ومنهم على هذين القولين يريد به في البشرية وفي الدين لا في النسب وقيل هم أهل اليمن وقيل التابعون وقيل هم سائر المسلمين والأول أرجح لوروده في الحديث الصحيح لما يلحقوا بهم أي لم يلحقوا بهم لنفي وسيلحقون وذلك أن لما الذكر الماضي القريب من الحال ذلك فضل الله إشارة إلى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهداية الناس به مثل الذين حملوا التوراة يعني اليهود ومعنى حملوا التوراة كلفوا العمل بها والقيام بأوامرها ونواهيها ولم يحملوها لم يطيعوا أمرها ولم يعملوا بها شبههم الله بالحمار الذي يحمل الأسفار على ظهره ولم يدر ما فيها بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله يعني اليهود الذين كذبوا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وهم الذين حملوا التوراة ولم يحملوها لأن التوراة تنطق بنبوته صلى الله عليه وسلم فكل من قرأها ولم يؤمن به فقد خالف التوراة فتمنوا الموت ذكر في البقرة

إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله

النداء للصلاة هو الأذان لها ومن في قوله من يوم الجمعة لبيان إذا وتفسير له وذكر الله يراد به الخطبة والصلاة ويتعلق بهذه الآية ثمان مسائل الأولى اختلف في الأذان للجمعة هل هو سنة كالأذان لسائر الصلوات أو واجب لظاهر الآية لأنه شرط في السعي لها أن يكون عند الأذان والسعي واجب فالأذان واجب

الثانية كان الأذان للجمعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جدار المسجد وقيل على باب المسجد وقيل كان بين يديه صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر وقد كان بنو أمية يأخذون بهذا وبقي بقرطبة زمانا وهو

(3/174)

باق في المشرق إلى الآن قال أبو محمد بن الفرس قال مالك في المجموعة إن هشام ابن عبد الملك هو الذي أحدث الأذان بين يديه قال وهذا دليل على أن الحديث في ذلك ضعيف الثالث كان الأذان للجمعة واحد ثم زاد عثمان رضي الله عنه النداء على الزوراء ليسمع الناس واختلف الفقهاء هل المستحب أن يؤذن فيها اثنان أو ثلاثة الرابعة السعي في الآية بمعنى المشي لا بمعنى الجري وقرأ عمر بن الخطاب فامضوا إلى ذكر الله وهذا تفسير للسعي فهو بخلاف السعي في قول رسول الله ... 713

(3/175)

---

120 صلى الله عليه وسلم إذا نودي للصلاة فلا تأتونها وأنتم تسعون الخامسة حضور الجمعة واجب لحمل الأمر الذي في الآية على الوجوب باتفاق إلا أنها لا تجب على المرأة ولا على الصبي ولا على المريض باتفاق ولا على العبد والمسافر عند مالك والجمهور خلافا للظاهرية وتعلقوا بعموم الآية وحجة الجمهور قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة واجبة على كل مسلم في جماعة إلا أربعة عبد مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض وحجتهم في المسافر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقيم الجمعة في السفر واختلف هل تسقط الجمعة بسبب المطر أم لا وهل يجوز للعروس التخلف عنها أم لا والمشهور أنها لا تسقط عنه لعموم الآية السادسة اختلف متى يتعين الإقبال إلى الصلاة فقيل إذا زالت الشمس وقيل إذا أذن المؤذن وهو ظاهر الآية السابعة اختلف في الموضع الذي يجب منه السعي إلى الجمعة فقيل ثلاثة أميال وهو مذهب مالك وقيل ستة أميال وقيل تجب على من كان داخل المصر وقيل على من سمع النداء وقيل على من آواه الليل إلى أهله الثامنة اختلف في الوالي هل هو من شرط الجمعة أم لا على قولين والمشهور سقوطه لأن الله لم يشترطه في الآية وذروا البيع أمر بترك البيع يوم الجمعة إذا أخذ المؤذنون في الأذان وذلك على الوجوب فيقتضي تحريم البيع واختلف في البيع الذي يعقد في ذلك الوقت هل يفسخ أم لا واختلف في بيع من لا تلزمهم الجمعة من النساء والعبد هل يجوز في ذلك الوقت أم لا والأظهر جوازه لأنه إنما منع منه من يدعي إلى الجمعة ويجري النكاح في ذلك الوقت مجري البيع في المنع فانتشروا في الأرض هذا الأمر للإباحة باتفاق وحكى الإجماع على ذلك ابن عطية وابن الفرس وابتغوا من فضل الله قيل معناه طلب المعاش فالأمر على هذا للإباحة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الفضل المبتغى عيادة مريض أو صلة صديق أو اتباع جنازة وقيل هو طلب العلم وإن صح الحديث لم يعدل إلى

سواه وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها سبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائما على المنبر يخطب يوم الجمعة فأقبلت عير من الشام بطعام وصاحب أمرها دحية بن خليفة الكلبي وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سرورا بها فلما دخلت العير كذلك انفض أهل المسجد إليها وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما على المنبر ولم يبق معه إلا اثنى عشر رجلا قال جابر ابن عبد الله أنا أحدهم وذكر بعضهم أن منهم العشرة المشهود لهم بالجنة واختلف في الثانى عشرة فقيل عبد الله مسعود وقيل عمار بن ياسر وقيل إنما بقي معه صلى الله عليه وسلم ثمانية وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لهؤلاء لقد كانت الحجارة سومت في السماء على المنفضين وظاهر الآية يقتضي أن الجماعة شرط في الجمعة وهو مذهب مالك والجمهور ألا أنهم اختلفوا في مقدار الجماعة الذين تنعقد بهم الجمعة فقال مالك ليس في ذلك عدد محدود وإنما هم جماعة تقوم بهم قرية وروى ابن الماجشون عن مالك ثلاثون وقال الشافعي أربعون وقال أبو حنيفة ثلاثة مع الامام وقيل اثنى عشر عدد الذين بقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فإن قيل لم قال انفضوا إليها بضمير المفرد وقد ذكر التجارة واللهو فالجواب من وجهين أحدهما أنه أراد انفضوا إلى اللهو وانفضوا إلى التجارة ثم حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه قاله الزمخشري والآخر أنه ... 714

121 قال ذلك تهمما بالتجارة إذ كانت أهم وكانت هي سبب اللهو ولم يكن سببها قاله ابن عطية وتركوك قائما اختلفوا في القيام في الخطبة هل هو واجب أم لا وإذا قلنا بوجوبه فهل هو شرط فيها أم لا فمن أوجبه واشترطه أخذ بظاهر الآية من ذكر القيام ومن لم يوجبه رأى أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك لم يكن على الوجوب ومذهب مالك أن من سنة الخطبة الجلوس قبلها والجلوس بين الخطبتين وقال أبو حنيفة لا يجلس بين الخطبتين لظاهر الآية وذكر القيام فيها دون الجلوس وحجة مالك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة إن قيل لم قدم اللهو هنا على التجارة وقدم التجارة قبل هذا على اللهو فالجواب أن كل واحد من الموضعين جاء على ما ينبغي فيه وذلك أن العرب تارة يبتدؤن بالأكثر ثم ينزلون إلى الأقل كقولك فلان يخون في الكثير والقليل فبدأت بالكثير ثم أردفت عليه الخيانة فيما دونه وتارة يبتدؤن بالأقل ثم يرتقون إلى الأكثر كقولك فلان أمين على القليل والكثير فبدأت بالقليل ثم أردفت عليه الأمانة فيما هو أكثر منه ولو عكست في كل واحد من المثالين لم يكن حسنا فإنك لو قدمت في الخيانة القليل لعلم أنه يخون في الكثير من باب أولى وأحرى ولو قدمت في الأمانة ذكر الكثير لعلم أنه أمين في القليل من باب أولى وأحرى فلم يكن لذكره بعد ذلك فائدة وكذلك قوله إذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها قدم التجارة هنا ليبين أنهم ينفضون إليها وأنهم مع ذلك ينفضون إلى اللهو الذي هو

دونها وقوله خير من اللهو ومن االتجارة قدم اللهو ليبين أن ما عند الله خير من اللهو وأنه أيضا خير من التجارة التي هي أعظم منه ولو عكس كل واحد من الموضعين لم يحسن
سورة المنافقون
إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم فلذلك كذبهم الله بقوله والله يعلم إن المنافقين لكاذبون أي

كذبوا في دعواهم الشهادة بالرسالة وأما قوله
والله يعلم إنك لرسوله فليس من كلام المنافقين وإنما هو من كلام الله تعالى ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون إبطال للرسالة فوسطه بين حكاية المنافقين وبين تكذيبهم ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة وعلى هذا ينبغي أن يوقف على قوله لرسول الله جنة ذكر في المجادلة ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا الإشارة إلى سوء عملهم وفضيحتهم وتوبيخهم وأما قوله آمنوا ثم كفروا فيحتمل وجهين احدهما أن يكون ... 715

---

122 فيمن آمن منهم أيمانا صحيحا ثم نافق بعد ذلك والآخر أن يريد آمنوا في الظاهر كقوله اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم يعني أنهم حسان الصور وإن يقولوا تسمع لقولهم يعني أنهم فصحاء الخطاب والضمير في قوله وإذا رأيتهم تعجبك وفي قوله تسمع لقولهم للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل مخاطب كأنهم خشب مسندة شبههم بالخشب في قلة أفهامهم فكان لهم منظر بلا مخبر وقال الزمخشري إنما شبههم بالخشب المسندة إلى حائط لأن الخشب إذا كانت كذلك لم يكن فيها منفعة بخلاف الخشب التي في سقف أو مغروسة في جدار فإن فيها حينئذ منفعة فالتشبيه على هذا في عدم المنفعة وقيل كانوا يستندون في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فشبههم في استنادهم بالخشب المسندة إلى الحائط يحسبون كل صيحة عليهم عبارة عن شدة خوفهم من المسلمين وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا صياحا ظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بقتلهم قاتلهم الله الدعاء عليهم يتضمن ذمهم وتقبيح أحوالهم أني يؤفكون أي كيف يصرفون عن الإيمان مع ظهوره وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم أي أمالوها إعراضا واستكبارا وقصص هذه الآية وما بعدها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في غزوة بني المصطلق فبلغ الناس إلى ماء ازدحموا عليه فكان ممن ازدحم عليه جهجاه بن سعيد أجير لعمر بن الخطاب وسنان الجهني حليف لعبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين فلطم الجهجاه سنان فغضب سنان ودعا بالأنصار ودعا جهجاه بالمهاجرين فقال عبد الله بن أبي والله ما مثلنا ومثل هؤلاء يعني المهاجرين إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ثم قال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يعني بالأعز نفسه وأتباعه ويعني بالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ثم قال

لقومه إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم ولو قطعتم ذلك عنهم

لفروا عن مدينتكم فسمعه زيد بن أرقم فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول فحلف أنه ما قال من ذلك شيئا وكذب زيدا فنزلت السورة عند ذلك فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زيد وقال لقد صدقك الله يا زيد فخزي عبد الله بن أبي ابن سلول ومقته الناس فقيل له امض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك فلوى رأسه إنكارا لهذا الرأي وقال أمرتوني بالإسلام فأسلمت وأمرتوني بأداء زكاة مالي ففعلت ولم يبق لكم إلا أن تأمروني أن أسجد لمحمد ثم مات عبد الله بن أبي بعد ذلك بقليل وأسندت هذه الأقوال التي قالها عبد الله بن أبي إلى ضمير الجماعة لأنه كان له أتباع من المنافقين يوافقونه عليها سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم روى أنه لما نزلت إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأزيدن على السبعين فلما فعل عبد الله بن أبي وأصحابه ما فعلوا شدد الله عليهم في هذه السورة وأخبر أنه لا يغفر لهم بوجه وفي هذا نظر لأن هذه االسورة نزلت ... 716

---

123 في غزوة بني المصطلق قبل الآية الأخرى بمدة لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله أي لا تشغلكم وذكر الله هنا على العموم في الصلاة والدعاء والعبادة وقيل يعني الصلاة المكتوبة والعموم أولى وأنفقوا مما رزقناكم عموم في الزكاة وصدقة التطوع والنفقة في الجهاد وغير ذلك وقيل يعني الزكاة المفروضة والعموم أولى وأكن من الصالحين بالجزم عطف على موضع جواب الشرط وقرأ أبو عمرو فأكون بالنصب عطف علي فأصدق
سورة التغابن
هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن في تأويل الآية وجهان أحدهما الذي خلقكم فكان يجب على كل واحد منكم الإيمان به لكن منكم من كفر ومنكم من آمن فالكفر والأيمان على هذا هو من اكتساب العبد والآخر أن المعنى هو الذي خلقكم على صنفين فمنكم من خلقه مؤمنا ومنكم من خلقه كافرا فالأيمان والكفر على هذا هو ما قضى الله على كل واحد والأول أظهر لأنه عطفه على خلقكم بالفاء يقتضي أن الكفر والإيمان واقعان بعد الخلقة لافي أصل الخلقة خلق السموات والأرض بالحق ذكر معناه في مواضع وصوركم فأحسن صوركم تعديد نعمة في حسن خلقة بني آدم لأنهم أحسن صورة من جميع أنواع الحيوان وإن وجد بعض الناس قبيح المنظر فلا يخرجه ذلك عن حسن الصور الإنسانية وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه من الناس وقيل يعني العقل والإدراك الذي خص به الإنسان والأول أرجح لأن الصورة إنما تطلق على الشكل ألم يأتكم خطاب لقريش وسائر الكفار ... 717

124 فقالوا أبشر يهدوننا معناه أنهم استبعدوا أن يرسل الله بشرا أو تكبروا عن اتباع بشر والبشر يقع على الواحد والجماعة زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قال عبد الله بن عمر زعم كناية عن كذب يوم يجمعكم العامل في يوم لتنبؤن أو محذوف تقديره اذكر ويحتمل أن يكون مبتدأ وخبره ذلك يوم التغابن يعني يوم القيامة والتغابن مستعار من تغابن الناس في التجارة وذلك إذا فاز السعداء بالجنة فكأنهم غبنوا الأشقياء في منازلهم التي كانوا ينزلون منها لو كانوا سعداء فالتغابن على هذا بمعنى الغبن وليس على المتعارف في صيغة تفاعل من كونه بين اثنين كقولك تضارب وتقاتل إنما هي فعل واحد كقولك تواضع قال ابن عطية وقال الزمخشري يعني نزول السعداء منازل الأشقياء ونزول الأشقياء منازل السعداء والتغابن على هذا بين اثنين قال وفيه تهكم بالأشقياء لأن نزولهم في جهنم ليس في الحقيقة بغبن للسعداء ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله يحتمل أن يريد بالمصيبة الرزايا وخصها بالذكر لأنها أهم على الناس أو يريد جميع الحوادث من خير أو شر وبإذن الله عبارة عن قضائه وإرادته تعالى ومن يؤمن بالله يهد قلبه قيل معناه من يؤمن بأن كل شئ بإذن الله يهد الله قلبه للتسليم والرضا بقضاء الله وهذا أحسن إلا أن العموم أحسن منه إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم سببها أن قوما أسلموا وأرادوا الهجرة فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة فحذرهم الله من طاعتهم في ذلك وقيل نزلت في عوف بن مالك الأشجعي وذلك أنه أراد الجهاد فاجتمع أهله وأولاده فشكوا من فراقه فرق لهم ورجع ثم إنه ندم وهم بمعاقبتهم فنزلت الآية محذرة من فتنة الأولاد ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله

وإن تعفوا وتصفحوا الآية ولفظ الآية مع ذلك على عمومه في التحذير ممن يكون للإنسان عدوا من أهله وأولاده سواء كانت عداوتهم بسبب الدين أو الدنيا والله عنده أجر عظيم ترغيب في الأخرة

وتزهيد في الأموال والأولاد التي فتن الناس بها فاتقوا الله ما استطعتم قيل إن هذا ناسخ لقوله اتقوا الله ... 718

125 حق تقاته وروى أنه لما نزل حق تقاته شق ذلك على الناس حتى نزل ما استطعتم وقيل لا نسخ بينهما لأن حق تقاته معناه فيما استطعتم إذ لا يمكن أن يفعل أحد إلا ما يستطيع وهذه الآية على هذا مبينة لتلك وتحرز بالاستطاعة من الاكراه والنسيان ومالا يؤاخذ به العبد وإعراب ما في قوله ما استطعتم ظرفيه خيرا لأنفسكم منصوب بإضمار فعل لا يظهر عند سيبويه وقيل هو مفعول بأنفقوا لأن الخير بمعنى المال وقيل هو نعت لمصدر محذوف تقديره أنفقوا إنفاقا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه ذكر في الحشر إن تقرضوا ذكر في البقرة والله شكور حكيم ذكر في اللغات

سورة الطلاق

يا أيها النبي إذا طلقتم النساء إن قيل لم نودي النبي صلى الله عليه وسلم وحده ثم جاء بعد ذلك خطاب الجماعة فالجواب أنه لما كان حكم الطلاق يشترك فيه النبي صلى الله عليه وسلم وأمته قيل إذا طلقتم خطابا له ولهم وخص هو عليه الصلاة والسلام بالنداء تعظيما له كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم يا فلان افعلوا أي افعل أنت وقومك ولأنه عليه الصلاة والسلام هو المبلغ لأمته فكأنه قال يا أيها النبي إذا طلقت أنت وأمتك وقيل تقديره يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم وهذا ضعيف لأنه يقتضي أن هذا الحكم مختص بأمته دونه وقيل إنه خوطب النبي صلى الله عليه وسلم بطلقتم تعظيما له كما تقول للرجل المعظم أنتم فعلتم وهذا أيضا ضعيف لأنه يقتضي اختصاصه عليه الصلاة والسلام بالحكم دون أمته ومعنى إذا طلقتم هنا إذا أردتم الطلاق واختلف في الطلاق هل هو مباح أو مكروه فأما إذا كان على غير وجه السنة فهو ممنوع ولكن يلزم وأما اليمين بالطلاق فممنوع فطلقوهن لعدتهن تقديره طلقوهن مستقبلات لعدتهن ولذلك قرأ عثمان وابن عباس وأبي بن كعب فطلقوهن في قبل عدتهن وقرأ ابن عمر لقبل

عدتهن ورويت القراءتان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى ذلك كله لا يطلقها وهي حائض فهو منهى عنه بإجماع لأنه إذا فعل ذلك لم يقع طلاقه في الحال التي أمر الله بها وهو استقبال العدة واختلف في النهي عن الطلاق في الحيض هل هو معلل بتطويل العدة أو هو تعبد والصحيح أنه معلل بذلك وينبني على هذا الخلاف فروع منها هل يجوز إذا رضيت به المرأة أم لا ومنها هل يجوز طلاقها في الحيض وهي حامل أم لا ومنها هل يجوز طلاقها قبل الدخول وهي حائض أم لا فالتعليل بتطويل العدة يقتضي جواز هذه الفروع والتعبد يقتضي المنع ومن طلق في الحيض لزمه الطلاق ثم يؤمر بالرجعة على وجه الإجبار عند مالك ... 719

---

126 وبدون إجبار عند الشافعي حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء طلق وإن شاء أمسك حسبما ورد في حديث ابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له مرة فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء طلق وإن شاء أمسك واشترط مالك أن يطلقها في طهر لم يمسها فيه ليعتد بذلك الطهر فإنه إن طلقها في طهر بعد أن جامعها فيه فلا تدري هل تعتد بالوضع أو بالأقراء فليس طلاقا لعدتها كما أمر الله وأحصوا العدة أمر بذلك لما ينبني عليها من الأحكام في الرجعة والسكني والميراث وغير ذلك لاتخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن نهى الله سبحانه وتعالى أن يخرج الرجل المرأة المطلقة من المسكن الذي طلقها فيه ونهاها هي أن تخرج باختيارها فلا يجوز لها المبيت خارجا عن بيتها ولا أن تغيب عنه نهارا إلا لضرورة التصرف وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة فإن كان المسكن ملكا للزوج أو مكترى عنده لزمه إسكابها فيه وإن كان المسكن لها

فعليه كراؤه مدة العدة وإن كانت قد أمتعته فيه مدة الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب والصحيح لزومه لأن الامتناع قد انقطع بالطلاق إلا أن يأتين بفاحشة مبينة اختلف في هذه الفاحشة التي أباحت خروج المعتدة ما هي على خمسة أقوال الأول أنها الزنا فتخرج لإقامة الحد قاله الليث بن سعدو والشعبي الثاني أنه سوء الكلام مع الأصهار فتخرج ويسقط حقها من السكني ويلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظا للنسب قاله ابن عباس ويؤيده قراءة أبي بن كعب إلا أن يفحشن عليكم الثالث أنه جميع المعاصي من القذف والزنا والسرقة وغير ذلك فمتى فعلت شيئا من ذلك سقط جقها في السكني قاله ابن عباس أيضا وإليه مال الطبري الرابع أنه الخروج عن بيتها خروج انتقال فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكني قاله ابن الفرس وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في العدة الخامس أنه النشوز قبل الطلاق فإذا طلقها بسبب نشوزها فلا

يكون عليه سكني قاله قتادة لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا المراد به الرجعة عند الجمهور أي أحصوا العدة وامتثلوا ما أمرتم به لعل الله يحدث الرجعة لنسائكم وقيل إن سبب الرجعة المذكورة في الآية تطليق النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة بنت عمر فأمره الله بمراجعتها فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف يريد آخر العدة والإمساك بمعروف هو تحسين العشرة وتوفية النفقة والفراق بالمعروف هو أداء الصداق والإمتاع حين الطلاق والوفاء بالشروط ونحو ذلك وأشهدوا ذوي عدل منكم هذا خطاب للأزواج والمأمور به هو الإشهاد على الرجعة عند الجمهور وقد اختلف فيه هل هو واجب أو مستحب على قولين في المذهب وقال ابن عباس هو الشهادة على الطلاق وعلى الرجعة وهذا أظهر لأن الإشهاد به يرفع الإشكال والنزاع ولا فرق في هذا بين الرجعة والطلاق وقد ذكرنا العدالة في البقرة وقوله ذوي عدل يدل على أنه إنما يشهد في الطلاق والنكاح الرجال دون النساء وهو مذهب مالك خلافا لمن أجاز شهادة النساء في ذلك وقوله منكم يريد من المسلمين وقيل من الأحرار فيؤخذ من ذلك رد ... 720

---

127 شهادة العبيد وهو مذهب مالك
وأقيموا الشهادة لله هذا خطاب للشهود وإقامة الشهادة يحتمل أن يريد بها القيام فإذا استشهد وجب عليه أن يشهد وهو فرض كفاية وإلى هذا المعنى أشار ابن الفرس ويحتمل أن يريد إقامتها بالحق دون ميل ولا غرض وبهذا فسره الزمخشري وهو أظهر لقوله لله وهو كقوله كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ذلكم إشارة إلى ما تقدم من الأحكام ومن يتق الله يجعل له مخرجا قيل إنها في الطلاق ومعناها من يتق الله فيطلق طلقة واحدة حسبما تقتضيه السنة يجعل له مخرجا بجواز الرجعة متى قدم على الطلاق وفي هذا المعنى روى عن ابن عباس أنه قال لمن طلق ثلاثا إنك لم تتق الله فبانت منك امرأتك

ولا أرى لك مخرجا أي لا رجعة لك وقيل إنها على العموم أي من يتق الله في أقواله وأفعاله يجعل له مخرجا من كرب الدنيا والآخرة وقد روى هذا أيضا عن ابن عباس وهذا أرجح لخمسة أوجه أحدها حمل اللفظ على عمومه فيدخل في ذلك الطلاق وغيره الثاني أنه روى أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي وذلك أنه أسر ولده وضيق عليه رزقه فشكى ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره بالتقوى فلم يلبث إلا يسيرا وانطلق ولده ووسع الله رزقه والثالث أنه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأها فقال مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة والرابع روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ومن يتق الله يجعل له مخرجا الآية فما زال يقرؤها ويعيدها الخامس قوله ويرزقه من حيث لا يحتسب فإن هذا لا يناسب الطلاق وإنما يناسب التقوى على العموم قال بعض العلماء الرزق على نوعين رزق مضمون لكل حي طول عمره وهو الغذاء الذي تقوم به الحياة وإليه الإشارة بقوله وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ورزق موعود للمتقين خاصة وهو المذكور في هذه الآية ومن يتوكل على الله فهو حسبه أي كافيه

(3/188)

بحيث لا يحتاج معه إلى غيره وقد تكلمنا على التوكل في آل عمران إن الله بالغ أمره أي يبلغ ما يريد ولا يعجزه شئ هذا حض على التوكل وتأكيد له لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله توكل عليه وحده ولم يعول على سواه قد جعل الله لكل شئ قدرا أي مقدارا معلوما ووقتا محدودا واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهم ثلاثة أشهر روي أنه لما نزل قوله والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء قالوا يا رسول الله فما عدة من لاقرء لها من صغر أو كبر فنزلت هذه الآية معلمة أن المطلقة إذا كانت ممن لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر فقوله اللائي يئسن من المحيض يعني التي انقطعت حيضتها لكبر سنها وقوله واللائي لم يحضن يعني الصغيرة التي لم تبلغ المحيض وهو معطوف على اللائي يئسن أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره واللائي لم يحضن كذلك وقوله إن ارتبتم هو من الريب بمعنى الشك وفي معناه قولان أحدهما إن ارتبتم في حكم عدتها فاعلموا أنها ثلاثة أشهر والآخر إن ارتبتم في حيضها هل انقطع أو لم ينقطع فهي على التأويل الأول في التي انقطعت حيضها لكبر سنها حسبما ذكرنا وهو الصحيح وهي ... 721

(3/189)

---

128 على التأويل الثاني في المرتابة وهي التي غابت عنها الحيضة وهي في سن من تحيض وقد اختلف العلماء في عدتها على ثلاثة أقوال أحدها أنها ثلاثة أشهر خاصة حسبما تقتضيه الآية على هذا التأويل والآخر أنها ثلاثة أشهر بعد تسعة أشهر تستبرئ بها أمد الحمل وهذا مذهب مالك وقدوته في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه والثالث أنها تعتد بالأقراء ولو بقيت ثلاثين سنة حتى تبلغ سن من لا تحيض وهومذهب الشافعي وأبي حنيفة وأولات الأحمال أجلهن

أن يضعن حملهن هذه الآية عند مالك والشافعي وأبي حنيفة وسائر العلماء عامة في المطلقات والمتوفي عنهن فمتى كانت إحداهن حاملا فعدتها وضع حملها وقال علي بن أبي طالب وابن عباس إنما هذه الآية في المطلقات الحوامل فهن اللاتي عدتهن وضع حملهن وأما المتوفي عنها إذا كانت حاملا فعدتها عندهما أبعد الأجلين إما الوضع أو انقضاء الأربعة الأشهر وعشرا فحجة الجمهور حديث سبيعة الأسلمية أنها كانت زوجا لسعد بن خولة فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حبلى فلما وضعت خطبها أبو السنابل بن بعكك فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها انكحي من شئت وقد ذكر أن ابن عباس رجع إلى هذا الحديث لما بلغه ولو بلغ عليا رضي الله عنه لرجع إليه وقال عبد الله بن مسعود إن هذه الآية التي نزلت في سورة النساء القصري يعني سورة الطلاق نزلت بعد الآية التي في البقرة والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فهي مخصصة لها حسبما قاله جمهور العلماء أسكنوهن من حيث سكنتم أمر الله بإسكان المطلقة طول العدة فأما المطلقة غير المبتوتة فيجب لها على زوجها السكنى والنفقة باتفاق وأما المبتوتة ففيها ثلاثة أقوال أحدها أنها يجب لها السكنى دون النفقة وهو مذهب مالك والشافعي والثاني يجب لها السكنى والنفقة وهو مذهب أبي حنيفة والثالث أنها ليس لها سكنى ولا نفقة فحجة مالك حديث فاطمة بنت قيس وهو أن زوجها

طلقها البتة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لك عليه نفقة فيؤخذ من هذا أن لها السكنى دون النفقة وحجة من أوجب لها السكنى قول عمر بن الخطاب لا ندع آية من كتاب ربنا لقول امرأة إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول لها السكنى والنفقة وحجة من لا يجعل لها لا سكنى ولا نفقة أن في بعض الروايات عنها أنها قالت لم يجعل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة ولا سكنى وقوله من حيث سكنتم معناه أسكنوهن مكانا من بعض مساكنكم فمن للتبعيض ويفسر ذلك قول قتادة لو لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه من وجدكم الوجد هو الطاقة والسعة في المال فالمعنى أسكنوهن مسكنا مما تقدرون عليه وإعرابه عطف بيان لقوله حيث سكنتم ويجوز في الوجد ضم الواو وفتحها وكسرها وهو بمعنى واحد والضم أكثر وأشهر
وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن اتفق العلماء على وجوب النفقة في العدة للمطلقة الحامل عملا بهذه الآية سواء كان الطلاق رجعيا أو بائنا واتفقوا على أن للمطلقة غير الحامل النفقة في العدة إذا كان الطلاق رجعيا فإن كان بائنا فاختلفوا في نفقتها حسبما ذكرناه وأما ... 722

---

129 المتوفي عنها زوجها إذا كانت حاملا فلا نفقة لها عند مالك والجمهور لأنهم رأوا أن هذه الآية إنما هي في المطلقات وقال قوم لها النفقة في التركة فإن

أرضعن لكم فآتوهن أجورهن المعنى إن أرضع هؤلاء الزوجات االمطلقات أولادكم فآتوهن أجرة الرضاع وهي النفقة وسائر المؤن حسبما ذكر في كتب الفقة وائتمروا بينكم بمعروف هذا خطاب للرجال والنساء والمعنى أن يأمر كل واحد صاحبه بخير من المسامحة والرفق والإحسان وقيل معنى ائتمروا تشاوروا ومنه إن الملأ يأتمرون بك وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى المعنى إن تشططت الأم على الأب في أجرة الرضاع وطلبت منه كثيرا فللأب أن يسترضع لولده امرأة أخرى بما هو أرفق له إلا أن لا يقبل الطفل غير ثدي أمه فتجبر حينئذ على رضاعه بأجرة مثلها ومثل الزوج لينفق ذو سعة من سعته أمر بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله ولا يكلف الزوج مالا يطيق ولا تضيع الزوجة بل يكون الحال معتدلا وفي الآية دليل على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس وهو مذهب مالك خلافا لأبي حنيفة فإنه اعتبر الكفاية ومن عجز عن نفقة امرأته فمذهب مالك والشافعي أنها تطلق عليه خلافا لأبي حنيفة وإن عجز عن الكسوة دون االنفقة ففي التطليق عليه قولان في المذهب
فحاسبناها حسابا شديدا أي حاسبنا أهلها قيل يعني الحساب في الآخرة وكذلك العذاب المذكور بعده وقيل يعني في الدنيا وهذا أرجح لأنه ذكر عذاب الآخرة بعد ذلك في قوله أعد الله لهم عذابا شديدا أو لأن قوله حاسبناها وعذبناها بلفظ الماضي فهو حقيقة فيما وقع مجاز فيما لم يقع فمعنى حاسبناها أي آخذناهم بذنوبهم ولم يغتفر لهم شئ من صغائرها والعذاب هو عقابهم في الدنيا والنكر هو الشديد الذي لم يعهد مثله
قد أنزل الله إليكم ذكرا رسولا
الذكر هنا هو القرآن والرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم وإعراب رسولا مفعول بفعل مضمر تقديره أرسل رسولا وهذا الذي اختاره ابن عطية وهو أظهر

الأقوال وقيل إن الذكر والرسول معا يراد بهما القرآن والرسول على هذا بمعنى الرسالة وقيل إنهما يراد بهما القرآن على حذف مضاف تقديره ذكرا ذا رسول وقيل رسولا مفعول بالمصدر الذي هو الذكر وقال الزمخشري الرسول هو جبريل بدل من الذكر لأنه نزل به أو سمى ذكرا لكثرة ذكره لله وهذا كله بعيد ومن الأرض مثلهن لا خلاف أن السموات سبع وأما الأرض فاختلف فيها فقيل إنها سبع أرضين لظاهر هذه الآية ولقوله صلى الله عليه وسلم من غصب شبرا من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين وقيل إنما هي واحدة فقوله مثلهن على القول الأول يعني به المماثلة في العدد وعلى القول الثاني يعني به المماثلة في ... 723

---

130 عظم الجرم وكثرة العمار وغير ذلك والأول أرجح يتنزل الأمر بينهن يحتمل أن يريد بالأمر الوحي أو أحكام الله وتقديره لخلقه
سورة التحريم

يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك
في سبب نزولها روايتان أحدهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يوما إلى بيت زوجه حفصة بنت عمر بن الخطاب فوجدها قد مرت لزيارة أبيها فبعث إلى جاريته مارية فجامعها في البيت فجاءت حفصة فقالت يا رسول الله ما كان في نسائك أهون عليك مني أتفعل هذا في بيتي وعلى فراشي فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مترضيا لها أيرضيك أن أحرمها قالت نعم فقال إني قد حرمتها والرواية الأخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا فاتفقت عائشة وحفصة وسودة بنت زمعة على أن تقول له من دنا منها أكلت مغافير والمغافير صمغ العرفط وهو حلو كريه الريح ففعلن ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ولكني شربت عسلا فقلن له جرست نحلة العرفط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أشربه أبدا وكان يكره أن توجد منه رائحة كريهة فدخل بعد ذلك على زينب فقالت ألا أسقيك من ذلك فقال لا حاجة لي به فنزلت الآية عتابا له على أن يضيق على نفسه بتحريم الجارية أو تحريم العسل والرواية الأولى أشهر وعليها تكلم الناس في فقه السورة وقد خرج الرواية الثانية البخاري وغيره ولنتكلم على فقه التحريم فأما تحريم الطعام والمال وسائر الأشياء ما عدا النساء فلا يلزم ولا شئ عليه عند مالك وأوجب عليه أبو حنيفة الكفارة وأما تحريم الأمة فإن نوى به العتق لزم وإن لم ينوبه ذلك لم يلزم وكان حكمه ما ذكرنا في الطعام وأما تحريم الزوجة فاختلف الناس فيه على أقوال كثيرة فقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وغيرهم إنما يلزم فيه كفارة يمين وقال مالك في االمشهور عنه ثلاث تطليقات في المدخول بها وينوي في غير المدخول بها فيحكم

بما نوى من طلقه أو اثنتين أو ثلاث وقال ابن الماجشون هي ثلاث في الوجهين وروى عن مالك أنها طلقة بائنة وقيل طلقة رجعية تبتغي مرضات أزواجك أي تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحل الله لك يعني تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة وهذا يدل على أنها نزلت في تحريم الجارية وأما تحريم العسل فلم يقصد فيه رضا أزواجه وإنما تركه لرائحته والله غفور رحيم في هذا إشارة إلى أن الله غفر له ما عاتبه عليه من التحريم على أن عتابه في ذلك إنما كان كرامة له وإنما وقع العتاب على تضييقه عليه السلام على نفسه وامتناعه مما كان له فيه أرب وبئس ما قال الزمخشري في أن هذا كان منه زلة لآنه حرم ما أحل ... 724

---

131 الله وذلك قلة أدب على منصب النبوة قد فرض الله لكل تحلة أيمانكم التحلة هي الكفارة وأحال تعالى هنا على ما ذكر في سورة المائدة من صفتها واختلف في المراد بها هنا فأما على قول من قال إن الآية نزلت في تحريم الجارية فاختلف في ذلك فمن قال إن التحريم يلزم فيه كفارة يمين استدل بها

ومن قال إن التحريم يلزم فيه طلاق قال إن الكفارة هنا إنما هي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حلف وقال والله لاأطؤها أبدا واما على القول بأن الآية نزلت في تحريم العسل فاختلف أيضا فمن أوجب في تحريم الطعام كفارة قال هذه الكفارة للتحريم ومن قال لا كفارة فيه قال إنما هذه الكفارة لأنه حلف ألا يشربه وقيل هي في يمينه عليه السلام أن لا يدخل على نسائه شهرا والله مولاكم يحتمل أن يكون المولى بمعنى الناصر أو بمعنى السيد الأعظم وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا اختلف في هذا الحديث على ثلاثة أقوال أحدها أنه تحريم الجارية فإنه لما حرمها قال لحفصة لا تخبري بذلك أحدا والآخر أنه قال إن أبا بكر وعمر يليان الأمر من بعده والثالث أنه قوله شربت عسلا والأول أشهر وبعض أزواجه حفصة فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض كانت حفصة قد أخبرت عائشة بما أسر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحريم الجارية فأخبر الله رسوله عليه السلام بذلك فعاقب حفصة على إفشائها لسره فطلقها ثم أمره الله بمراجعتها فراجعها وقيل لم يطلقها فقوله فلما نبأت به حذف المفعول وهو عائشة وقوله وأظهره الله عليه أي أطلعه على إخبارها به وقوله عرف بعضه أي عاتب حفصة على بعضه وأعرض عن بعض حياء وتكريما فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات والتقصير في العتاب وقرئ عرف بالتخفيف من المعرفة فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا أي لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بأنها قد أفشت سره ظنت بأن عائشة هي التي أخبرته فقالت له من أنبأك هذا

فلما أخبرها أن الله هو الذي أنبأه سكتت وسلمت إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما هذا خطاب لعائشة وحفصة وتوبتهما مما جرى منهما في قصة تحريم الجارية أو العسل ومعنى صغت أي مالت عن الصواب وقرأ ابن مسعود زاغت والمعنى إن تتوبا إلى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه المعنى إن تعاونتما عليه صلى الله عليه وسلم بما يسوؤه من إفراط الغيرة وإفشاء سره ونحو ذلك فإن له من ينصره ومولاه هنا يحتمل أن يكون بمعنى السيد الأعظم فيوقف على مولاه ويكون جبريل مبتدأ وظهير خبره وخبر ما عطف عليه ويحتمل أن يكون المولى هنا بمعنى الولي الناصر فيكون جبريل معطوف فيوصل مع ما قبله ويوقف على صالح المؤمنين ويكون الملائكة مبتدأ أو ظهير خبره وهذا أظهر وأرجح لوجهين أحدهما أن معنى الناصر أليق بهذا الموضع فإن ذلك كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم وتشريفا له وأما إذا كان بمعنى السيد فذلك يشترك فيه النبي صلى الله عليه وسلم مع غيره لأن الله تعالى مولى جميع خلقه بهذا المعنى فليس في ذلك إظهار مزية له الوجه الثاني أنه ورد في الحديث الصحيح أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل معك وأبو بكر معك وأنا معك فنزلت الآية موافقة لقول عمر فقوله يقتضي معك النصرة وصالح المؤمنين اختلف في صالح هل هو مفرد أو جمع محذوف النون ... 725

132 للإضافة فعلى القول بأنه مفرد هو أبو بكر وقيل علي بن أبي طالب وعلى القول بأنه جمع فهو على العموم في كل صالح عسى ربه إن طلقكن الآية نصرة للنبي صلى الله عليه وسلم وروى أن عمر قال ذلك ونزل القرآن بموافقته ولقد قال عمر حينئذ للنبي صلى الله عليه وسلم والله يا رسول الله لئن أمرتني بضرب عنق حفصة لضربت عنقها وقد ذكرنا معنى الإسلام والإيمان والقنوت والسائحات معناه الصائمات قاله ابن عباس وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وقيل معناه مهاجرات وقيل ذاهبات إلى الله لأن أصل السياحة الذهاب في الأرض وقوله ثيبات وأبكارا قال بعضهم المراد بالأبكار هنا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون فإن الله يزوج النبي صلى الله عليه وسلم أياهما في الجنة وهذا يفتقر إلى نقل صحيح ودخلت الواو هنا للتقسيم ولو سقطت لاختل المعنى لأن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان وقال الكوفيون هي واو الثمانية وذلك ضعيف

قوا أنفسكم وأهليكم نارا أي أطيعوا الله وأمروا أهلكم بطاعته لتقوا أنفسكم وأهليكم بطاعته من النار فعبر بالمسبب وهو وقاية النار عن السبب وهو الطاعة وقودها ذكر في البقرة ملائكة غلاظ شداد يعني زبانية النار وغلظهم وشدتهم يحتمل أن يريد في أجرامهم وفي قساوة قلوبهم ويفعلون ما يؤمرون قيل إن هذا تأكيد لقوله لا يعصون الله وقيل إن معنى لا يعصون امتثال الأمر ومعنى يفعلون ما يؤمرون جدهم ونشاطهم فيما يؤمرون به من عذاب الناس لا تعتذروا اليوم يعني يوم القيامة ويحتمل أن يكون هذا خطاب من الله للكفار أو خطاب من الملائكة توبة نصوحا قال عمر بن الخطاب التوبة النصوح هي أن تتوب من الذنب ثم لا تعود إليه أبدا ولا تريد أن تعود وقيل معناه توبة خالصة فهو من قولهم عسل ناصح اذا خلص من الشمع وقيل هو أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت كتوبة الثلاثة الذين خلفوا قال الزمخشري وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي والنصح

في الحقيقة صفة التائبين وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم وقد تكلمنا على التوبة في قوله وتوبوا إلى الله جميعا في النور يوم لا يخزى الله النبي العامل في يوم يحتمل أن يكون ما قبله أو ما بعده أو محذوف تقديره اذكر والوقف والابتداء يختلف على ذلك والذين آمنوا يحتمل أن يكون معطوفا على النبي أو مبتدأ وخبره بعده نورهم يسعى ذكر في الحديد جاهد الكفار والمنافقين ... 726

133 ذكر في براءة امرأة نوح وامرأة لوط قبل اسم امرأة نوح والهة واسم امراة لوط والعة وهذا يفتقر إلى صحة نقل فخانتاهما قال ابن عباس خيانة امرأة نوح في أنها كانت تقول إنه مجنون وخيانة امرأة لوط بأنها كانت تخبر قومه بأضيافه إذا قدموا عليه وكانتا مع ذلك كافرتين وقيل خانتا بالزنا وأنكر ابن عباس ذلك وقال ما زنت امرأة نبي قط تنزيها من الله لهم عن هذا النقص

وضرب الله المثل بهاتين المرأتين للكفار الذين بينهم وبين الأنبياء وسائل كأنه يقول لا يغني أحد عن أحد ولو كان أقرب الناس إليه كقرب امرأة نوح وامرأة لوط من أزواجهما وقيل هذا مثال لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكر في أول السورة وهذا باطل لأن الله إنما ضربه للذين كفروا وامرأة فرعون اسمها آسية وكانت قد آمنت بموسى عليه السلام فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها فدعت بهذا الدعاء فقبض الله روحها وروى في قصصها غير هذا مما يطول وهو غير صحيح من فرعون وعمله تعني كفره وظلمه وقيل مضاجعته لها وهذا ضعيف أحصنت فرجها يعني الفرج الذي هو الجارحة وإحصانها له هو صيانتها وعفتها عن كل مكروه فنفخنا فيه من روحنا عبارة عن نفخ جبريل في فرجها فخلق الله فيه عيسى عليه السلام وأضاف الله الروح إلى نفسه إضافة مخلوق إلى خالقه وفي ذلك تشريف له وصدقت بكلمات ربها وكتابه كلمات ربها يحتمل أن يريد بها الكتب التي أنزل الله أو كلامه مع الملائكة وغيرهم وكتابه بالإفراد يحتمل أن يريد

به التوراة أو الإنجيل أو جنس الكتب وقرئ بالجمع يعني كتب الله من القانتين أي من العابدين فإن قيل لم قال من القانتين بجمع المذكر وهي أنثى فالجواب أن القنوت صفة تجمع الرجال والنساء فغلب الذكور
سورة الملك
ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ هذه السورة كل ليلة إذا أخذ مضجعه وأنه عليه الصلاة والسلام قال إنها تنجي من عذاب القبر تبارك فعل مشتق من االبركة وقيل معناه تعاظم وهو مختص بالله تعالى ولم ينطق له بمضارع بيده الملك يعني ملك السموات والأرض والدنيا والآخرة وقيل يعني ملك الملوك في الدنيا فهو كقوله مالك الملك والأول أعم وأعظم خلق الموت والحياة يعني موت ... 727

---

134 الخلق وحياتهم وقيل الموت الدنيا لأن أهلها يموتون والحياة الآخرة لأنها باقية فهو كقوله وإن الدار الآخرة لهي الحيوان وهو على هذا وصف بالمصدر والأول أظهر ليبلوكم أي ليختبركم واختبار الله لعباده إنما هو لتقوم عليهم الحجة بما يصدر منهم وقد كان الله علم ما يفعلون قبل كونه والمعنى ليبلوكم فيجازيكم بما ظهر منكم أيكم أحسن عملا روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها فقال أيكم أحسن عملا وأشدكم لله خوفا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله
سبع سموات طباقا أي بعضها فوق بعض والطباق مصدر وصفت به السموات أو على حذف مضاف تقديره ذوات طباق وقيل إنه جمع طبقة ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت أي من قلة تناسب وخروج عن الإتقان والمعنى أن خلقة السموات في غاية الإتقان وقيل أراد خلقه جميع المخلوقات ولا شك أن جميع المخلوقات متقنة ولكن تخصيص الآية بخلقة السموات أظهر لورودها بعد قوله

خلق سبع سموات طباقا فبان قوله ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت بيان وتكميل ما قبله والخطاب في قوله ما ترى وارجع البصر وما بعده للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب ليعتبر فارجع البصر هل ترى من فطور الفطور الشقوق جمع فطر وهو الشق وإرجاع البصر ترديده في النظر ومعنى الآية الأمر بالنظر إلى السماء فلا يرى فيها شقاق ولا خلل بل هي ملئمة مستوية ثم ارجع البصر كرتين أي انظر نظرا بعد نظر للتثبت والتحقق وقال الزمخشري معنى التثنية في كرتين التكثير لا مرتين خاصة كقولهم لبيك فإن معناه إجابات كثيرة ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير الخاسئ هو المبعد عن الشئ الذي طلبه والحسير هو االكليل الذي أدركه التعب فمعنى الآية أنك إذا نظرت إلى السماء مرة بعد مرة لترى فيها شقاقا أو خلالا رجع بصرك ولم تر شيئا من ذلك فكانه خاسئ لأنه لم يحصل له ما طلب من رؤية الشقاق والخلل وهو مع ذلك كليل من شدة النظر وكثرة التأمل

ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح السماء الدنيا هي القريبة منا والمصابيح يراد بها النجوم فإن كانت النجوم كلها في السماء الدنيا فلا إشكال وإن كانت في غيرها من السموات فقد زينت السماء الدنيا لأنها ظاهرة فيها لنا ويحتمل أن يريد أنه زين السماء الدنيا بالنجوم التي فيها دون التي في غيرها على أن القول بموضع الكواكب وفي أي سماء هي لم يرد في الشريعة وجعلناها رجوما للشياطين أي جعلنا منها رجوما لأن الكواكب الثابتة ليست ترجم الشياطين فهو كقولك أكرمت بني فلان إذا أكرمت بعضهم والرجوم جمع رجم وهو مصدر سمى به ما يرجم به قال الزمخشري معنى كون النجوم رجوما للشياطين والشهب تنقض من النجوم لرجم الشياطين الذين يسترقون السمع من السماء فالشهب الراجمة منفصلة من نار الكواكب لا أن الراجمة هي الكواكب أنفسها لأنها ثابتة في الفلك قال قتادة خلق الله االنجوم لثلاثة أشياء زينة السماء ورجوم الشياطين ويهتدي بها في ظلمات البر والبحر وأعتدنا لهم عذاب السعير يعني للشياطين سمعوا لها شهيقا الشهيق أقبح ما يكون ... 728

---

135 من صوت الحمار ويعني به هنا ما يسمع من صوت جهنم لشدة غليانها وهولها أو شهيق أهلها والأول أظهر وهي تفور أي تغلي بأهلها غليان القدر بما فيها تكاد تميز من الغيظ أي تكاد جهنم ينفصل بعضها من بعض لشدة غيظها على الكفار فيحتمل أن تكون هي المغتاظة بنفسها ويحتمل أن يريد غيظ الزبانية والأول أظهر لأن حال الزبانية يذكر بعد هذا وغيظ النار يحتمل أن يكون حقيقة بإدراك يخلقه الله لها أو يكون عبارة عن شدتها كلما ألقى فيها فوج أي كلما ألقى في جهنم جماعة من الكفار سألتهم الزبانية هل جاءكم من نذير أي رسول وهذا السؤال على وجه التوبيخ وإقامة الحجة عليهم ولذلك اعترفوا فقالوا بلى قد جاءنا نذير وقوله كلما يقتضي أن يقال ذلك لكل جماعة تلقى في

النار إن أنتم إلا في ضلال كبير يحتمل أن يكون من قول الملائكة للكفار أو من قول الكفار للرسل في الدنيا وقالوا الضمير للكفار أي لو كنا نسمع كلام الرسل ونعقل الصواب ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم اعترافهم هذا في وقت لا ينفعهم الاعتراف وذنبهم هنا يراد به تكذيب الرسل فسحقا لأصحاب السعير انتصب فسحقا بفعل مضمر على معنى الدعاء عليهم بالغيب فيه قولان أحدهما أن معناه وهم غائبون عن الناس ففي ذلك وصف لهم بالإخلاص والآخر أن الغيب ما غاب عنهم من أمور الآخرة وغيرها على أن هذا القول إنما يحسن في قوله يؤمنون بالغيب وأسروا قولكم أو اجهروا به المعنى سواء جهرتم أو أسررتم فإن الله يعلم الجهر والسر ألا يعلم من خلق هذا برهان على أن الله تعالى يعلم كل شئ لأن الخالق يعلم مخلوقاته ويحتمل أن يكون من خلق فاعلا يراد به الخالق والمفعول محذوف تقديره ألا يعلم الخالق خلقه أو يكون من خلق مفعولا والفاعل مضمر تقديره ألا يعلم الله من خلق والأول أرجح لأن من خلق إذا كان مفعولا اختص بمن يعقل والمعنى الأول يعم من يعقل ومن لا يعقل الأرض ذلولا فعول

هنا بمعنى مفعول أي مذللة فهي كركوب وحلوب فامشوا في مناكبها قال ابن عباس هي الجبال وقيل الجوانب والنواحي وقيل الطرق والمعنى تعديد النعمة في تسهيل المشي على الأرض فاستعار لها الذل والمناكب تشبيها بالدواب وإليه النشور يعني البعث يوم القيامة أأمنتم الآية مقصودها التهديد والتخويف للكفار وكذلك الآية التي بعدها تمور ذكر في الطور حاصبا يحتمل أن يريد حجارة أو ريحا شديدة نذير بمعنى الإنذار وكذلك النكير بمعنى الإنكار أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات تنبيه ... 729

---

136 على الاعتبار بطيران الطيور في الهواء من غير شئ يمسكها وصافات جمع صافة وهي التي تبسط جناحها للطيران والقبض ضم الجناحين إلى الجنب وعطف يقبض على صافات لأن الفعل في معنى الاسم تقديره قابضات فإن قيل لم لم يقل قابضات على طريقة صافات فالجواب أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران كما أن مد الأطراف هو الأصل في السباحة فذكر بصيغة اسم الفاعل لدوامه وكثرته وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلا للاستراحة والاستعانة فذكر بلفظ الفعل لقلته أمن هذا الذي هو جند لكم خطاب للكفار على وجه التوبيخ والتهديد وإقامة الحجة عليهم ودخلت أم التي يراد بها الإنكار على من فأدغمت فيها وكذلك أمن هذا الذي يرزقكم والضمير في أمسك لله أي من يرزقكم إن منع الله رزقه بل لجوا أي تمادوا في العتق والنفور عن الإيمان أفمن يمشي مكبا على وجهه الآية توقيف على الحالتين أيهما أهدى والمراد بها توبيخ الكفار وفي معناها قولان أحدهما أن المشي هنا استعارة في سلوك طريق الهدى والضلال في الدنيا والآخر أنه حقيقة في المشي في الآخرة لأن الكافر يحمل على المشي إلى جهنم على وجهه فأما

على القول الأول فقيل إن الذي يمشي مكبا أبو جهل والذي يمشي سويا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقيل حمزة وقيل هي على العموم في كل مؤمن وكافر وقد تمشي هذه الأقوال أيضا على الثاني والمكب هو الذي يقع على وجهه يقال أكب الرجل وكبه غيره فالمعدي دون همزة والقاصر بالهمزة بخلاف سائر الأفعال ويقولون متى هذا الوعد الضمير للكفار والوعد يراد به البعث أو عذابهم في الدنيا فلما رأوه ضمير الفاعل للكفار وضمير المفعول للعذاب الذي يتضمنه الوعد زلفة أي قريبا وقيل عيانا سيئت وجوه الذين كفروا أي ظهر فيها السوء لما حل بها وقيل هذا الذي كنتم به تدعون تفتعلون من الدعاء أي تطلبون وتستعجلون به والقائلون لذلك الملائكة أو يقال لهم بلسان الحال قل

أرأيتم إن أهلكني الله الآية سببها أن الكفار كانوا يتمنون هلاك النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فأمره الله أن يقول لهم أن أهلكني الله وأهلك من معي أورحمنا فإنكم لا تنجون من العذاب الأليم على كل حال والهلاك هنا يحتمل أن يراد به الموت أو غيره ومعنى من يجير الكافرين من عذاب أليم من يمنعهم من العذاب قل أرأيتم إن أصبح ... 730
137 ماؤكم غورا) الآية احتجاج على المشركين والغور مصدر وصف به فهو بمعنى غاير أي ذاهب في الأرض والمعين الكثير واختلف هل وزنه فعيل أو مفعول فالمعنى إن غار ماؤكم الذي تشربون هل يأتيكم غير الله بماء معين
سورة القلم
{ ن } حرف من حروف الهجاء وقد تقدم الكلام عليها في البقرة ويختص ن بأنه قيل إنه حرف من الرحمن فإن حروف الرحمن ألف ولام وراء وحاء وميم ون وقيل إن نون هنا يراد به الحوت وزعموا أنه الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبعة وهذا لا يصح على أن نون بمعنى الحوت معروف في اللغة ومنه ذو النون وقيل إن نون هنا يراد به الدواة وهذا غير معروف في اللغة ويبطل قول من قال إنه الحوت أو الدواة بأنه لو كان كذلك لكان معربا بالرفع أو النصب أو الخفض ولكان في آخره تنوين فكونه موقوفا دليل على أنه حرف هجاء نحو ألم وغيره من حروف الهجاء الموقوفة والقلم وما يسطرون اختلف فيه على قولين أحدهما أنه القلم الذي كتب به اللوح المحفوظ فالضمير في يسطرون للملائكة والآخر أنه القلم المعروف عند الناس أقسم الله به لما فيه من المنافع والحكم والضمير في يسطرون على هذا لبني آدم ما أنت بنعمة ربك بمجنون هذا جواب القسم وهو خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم معناه نفي نسبة الكفار له من الجنون وبنعمة ربك اعتراض بين ما وخبرها كما تقول أنت بحول الله أفضل والمجرور في موضع الحال وقال الزمخشري إن العامل فيه بمجنون غير ممنون ذكر في فصلت وإنك لعلى خلق عظيم هذا ثناء على خلق رسول الله صلى

الله عليه وسلم قالت عائشة رضي الله عنها كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن تعني التأدب بآدابه وامتثال أوامره وعبر ابن عباس عن الخلق بالدين والشرع وذلك رأس الخلق وتفصيل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع كل فضيلة وحاز كل خصلة جميلة فمن ذلك شرف النسب ووفور العقل وصحة الفهم وكثرة العلم وشدة الحياء وكثرة العبادة والسخاء والصدق والشجاعة والصبر والشكر والمروءة والتودد والاقتصاد والزهد والتواضع والشفقة والعدل والعفو وكظم الغيظ وصلة الرحم وحسن المعاشرة وحسن التدبير وفصاحة اللسان وقوة الحواس وحسن الصورة وغير ذلك حسبما ورد في أخباره وسيره صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقال الجنيد سمي خلقه عظيما لأنه لم تكن له همة سوى الله عز وجل فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون قيل إن المفتون هنا بمعنى المجنون ويحتمل غير ذلك من معاني الفتنة والخطاب في قوله فستبصر للنبي صلى الله عليه وسلم وفي قوله ويبصرون لكفار قريش واختلف في الباء في قوله بأيكم علىأربعة أقوال الأول أنها زائدة الثاني أنها غير زائدة والمعنى بأيكم الفتنة فأوقع المفتون موقع الفتنة كقولهم ماله معقول أي عقل الثالث أن الباء بمعنى في والمعنى فى أي ... 731

(3/207)

---

138 فريق منكم المفتون واستحسن ابن عطية هذا الرابع أن المعنى بأيكم فتنة المفتون ثم حذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ودوا لو تدهن فيدهنون المداهنة هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي وروى أن الكفار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك فنزلت الآية ولم ينتصب فيدهنون في جواب التمني بل رفعه بالعطف على تدهن قاله ابن عطية وقال الزمخشري هو خبر مبتدأ محذوف تقديره فهم يدهنون حلاف كثير الحلف في الحق والباطل مهين هو الضعيف الرأي والعقل قال ابن عطية هو من مهن إذا ضعف فالميم فاء الفعل وقال الزمخشري هو من المهانة وهي الذلة والحقارة وقال ابن عباس المهين الكذاب هماز هو الذي يعيب الناس مشاء بنميم أي كثير المشي بالنميمة يقال نميم ونميمة بمعنى واحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة نمام مناع للخير أي شحيح لأن الخير هنا هو المال وقيل معناه مناع من الخير أي يمنع الناس من الإسلام والعمل الصالح معتد هو من العدوان وهو الظلم أثيم من الإثم وهو ارتكاب المحرمات عتل أي غليظ الجسم قاسي القلب بعيد الفهم كثير الجهل زنيم أي ولد زنا وقيل هو الذي في عنقه زنمة كزنمة الشاة التي تعلق في حلقها وقيل معناه مريب قبيح الأفعال وقيل ظلوم وقيل لئيم وقوله بعد ذلك أي بعد ما ذكرنا من عيوبه فهذا الترتيب في الوصف لا في الزمان واختلف في الموصوف بهذه الأوصاف الذميمة فقيل لم يقصد بها شخص معين بل كل من اتصف بها وقيل المقصود بها الوليد بن المغيرة لأنه وصفه بأنه ذو مال وبنين وكذلك كان وقيل أبو جهل وقيل الأخنس بن شريق ويؤيد هذا أنه كانت له زنمة في عنقه قال ابن عباس عرفناه بزنمته وكان لقيط من ثقيف ويعد في بني زهرة فيصح وصفه بزنيم على القولين وقيل الأسود بن عبد يغوث أن كان ذا مال وبنين في موضع مفعول من أجله يتعلق بقوله لا تطع أي لا تطعه بسبب كثرة ماله

وبنيه ويجوز أن يتعلق بما بعده والمعنى على هذا أنه قال في القرآن أساطير الأولين لأنه ذو مال وبنين يتكبر بماله وبنيه والعامل في أن كان على هذا فعل من المعنى ولا يجوز أن يعمل فيه قال الذي هو جواب إذا لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله والأول أظهر وقد تقدم معنى أساطير الأولين سنسمه على الخرطوم أصل الخرطوم أنف السبع ثم استعير للإنسان استخفافا به وتقبيحا له والمعنى نجعل له سمة وهي العلامة على خرطومه واختلف في هذه السمة قيل هي الضربة بالسيف يوم بدر وقيل علامة من نار تجعل على أنفه في جهنم وقيل علامة تجعل على أنفه يوم القيامة ليعرف بها
إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة أي بلونا قريشا كما بلونا أصحاب الجنة وكانوا إخوة من بني إسرائيل لهم جنة روى أنها بمقربة من صنعاء فحلفوا أن لا يعطوا مسكينا منها شيئا وباتوا عازمين على ذلك فأرسل الله على جنتهم طائفا من نار فأحرقتها فلما أصبحوا إلى جنتهم لم يروها فحسبوا أنهم أخطؤا الطريق ثم تبينوها فعرفوها وعلموا أن الله عاقبهم فيها بما قالوا ... 732

139 فندموا وتابوا إلى الله ووجه تشبيه قريش بأصحاب الجنة أن الله أنعم على قريش ببعث محمد صلى الله عليه وسلم كما أنعم على أصحاب الجنة بالجنة فكفر هؤلاء بهذه النعمةكما فعل أولئك فعاقبهم الله كما عاقبهم وقيل شبه قريشا لما أصابهم الجوع بشدة الفحط حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحاب الجنة لما هلكت جنتهم إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين أي حلفوا أن يقطعوا غلة جنتهم عند الصباح وكانت الغلة ثمرا ولا يستثنون في معناه ثلاثة أقوال أحدها لم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ليصرمنها والآخر لا يستثنون شيأ من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم والثالث لا يتوقفون في رأيهم ولا ينتهوا عنه أي لا يرجعون عنه فطاف عليهم طائف قال الفراء الطائف الأمر الذي يأتي بالليل فأصبحت كالصريم فيه أربعة أقوال الأول أصبحت كالليل لأنها اسودت لما أصابها والصريم في اللغة الليل الثاني أصبحت كالنهار لأنها ابيضت كالحصيد ويقال صريم الليل والنهار الثالث أن الصريم الرماد الأسود بلغة بعض العرب الرابع أصبحت كالمصرومة أي المقطوعة فتنادوا مصبحين أي نادى بعضهم بعضا حين أصبحوا وقال بعضهم لبعض اغدوا على حرثكم أي جنتكم إن كنتم صارمين أي حاصدين لثمرتها يتخافتون يكلم بعضهم بعضا في السر ويقولون لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وأن في قوله أن اغدوا وأن لا يدخلنها حرف عبارة وتفسير
وغدوا على حرد قادرين في الحرد أربعة أقوال الأول أنه المنع الثاني أنه القصد الثالث أنه الغضب الرابع أن الحرد اسم للجنة وقادرين يحتمل أن يكون من القدرة أي قادرين في زعمهم أو من التقدير بمعنى التضييق أي ضيقوا على المساكين إنا لضالون أي أخطأنا طريق الجنة قالوا ذلك لما لم يعرفوها فلما

عرفوها ورأوا ما أصابها قالوا بل نحن محرمون أي حرمنا الله خيرها قال أوسطهم أي خيرهم وأفضلهم ومنه أمة وسطا أي خيارا لولا تسبحون أي

(3/210)

تقولون سبحان الله وقيل هو عبارة عن طاعة الله وتعظيمه وقيل أراد الاستثناء في اليمين كقولهم إن شاء الله والأول أظهر لقولهم بعد ذلك سبحان الله ربنا والمعنى أن هذا الذي هو أفضلهم كان قد حضهم على التسبيح يتلاومون أي يلوم بعضهم بعضا على ما كانوا عزموا عليه من منع المساكين أو على غفلتهم عن التسبيح بدليل قوله ألم أقل لكم لولا تسبحون عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها يحمل أنهم طلبوا البدل في الدنيا أو في الآخرة والأول أرجح لأنه روى عن ابن مسعود أن الله أبدلهم جنة يحتمل البغل منها عنقودا كذلك العذاب أي مثل ... 733

(3/211)

---

140 هذا العذاب الذي ينزل بأهل الجنة ينزل بقريش أفنجعل المسلمين كالمجرمين الهمزة للإنكار أي كيف يسوي الله بين المسلمين والمجرمين بل يجازي كل أحد بعمله والمراد بالمجرمين هنا الكفار مالكم توبيخ للكفار وما مبتدأ ولكم خبره وتم الكلام هنا فينبغي أن يوقف عليه كيف تحكمون توبيخ آخر أي كيف تحكمون بأهوائكم وتقولون ما ليس لكم به علم إن لكم فيه لما تخيرون هذه الجملة معمول تدرسون وكان أصل إن الفتح وكسرت لأجل اللام التي في خبرها وتخيرون معناه تختارون لأنفسكم ومعنى الآية هل لكم كتاب من عند الله تدرسون فيه أن لكم ما تختارونه لأنفسكم أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون المعنى هل حلفنا لكم أيمانا أن لكم ما تحكمون ومعنى بالغة ثابتة واصلة إلى يوم القيامة وقوله إن لكم هو جواب القسم الذي يقتضيه الأيمان ولذلك أكده بإن واللام وما تحكمون هو اسم إن دخلت عليه اللام المؤكدة سلهم أيهم بذلك زعيم أي يا محمد اسأل قريشا أيهم زعيم بهذه الأمور والزعيم هو الضامن للأمر القائم به أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم هذا تعجيز للكفار ومعناه إن كان لكم شركاء يقدرون على شئ فأتوا بهم واختلف هل قوله فليأتوا بهم في الدنيا أي أحضروهم حتى يرى حالهم أو يقال لهم ذلك يوم القيامة والشركاء هم المعبودون من الأصنام وغيرها وقال الزمخشري معناه أم لكم ناس يشاركونكم في هذا القول ويوافقونكم عليه فأتوا بهم يعني أنهم لا يوافقهم أحد عليه والأول أظهر يوم يكشف عن ساق قال المتأولون ذلك عبارة عن هول يوم القيامة وشدته وفي الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ينادي مناد يوم القيامة لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع الشمس من كان يعبد الشمس ويتبع القمر من كان يعبد القمر ويتبع كل أحد ما كان يعبد ثم تبقى هذه الأمة وغبرات من أهل الكتاب معهم منافقوهم فيقال لهم ما شأنكم فيقولون

(3/212)

ننتظر ربنا قال فيجيئهم الله في غير الصورة التي عرفوه فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك قال فيقول أتعرفونه بعلامة ترونها فيقولون نعم فيكشف لهم عن ساق فيقولون نعم أنت ربنا ويخرون للسجود فيسجد كل مؤمن وترجع أصلاب المنافقين عظما واحدا فلا يستطيعون سجودا وتأويل الحديث كتأويل الآية ويدعون إلى السجود تفسيره في الحديث الذي ذكرنا فإن قيل كيف يدعون في الآخرة إلى السجود وليست الآخرة دار تكليف فالجواب أنهم يدعون إليه على وجه التوبيخ لهم على تركهم السجود في الدنيا لا على وجه التكليف والعبادة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون أي قد كانوا في الدنيا يدعون إلى السجود فيمتنعون منه وهم سالمون في أعضائهم قادرون عليه فذرني ومن يكذب بهذا الحديث تهديد للمكذبين بالقرآن وإعراب من يكذب مفعول ... 734

141 معه أو معطوف وقد ذكرنا في الأعراف سنستدرجهم وما بعده أم تسألهم أجرا معناه أنت لا تسألهم أجرة على الإسلام فتثقل عليهم فلا عذر لهم في تركهم الإسلام وقد فسرتا هذا وما بعده في الطور فاصبر يقتضي مسالمة للكفار نسخت بالسيف ولا تكن كصاحب الحوت هو يونس علية السلام وسماه صاحب الحوت لأن الحوت ابتلعه وهو أيضا ذو النون والنون هو الحوت وقد ذكرنا قصته في الأنبياء والصافات فنهى الله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يكون مثله في الضجر والاستعجال حتى ذهب مغاضبا وروى أن هذه الآية نزلت لما هم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو على الكفار إذ نادي وهو مكظوم هذا آخر ما جرى ليونس ونداؤه هو قوله في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين والمكظوم الشديد الحزن لنبذ بالعراء وهو مذموم هو جواب لولا والمنفي هو الذم لا نبذه بالعراء فإنه قد قال في الصافات فنبذناه بالعراء فالمعنى لولا رحمة الله لنبذ بالعراء وهو مذموم لكنه نبذ وهو غير مذموم وقد ذكرنا العراء في الصافات وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم عبارة عن شدة عداوتهم وإن مخففة من الثقيلة بدليل دخول اللام وليزلقونك معناه يهلكونك كقولك نظر فلان إلى عدوه نظرة كاد يصرعه وأصله من زلق القدم وقرئ بفتح الياء وضمها وهما لغتان وقيل إن المعنى يأخذونه بالعين وكان ذلك في بني أسد كان الرجل منهم يجوع ثلاثة أيام فلا يتكلم على شئ إلا أصابه بالعين فأراد بعضهم أن يصيب النبي صلى الله عليه وسلم فعصمه الله من ذلك وقال الحسن دواء من أصيب بالعين قراءة هذه الآية وما هو إلا ذكر للعالمين يعني القرآن أو هو موعظة وتذكير للخلق

سورة الحاقة

الحاقة هي القيامة ووزنها فاعلة وسميت الحاقة لأنها تحق أي يصح وجودها ولا ريب في وقوعها ولأنها حقت لكل أحد جزاء عمله أو لأنها تبدئ حقائق الأمور ما الحاقة ما استفهامية يراد بها التعظيم وهي

مبتدأ وخبرها ما بعده والجملة خبر الحاقة وكان الأصل الحاقة ما هي ثم وضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التعظيم والتهويل وكذلك وما أدراك ما الحاقة لفظه استفهام والمراد به التعظيم والتهويل بالقارعة ... 735
142 هي القيامة سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأهوالها بالطاغية يعني الصيحة التي أخذت ثمود وسميت بذلك لأنها جاوزت الحد في الشدة وقيل الطاغية مصدر فكأنه قال أهلكوا بطغيانهم فهو كقوله كذبت ثمود بطغواها وقيل هي صفة لمحذوف تقديره أهلكوا بسبب الفعلة الطاغية أو الفئة الطاغية والباء على هذين القولين سببية وعلى القول الأول كقولك قتلت زيدا بالسيف بريح صرصر عاتية ذكر في فصلت وعاتية أي شديدة وسميت بذلك لأنها عتت على عاد وقيل عتت على خزانها فخرجت بغير إذنهم سخرها عليهم سبع ليال روى أنها بدت صبيحة يوم الأربعاء لثمان بقين من شوال وتمادت بهم إلى آخر يوم الأربعاء تكملة الشهر حسوما قال ابن عباس معناه كاملة متتابعة لم يتخللها غير ذلك وقيل معناه شؤما وقيل هو جمع حاسم من الحسم وهو القطع أي قطعتهم بالإهلاك فحسوما على القول الأول والثاني مصدر في موضع الحال وعلى الثالث حال أو مفعول من أجله فترى القوم فيها صرعى جمع صريع وهو المطروح بالأرض والضمير المجرور يعود على منازلهم لأن المعنى يقتضيها وإن لم يتقدم ذكرها أو على الأيام والليالي أو على الريح
كأنهم أعجاز نخل خاوية تقدم في القمر معنى تشبيهم بأعجاز النخل والخاوية هي التي خلت من طول بلائها وفسادها من باقية أي من بقية وقيل من فئة باقية وقيل إنه مصدر بمعنى البقاء ومن قبله يريد من تقدم قبله من الأمم الكافرة وأقربهم إليه قوم شعيب والظاهر أنهم المراد لأن عادا وثمود قد ذكرا وقوم لوط هم المؤتفكات وقوم نوح قد أشير إليهم في قوله لما طغى الماء حملناكم في الجارية وقرئ بكسر القاف وفتح الباء ومعناه جنده وأتباعه بالخاطئة إما

أن يكون مصدرا بمعنى الخطيئة أو صفة لمحذوف تقديره بالفعلة الخاطئة فعصوا رسول ربهم إن عاد الضمير على فرعون وقومه فالرسول موسى عليه السلام وإن عاد على المؤتفكات فالرسول لوط عليه السلام وإن عاد على الجميع فالرسول اسم جنس أو بمعنى الرسالة رابية أي عظيمة وهي من قولك ربا الشئ إذا كثر طغى الماء عبارة عن كثرته فيحتمل أن يريد أنه طغى على أهل الأرض أو على خزانه يعني وقت طوفان نوح عليه السلام حملناكم في الجارية هي السفينة فإن أراد سفينة نوح فمعنى حملناكم حملنا آباءكم لأن كل من على الأرض من ذرية نوح وأولاده الثلاثة الذين كانوا معه في السفينة وإن أراد جنس السفن فالخطاب على حقيقته لنجعلها لكم تذكرة الضمير للفعلة وهي الحمل في السفينة وقيل للسفينة فإن أراد جنس السفن فالمعنى أنها تذكرة بقدرة الله ونعمته لمن ركب أو سمع بها وإن أراد سفينة نوح فقد قيل إن الله أبقاها حتى رأى بعض عيدانها أول هذه الأمة وتعيها أذن واعية الضمير يعود على ما عاد عليه ضمير لنجعلها وهذا يقوى أن يكون للفعلة والأذن

الواعية هي التي تفهم ما تسمع وتحفظه يقال وعيت العلم إذا حصلته ولذلك عبر بعضهم عنها بأنها التي عقلت عن الله وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا علي قال علي فما نسيت ... 736

---

143 بعد ذلك شيئا سمعته قال الزمخشري إنما قال أذن واعية بالتوحيد والتنكير للدلالة على قلة الوعاة ولتوبيخ الناس بقلة من بقى منهم وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا عقلت عن الله تعالى فهي المعتبرة عند الله دون غيرها نفخة واحدة يعني نفخة الصور وهي الأولى فدكتا الضمير للأرض والجبال ومعنى دكتا ضرب بعضها ببعض حتى تندق وقال الزمخشري الدك أبلغ من الدق وقيل معناه بسطت حتى تستوي الأرض والجبال وقعت الواقعة أي قامت القيامة وقيل وقعت صخرة بيت المقدس وهذا ضعيف واهية أي مسترخية ساقطة القوة ومنه قولهم دار واهية أي ضعيفة الجدران والملك على أرجائها الملك هنا اسم جنس والأرجاء الجوانب واحدها رجا مقصور والضمير يعود على السماء والمعنى أن الملائكة يكونون يوم القيامة على جواب السماء لأنها إ ذا وهيت وقفوا على أطرافها وقيل يعود على الأرض لأن المعنى يقتضيه وإن لم يتقدم ذكرها وروى في ذلك أن الله يأمر الملائكة فتقف صفوفا على جوانب الأرض والأول أظهر وأشهر ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية قال ابن عباس هي ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم أحد عدتهم وقيل ثمانية أملاك رؤسهم تحت العرش وأرجلهم تحت الأرض السابعة ويؤيد هذا ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال هو اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة قواهم الله بأربعة سواهم يومئذ تعرضون خطاب لجميع العالم والعرض البعث أو الحساب خافية أي حال خافية من الأعمال والسرائر ويحتمل المعنى لا يخفي من أجسادهم لأنهم يحشرون حفاة عراة فأما من أوتي كتابه بيمينه الكتاب هنا صحائف الأعمال
هاؤم اقرؤا كتابيه هاؤم اسم فعل قال ابن عطية معناه تعالوا وقال الزمخشري هو صوت يفهم منه معنى خذ وكتابيه مفعول يطلبه هاؤم واقرؤا من ضمير المعنى تقديره هاؤم كتاب اقرؤا كتابي ثم حذف لدلالة الآخر عليه وعمل فيه العامل الثاني وهو اقرأوا عند البصريين والعامل

الأول هو هاؤم عند الكوفيين والدليل على صحة قول البصريين أنه لو عمل الأول لقال اقرؤه والهاء في كتابيه للوقف وكذلك في حسابيه وماليه وسلطانيه وكان الأصل أن تسقط في الوصل لكنها ثبتت فيه مراعاة لخط المصحف وقد أسقطها في الوصل بعضهم ومعنى الآية أن العبد الذي يعطى كتابه بيمينه يقول للناس اقرأوا كتابيه على وجه الاستبشار والسرور بكتابه إني ظننت الظن هنا بمعنى اليقين راضية أي ذات رضا كقولهم تامر لصاحب التمر قال ابن عطية ليست بياء اسم فاعل وقال الزمخشري يجوز أن يكون اسم فاعل نسب الفعل

إليها مجازا وهو لصاحبها حقيقة قطوفها جمع قطف وهو ما يجتني من الثمار ويقطف كالعنقود دانية أي قريبة وروى أن العبد يأخذها بفمه من شجرها على أي حال كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع أسلفتم أي قدمتم من الأعمال الصالحة في الأيام الخالية أي الماضية يعني أيام الدنيا وأما من أوتي كتابه ... 737

(3/218)

---

144 بشماله) هم الكفار بدليل قوله إنه كان لا يؤمن بالله العظيم فجعل علة إعطائهم كتبهم بشمالهم عدم إيمانهم وأما المؤمنون فيعطون كتبهم بأيمانهم لكن اختلف فيمن يدخل النار منهم هل يعطى كتابه قبل دخول النار أو بعد خروجه منها وهذا أرجح لقوله هاؤم اقرأوا كتابيه لأن هذا كلام سرور فيبعد أن يقوله من يحمل إلى النار فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه أي يتمنى أنه لم يعط كتابه وقال ابن عطية يتمنى أن يكون معدوما لا يجري عليه شئ والأول أظهر ياليتها كانت القاضية أي ليت الموتة الأولى كانت القاضية بحيث لا يكون بعدها بعث ولا إحياء ما أغنى عني ماليه يحتمل أن يكون نفيا أو استفهاما يراد به النفي هلك عني سلطانيه أي زال عني ملكي وقدرتي وقيل ذهبت عني حجتي خذوه خطاب للزبانية يقوله لهم الله تعالى أو الملائكة بأمر الله فغلوه أي اجعلوا غلافي عنقه وروى أنها نزلت في أبي جهل ذرعها سبعون ذراعا معنى ذرعها أي طولها واختلف في هذا الذراع فقيل أنه الذراع المعروف وقيل بذراع الملك وقيل في الذراع سبعون باعا كل باع ما بين مكة والكوفة ولله در الحسن البصري في قوله الله أعلم بأي ذراع هي وجعلها سبعين ذراعا لإرداة وصفها بالطول فإن السبعين من الأعداد التي تقصد بها العرب التكثير ويحتمل أن تكون هذه السلسلة لكل واحد من أهل النار أو تكون بين جميعهم وقد حكى الثعلبي ذلك فاسلكوه أي أدخلوه وروى أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج من دبره فاسلكوه على هذا من المقلوب في المعنى كقولهم أدخلت القلنسوة في رأسي وروى أنها تلتوي عليه حتى تعمه وتضغطه فالكلام على هذا على وجهه وهو المسلوك فيها وإنما قدم قوله في سلسلة على اسلكوه لإرادة الحصر أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة وكذلك قد الحميم على صلوه لإرادة الحصر أيضا طعام المسكين يحتمل أنه أراد إطعام مسكين فوضع الاسم موضع المضمر أو يقدر لا يحض على بذل طعام

(3/219)

المسكين وأضاف الطعام إلى المسكين لأن له إليه نسبة ووصفه وبأنه لا يحض على طعام المسكين يدل على أنه لا يطعمه من باب أولى وهذه الآية تدل على عظم الصدقة وفضلها لأنه قرن منع طعام المسكين بالكفر بالله فليس له اليوم هاهنا حميم فيه قولان أحدهما ليس له صديق والآخر ليس له شراب ولا طعام إلا من غسلين فإن الحميم الماء الحار والغسلين صديد أهل النار عند ابن عباس وقيل شجر يأكله أهل النار وقال اللغويون هو مايجري من الجراح إذا غسلت وهو فعلين من الغسل الخاطئون جمع خاطئ وهو الذي يفعل ضد

الصواب متعمدا والمخطئ الذي يفعله بغير تعمد فلا أقسم لا زائدة غير نافية عما تبصرون ومالا تبصرون يعني جميع الأشياء لأنها تنقسم إلى ما يبصر وما لا يبصر كالدنيا والآخرة والإنس والجن والأجسام والأرواح وغير ذلك إنه لقول رسول كريم هذا جواب القسم والضمير للقرآن والرسول الكريم جبريل وقيل لمحمد علية الصلاة والسلام قليلا ما تؤمنون قال ابن عطية يحتمل أن تكون ما نافية فنفي إيمانهم بالجملة ... 738

---

145 أو تكون مصدرية فوصف إيمانهم بالقلة وقال الزمخشري القلة هنا بمعنى العدم أي لا تؤمنون ولا تذكرون ألبتة ولو تقول علينا بعض الأقاويل التقول هو أن ينسب إلى أحد ما لم يقل ومعنى الآية لو تقول علينا محمد لعاقبناه ففي ذلك برهان على أن القرآن من عند الله لأخذنا منه باليمين قال ابن عباس اليمين هنا القوة ومعناه لو تقول علينا لأخذناه بقوتنا وقيل هي عبارة عن الهوان كما يقال لمن يسجن أخذ بيده وبيمينه قال الزمخشري معناه لو تقول علينا لقتلناه ثم صور صورة القتل ليكون أهول وعبر عن ذلك بقوله لأخذنا منه باليمين لأن السياف إذا أراد أن يضرب المقتول في جسده أخذ بيده اليمنى ليكون ذلك أشد عليه لنظره إلى السيف الوتين نياط القلب وهو عرق إذا قطع مات صاحبه فالمعنى لقتلناه فما منكم من أحد عنه حاجزين الحاجز المانع والمعنى لو عاقبناه لم يمنعه أحد منكم ولم يدفع عنه وإنما جمع حاجزين لأن أحد في معنى الجماعة وإنه لتذكرة الضمير للقرآن وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم والأول أظهر وإنه لحسرة على الكافرين أي حسرة عليهم في الآخرة لأنهم يتأسفون إذا رأوا ثواب المؤمنين وإنه لحق اليقين قال الكوفيون هذا من إضافة الشئ إلى نفسه كقولك مسجد الجامع وقال الزمخشري المعنى عين اليقين ومحض اليقين وقال ابن عطية ذهب الحذاق إلى أن الحق مضاف إلى الأبلغ من وجوهه

سورة المعارج

سأل سائل بعذاب واقع من قرأ سائل بالهمز احتمل معنيين أحدهما أن يكون بمعنى الدعاء أي دعا داع بعذاب واقع وقد تكون الإشارة إلى قول الكفار أمطر علينا حجارة من السماء وكان الذي قالها النضر بن الحرث والآخر أن يكون بمعنى الاستخبار أي سأل سائل عن عذاب واقع والباء على هذا بمعنى عن وتكون الإشارة إلى قوله متى هذا الوعد وغير ذلك وأما من قرأ سال بغير همز فيحتمل وجهين أحدهما أن يكون مخففا من المهموز فيكون فيه المعنيان المذكوران والثاني

أن يكون من سال السيل إذا جرى ويؤيد ذلك قراءة ابن عباس سال سيل وتكون الباء على هذا كقولك ذهبت يزيد وإذا كان من السيل احتمل وجهين أحدهما أن يكون شبه العذاب في شدته وسرعة وقوعه بالسيل وثانيهما أن تكون حقيقة قال زيد بن ثابت في جهنم واد يقال له سائل فتلخص من هذا أن

في القراءة بالهمز يحتمل معنيين وفي القراءة بغير همز أربعة معان للكافرين يحتمل أن يتعلق بواقع ... 739
146 وتكون اللام بمعنى على أو تكون صفة للعذاب أو يتعلق بسأل إذا كانت بمعنى دعا أي دعا للكافرين بعذاب أو تكون مستأنفا كأنه قال هو للكافرين من الله يحتمل أن يتعلق بواقع أي واقع من عند الله أو بدافع أي ليس له دافع من عند الله أو يكون صفة للعذاب أو مستأنفا ذي المعارج جمع معرج وهو المصعد إلي علو كالسلم والمدارج التي يرتقي بها قال ابن عطية هي هنا مستعارة في الفضائل والصفات الحميدة وقيل هي المراقى إلى السماء وهذا أظهر لأنه فسرها بما بعدها من عروج الملائكة والروح إليه أي إلى عرشه ومن حيث تهبط أوامره وقضاياه فالعروج هو من الأرض إلى العرش والروح هنا جبريل عليه السلام بدليل قوله نزل به الروح الأمين على قلبك وقيل الروح ملائكة حفظة على الملائكة وهذا ضعيف مفتقر إلى صحة نقل وقيل الروح جنس أرواح الناس وغيرهم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة اختلف في هذا اليوم على قولين أحدهما أنه يوم القيامة والآخر أنه في الدنيا والصحيح أنه يوم القيامة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث مانع الزكاة ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها إلا صفحت له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد يعني يوم القيامة ثم اختلف هل مقداره خمسون ألف سنة حقيقة وهذا هو الأظهر أو هل وصف بذلك لشدة أهواله كما يقال يوم طويل إذا كان فيه مصائب وهموم وإذا قلنا إنه في الدنيا فالمعنى أن الملائكة

والروح يعرجون في يوم لو عرج فيه الناس لعرجوا في خمسين ألف سنة وقيل الخمسون الف سنة هي مدة الدنيا والملائكة تعرج وتنزل في هذة المرة وهذا كله على أن يكون قوله في يوم يتعلق بتعرج ويحتمل أن يكون في يوم صفة للعذاب فيتعين أن يكون اليوم يوم القيامة والمعنى على هذا مستقيم فاصبر هذا متصل بما قبله من العذاب وغيره أي اصبر على أقوال الكافرين حتى يأتيهم العذاب ولذلك وصفه بالقرب مبالغة في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم إنهم يرونه بعيدا يحتمل أن يعود الضمير على العذاب أو على اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة والبعيد يحتمل أن يراد به بعد الزمان أو بعد الأمكان وكذلك القرب يحتمل أن يراد به قرب الزمان لأن كل آت قريب ولأن الساعة قد قربت وقرب الإمكان لقدرة الله عليه يوم تكون السماء كالمهل يوم هنا بدل من يوم كان مقداره خمسين ألف سنة أو بدل من الضمير المنصوب في نراه أو منصوب بقوله قريبا أو بقوله يود المجرم أو بفعل مضمر تقديره اذكر والمهل هو دردى الزيت شبه السماء به في سوادها وانكدار أنوارها يوم القيامة وقيل هو ما أذيب من االفضة ونحوها شبه السماء به في تلونه وتكون الجبال كالعهن العهن هو الصوف شبه الجبال به في انتفاشه وتخلخل أجزائه وقيل هو الصوف المصبوغ ألوانا فيكون التشبيه في الانتفاش وفي اختلاف الألوان لأن الجبال منها بيض وسود وحمر ولا يسأل حميم حميما الحميم هنا الصديق والمعنى لا يسأل أحد من حميمه نصرة ولا إعانة لعلمه أنه لا يقدر له على شئ وقيل لا يسأله عن حاله لأن كل أحد مشغول بنفسه

يبصرونهم يقال بصر الرجل بالرجل إذا رآه وبصرته إياه بالتشديد إذا أريته إياه والضميران يعودان على الحميمين لأنهما في معنى الجمع والمعنى أن كل حميم يبصر حميمه يوم القيامة فيراه ولكنه لا يسأله ... 740

---

147 وصاحبته يعني امرأته (وفصيلته) يعني القرابة الأقربين تؤويه أي تضمه فيحتمل أن يريد تضمه في الانتماء إليها أو في نصرته وحفظه من المضرات ثم ينجيه الفاعل الافتداء الذي يقتضيه لو يفتدي وهذا الفعل معطوف على لو يفتدي وإنما عطفه بثم إشعارا ببعد النجاة وامتناعها ولذلك زجره عن ذلك بقوله كلا إنها لظى الضمير للنار لأن العذاب يدل عليها ويحتمل أن يكون ضمير القصة وفسره بالخبر ولظى علم لجهنم مشتق من اللظى بمعنى اللهب نزاعة للشوى الشوى أطراف الجسد وقيل جلد الرأس فالمعنى أن النار تنزعها ثم تعود ونزاعة بالرفع بدل من لظى أو خبر ابتداء مضمر أو خبر لإنها إن جعلنا لظى منصوبا على التخصيص أو بدل من الضمير أو خبر ثان لإنها إن جعلنا لظى خبر لها ونزاعة بالنصب حال تدعو من أدبر وتولى يعني الكفار الذين تولوا عن الإسلام ودعاؤها لهم عبارة عن أخذها لهم وقال ابن عباس تدعوهم حقيقة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقيل معناه تهلك حكاه الخليل عن العرب وجمع فأوعى يقال أوعيت المال وغيره اذا جمعته في وعاء فالمعنى جمع المال وجعله في وعاء وهذه إشارة إلى قوم من أغنياء الكفار جمعوا المال من غير حله ومنعوه من حقه إن الإنسان خلق هلوعا الإنسان هنا اسم جنس بدليل الاستثناء منه سئل أحمد بن يحيى مؤلف الفصيح عن الهلوع فقال قد فسره الله فلا تفسيرا بين من تفسيره وهو قوله إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا وذكره الله على وجه الذم لهذه الخلائق ولذلك استثنى منه المصلين لأن صلاتهم تحملهم على قلة الا كتراث بالدنيا فلا يجزعون من شرها ولا يبخلون بخيرها الذين هم على صلاتهم دائمون الدوام عليها هو المواظبة بطول العمر والمحافظة عليها المذكورة بعد ذلك هي أداؤها في أوقاتها وتوفيه الطهارة لها حق معلوم قد ذكرنا في الذاريات معنى حق والسائل والمحروم ووصفه هنا بالمعلوم إن أراد الزكاة فهي معلومة

المقدار شرعا وإن أراد غيرها فمعنى المعلوم أن العبد يجعل على نفسه وظيفة معلومة عنده غير مأمون أي لا يكون أحد آمنا منه فإن الأمن من عذاب الله حرام فلا ينبغي للعبد أن يزيل عنه الخوف حتى يدخل الجنة لأماناتهم وعهدهم ذكر في المؤمنين وكذلك لفروجهم حافظون والذين هم بشهادتهم قائمون قال ابن عباس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وقال الجمهور يعني الشهادة عند الحكام ثم اختلف على هذا في ... 741

148 معنى القيام بها فقيل هو التحقيق لها كقوله صلى الله عليه وسلم على مثل الشمس فاشهدوا وقيل هو المبادرة إلى إدائها من غير امتناع فأما إن دعى الشاهد إلى الأداء فهو واجب عليه وأما إذا لم يدع إلى الأداء فالشهادة على ثلاثة أقسام أحدها حقوق الناس فلا يجوز أداؤها حتى يدعوه صاحب الحق إلى ذلك والثاني حقوق الله التي يستدام فيها التحريم كالطلاق والعتق والأحباس فيجب أداء الشهادة بذلك دعى أو لم يدع الثالث حقوق الله التي لا يستدام فيها التحريم كالحدود فهذا ينبغي ستره حتى يدعى إليه فمال الذين كفروا قبلك مهطعين أي مسرعين مقبلين إليك بأبصارهم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقبل الكفار ينظرون إليه ويستمعون قراءته ومعنى قبلك في جهتك وما يليك عزين أي جماعات شتى وهو جمع عزة بتخفيف الزاى وأصله عزوة وقيل عزهة ثم حذفت لامها وجمعت بالواو والنون عوضا من اللام المحذوفة أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم كانوا يقولون إن كان ثم جنة فنحن أهلها كلا ردع لهم عما طمعوا فيه من دخول الجنة إنا خلقناهم مما يعلمون كناية عن المنى الذي خلق الإنسان منه وفي المقصود بهذا الكلام ثلاثة أوجه أحدها تحقير الإنسان والرد على المتكبرين كما قال بعضهم إن الإنسان خلق من نطفة مذرة ويصير جيفة قذرة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة الثاني الرد على الكفار في طمعهم أن يدخلوا الجنة كأنه يقول إنا خلقناكم مما خلقنا منه الناس فلا يدخل أحد الجنة إلا بالعمل الصالح لأنكم سواء في الخلقة الثالث الاحتجاج على البعث بأن الله خلقهم من ماء مهين فهو قادر على أن يعيدهم كقوله ألم يك نطفة من مني يمنى إلى آخر السورة
فلا أقسم معناه أقسم ولا زائدة برب المشارق والمغارب ذكر في الصافات إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم تهديد للكفار بإهلاكهم وإبدال خير منهم وما نحن بمسبوقين أي مغلوبين والمعنى إنا لا نعجز عن

التبديل المذكور أو عن البعث فذرهم وعيد لهم وفيه مهادنة منسوخة بالسيف يومهم الذي يوعدون يعني يوم القيامة بدليل أنه أبدل منه يوم يخرجون من الأجداث وهي القبور كأنهم إلى نصب يوفضون النصب الأصنام وأصله كل ما نصب إلى الإنسان فهو يقصد إليه مسرعا من علم أو بناء أو غير ذلك وفيه لغات فتح النون وإسكان الصاد وضم النون وإسكان الصاد وضمها ويوفضون معناه يسرعون والمعنى أنهم يسرعون الخروج من القبور إلى المحشر كما يسرعون المشي إلى أصنامهم في الدنيا ... 742

149 سورة نوح عليه السلام
أن أنذر وأن اعبدوا
يحتمل أن تكون أن مفسرة أو مصدرية على تقدير بأن أنذر وبأن اعبدوا والأول

أظهر عذاب أليم يحتمل أن يريد عذاب الآخرة أو الغرق الذي أصابهم يغفر لكم من ذنوبكم من هنا للتبعيض أي يغفر لكم ما فعلتم من الذنوب قبل أن تسلموا لأن الإسلام يجب ما قبله ولم يضمن أن يغفر لهم ما بعد إسلامهم لأن ذلك في مشيئة الله تعالى وقيل إن من هنا زائدة وذلك باطل لأن من لا تزاد عند سيبويه إلا في غير الواجب وقيل هي لبيان الجنس وقيل لابتداء الغاية وهذان القولان ضعيفان في المعنى والأول هو الصحيح لأن التبعيض فيه متجه ويؤخركم إلى أجل مسمى ظاهر هذا يقتضي أنهم إن فعلوا ما أمروا به أخروا إلى أجل مسمى وإن لم يفعلوا لم يؤخروا وذلك يقتضي القول بالأجلين وهو مذهب المعتزلة وعلى هذا حملها الزمخشري وأما على مذهب أهل السنة فهي من المشكلات وتأولها ابن عطية فقال ليس للمعتزلة في الآية مجال لأن المعنى أن نوحا عليه الصلاة والسلام لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قدحان لكن قد سبق في الأزل إما ممن قضى له بالإيمان والتأخير أو ممن قضى له بالكفر والمعاجلة وكان نوحا عليه السلام قال لهم آمنوا يظهر في الوجود أنكم ممن قضى له بالإيمان والتأخير وإن بقيتم على كفركم يظهر في الوجود أنكم ممن قضى عليه بالكفر والمعاجلة فكان الاحتمال الذي يقتضيه ظاهر الآية إنما هو فيما يبرزه الغيب من حالهم إذ يمكن أن يبرز إما الإيمان والتأخير وإما الكفر والمعاجلة وأما عند الله فالحال الذي يكون منهم معلوم مقدر محتوم وأجلهم كذلك معلوم مقدر محتوم إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر هذا يقتضي أن الأجل محتوم كما قال تعالى فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون وفي هذا حجة لأهل السنة وتقوية للتأويل الذي ذكرنا وفيه أيضا رد على المعتزلة في قولهم بالأجلين ولما

كان كذلك قال الزمخشري إن ظاهر هذا مناقض لما قبله من الوعد بالتأخير إن آمنوا وتأول ذلك على مقتضى مذهبه بأن الأجل الذي لا يؤخر هو الأجل الثاني وذلك أن قوم نوح قضى الله أنهم إن آمنوا عمرهم الله مثلا ألف عام وإن لم يؤمنوا عمرهم تسعمائة عام فالألف عام هي التي تؤخر إذا جاءت والتسعمائة عام هي التي وعدوا بالتأخير عنها إلى الألف عام إن آمنوا دعوتهم لتغفر لهم أي دعوتهم ليؤمنوا فتغفر لهم فذكر المغفرة التي هي سبب عن الإيمان ليظهر قبح إعراضهم عنه فإنهم أعرضوا عن سعادتهم جعلوا أصابعهم في آذانهم فعلوا ذلك لئلا ... 743

---

150 يسمعوا كلامه فيحتمل أنهم فعلوا ذلك حقيقة أو يكون عبارة عن إفراط إعراضهم حتى كأنهم فعلوا ذلك واستغشوا ثيابهم أي جعلوها غشاوة عليهم لئلا سمعوا كلامه أولئلا يراهم ويحتمل أنهم فعلوا ذلك حقيقة أو يكون عبارة عن إعراضهم وأصروا أي داوموا على كفرهم دعوتهم جهارا إعراب جهارا مصدر من المعنى كقولك قعد القرفصاء أو صفة لمصدر محذوف تقديره دعا جهارا أو مصدر في موضع الحال أي مجاهرا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا

ذكر أو لا أنه دعاهم بالليل والنهار ثم ذكر أنه دعاهم جهارا ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار وهذه غاية الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة صلى الله عليه وسلم قال ابن عطية الجهار دعاؤهم في المحافل ومواضع اجتماعهم والإسرار دعاء كل واحد على حدته يرسل السماء عليكم مدرارا مفعول من الدر وهو كثرة الماء وفي الآية دليل على أن الاستغفار يوجب نزول الأمطار ولذلك خرج عمر بن الخطاب إلى الاستسقاء فلم يزد على أن استغفر ثم انصرف فقيل له ما رأيناك استسقيت فقال والله لقد استسقيت أبلغ الاستسقاء ثم نزل المطر وشكا رجل إلى الحسن الجدب فقال له استغفر الله مالكم لا ترجون لله وقارا فيه أربع تأويلات أحدها أن الوقار بمعنى التوقير والكرامة فالمعنى مالكم لا ترجون أن يوقركم الله في دار ثوابه قال ذلك الزمخشري وقوله لله على هذا بيان للموقر ولو تأخر لكان صفة لوقارا والثاني أن الوقار بمعنى التؤدة والتثبت والمعنى مالكم لا ترجون لله وقارا متثبتين حتى تتمكنون من النظر بوقاركم وقوله لله على هذا مفعول دخلت عليه اللام كقولك ضربت لزيد وإعراب وقارا على هذا مصدر في موضع الحال الثالث أن الرجاء هنا بمعنى الخوف والوقار بمعنى العظمة والسلطان فالمعنى ما لكم لا تخافون عظمة الله وسلطانه ولله على هذا صفة للوقار في المعنى الرابع أن الرجاء بمعنى الخوف والوقار بمعنى الاستقرار من قولك وقر بالمكان إذا استقر

فيه والمعنى مالكم لا تخافون الاستقرار في دار القرار إما في الجنة أو النار وقد خلقكم أطوارا أي طورا بعد طور يعني أن الإنسان كان نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى سائر أحواله وقيل الأطوار الأنواع المختلفة فالمعنى أن الناس على أنواع في ألوانهم وأخلاقهم وألسنتهم وغير ذلك طباقا ذكر في الملك وجعل القمر فيهن نورا القمر إنما هو في السماء الدنيا وساغ أن يقول فيهن لما كان في إحداهن فهو في الجميع كقولك فلان في الأندلس إذا كان في بعضها والشمس في السماء الرابعة وقيل في الخامسة وجعل القمر نورا والشمس سراجا لأن ضوء السراج أقوى من النور فإن السراج هو الذي يضئ فيبصر به والنور قد يكون أقل من ذلك والله أنبتكم من الأرض نباتا هذا عبارة عن إنشائهم من تراب الأرض ونباتا مصدر على غير المصدر أو يكون تقديره أنبتكم فنبتم إنباتا ويحتمل أن يكون منصوبا على الحال ثم يعيدكم فيها يعني بالدفن ... 744

---

151 ويخرجكم إخراجا) يعني بالبعث من القبور والله جعل لكم الأرض بساطا شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها وأخذ بعضهم من لفظ البساط أن الأرض بسيطة غير كروية خلافا لما ذهب إليه أهل التعديل وفي ذلك نظر سيلا فجاجا ذكر في الأنبياء واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا يعني اتبعوا أغنياءهم وكبراءهم وقرئ ولده بفتحتين وولد بضم الواو وسكون اللام وهما بمعنى واحد ومكروا مكرا كبارا الكبار بالتشديد أبلغ من الكبار

بالتخفيف والكبار بالتخفيف أبلغ من الكبير وقالوا لا تذرن آلهتكم أي وصى بعضهم بعضا بذلك ولا تذرن ودا ولا سواعا هذه أسماء أصنامهم كان قوم نوح يعبدونها وروى أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا فلما ماتوا صورهم أهل ذلك العصر من حجارة وقالوا ننظر إليها لنتذكر أعمالهم الصالحة فهلك ذلك الجيل وكثر تعظيمهم من بعدهم لتلك الصور حتى عبدوها من دون الله ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها وقيل بل الأسماء فقط إلى قبائل العرب فكان ودا لكلب بدومة الجندل وكان سواع لهذيل وكان يغوث لمراد وكان يعوق لهمذان وكان نسرا لذي الكلاع من حمير وقرئ ودا بفتح الواو وضمها وهما لغتان وقد أضلوا كثيرا الضمير للرؤساء من قوم نوح والمعنى أضلوا كثيرا من أتباعهم وهذا من كلام نوح عليه السلام وكذلك لا تزد الظالمين إلا ضلالا من كلامه وهو دعاء عليهم وقال الزمخشري إنه معطوف على قوله رب إنهم عصوني والتقدير قال رب إنهم عصوني وقال لا تزد الظالمين إلا ضلالا مما خطيئاتهم أغرقوا هذا من كلام الله إخبارا عن أمرهم وما زائدة للتأكيد وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضا ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النار إنما كان بسبب خطاياهم وهي الكفر وسائر المعاصي فأدخلوا نارا يعني جهنم وعبر عن ذلك بالفعل الماضي لأن الأمر محقق وقيل أراد عرضهم على النار وعبر عنه بالإدخال وقال نوح رب لا

تذر على الأرض من الكافرين ديارا ديارا من الأسماء المستعملة في النفي العام يقال ما في الدار ديار أي ما فيها أحد ووزنه فيعال وكان أصله ديوار ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء وليس وزنه فعال لأنه لو كان كذلك لقيل دوار لأنه مشتق من الدور أو من الدار وروى أن نوحا عليه السلام لم يدع على قومه بهذا الدعاء إلا بعد أن يئس من إيمانهم وبعد أن أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم رب اغفر لي ولوالدي يؤخذ من هذا أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره وكان ولدا نوح عليه السلام مؤمنين قال ابن عباس لم يكن لنوح ابن كافر ما بينه وبين آدم عليهما السلام واسم والد نوح لمك بن متوشلخ وأمه شمخا ... 745

---

152 بنت أنوش حكاه الزمخشري ولمن دخل بيتي مؤمنا قيل بيته المسجد وقيل السفينة وقيل شريعته سماها بيتا استعارة وهذا بعيد وقيل داره وهذا أرجح لأنه الحقيقة وللمؤمنين والمؤمنات هذا دعاء بالمغفرة لكل مؤمن ومؤمنة على العموم وفيه دليل على جواز ذلك خلافا لمن قال من المتأخرين أنه لا يجوز الدعاء بالمغفرة لجميع المؤمنين على العموم وهذا خطأ وتضييق لرحمة الله الواسعة قال بعض العلماء إن الإ له الذي استجاب لنوح عليه السلام فأغرق بدعوته جميع أهل الأرض الكفار حقيق أن يستجيب له فيرحم بدعوته جميع المؤمنين والمؤمنات تبارا أي هلاكا والله أعلم
سورة الجن

قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن تقدمت في الأحقاف قصة هؤلاء الجن الذين استمعوا القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا أي قال ذلك بعضهم لبعض وعجبا مصدر وصف به للمبالغة لأن العجب مصدر قولك عجبت عجبا وقيل هو على حذف مضاف تقديره ذا عجب وأنه تعالى جد ربنا جد الله جلاله وعظمته وقيل معناه من قولك فلان مجدود إذا استغنى وقرئ أنه في هذا الموضع بفتح الهمزة وكسرها وكذلك فيما بعده إلى قوله وأنا منا المسلمون فأما الكسر فاستئناف أو عطف على إنا سمعنا لكنه كسر في معمول القول فيكون ما عطف عليه من قول الجن وأما الفتح فقيل إنه عطف على قوله أنه استمع نفر وهذا خطأ من طريق المعنى لأن قوله استمع نفر في موضع معمول أوحى فيلزم أن يكون المعطوف عليه مما أوحى وأن لا يكون من كلام الجن وقيل إنه معطوف على الضمير المجرور في قوله آمنا به وهذا ضعيف لأن الضمير المجرور لا يعطف عليه إلا بإعادة الخافض وقال الزمخشري هو معطوف على محل الجار والمجرور في آمنا به كأنه قال صدقناه وصدقنا أنه تعالى جد ربنا وكذلك ما بعده ولا خلاف في فتح ثلاث مواضع وهي أنه استمع وأن لو استقاموا وأن المساجد لله لأن ذلك مما أوحى لا من كلام الجن وأنه

كان يقول سفيهنا على الله شططا هذا من كلام الجن وسفيههم أبوهم إبليس وقيل هو اسم جنس لكل سفيه منهم واختار ذلك ابن عطية والشطط التعدي ومجاوزة الحد وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا أي ظننا أن الأقوال التي كان الإنس والجن يقولونها على الله صادقة وليست بكذب لأنا ظننا أنه لا يكذب أحد على الله وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن تفسير هذا ما روى أن العرب كانوا إذا حل أحد منهم بواد صاح بأعلى صوته يا عزيز هذا الوادي أني أعوذ بك من ... 746

---

153 السفهاء الذين في طاعتك ويعتقد أن ذلك الجن الذي بالوادي يحميه فزادوهم رهقا ضمير الفاعل للجن وضمير المفعول للإنس والمعنى أن الجن زادوا الإنس ضلالا وإثما لما عاذوا بهم أو زادوهم تخويفا لما رأوا ضعف عقولهم وقيل ضمير الفاعل للإنس وضمير المفعول للجن والمعنى أن الإنس زادوا الجن تكبرا وطغيانا لما عاذوا بهم حتى كان الجن يقول أنا سيد الجن والإنس وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا الضمير في ظنوا لكفار الإنس وظننتم خطاب الجن بعضهم لبعض فالمعنى أن كفار الإنس والجن ظنوا أن لن يبعث الله احدا والبعث هنا يحتمل أن يريد به بعث الرسل أو البعث من القبور وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا هذا إخبار عن ما حدث عند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من منع الجن من استراق السمع من السماء ورجمهم واللمس المس واستعير هنا للطلب والحرس اسم مفرد في معنى الحراس كالخدم في معنى الخدام ولذلك وصف بشديد وهو مفرد

ويحتمل أن يريد به الملائكة الحراس أو النجوم الحارسة وكرر الشهب لاختلاف اللفظ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع المقاعد جمع مقعد وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة قعود الجن أنهم كانوا واحدا فوق واحد فمتى أحرق الأعلى طلع الذي تحته مكانه فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان ويزيدون معها ثم يزيد الكهان للكلمة مائة كذبة فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا الرصد اسم جمع للراصد كالحراس للحارس وقال ابن عطية هو مصدر وصف به ومعناه منتظر قال بعضهم إن رمي الجن بالنجوم إنما حدث بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم واختارا بن عطية والزمخشري أنه كان قبل المبعث قليلا ثم زاد بعد المبعث وكثر حتى منع الجن من استراق السمع بالكلية والدليل أنه كان قبل المبعث قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقد رأى كوكبا انقض ما كنتم تقولون لهذا في الجاهلية قالوا كنا نقول ولد ملك أو

مات ملك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الأمر كذلك ثم وصف استراق الجن للسمع وقد ذكر شعراء الجاهلية ذلك في أشعارهم وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض الآية قال ابن عطية معناه لا ندري أيؤمن الناس بهذا النبي فيرشدوا أو يكفرون به فينزل بهم الشر وقال الزمخشري معناه لا ندري هل أراد الله بأهل الأرض خيرا أو شرا من عذاب أو رحمة أو من خذلان أو من توفيق وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك أي منا قوم دون ذلك فحذف الموصوف وأراد به الذين ليس صلاحهم كاملا أو الذين ليس لهم صلاح فإن دون قد تكون بمعنى أقل أو بمعنى غير كنا طرائق قددا الطرائق المذاهب والسير وشبهها والقدد المختلفة وهو جمع قدة وهذا بيان للقسمة المذكورة قبل وهو على حذف مضاف أي كنا ذوي طرائق وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض الظن هنا بمعنى العلم وقال ابن عطية هذا إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم ويحتمل أن يكونوا اعتقدوا هذا الاعتقاد قبل اسلامهم سمعنا الهدى يعنون القرآن فلا ... 747

---

154 يخاف بخسا ولا رهقا) البخس النقص والظلم والرهق تحمل مالا يطاق وقال ابن عباس البخس نقص الحسنات والرهق الزيادة في السيئات ومنا القاسطون يعني الظالمين يقال قسط الرجل إذا جار وأقسط بالألف إذا عدل وهاهنا انتهى ما حكاه الله من كلام الجن وأما قوله
فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا
يحتمل أن يكون من بقية كلامهم أو يكون ابتداء كلام الله تعالى وهو الذي اختاره ابن عطية وأما قوله وأن لو استقاموا فهو من كلام الله باتفاق وليس من كلامهم تحروا أي قصدوا الرشد وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا الماء الغدق الكثير وذلك استعارة في توسيع الرزق والطريقة هي طريقة الإسلام وطاعة الله فالمعنى لو استقاموا على ذلك لو سع الله أرزاقهم

فهو كقوله ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض وقيل هي طريقة الكفر والمعنى على هذا لو استقاموا على الكفر لوسع الله عليهم في الدنيا أملاكهم استدراجا ويؤيد هذا قوله لنفتنهم فيه والأول أظهر والضمير في استقاموا يحتمل أن يكون للمسلمين أو للقاسطين المذكورين أو لجميع الجن أو للجن الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم أو لجميع الخلق لنفتنهم فيه إن كانت الطريقة الإيمان والطاعة فمعنى الفتنة الاختبار هل يسلمون أم لا وإن كانت الطريقة الكفر فمعنى الفتنة الإضلال والاستدراج نسلكه عذابا صعدا معنى نسلكه ندخله والصعد الشديد المشقة وهو مصدر صعد يصعد ووصف بالمصدر للمبالغة يقال فلان في صعد أي في مشقة وقيل صعدا جبل في النار وأن المساجد لله أراد المساجد على الإطلاق وهي بيوت عبادة الله وروى أن الآية نزلت بسبب تغلب قريش على الكعبة وقيل أراد الأعضاء التي يسجد عليها واحدها مسجد بفتح الجيم وهذا بعيد وعطف أن المساجد لله على أوحى إلى أنه استمع وقال الخليل معنى الآية لأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا أي لهذا السبب فلا تعبدوا

غير الله وأنه لما قام عبد الله يدعوه عبد الله هنا محمد صلى الله عليه وسلم ووصفه بالعبودية اختصاصا له وتقريبا وتشريفا وقال الزمخشري أنه سماه هنا عبد الله ولم يقل الرسول أو النبي لأن هذا واقع في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه لأنه مما أوحى أليه فذكر صلى الله عليه وسلم نفسه على ما يقتضيه التواضع والتذلل وهذا الذي قاله بعيد مع أنه إنما يمكن على قراءة أنه لما قام بفتح الهمزة فيكون عطفا على أوحى إلى أنه استمع وأما على القراءة بالكسر على الاستئناف فيكون إخبارا من الله أو من جملة كلام الجن فيبطل ما قاله كادوا يكونون عليه لبدا اللبد الجماعات واحدها لبدة والضمير في كادوا يحتمل أن يكون للكفار من الناس أي كادوا يجتمعون على الرد عليه وإبطال أمره أو يكون للجن الذين استمعوا أي كادوا يجتمعون عليه 748 ...

---

155 لاستماع القرآن والبركة به ملتحدا أي ملجأ إلا بلاغا بدل من ملتحدا أي لا أجد ملجأ إلا بلاغ الرسالة ويحتمل أن يكون استثناء منقطعا من الله قال الزمخشري هذا الجار والمجرور ليس بصلة البلاغ إنما هو بمعنى بلاغا كائنا من الله ويحتمل عندي أن يكون متعلقا ببلاغا والمعنى بلاغ من الله ورسالاته قال الزمخشري إنه معطوف على بلاغا كأنه قال إلا التبليغ والرسالة ويحتمل أن يكون ورسالاته معطوفا على اسم الله ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها ابدا جمع خالدين على معنى من يعص لأنه في معنى الجمع والآية في الكفار وحملها المعتزلة على عصاة المؤمنين لأن مذهبهم خلودهم في النار والدليل على أنها في الكفار وجهان أحدهما أنها مكية والسورة المكية إنما الكلام فيها مع الكفار والآخر دلالة ما قبلها وما بعدها على أن المراد بها

الكفار حتى اذا رأوا ما يوعدون تعلقت حتى بقوله يكونون عليه لبدا وجعلت غاية لذلك والمعنى أنهم يكفرون ويتظاهرون عليه حتى إذا رأوا ما يوعدون قال ذلك الزمخشري وقال أيضا يجوز أن يتعلق بمحذوف يدل على المعنى كأنه قيل لا يزالون على ما هم عليه من الكفر حتى إذا رأوا ما يوعدون وهذا أظهر قل إن أدرى أقريب ما توعدون إن هنا نافية والمعنى قل لا أدري أقريب ما توعدون أم بعيد وعبر عن بعده بقوله أم يجعل له ربي أمدا ويعني بما توعدون قتلهم يوم بدر أو يوم القيامة فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول أي لا يطلع أحدا على علم الغيب إلا من ارتضى وهم الرسل فإنه يطلعهم على ما شاء من ذلك ومن في قوله من رسول لبيان الجنس لا للتبعيض والرسل هنا يحتمل أن يراد بهم الرسل من الملائكة وعلى هذا حملها ابن عطية أو الرسل من بني آدم وعلى هذا حملها الزمخشري واستدل بها على نفي كرامات الأولياء الذين يدعون المكاشفات فإن الله خص الاطلاع على الغيب بالرسل دون غيرهم وفيها أيضا دليل على

إبطال الكهانة والتنجيم وسائر الوجوه التي يدعي أهلها الاطلاع على الغيب لأنهم ليسوا من الرسل فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا المعنى أن الله يسلك من بين يدي الرسل ومن خلفه ملائكة يكونون رصدا يحفظونه من الشياطين وقد ذكرنا رصدا في هذه السورة قال بعضهم ما بعث الله رسولا ألا ومعه ملائكة يحرسونه حتى يبلغ رسالة ربه ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم في الفاعل بيعلم ثلاثة أقوال الأول أي ليعلم الله أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم أي يعلمه موجودا وقد كان علم ذلك قبل كونه الثاني ليعلم محمد أن الملائكة الرصد أبلغوا رسالات ربهم الثالث ليعلم من كفر أن الرسل قد بلغوا الرسالة والأول أظهر وجمع الضمير في أبلغوا وفي ربهم حملا على المعنى لأن من ارتضى من رسول يراد به جماعة وأحاط بما لديهم أي أحاط الله بما عند الرسل من العلوم والشرائع وهذه الجملة معطوفة على قوله ليعلم لأن معناه أنه قد علم قال ذلك ابن عطية ويحتمل أن تكون هذه الجملة في موضع الحال وأحصى كل شئ عددا هذا عموم في جميع الأشياء وعددا منصوب على الحال أو تمييز أو مصدر من معنى أحصى ... 749

---

156 سورة المزمل

يا أيها المزمل نداء للنبي صلى الله عليه وسلم ووزن المزمل متفعل فأصله متزمل ثم سكنت التاء وأدغمت في الزاي وفي تسمية النبي صلى الله عليه وسلم بالمزمل ثلاثة أقوال أحدها أنه كان في وقت نزول الآية متزملا في كساء أو لحاف والتزمل الالتفاف في الثياب بضم وتشمير هذا قول عائشة والجمهور والثاني أنه كان قد تزمل في ثيابه للصلاة الثالث أن معناه المتزمل للنبوة أي المتشمر المجد في أمرها والأول هو الصحيح لما ورد في البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاءه الملك وهو في غار حراء في ابتداء

الوحي رجع صلى الله عليه وسلم إلى خديجة ترعد فرائصه فقال زملوني زملوني فنزلت يا أيها المدثر وعلى هذا نزلت يا أيها المزمل فالمزمل على هذا تزمله من أجل الرعب الذي أصابه أول ما جاءه جبريل وقال الزمخشري كان نائما في قطيفة فنودي يا أيها المزمل ليبين الله الحالة التي كان عليها من التزمل في القطيفه لأنه سبب للنوم الثقيل المانع من قيام الليل وهذا القول بعيد غير سديد وقال السهيلي في ندائه بالمزمل فائدتان إحداهما الملاطفة فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي قم أبا تراب والفائدة الثانية التنبيه لكل متزمل راقد بالليل ليتنبه إلى ذكر الله لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطب وكل من اتصف بتلك الصفة قم الليل هذا الأمر بقيام الليل اختلف هل هو واجب أو مندوب فعلى القول بالندب فهو ثابت غير منسوخ وأما على القول بالوجوب ففيه ثلاثة أقوال أحدها أنه فرض على النبي صلى الله عليه وسلم وحده ولم يزل فرضا عليه حتى توفى الثاني أنه فرض عليه وعلى أمته فقاموا حتى انتفخت أقدامهم ثم نسخ بقوله في آخر السورة إن ربك يعلم أنك تقوم الآية وصار تطوعا هذا قول عائشة رضي الله عنها وهو الصحيح واختلف كم بقي فرضا فقالت عائشة عاما وقيل ثمانية

أشهر وقيل عشرة أعوام فالآية الناسخة على هذا مدنية الثالث أنه فرض عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أمته وهو ثابت غير منسوخ ولكن ليس الليل كله إلا ما تيسر منه وهو مذهب الحسن وابن سيرين إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه في معنى هذا الكلام أربعة أقوال الأول وهو الأشهر والأظهر أن الاستثناء من الليل وقوله نصفه بدل من الليل أو من قليلا وجعل النصف قليلا بالنسبة إلى الجميع والضميران في قوله أو انقص منه أو زد عليه عائدان على النصف والمعنى أن الله خيره بين ثلاثة أحوال وهو أن يقوم نصف الليل أو ينقص من النصف قليلا أو يزد عليه الثاني قال الزمخشري إلا قليلا استثناء من النصف كأنه قال نصف الليل إلا قليلا فخيره على هذا بين حالتين وهما أن يقوم أقل من النصف أو أكثر منه وهذا ضعيف لأن قوله أو انقص منه قليلا تضمن معنى النقص من النصف فلا فائدة زائدة في استثناء القليل من النصف القول الثالث قال الزمخشري أيضا يجوز أن يريد بقوله أو انقص منه قليلا نصف النصف وهو الربع ويكون الضمير في قوله أو زد عليه يعود على ذلك أي زد على الربع فيكون ثلثا فيكون التخيير ... 750

---

157 على هذا بين قيام النصف أو الثلث أو الربع وهذا أيضا بعيد القول الرابع قال ابن عطية يحتمل أن يكون معنى إلا قليلا الليالي التي يمنعه العذر من القيام فيها والمراد بالليل على هذا الليالي فهو جنس وهذا بعيد لأنه قد فسر هذا القليل المستثنى بما بعد ذلك من نصف الليل أو النقص منه أو الزيادة عليه قيل ذلك على أن المراد بالليل المستثنى بعض أجزاء الليل لا بعض الليالي فإن

قيل لم قيد النقص من النصف بالقلة فقال أو أنقص منه قليلا وأطلق في الزيادة فقال أو زد عليه ولم يقل قليلا فالجواب أن الزيادة تحسن فيها الكثرة فلذلك لم يقيدها بالقلة بخلاف القص فإنه لو أطلقه لا حتمل أن ينقص من النصف كثيرا ورتل القرآن ترتيلا الترتيل هو التمهل والمد وإشباع الحركات وبيان الحروف وذلك معين على التفكر في معاني القرآن بخلاف الهذ الذي لا يفقه صاحبه مايقول وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته حرفا حرفا ولايمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ
إناسنلقي عليك قولا ثقيلا هذه الآية اعتراض بين آية قيام الليل والقول الثقيل هو القرآن واختلف في وصفه بالثقل على خمسة أقوال أحدها أنه سمى ثقيلا لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يلقاه من الشدة عند نزول الوحي عليه حتى أن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد وقد كان يثقل جسمه عليه الصلاة والسلام بذلك حتى إنه إذا أوحى اليه وهو على ناقته بركت به وأوحى إليه وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فكادت أن ترض فخذ زيد والثقل على هذا حقيقة االثاني أنه ثقيل على الكفار بإعجازه ووعيده الثالث أنه ثقيل في الميزان الرابع أنه كلام له وزن ورجحان الخامس أنه ثقيل لما تضمن من التكاليف والأوامر والنواهي وهذا اختيار ابن عطية وعلى هذا يناسب الاعتراض بهذه الآية قيام الليل لمشقته إن ناشئة الليل في الناشئة سبعة أقوال الأول أنه النفس الناشئة بالليل أي التي تنشأ من

مضجعها وتقوم للصلاة الثاني الجماعات الناشئة الذين يقومون للصلاة الثالث العبادة الناشئة بالليل أي تحدث فيه الرابع الناشئة القيام بعد النوم فمن قام أول الليل قبل أن ينام فلم يقم ناشئة الخامس الناشئة القيام أول الليل بعد العشاء السادس الناشئة بعد المغرب والعشاء السابع ناشئة الليل ساعاته كلها هي أشد وطئا يحتمل معنيين أحدهما أثقل وأصعب على المصلي ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اشدد وطأتك على مضر والأثقل أعظم أجرا فالمعنى تحريض على قيام الليل لكثرة الأجر الثاني أشد ثبوتا من أجل الخلوة وحضور الذهن والبعد عن الناس ويقرب هذا من معنى أقوم قيلا وقرئ وطئا بكسر الواو على وزن فعال ومعناه موافقة أي يوافق القلب اللسان بحضور الذهن إن لك في النهار سبحا طويلا السبح هنا عبارة عن التصرف في الاشتغال والمعنى يكفيك النهار للتصرف في أشغالك وتفرغ بالليل لعبادة ربك وقيل المعنى إن فاتك شئ من صلاة الليل فأده بالنهار فإنه طويل يسع ذلك واذكر اسم ربك قيل معناه قل بسم الله الرحمن الرحيم في أول صلاتك واللفظ أعم من ذلك
وتبتل إليه تبتيلا أي انقطع إليه بالعبادة والتوكل عليه وحده وقيل التبتل رفض الدنيا وتبتيلا مصدر على غير ... 751

---

158 قياس فاتخذه وكيلا الوكيل هو القائم بالأمور والذي توكل إليه الأشياء فهو أمر بالتوكل على الله واصبر على ما يقولون أي على ما يقول الكفار والآية منسوخة بالسيف وقيل إنما المنسوخ المهادنة التي يقتضيها قوله اهجرهم هجرا جميلا وأما الصبر فمأمور به في كل وقت وذرني والمكذبين هذا تهديد لهم وانتصب االمكذبين على أنه مفعول معه أو معطوف أولى النعمة أي التنعم في الدنيا وروى أن الآية نزلت في بني المغيرة وهم قوم من قريش كانوا متنعمين في الدنيا أنكالا جمع نكل وهو القيد من الحديد وروى أنها قيود سود من نار وطعاما ذا غصة شجرة الزقوم ومعنى ذاغصة أي يغص به آكلوه وقيل هو شوك يعترض في حلوقهم لا ينزل ولا يخرج وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية فصعق يوم ترجف الأرض أي تهتز وتتزلزل والعامل في يوم معنى الكلام المتقدم وهو إن لدينا أنكالا وكانت الجبال كثيبا مهيلا الكثيب كدس الرمل والمهيل اللين الرخو الذي تهيله الريح أي تنشره وزنه مفعول والمعنى أن الجبال تصير إذا نسفت يوم القيامة مثل الكثيب إنا أرسلنا إليكم رسولا خطاب لجميع الناس لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة وقال الزمخشري هو خطاب لأهل مكة وشهيدا عليكم أي يشهد على أعمالكم من الكفر والإيمان والطاعة والمعصية وإنما يشهد على من أدركه لقوله صلى الله عليه وسلم أقول كما قال أخي عيسى وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا يعني موسى عليه السلام وهو المراد بقوله فعصى فرعون الرسول فاللام للعهد
أخذا وبيلا أي عظيما شديدا يوما مفعول به وناصبه تتقون أي كيف تتقون يوم القيامة وأهواله إن كفرتم وقيل هو مفعول به على أن يكون كفرتم بمعنى جحدتم وقيل هو ظرف أي كيف لكم بالتقوى يوم القيامة ويحتمل أن يكون العامل فيه محذوف تقديره

اذكروا قوله السماء منفطر به يجعل الولدان شيبا الولدان جمع وليد وهو الطفل الصغير والشيب بكسر الشين جمع أشيب ووزنه فعل بضم الفاء وكسرت لأجل الياء ويجعل يحتمل أن يكون مسندا إلى الله تعالى أو إلى اليوم والمعنى أن الأطفال يشيبون يوم القيامة فقيل إن ذلك حقيقة وقيل إنه عبارة عن هول ذلك اليوم وقيل إنه عبارة عن طوله السماء منفطر به الانفطار الانشقاق والضمير المجرور يعود على اليوم أي تتفطر السماء لشدة هوله ويحتمل أن يعود على الله أي تنفطر بأمره وقدرته والأول أظهر والسماء مؤنثة وجاء منفطر بالتذكير لأن تأنيثها غير حقيقي أو على الاضافة تقديره ذات أنفطار أو لأنه أراد السقف كان وعده مفعولا الضمير في وعده يحتمل أن يعود على اليوم أو على الله والأول أظهر لأنه ملفوظ به إن هذه تذكرة الإشارة إلى ما تقدم من المواعظ والوعيد فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا يريد سبيل التقرب إلى الله ومعنى الكلام حض على ذلك وترغيب فيه إن ربك يعلم أنك تقوم ...
752

159 أدنى من ثلثي الليل) هذه الآية نزلت ناسخة لما أمر به في أول السورة من قيام الليل ومعناها أن الله يعلم أنك ومن معك من المسلمين تقومون قياما مختلفا مرة يكثر ومرة يقل لأنكم لا تقدرون على إحصاء أوقات الليل وضبطها فإنه لا يقدر على ذلك إلا الله فخفف عنكم وأمركم أن تقرؤا ما تيسر من القرآن ونصفه وثلثه من قرأها بالخفض فهو عطف على ثلثي الليل أي تقوم أقل من ثلثي الليل وأقل من نصفه وثلثه ومن قرأ بالنصب فهو عطف على أدنى أي تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفه تارة وثلثه تارة وطائفة يعني المسلمين وهو معطوف على الضمير الفاعل في تقوم علم أن لن تحصوه الضمير يعود على ما يفهم من سياق الكلام أي لن تحصوا تقدير الليل وقيل معناه لن تطيقوه أي لن تطيقوا قيام الليل كله فتاب عليكم عبارة عن التخفيف كقوله فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن أي إذا لم تقدروا على قيام الليل كله فقوموا بعضه واقرؤا في صلاتكم بالليل ما تيسر من القرآن وهذا الأمر للندب وقال ابن عطية هو للإباحة عند الجمهور وقال قوم منهم الحسن وابن سيرين هو فرض لابد منه ولو أقل ما يمكن حتى قال بعضهم من صلى الوتر فقد امتثل هذا الأمر وقيل كان فرضا ثم نسخ بالصلوات الخمس وقال بعضهم هو فرض على أهل القرآن دون غيرهم علم أن سيكون منكم مرضى ذكر الله في هذه الآية الأعذار التي تكون لبني آدم تمنعهم من قيام الليل فمنها المرض ومنها السفر للتجارة وهي الضرب في الأرض لابتغاء فضل الله ومنها الجهاد ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر تأكيدا للأمر به أو تأكيدا للتخفيف وهذا أظهر لأنه ذكره بأثر الأعذار وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة يعني المكتوبتين وأقرضوا الله معناه تصدقوا وقد ذكر في البقرة هو خيرا نصب خيرا لأنه مفعول ثان لتجدوه والضمير فصل واستغفروا الله قال بعض العلماء إن الاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه

الآية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا
سورة المدثر
يا أيها المدثر
وزنه متفعل ومعناه الذي تدثر في كساء أو ثياب وتسميته بذلك كتسميته بالمزمل حسبما ذكرنا في موضعه وقال السهيلي في ندائه بالمدثر ثلاثة فوائد الاثنتان اللتان ذكرتا في المزمل وفائدة ثالثة وهي أن ... 753
160 العرب يقولون النذير العريان للنذير الذي يكون في غاية الجد والتشمير والنذير بالثياب ضد هذا فكأنه تنبيه على ما يجب من التشمير وقيل إن هذه أول سورة نزلت من القرآن والصحيح أن سورة اقرأ نزلت قبلها قم فأنذر أي أنذر الناس وهذه بعثة عامة وربك فكبر أي عظمه ويحتمل أن يريد قول الله أكبر ويؤيد ذلك ما روى عن أبي هريرة أن المسلمين قالوا بم نفتتح صلاتنا فنزلت وربك فكبر وقوله وربك فكبر من المقلوب الذي يقرأ من أوله وآخره وثيابك فطهر فيه ثلاثة أقوال أحدها أنه حقيقة في تطهير الثياب من النجاسة واختلف في هذا هل يحمل على الوجوب فتكون إزالة النجاسة واجبة أو على الندب

فتكون سنة والآخر أنه يراد به الطهارة من الذنوب والعيوب فالثياب على هذا مجاز الثالث أن معناه لا تلبس الثياب من مكسب خبيث والرجز فاهجر فيه ثلاثة أقوال أحدها أن الرجز الأوثان روى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول عائشة والآخر أن الرجز السخط والعذاب وهذا أصله في اللغة فمعناه اهجر ما يؤدي إليه ويوجبه الثالث أنه المعاصي والفجور قال بعضهم كل معصية رجز ولا تمنن تستكثر يحتمل قوله تمنن أن يكون بمعنى العطاء أو بمعنى المن وهو ذكر العطاء وشبهه أو بمعنى الضعف فإن كان بمعنى العطاء ففيه وجهان أحدهما أن معناه لا تعط شيئا لتأخذ أكثر منه قال بعضهم هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ومباح لأمته والآخر لا تعط الناس عطاء وتستكثره لأن الكريم يستقل ما يعطى وإن كثيرا وإن كان من المن بالشئ ففيه وجهان الأول لا تمنن على الناس

بنبوتك تستكثر بأجر أو مكسب تطلبه الثاني لا تمنن على الله بعملك تستكثر أعمالك وتقع لك بها إعجاب وإن كان من الضعف فمعناه لا تضعف عن تبليغ الرسالة وتستكثر ما حملناك من ذلك ولربك فاصبر أي اصبر لوجهه وطلب رضاه ويحتمل أن يريد الصبر على المكاره والمصائب أو على إذاية الكفار له أو على العبادة فإذا نقر في الناقور يعني نفخ في الصور ويحتمل أن يريد النفخة الأولى والثانية ذرني ومن خلقت وحيدا هذا وعيد وتهديد ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة باتفاق وفي معنى وحيدا ثلاثة أقوال أحدها روى أنه كان يلقب الوحيد أي لا نظير له في ماله وشرفه وكونه وحيدا نعمة عددها الله عليه الثاني أن معناه خلقته منفردا ذليلا الثالث أن معناه خلقته وحدي فوحيدا على هذا من صفة الله تعالى وإعرابه على هذا حال من الضمير الفاعل في قوله خلقت وهو على القولين الأولين حال من الضمير المفعول وجعلت له مالا ممدودا أي كثيرا واختلف في مقداره فقيل ألف دينار وقيل عشرة آلاف دينار وقيل يعني الأرض لأنها مدت وبنين شهودا أي حضورا وروى أنه كان له عشرة من الأولاد وقيل ثلاثة عشرة لا يفارقونه وأسلم منهم ثلاثة وهم خالد وهشام وعمار ومهدت له تمهيدا أي بسطت له في الدنيا بالمال والقوة وطيب العيش ثم يطمع أن أزيد أي يطمع في الزيادة على ما أعطاه الله وهذا غاية الحرص ... 754

---

161 كلا زجر عما طمع فيه من الزيادة عنيدا أي معاندا مخالفا والآيات هنا يراد بها القرآن لأن الوليد قال فيه إنه سحر ويحتمل أن يريد الدلائل سأرهقه صعودا الصعود العقبة الصعبة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها عقبة في جهنم كلما صعدها الانسان ذاب ثم يعود فالمعنى سأشق عليه بتكليفه الصعود فيها
إنه فكر وقدر أي فكر فيما يقول وقدر في نفسه ما يقول في القرآن أي هيأ كلامه روى أن الوليد سمع القرآن فأعجبه وكاد يسلم ودخل إلى أبي بكر الصديق فعاتبه أبو جهل وقال له إن قريشا قد أبغضتك لمقاربتك أمر محمد وما

يخلصك عندهم إلا أن تقول في كلام محمد قولا يرضيهم فافتتن وقال أفعل ذلك ثم فكر فيما يقول في القرآن فقال أقول شعر ما هو شعر أقول كهانة ما هو بكهانة أقول إنه سحر وإنه قول البشر ليس منزلا من عند الله فقتل كيف قدر دعاء عليه وذم وكرره تأكيدا لذمه وتقبيح حاله قال ابن عطية ويحتمل أن يكون مقتضاه استحسان منزعه الأول حين أعجبه القرآن فيكون قوله قتل لا يراد به الدعاء عليه وإنما هو كقولهم قاتل الله فلانا ما أنجعه يريدون التعجب من حاله واستعظام وصفه وقال الزمخشري يحتمل أن يكون ثناء عليه على طريقة الاستهزاء أو حكاية لقول قريش تهكما بهم ثم نظر أي نظر في قوله ثم عبس وبسر البسور هو تقطيب الوجه وهو أشد من العبوس وفعل ذلك من حسده للنبي صلى الله عليه وسلم أي عبس في وجهه علية الصلاة والسلام أو عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول ثم أدبر أي أعرض عن الاسلام سحر يؤثر أي ينقل عمن تقدم وما أدراك ما سقر تعظم لها وتهويل لا تبقى ولا تذر مبالغة في وصف عذابها أي لا تدع غاية من العذاب إلا أذاقته إياها أو لا تبقى شئ القى فيها إلا أهلكته وإذا أهلك لم تذره هالكا بل يعود للعذاب لواحة للبشر معنى لواحة مغيرة يقال لوحة للسفر اذا غيره والبشر جمع بشرة وهي الجلدة فالمعنى أنها

تحرق الجلود وتسودها وقيل لواحة من لاح إذا ظهر والبشر الناس أي تلوح للناس وقال الحسن تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام تسعة عشر يعني الزبانية خزنة جهنم فقيل هم تسعة عشر ملكا وقيل تسعة عشر صفا من الملائكة والأول أشهر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة سبب الآية أنه لما نزل عليها تسعة عشر قال أبو جهل أيعجز عشرة منكم عن واحد من هؤلاء التسعة عشر أن يبطشوا به فنزلت الآية ومعناها أنهم ملائكة لا طاقة لكم بهم وروى أن الواحد منهم يرمي بالجبل على الكفار وما جعلنا عدتهم إلا فتنه للذين كفروا أي جعلناهم هذا العدد ليفتتن الكفار بذلك ويطمعوا أن يغلبوهم ويقولون ما قالوا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب أي ليعلم أهل التوراة والإنجيل أن ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم من عدد ملائكة النار حق لأنه موافق لما في كتبهم ولا يرتاب أي لا يشك الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون أن ما قاله محمد صلى الله عليه وسلم حق فإن قيل كيف نفى عنهم الشك بعد أن وصفهم باليقين والمعنى واحد وهو تكرار فالجواب ... 755

---

162 أنه لما وصفهم باليقين نفى عنهم أن يشكوا فيما يستقبل بعد يقينهم الحاصل الآن فكأنه وصفهم باليقين في الحال والاستقبال وقال الزمخشري ذلك مبالغة وتأكيد وليقول الذين في قلوبهم مرض المرض عبارة عن الشك وأكثر ما يطلق الذين في قلوبهم مرض على المنافقين فإن قيل هذه السورة مكية ولم يكن حينئذ منافقون وإنما حدث المنافقون بالمدينة فالجواب من وجهين أحدهما أن معناه يقول المنافقون إذا حدثوا ففيه إخبار بالغيب والآخر

أن يريد من كان بمكة من أهل الشك وقولهم ماذا أراد الله بهذا مثلا استبعاد لأن يكون هذا من عند الله (وما يعلم جنود ربك إلا هو) يحتمل القصد بهذا وجهين أحدهما وصف جنود الله بالكثرة أي هم من كثرتهم لا يعلمهم إلا الله والآخر رفع اعتراض الكفار على التسعة عشر أي لا يعلم أعداد جنود الله إلا هو لأن منهم عددا قليلا ومنهم عددا كثيرا حسبما أراد الله وما هي إلا ذكرى للبشر الضمير لجهنم أو للآيات المتقدمة كلا ردع للكفار عن كفرهم وقال الزمخشري هي إنكار لأن تكون لهم ذكرى إذ أدبر أي ولى وقرئ دبر بغير ألف والمعنى واحد وقيل معناه دبر الليل والنهار أي جاء في دبره والصبح إذا أسفر أي أضاء ومنه الإسفار بصلاة الصبح إنها لإحدى الكبر الضمير لجهنم أو للآيات والنذارة أي هي من الأمور العظام والكبر جمع كبرى وقال ابن عطية جمع كبيرة والأول هو الصحيح نذيرا للبشر تمييز أو حال من إحدى الكبر وقيل النذير هنا الله فالعامل فيه على هذا محذوف وهذا ضعيف وقيل هو حال من هذه السورة أي قم فأنذر نذيرا وهذا بعيد قال الزمخشري هو من بدع التفاسير لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر التقديم عبارة عن تقديم سلوك طريق الهدى والتأخر ضده ولمن شاء بدل من البشر أي هم متمكنون من التقدم والتأخر وقيل معناه الوعيد كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وعلى هذا أعرب الزمخشري أن يتقدم مبتدأ ولمن شاء خبره والأول

أظهر رهينة قال ابن عطية الهاء في رهينة للمبالغة أو على تأنيث النفس وقال الزمخشري ليست بتأنيث رهين لأن فعيلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث وإنما هي بمعنى الرهن أي كل نفس رهن عند الله بعملها إلا أصحاب اليمين أي أهل السعادة فإنهم فكوا رقابهم بأعمالهم الصالحة كما فك الراهن رهنه بأداء الحق وقال علي بن أبي طالب أصحاب اليمين هم الأطفال لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها وقال ابن عباس هم الملائكة يتساءلون عن المجرمين أي يسأل بعضهم بعضا عن حال المجرمين الذين في النار ماسلككم في سقر أي ما أدخلكم النار وهذا خطاب للمجرمين يحتمل أن خاطبهم به المسلمون أو الملائكة فأجابوهم بقولهم لم نك من المصلين وما بعده أي هذا الذي أوجب دخولهم النار وإنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيما له لأنه أعظم جرائمهم نخوض الخوض هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل وشبهه حتى أتانا اليقين هو الموت عند المفسرين وقال ابن ... 756

---

163 عطية إنما اليقين الذي أرادوا ما كانوا يكذبون به في الدنيا فيتيقنونه بعد الموت فما تنفعهم شفاعة الشافعين إنما ذلك لأنهم كفار وأجمع العلماء أنه لا يشفع أحد في الكفار وجمع الشافعين دليل على كثرتهم كما ورد في الآثار تشفع الملائكة والأنبياء والعلماء والشهداء والصالحين فمالهم عن التذكرة معرضين يعني كفار قريش كأنهم حمر مستنفرة المستنفرة بفتح الفاء التي استنفرها الفزع وبالكسر بمعنى النافرة شبه الكفار بالحمر النافرة في جهلهم

ونفورهم عن الإسلام ويعني حمر الوحش فرت من قسورة قال ابن عباس القسورة الرماة وقال أيضا هو الأسد وقيل أصوات الناس وقيل الرجال الشداد وقيل سواد أول الليل بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة المعنى يطمع كل إنسان منهم أن ينزل عليه كتابا من الله ومعنى منشرة منشورة غير مطوية أي طرية كما كتبت لم تطو بعد وذلك أنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم لانتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء فيه من رب العالمين إلى فلان بن فلان نؤمر باتباعك كلا ردع عما أرادوه بل لا يخافون الأخرة أي هذه هي العلة والسبب في إعراضهم كلا تأكيد المردع الأول أو ردع عن عدم خوفهم الآخرة إنه تذكرة الضمير لما تقدم من الكلام أو للقرآن بجملته فمن شاء ذكره فاعل شاء ضمير يعود على من وفي ذلك حض وترغيب وقيل الفاعل هو الله ثم قيد فعل العبد بمشيئة الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة أي هو أهل لأن يتقى لشدة عقابه وهو أهل لأن يغفر الذنوب لكرمه وسعة رحمته وفضله

سورة القيامة

لا أقسم

في الموضعين معناه أقسم ولا زائدة لتأكيد القسم وقيل هي استفتاح كلام بمنزلة ألا وقيل هي نفي لكلام الكفار النفس اللوامة هي التي تلوم نفسها على فعل الذنوب أو التقصير في الطاعات فإن النفوس على ثلاثة أنواع فخيرها النفس المطمئنة وشرها النفس الأمارة بالسوء وبينهما النفس

اللوامة وقيل اللوامة هي المذمومة الفاجرة وهذا بعيد لأن الله لا يقسم إلا بما يعظم من المخلوقات ويستقيم إن كان لا أقسم نفيا للقسم أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه الإنسان هنا للجنس أو الإشارة به للكفار المنكرين للبعث ومعناه أيظن أن لن نجمع عظامه للبعث بعد فنائها في التراب وهذه الجملة هي التي تدل على جواب ... 757

164 القسم المتقدم بلى تقديره نجمعها قادرين منصوب على الحال من الضمير في نجمع والتقدير نجمعها ونحن قادرون على أن نسوي بنانه البنان الأصابع وفي المعنى قولان أحدهما أنه إخبار بالقدرة على البعث أي قادرين على أن نسوي أصابعه أي نخلقها بعد فنائها مستوية متقنة وإنما خص الأصابع دون سائر الأعضاء لدقة عظامها وتفرقها والآخر أنه تهديد في الدنيا أي قادرين على أن نجعل أصابعه مستوية ملتصقة كيد الحمار وخف الجمل فلا يمكنه تصريف يديه في منافعه والأول أليق بسياق الكلام بل يريد الإنسان ليفجر أمامه هذه الجملة معطوفة على أيحسب الإنسان ويجوز أن يكون استفهاما مثلها أو تكون خبرا وليست بل هنا للإضراب عن الكلام الأول بمعنى إبطاله وإنما هي للخروج منه إلى ما بعده وليفجر معناه ليفعل أفعال الفجور وفي معنى أمامه ثلاثة أقوال أحدها أنه عبارة عما يستقبل من الزمان أي يفجر بقية عمره الثاني أنه عبارة عن اتباع أغراضه وشهواته يقال مشى فلان قدامه إذا لم يرجع عن شئ يريده والضمير على هذين القولين يعود على الإنسان الثالث أن الضمير يعود على يوم القيامة والمعنى يريد الإنسان أن يفجر قبل يوم القيامة يسأل أيان يوم القيامة أيان معناها متى وهذا السؤال على يوم القيامة

هو على وجه الاستخفاف والاستبعاد برق البصر هذا إخبار عن يوم القيامة وقيل عن حالة لموت وهذا خطأ لأن القمر لا يخسف عند موت أحد ولا يجمع بينه وبين االشمس وبرق بفتح الراء معناه لمع وصار له برق وقرئ بكسر الراء ومعناه تحير من الفزع

(3/256)

وقيل معناه شخص فيتقارب معنى الفتح والكسر وخسف القمر ذهب ضوؤه يقال خسف هو وخسفه الله والخسوف للقمر والكسوف للشمس وقيل الكسوف ذهاب بعض الضوء والخسوف ذهاب جميعه وقيل بمعنى واحد وجمع الشمس والقمر في جمعهما ثلاثة أقوال أحدها أنهما يجمعان حيث يطلعهما الله من المغرب والآخر أنهما يجمعان يوم القيامة ثم يقذفان في النار وقيل في البحر فتكون النار الكبرى الثالث أنهما يجمعان فيذهب ضوؤهما لاوزر أي لا ملجأ ولا مغيث بما قدم وأخر أي بجميع أعماله ما قدم منها في أول عمره وما أخر في آخره وقيل ما تقدم في حياته وما أخر من سنة أو وصية بعد مماته وقيل ما قدم لنفسه من ماله وما أخر منه لورثته بل الإنسان على نفسه بصيرة في معناه قولان أحدهما أنه شاهد على نفسه بأعماله إذ تشهد عليه جوارحه يوم القيامة والآخر أنه حجة بينة لأن خلقته تدل على خالقه فوصف بالبصارة مجازا لأن من نظر فيه أبصر الحق والأول أليق بما قبله وما بعده كأنه قال ينبؤ الإنسان يومئذ بأعماله بل هو يشهد بأعماله وإن لم ينبأ بها وكذلك يلتئم مع قوله ولو ألقى معاذيره ويكون هو جواب لو حسبما نذكره
ولو ألقى معاذيره فيه قولان أحدهما أن المعاذير لأعذار أي الإنسان يشهد على نفسه بأعماله ولو اعتذر عن قبائحها والآخر أن المعاذير الستور أي الانسان يشهد على نفسه يوم القيامة ولو سدل الستور على نفسه في الدنيا حين يفعل القبائح لا تحرك به لسانك لتعجل به الضمير في به يعود على القرآن ... 758

(3/257)

---

165 دلت على ذلك قرينة الحال وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يحرك به شفتيه مخافة أن ينساه لحينه فأمره الله أن ينصت ويستمع وقيل كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب عليه ذلك وشق عليه فنزلت الآية والأول هو الصحيح لأنه ورد في البخاري وغيره إن علينا جمعه وقرآنه ضمن الله له أن يجمعه في صدره فلا يحتاج إلى تحريك شفتيه عند نزوله ويحتمل قرآنه هنا وجهين أحدهما أن يكون بمعنى القراءة فإن القرآن قد يكون مصدرا من قرأت والآخر أن يكون معناه تأليفه في صدره فهو مصدر من قولك قرأت الشئ أي جمعته فإن قرأناه فاتبع قرآنه أي إذا قرأه جبريل فاجعل قراءة جبريل قراءة الله لأنها من عنده ومعنى اتبع قرآنه اسمع قراءته واتبعها بذهنك لتحفظها وقيل اتبع القرآن في الأوامر والنواهي ثم إن علينا بيانه أي علينا أن نبينه لك ونجعلك تحفظه وقيل علينا أن نبين معانيه وأحكامه فإن قيل ما مناسبة قوله لا تحرك به لسانك الآية لما قبلها فالجواب أنه لعله نزل معه في حين واحد فجعل على ترتيب النزول بل تحبون

العاجلة أي تحبون الدنيا وهذا الخطاب توبيخ للكفار ومن كان على مثل حالهم في حب الدنيا وكلا ردع عن ذلك
وجوه يومئذ ناضرة بالضاد أي ناعمة ومنه نضرة النعيم إلى ربها ناظرة هذا من النظر بالعين وهو نص في نظر المؤمنين إلى الله تعالى في الآخرة وهو مذهب أهل السنة وأنكره المعتزلة وتأولوا ناظرة بأن معناها منتظرة وهذا باطل لأن نظر بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف جر تقول نظرتك أي انتظرتك وأما المتعدي بإلى فهو من نظر العين ومنه قوله ومنهم من ينظر إليك وقال بعضهم إلى هنا ليست بحرف جر وإنما هي واحد الآلاء بمعنى النعم وهذا تكلف في غاية البعد وتأوله الزمخشري بأن معناه كقول الناس فلان ناظر إلى فلان إذا كان يرتجيه ويتعلق به وهذا بعيد وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في النظر إلى

الله أحاديث صحيحة مستفيضة صريحة المعنى لا تحتمل التأويل فهي تفسير للآية باسرة أي عابسة تظهر عليها الكآبة والبسور أشد من العبوس تظن أن يفعل بها فاقرة أي مصيبة قاصمة الظهر والظن هنا يحتمل أن يكون على أصله أو بمعنى اليقين إذا بلغت التراقي يعني حالة الموت والتراقي جمع ترقوة وهي عظام أعلى الصدر والفاعل ببلغت نفس الإنسان دل على ذلك سياق الكلام وهو عبارة عن حال الحشرجة وسياق الموت وقيل من راق أي قال أهل المريض من يرقيه عسى أن يشفيه وقيل معناه أن الملائكة تقول من يرقى بروحه أي يصعد بها إلى السماء فالأول من الرقية وهو أشهر وأظهر والثاني من الرقى وهو العلو وظن أنه الفراق أي تيقن المريض أن ذلك الحال فراق الدنيا وفراق أهله وماله
والتفت الساق بالساق هذا عبارة عن شدة كرب الموت وسكراته أي التفت ساقه على الأخرى عند السياق وقيل هو مجاز كقوله كشفت الحرب عن ساقها إذا اشتدت وقيل معناه ماتت ساقه فلا تحمله وقيل التفت أي لفها الكافر إذا كفر وفي قوله الساق والمساق ضرب من ضروب التجنيس إلى ربك يومئذ المساق هذا جواب ... 759

---

166 إذا بلغت التراقي والمساق مصدر من السوق كقوله إلى الله المصير فلا صدق ولا صلى لاهنا نافية وصدق هنا يحتمل أن يكون من التصديق بالله ورسله أو من الصدقة ونزلت هذه الآية وما بعدها في أبى جهل يتمطى أي يتبختر في مشيته وذلك عبارة عن التكبر والخيلاء وكانت هذه المشية معروفة في بني مخزوم الذين كان أبو جهل منهم أولى لك وعيد وتهديد فأولى وعيد ثان ثم كرر ذلك تأكيدا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبب أبا جهل وقال له إن الله يقول لك أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى فنزل القرآن بموافقة ذلك أيحسب الإنسان أن يترك سدى هذا توبيخ ومعناه أيظن أن يترك من غير بعث ولا حساب ولا جزاء فهو كقوله أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا والانسان هنا جنس

وقيل نزلت في أبى جهل ولا يبعد أن يكون سببها خاصا ومعناها عام ألم يك نطفة من مني يمنى النطفة النقطة وتمنى من قولك أمنى الرجل ومعنى الآية الاستدلال بخلقة الانسان على بعثه كقوله قل يحييها الذي أنشأها أول مرة والعلقة الدم لأن المني يصير في الرحم دما فخلق فسوى أي خلقه بشرا فسوى صورته أي أتقنها أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى هذا تقرير واحتجاج وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ آخر هذه السورة قال بلى وفي رواية سبحانك اللهم بلى
سورة الإنسان
هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا
هل هنا بمعنى التقرير لا لمجرد الاستفهام وقيل هل بمعنى قل والانسان هنا جنس والحين الذي أتى عليه حين كان معدوما قبل أن يخلق وقيل الانسان هنا آدم والحين الذي أتى عليه حين كان طينا قبل أن ينفخ فيه الروح وهذا ضعيف لوجهين أحدهما قوله إنا خلقنا الانسان من نطفة وهو هنا جنس باتفاق إذ لا يصح هنا في آدم والآخر أن مقصد الآية تحقير الإنسان من نطفة أمشاج أي أخلاط واحدها مشج بفتح الميم والشين وقيل مشج بوزن عدل وقال الزمخشري ليس

أمشاج بجمع وإنما هو مفرد كقولهم برمة أعشار ولذلك أوقع صفة للمفرد واختلف في معنى الأخلاط هنا فقيل اختلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء وقيل اختلاط ماء الرجل والمرأة وروى أن عظام الإنسان وعصبه من ماء الرجل وأن لحمه وشحمه من ماء المرأة وقيل معناه ألوان وأطوار أي يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة نبتليه أي نختبره وهذه الجملة في موضع الحال أي خلقناه مبتلين له وقيل ... 760
167 معناه نصرفه في بطن أمه نطفة ثم علقة فجعلناه سميعا بصيرا هذا معطوف على خلقنا الانسان ومن جعل نبتليه بمعنى نصرفه في بطن أمه فهذا عطف عليه وقيل أن نبتليه مؤخر في المعنى أي جعلناه سميعا بصيرا لنبتليه وهذا تكلف بعيد إنا هديناه السبيل أي سبيل الخير والشر ولذلك قسم الانسان إلى قسمين شاكرا أو كفورا وهما حالان من الضمير في هديناه والهدى هنا بمعنى بيان الطريقين وموهبة العقل الذي يميز به بينهما ويحتمل أن يكون بمعنى الارشاد أي هدى المؤمن للإيمان والكافر للكفر قل كل من عند الله سلاسلا من قرأه بغير تنوين فهو الأصل إذ هو لا ينصرف لأنه جمع لا نظير له في الآحاد ومن قرأه بالتنوين فله ثلاث توجيهات أحدها أنها لغة لبعض العرب يصرفون كل ما لا ينصرف إلا أفعل والآخر أن النون بدل من حرف الاطلاق وأجرى الوصل مجرى الوقف والثالث أن يكون صاحب هذه القراءة راوية للشعر قد عود لسانه صرف مالا ينصرف فجرى على ذلك الأبرار جمع بار أو بر ومعناه العاملون بالبر وهو غاية التقوى والعمل الصالح حتى قال بعضهم الأبرار هم الذين لا يؤذون الذر من كأس ذكر في الصافات معنى الكاس ومن هنا يحتمل أن تكون للتبعيض أو الابتداء الغاية مزاجها كافورا أي تمزج الخمر بالكافور وقيل المعنى أنه كافور في طيب رائحته كما تمدح طعاما فتقول هذا

مسك عينا بدل من كافورا على القول بأن الخمر تمزج بالكافور أو بدل من موضع من كأس على القول الآخر كأنه قال يشربون

خمر اخمر عين وقيل هو مفعول يشربون وقيل منصوب بإضمار فعل يشرب بها قال ابن عطية الباء زائدة والمعنى يشربها وهذا ضعيف لأن الباء إنما تزاد في مواضع ليس هذا منها وإنما هي كقولك شربت الماء بالعسل لأن العين المذكورة تمزج بها الكأس من الخمر عباد الله وصفهم بالعبودية وفيه معنى التشريف والاختصاص كقوله وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا يفجرونها تفجيرا أي يفجرونها حيث شاؤا من منازلهم تفجيرا سهلا لا يصعب عليهم وفي الأثر أن في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة عينا تفجر إلى قصور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين مستطيرا أي منتشرا شائعا ومنه استطار الفجر إذا انشق ضوؤه ويطعمون الطعام نزلت هذه الآية وما بعدها في علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم فإنهم كانوا صائمين فلما وضعوا فطورهم ليأكلوه جاء مسكين فرفعوه له وباتوا طاوين وأصبحوا صائمين فلما وضعوا فطورهم جاء يتيم فدفعوه له وباتوا طاوين وأصبحوا صائمين فلما وضعوا فطرهم جاء أسير فدفعوه له وباتوا طاوين والآية على هذا مدنية لأن عليا إنما تزوج فاطمة بالمدينة وقيل إنما هي مكية وليست في علي على حبه الضمير للطعام أي يطعمونه مع حبه والحاجة إليه فهو كقوله لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وقوله ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ففي قوله على حبه تتميم وهو من أدوات البيان وقيل الضمير لله وقيل للإطعام المفهوم من يطعمون والأول أرجح وأظهر مسكينا ويتيما وأسيرا قد ذكرنا المسكين واليتيم وأما الأسير ففيه خمسة أقوال أحدها أن الأسير الكافر بين المسلمين ففي إطعامه أجر لأنه في كل ذي كبد رطبة أجر وقيل نسخ ذلك بالسيف والآخر أنه الأسير المسلم إذا ... 761

---

168 خرج من دار الحرب لطلب الفدية والثاث أنه المملوك الرابع أنه المسجون الخامس أنه المرأة لقوله صلى الله عليه وسلم استوصوا بالنساء خيرا لأنهن عوان عندكم وهذا بعيد والأول أرجح لأنه روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بالأسير المشرك فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له أحسن إليه إنما نطعمكم لوجه الله عبارة عن الإخلاص لله ولذلك فسروه وأكدوه بقولهم لا نريد منكم جزاء ولا شكورا والشكور مصدر كالشكر ويحتمل أنهم قالوا هذا الكلام بألسنتهم أو قالوه في نفوسهم فهو عبارة عن النية والقصد يوما عبوسا وصف اليوم بالعبوس مجاز على وجهين أحدهما أن يوصف اليوم بصفة أهله كقولهم نهاره صائم وليله قائم وروي أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل الدم من عينيه مثل القطران والآخر يشبه في شدته بالأسد العبوس قمطريرا قال ابن عباس معناه طويل وقيل شديد ولقاهم نضرة وسروا النضرة التنعم وهذا في مقابلة عبوس الكافر وقوله وقاهم ولقاهم من أدوات البيان بما

صبروا أي بصبرهم على الجوع وإيثار غيرهم على أنفسهم حسبما ذكرنا من قصة علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم وقد ذكرنا الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا عبارة عن اعتدال هوائها أي ليس فيها حر ولا برد والزمهرير هو البرد الشديد وقيل هو القمر بلغة طيء والمعنى على هذا أن للجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمسا ولا قمر ودانية عليهم ظلالها معناه أن ظلال الأشجار متدلية عليهم قريبة منهم وإعراب دانية معطوف على متكئين وقال الزمخشري هو معطوف على الجملة التي قبلها وهي لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا لأن هذه الجملة في حكم المفرد تقديره غير رائين فيها شمسا ولا زمهريرا
ودانية ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين يجتمعان لهم أي جامعين بين البعد عن الحر والبرد وبين دنو الظلال وقيل هو صفة لجنة عطف بالواو كقولك فلان عالم وصالح وقيل هو معطوف عليها أي وجنة أخرى دانية

(3/263)

عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا القطوف جمع قطف وهو العنقود من النخل والعنب وشبه ذلك وتذليلها هو أن تتدلى إلى الأرض وروي أن أهل الجنة يقطعون الفواكهة على أي حال كانوا من قيام أو جلوس أو اضطجاع لأنها تتدلى لهم كما يريدون وهذه الجملة في موضع الحال من دانية أي دانية في حال تذليل قطوفها أو معطوفة عليها بأنية هي جمع إناء ووزنها أفعله وقد ذكرنا الأكواب في الواقعة قواريرا القوارير هي الزجاج فإن قيل كيف يتفق أنها زجاج مع قوله من فضة فالجواب أن المراد أنها في أصلها من فضة وهي تشبه الزجاج في صفائها وشفيفها وقيل هي من زجاج وجعلها من فضة على وجه التشبيه لشرف الفضة وبياضها ومن قرأ بغير تنوين فهو على الأصل ومن نونه فعلى ما ذكرنا في سلاسل قدروها تقديرا هذه صفة للقوارير والمعنى قدروها على قدر الأكف أو على قدر ما يحتاجون من الشراب قال مجاهد هي لا تغيض ولا تفيض وقيل قدروها على حسب ما يشتهون والضمير الفاعل في قدروها ... 762

(3/264)

---

169 يحتمل أن يكون للشاربين بها أو للطائفتين بها مزاجها زنجبيلا هو كما ذكرنا في مواجها كافورا سلسبيلا معناه سلسل منقادا لجرية وقيل سهل الانحدار في الحلق يقال شراب سلسل وسلسال وسلسبيل بمعنى واحد وزيدت الباء في التركيب للمبالغة في سلاسته فصارت الكلمة خماسية وقيل سل فعل أمر سبيلا مفعول به وهذا في غاية الضعف ولدان مخلدون ذكر في الواقعة لؤلؤا منثورا شبههم باللؤلؤ في الحسن والبياض وبالمنثور منه في كثرتهم وانتشارهم في القصور وإذا رأيت ثم مفعول رأيت محذوف ليكون الكلام على الإطلاق في كل ما يرى فيها وثم ظرف مكان وقال الفراء تقديره إذا رأيت ما ثم فما مفعولة ثم حذفت قال الزمخشري وهذا خطاب لأن ثم صلة لما ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة ملكا كبيرا يعني كثرة ما أعطاهم الله

حتى إن أدنى أهل الجنة منزلة له مثل الدنيا وعشرة أمثاله معه حسبما ورد في الحديث وقيل أراد أن الملائكة تسلم عليهم وتستأذن عليهم فهم بذلك كالملوك عاليهم بسكون الياء مبتدأ خبره ثياب سندس أي ما يعلوهم من الثياب ثياب سندس وقرئ بالنصب على الحال من الضمير في يطوف عليهم أو في حسبتهم وقال ابن عطية العامل فيه لقاهم أو جزاهم وقال أيضا يجوز أن ينتصب على الظرف لأن معناه فوقاهم وقد ذكرنا معنى السندس والإستبرق وقرئ خضر بالخفض صفة لسندس وبالرفع صفة لثياب وإستبرق بالرفع عطف على ثياب وبالخفض عطف على سندس وحلوا وزنه فعلوا معناه جعل لهم حلى أساور من فضة ذكرنا الأساور في الكهف فإن قيل كيف قال هنا أساور من فضة وفي موضع آخر أساور من ذهب فالجواب أن ذلك يختلف باختلاف درجات أهل الجنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما فلعل الذهب للمقربين والفضة لأهل اليمين ويحتمل أن يكون أهل الجنة لهم أساور من فضة ومن ذهب معا شرابا طهورا أي ليس

بنجس كخمر الدنيا وقيل معناه أنه لم تعصره الأقدام وقيل معناه لا يصير بولا إن هذا كان لكم جزاء أي يقال لهم هذا يقوله الله تعالى والملائكة آثما أو كفورا أو هنا للتنويع فالمعنى لا تطع النوعين فاعلا للإثم ولا كفورا وقيل هي بمعنى الواو أي جامعا للوصفين لأن هذه هي حالة الكفار وروى أن الآية نزلت في أبى جهل وقيل أن الآثم عتبة بن ربيعة والكفور الوليد بن المغيرة والأحسن أنها على العموم لأن لفظها عام وإن كان سبب نزولها خاصا بكرة وأصيلا هذا أمر بذكر الله في كل وقت وقيل إشارة إلى الصلوت الخمس فالبكرة صلاة الصبح والأصيل الظهر والعصر ومن الليل المغرب والعشاء إن هؤلاء يحبون العاجلة أي الدنيا والإشارة إلى ... 763

---

170 الكفار واليوم الثقيل يوم القيامة ووصفة بالثقل عبارة عن هوله وشدته وشددنا أسرهم الأسر الخلقة وقيل المفاصل والأوصال وقيل القوة بدلنا أمثالهم تبديلا أي أهلكناهم وأبدلنا منهم غيرهم وقيل مسخناهم فبدلنا صورهم وهذا تهديد إن هذه تذكرة الإشارة إلى الآية أو السورة أو الشريعة بجملتها فمن شاء تحضيض وترغيب ثم قيد مشيئتهم بمشيئة الله والظالمين منصوب بفعل مضمر تقديره ويعذب الظالمين

سورة المرسلات

اختلف في معنى المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات على قولين أحدهما أنها الملائكة والآخر أنها الرياح فعلى القول بأنها الملائكة سماهم المرسلات لأن الله تعالى يرسلهم بالوحى وغيره وسماهم العاصفات لأنهم يعصفون كما تعصف الرياح في سرعة مضيهم إلى امتثال أوامر الله تعالى وسماهم ناشرات لأنهم ينشرون أجنحتهم في الجو وينشرون الشرائع في

الأرض أو ينشرون صحائف الأعمال وسماهم الفارقات لأنهم يفرقون بين الحق والباطل وعلى القول بأنها الرياح سماها المرسلات لقوله الله الذي يرسل الرياح وسماها العاصفات من قوله ريح عاصف أي شديدة وسماها الناشرات لأنها تنشر السحاب في الجو ومنه قوله يرسل الرياح فتثير سحابا وسماها الفارقات لأنها تفرق بين السحاب ومنه قوله فيجعله كسفا وأما الملقيات ذكرا فهم الملائكة لأنهم يلقون الذكر للأنبياء عليهم السلام والأظهر في المرسلات والعاصفات أنها الرياح لأن وصف الريح بالعصف حقيقة والأظهر في الناشرات والفارقات أنها الملائكة لأن الوصف بالفارقات أليق بهم من الرياح ولأن الملقيات المذكورة بعدها هي الملائكة ولم يقل أحد أنها الرياح ولذلك عطف المتجانسين بالفاء فقال والمرسلات فالعاصفات ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال والناشرات ثم عطف عليه المتجانسين بالفاء وقد قيل في المرسلات والملقيات أنهم الأنبياء عليهم السلام عرفا معناه فضلا وإنعاما وانتصابه على أنه مفعول من

أجله وقيل معناه متتابعة وهو مصدر في موضع الحال وأما عصفا ونشرا وفرقا فمصادر وأما ذكرا فمفعول به
عذرا أو نذرا العذر فسره ابن عطية وغيره بمعنى إعذار الله إلى عباده لئلا تبقى لهم حجة أو عذر وفسره الزمخشري بمعنى الاعتذار يقال عذر إذا محا الإساءة وأما نذرا فمن الإنذار وهو التخويف وقرئ بضم الذال في الموضعين وبإسكانها ويحتمل أن يكونا مصدرين فيكون نصبهما على البدل من ذكرا أو مفعولا بذكر او يحتمل أن ... 764

---

171 يكون عذرا أجمع عذير أو عاذر ونذرا جمع نذير فيكون نصبهما على الحال إنما توعدون لواقع يعني البعث والجزاء وهو جواب القسم فإذا النجوم طمست أي زال ضوؤها وقيل محيت وإذا السماء فرجت أي انشقت وإذا الجبال نسفت أي صارت غبارا وإذا الرسل أقتت أي جعل لها وقت معلوم فحان ذلك الوقت وجمعت للشهادة على الأمم يوم القيامة وقرئ وقتت بالواو وهو لأصل والهمزة بدل من الواو لأي يوم أجلت هو من الأجل كما أن التوقيت من الوقت وفيه توقيف يراد به تعظيم لذلك اليوم ثم بينه بقوله ليوم الفصل أي يفصل فيه بين العباد ثم عظمه بقوله وما أدراك ما يوم الفصل ويل يومئذ للمكذبين تكراره في هذه السورة قيل إنه تأكيد وقيل بل في كل آية ما يقتضي التصديق فجاء ويل يومئذ للمكذبين راجعا إلى ما قبله في كل موضع منها ألم نهلك الأولين يعني الكفار المتقدمين كقوم نوح وغيرهم ثم نتبعهم الآخرين يعني قريشا وغيرهم من الكفار بمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا وعيد لهم ظهر مصداقه يوم بدر وغيره كذلك نفعل بالمجرمين أي مثل هذا الفعل نفعل بكل مجرم يعني الكفار ألم نخلقكم من ماء مهين يعني المني والمهين الضعيف فجعلناه في قرار مكين يعني رحم المرأة وبطنها إلى قدر معلوم يعني وقت الولادة وهو

معلوم عند تسعة أشهر أو أقل منها أو أكثر فقدرنا بالتشديد من التقدير وبالتخفيف من القدرة فإذا كان من القدرة اتفق مع قوله فنعم القادرون وإذا كان من التقدير فهو تجنيس ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا الكفات من كفت إذا ضم وجمع فالمعنى أن الأرض تكفت الأحياء على ظهرها والموتى في بطنها وانتصب أحياء وأمواتا على أنه مفعول بكفاتا لأن الكفات اسم لما يضم ويجمع فكأنه قال جامعة أحياء وأمواتا ويجوز أن يكون المعنى تكفتهم أحياء وأمواتا فيكون نصبهما على الحال من الضمير وإنما نكر أحياء وأمواتا للتفخيم ودلالة على

كثرتهم رواسي يعني الجبال شامخات أي مرتفعات ماء فراتا أي حلوا انطلقوا خطاب للمكذبين وقرأ يعقوب بفتح اللام على أنه فعل ماض ثم كرره لبيان المنطلق إليه إلى ظل يعني دخان جهنم ومنه ظل من يحموم ذي ثلاث شعب أي يتفرع من الدخان ثلاث شعب فتظلهم بينما يكون المؤمنون في ظلال العرش وقيل إن هذه الآية في عبدة الصليب لأنهم على ثلاث شعب فيقال لهم انطلقوا إليه لا ظليل نفي عنه أن يظلهم كما يظل العرش المؤمنين ونفي أيضا أن يمنع عنهم اللهب إنها ترمي بشرر كالقصر الضمير في إنها لجهنم والقصر واحد القصور وهي الديار العظام شبه الشرر به في عظمته وارتفاعه في الهواء وقيل هو الغليظ من الشجر ... 765

---

172 واحده قصرة كجمرة وجمر كأنه جمالت صفر في الجمالات قولان أحدهما أنها جمع جمال شبه بها الشرر وصفر على ظاهره لأن لون النار يضرب إلى الصفرة وقيل صفر هنا بمعنى سود يقال جمل أصفر أي أسود وهذا أليق بوصف جهنم الثاني أن الجمالات قطع النحاس الكبار فكأنه مشتق من الجملة وقرئ جمالات بضم الجيم وهي قلوس السفن وهي حبالها العظام هذا يوم لا ينطقون هذا في مواطن وقد يتكلمون في مواطن أخر لقوله يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها فإن كان لكم كيد فكيدون تعجيز لهم وتعريض بكيدهم في الدنيا وتقريع عليه كلوا واشربوا يقال لهم ذلك في الجنة بلسان الحال أو بلسان المقال هنيئا بما كنتم تعملون نصب هنيئا على الحال أو على الدعاء كلوا وتمتعوا خطاب للكفار على وجه التهديد تقديره قل لهم كلوا وتمتعوا قليلا في الدنيا

وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون هذا إخبار عن حال الكفار في الدنيا وذكر الركوع عبارة عن الصلاة وقيل معنى اركعوا اخشعوا وتواضعوا وقيل هو إخبار عن حال المنافقين يوم القيامة لأنهم إذا قيل لهم اركعوا لا يقدرون على الركوع كقوله ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون والأول أشهر وأظهر فبأي حديث بعده يؤمنون الضمير للقرآن

سورة النبأ

عم يتساءلون أصل عم عن ماثم أدغمت النون في الميم وحذفت ألف مالأنها

استفهاميه تقديرها عن أي شئ يتساءلون وليس المراد بها هنا مجرد الاستفهام وإنما المراد تفخيم الأمر والضمير في يتساءلون لكفار قريش أو لجميع الناس ومعناه يسأل بعضهم بعضا عن النبأ العظيم هو ما جاءت به الشريعة من التوحيد والبعث والجزاء وغير ذلك ويتعلق عن النبإ بفعل محذوف يفسره الظاهر تقديره يتساءلون عن النبأ ووقعت هذه الجملة جوابا عن الاستفهام وبيانا للمسؤول عنه كأنه لما قال عم يتساءلون أجاب فقال يتساءلون عن النبأ العظيم وقيل يتعلق عن النبأ بيتساءلون الظاهر والمعنى على هذا لأى شئ

يتساءلون عن النبأ العظيم والأول أفصح وأبرع وينبغي على ذلك أن يوقف على قوله عم يتساءلون الذي هم فيه مختلفون إن كان الضمير في يتساءلون لكفار قريش فاختلافهم أن منهم من يقطع بالتكذيب ومنهم من يشك أو يكون اختلافهم قول بعضهم ... 766
173 سحر وقول بعضهم شعر وكهانة وغير ذلك وإن كان الضمير لجميع الناس فاختلافهم أن منهم المؤمن والكافر كلا سيعلمون ردع وتهديد ثم كرره للتأكيد ألم نجعل الأرض مهادا أي فراشا وإنما ذكر الله تعالى هنا هذه المخلوقات على جهة التوقيف ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من البعث كأنه يقول إن الإله الذي قدر على خلقة هذه المخلوقات العظام قادر على إحياء الناس بعد موتهم ويحتمل أنه ذكرها حجة على التوحيد لأن الذي خلق هذه المخلوقات هو الإله وحده لا شريك له والجبال أوتادا شبهها بالأوتاد لأنها تمسك الأرض أن تميد وخلقناكم أزواجا أي من زوجين ذكرا وأنثى وقيل معناه أنواعا في ألوانكم وصوركم وألسنتكم وجعلنا نومكم سباتا أي راحة لكم وقيل معناه قطعا للأعمال والتصرف والسبت القطع وقيل معناه موتا لأن النوم هو الموت الأصغر ومنه قوله تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها وجعلنا الليل لباسا شبهه بالثياب التي تلبس لأنه ستر عن العيون وجعلنا النهار معاشا أي تطلب فيه المعيشة فهو على حذف مضاف تقديره ذا معاش وقال الزمخشري معناه يعاش فيه فجعله بمعنى الحياة في مقابلة السبات الذي بمعنى الموت وبنينا فوقكم سبعا شدادا يعني السموات وجعلنا سراجا وهاجا يعني الشمس والوهاج الوقاد الشديد الإضاءة وقيل الحار الذي يضطرم من شدة لهبه وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا يعني المطر والمعصرات هي السحاب وهو مأخوذ من العصر لأن السحاب ينعصر فينزل منه الماء أو من العصرة بمعنى الإغاثة ومنه وفيه يعصرون وقيل هي السموات وقيل الرياح والثجاج السريع الاندفاع

لنخرج به حبا ونباتا الحب هو القمح والشعير وسائر الحبوب والنبات هو العشب وجنات ألفافا أي ملتفة وهو جمع لف بضم اللام وقيل بالكسر وقيل لا واحد له كان ميقاتا أي في وقت معلوم يوم ينفخ في الصور يعني نفخة القيام من القبور فتأتون أفواجا أي جماعات فكانت أبوابا أي تنفتح فتكون فيها شقاق

كالابواب وسيرت الجبال أي حملت فكانت سرابا عبارة عن تلاشيها وفنائها والسراب في اللغة ما يظهر على البعد أنه ماء وليس ذلك المراد هنا وإنما هو تشبيه في أنه لا شئ مرصادا أي موضع المرصد والرصد هو الارتقاب والانتظار أي تنتظر الكفار ليدخلوها وقيل معناه طريقا للمؤمنين يمرون عليه إلى الجنة لأن الصراط منصوب على جهنم مآبا أي مرجعا لابثين فيها أحقابا جمع حقبة أو حقب وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدودة وقيل إنها محدودة ثم اختلف في مقدارها فروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها ثمانون ألف سنة وقال ابن عباس ثلاثون سنة وقيل ثلثمائة سنة وعلى القول بالتحديد فالمعنى أنهم يبقون فيها أحقابا كلما انقضى حقب جاء آخر إلى ... 767

---

174 غير نهاية وقيل إنه كان يقتضي أن مدة العذاب تنقضي ثم نسخ بقوله فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا وهذا خطاب لأن الأخبار لا تنسخ وقيل هي في عصاة المؤمنين الذي يخرجون من النار وهذا خطأ لأنها في الكفار لقوله وكذبوا بآياتنا وقيل معناها أنهم يبقون أحيانا لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ثم يبدل لهم نوع آخر من العذاب لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا أي لا يذوقون برودة تخفف عنهم حر النار وقيل لا يذوقون ماء باردا وقيل البرد هنا النوم والأول أظهر إلا حميما وغساقا استثناء من الشراب وهو متصل والحميم الماء الحار والغساق صديد أهل النار وقد ذكر في سورة داود جزاء وفاقا أي موافقا أعمالهم لأن أعمالهم كفر وجزاؤهم النار ووفاقا مصدر وصف به أو هو على حذف مضاف تقديره ذو وفاق إنهم كانوا لا يرجون حسابا هذا مثل لا يرجون لقاءنا وقد ذكر كذابا بالتشديد مصدر بمعنى تكذيب وبالتخفيف بمعنى الكذب أو المكاذبة وهي تكذيب بعضهم لبعض فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل في أهل النار أشد من هذه الآية مفازا أي موضع فوز يعني الجنة حدائق أي بساتين وكواعب جمع كاعب وهي الجارية التي خرج ثديها أترابا أي على سن واحد وكأسا دهاقا أي ملأى وقيل صافية والأول أشهر عطاء حسابا أي كافيا من أحسب الشئ اذا كفاه وقيل معناه على حسب أعمالهم رب السموات بالرفع مبتدأ أو خبر ابتداء مضمر وبالخفض صفة لربك والرحمن بالخفض صفة وبالرفع خبر المبتدأ أو خبر ابتداء مضمر لا يملكون منه خطابا قال ابن عطية الضمير للكفار أي لا يملكون أن يخاطبوه بمقدرة ولا غيرها وقيل المعنى لا يقدرون أن يخاطبهم كقوله ولا يكلمهم الله وقال الزمخشري الضمير لجميع الخلق أي ليس بأيديهم شئ من خطاب الله يوم يقوم الروح قيل هو جبريل وقيل ملك عظيم يكون هو وحده صفا والملائكة صفا وقيل يعني أرواح

بني آدم فهو اسم جنس الكلام إلا من بعد أن يأذن الله لهم وقول الصواب يكون في ذلك الموطن على هذا وقيل الضمير للناس خاصة والصواب المشار إليه قول لا إله إلا الله أي من قالها في الدنيا ذلك اليوم الحق أي الحق وجوده

ووقوعه فمن شاء تخصيص وترغيب عذابا قريبا يعني عذاب الآخرة ووصفه بالقرب لأن كل آت قريب أو لأن الدنيا على آخرها يوم ينظر المرء ما قدمت يداه المرء هنا عموم في المؤمن والكافر وقيل هو المؤمن وقيل هو الكافر والعموم أحسن لأن كل أحد يرى ما عمل لقوله تعالى فمن يعمل مثقال ذرة الآية ويقول ... 768

---

175 الكافر يا ليتني كنت ترابا) تمنى أن يكون يوم القيامة ترابا فلا يحاسب ولا يجازى وقيل تمنى أن يكون في الدنيا ترابا أي لم يخلق وروى أن البهائم تحشر ليقتص لبعضهم من بعض ثم ترد ترابا فيتمنى الكافر أن يكون ترابا مثلها وهذا يقوى الأول وقيل الكافر هنا إبليس يتمنى أن يكون خلق من تراب مثل آدم وذريته لما رأى ثوابهم وقد كان احتقر التراب في قوله خلقتني من نار وخلقته من طين
سورة النازعات
اختلف في معنى النازعات والناشطات والسابقات والسابحات والمدبرات فقيل إنها الملائكة وقيل النجوم فعلى القول بأنها الملائكة سماهم نازعات لأنهم ينزعون نفوس بني آدم من أجسادها وناشطات لأنهم ينشطونها أي يخرجونها فهو من قولك نشطت الدلو من البئر إذا أخرجتها وسابحات لأنهم يسبحون في سيرهم أي يسرعون فيسبقون فيدبرون أمور العباد والرياح والمطر وغير ذلك حسبما يأمرهم الله وعلى القول بأنها النجوم سماها نازعات لأنها تنزع من المشرق إلى المغرب وناشطات لأنها تنشط من برج إلى برج وسابحات لأنها تسبح في الفلك ومنه كل في فلك يسبحون فتسبق في جريها فتدبر أمرا من علم الحساب وقال ابن عطية لا أعلم خلافا أن المدبرات أمرا الملائكة وحكى الزمخشري فيها ما ذكرنا وقد قيل في النازعات والناشطات أنها النفوس تنزع من معنى النزع بالموت فتنشط من الأجساد وقيل في السابحات والسابقات أنها الخيل وأنهل السفن غرقا إن قلنا النازعات الملائكة ففي معنى غرقا وجهان أحدهما أنها من الغرق أي تغرق الكفار في جهنم والآخر أنه من الإغراق في الأمر بمعنى المبالغة فيه أي تبالغ في نزعها فتقطع الفلك كله وإن قلنا إنها النفوس فهو أيضا من الإغراق أي تغرق في الخروج من الجسد والإعراب غرقا مصدر في موضع الحال ونشطا وسبحا وسبقا مصادر وأمرا مفعول به وجواب القسم محذوف وهو بعث الموتى بدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة وقيل الجواب يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة على

تقدير حذف لام التأكيد وقيل هو إن في ذلك لعبرة لمن يخشى وهذا بعيد لبعده عن القسم ولأنه إشارة إلى قصة فرعون لا لمعنى القسم يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة قيل الراجفة النفخة الأولى في الصور والرادفة النفخة الثانية لأنها تتبعها ولذلك سماها رادفة من قولك ردفت الشئ إذا تبعته وفي الحديث أن بينهما أربعين عاما وقيل الراجفة الموت والرادفة القيامة وقيل الراجفة

الأرض من قوله ترجف الأرض والجبال والرادفة السماء لأنها تنشق يومئذ والعامل في يوم ترجف محذوف وهو الجواب المقدر تقديره لتبعثن يوم ترجف الراجفة وإن جعلنا يوم ترجف الجواب فالعامل في يوم معنى قوله قلوب يومئذ واجفة وقوله تتبعها الرادفة في موضع الحال ويحتمل أن يكون العامل فيه تتبعها
قلوب يومئذ واجفة أي شديدة الاضطراب والوجيف والوجيب بمعنى واحد وارتفع قلوب بالابتداء وواجفة خبره وقال الزمخشري واجفة صفة والخبر أبصارها خاشعة ... 769

---

176 أبصارها خاشعة كناية عن الذل والخوف وإضافت الأبصار إلى القلوب على تجوز والتقدير قلوب أصحابها يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاما نخرة هذا حكاية قول الكفار في الدنيا ومعناه على الجملة إنكار البعث فالهمزة في قوله أئنا لمردودون للإنكار ولذلك اتفق العلماء على قراءته بالهمزتين إلا أن منهم من سهل الثانية ومنهم من خففها واختلفوا في إذا كنا عظاما نخرة فمنهم من قرأه بهمزة واحدة لأنه ليس بموضع استفهام ولا إنكار ومنهم من قرأه بهمزتين تأكيدا للإنكار المتقدم ثم اختلفوا في معنى الحافرة على ثلاثة أقوال أحدها أنها الحالة الأولى يقال رجع فلان في حافرته إذا رجع إلى حالته الأولى فالمعنى أئنالمردودون إلى الحياة بعد الموت والآخر أن الحافرة الأرض بمعنى محفورة فالمعنى أئنالمردودون إلى وجه الأرض بعد الدفن في القبور والثالث أن الحافرة النار والعظام النخرة البالية المتعفنة وقرئ ناخرة بألف وبحذف الألف وهما بمعنى واحد إلا أن حذف الألف أبلغ لأن فعل أبلغ من فاعل وقيل معناه العظام المجوفة التي تمر بها الريح فيسمع لها نخير والعامل في إذا كنا محذوف تقديره إذا كنا عظاما نبعث ويحتمل أن يكون العامل فيه مردودون في الحافرة ولكن إنما يجوز ذلك على قراءة إذا كنا بهمزة واحدة على الخبر ولا يجوز على قراءته بهمزتين لأن همزة الاستفهام لا يعمل ما قبلها فيما بعدها قالوا تلك إذا كرة خاسرة الكرة الرجعة والخاسرة منسوبة إلى الخسران كقوله عيشة راضية أي ذات رضى أو معناه خاسر أصحابها ومعنى هذا الكلام أنهم قالوا إن كان البعث حقا فكرتنا خاسرة لأنا ندخل النار فإنما هي زجرة واحدة يعني النفخة في الصور للقيام من القبور وهذا من كلام الله تعالى ردا على الذين أنكروا البعث كأنه يقول لا تظنوا أنه صعب على الله هو عليه يسير فإنما ينفخ نفخة واحدة في الصور فيقوم الناس من قبورهم فإذا هم بالساهرة إذا

هنا فجائية والساهرة وجه الأرض والباء ظرفية والمعنى إذا نفخ في الصور حصلوا بالأرض أسرع شئ هل أتاك توقيف وتنبيه وليس المراد به مجرد الاستفهام طوى ذكر في طه اذهب إلى فرعون تفسير للنداء هل لك إلى أن تزكى أن تتطهر من الكفر والذنوب والعيوب والرذائل وقال بعضهم تزكى

تسلم وقيل تقول لا إله إلا الله والأول أعم الآية الكبرى قلب العصا حية وإخراج اليد بيضاء وجعلهما واحدة لأن الثانية تتبع الأولى ويحتمل أن يريد الأولى وحدها ثم أدبر يسعى الإدبار كناية عن الإعراض عن الإيمان ويسعى عبارة عن جده في الكفر وفي إبطال أمر موسى عليه السلام وقيل هو حقيقة أي قام من مجلسه يفر من مجالسة موسى أو يهرب من العصا لما صارت ثعبانا فحشر أي جمع جنوده وأهل مملكته فنادى أي نادى قومه وقال لهم ما قال ويحتمل أنه ناداهم بنفسه أو أمر من يناديهم والأول أظهر وروى أنه قام فيهم خطيبا فقال ما قال فأخذه الله نكال الآخرة والأولى النكال مصدر بمعنى التنكيل والعامل فيه أخذه الله لأنه بمعناه وقيل العامل ... 770

---

177 محذوف والآخرة هي دار الآخرة والأولى الدنيا فالمعنى نكال الآخرة بالنار ونكال الأولى بالغرق وقيل الآخرة قوله أنا ربكم الأعلى والأولى قوله ما علمت لكم من إله غيري وقيل بالعكس فالمعنى أخذه الله وعاقبه على كلمة الآخرة وكلمة الأولى أأنتم أشد خلقا أم السماء هذا توقيف قصد به الاستدلال على البعث فإن الذي خلق السماء قادر على خلق الأجساد بعد فنائها رفع سمكها السمك غلظ السماء وهو الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها ومعنى رفعه أنه جعله مسيرة خمسمائة عام وقيل السمك السقف فسواها أي أتقن خلقتها وقيل جعلها مستوية ليس فيها مرتفع ولا منخفض وأغطش ليلها أي جعله مظلما يقال غطش الليل إذا أظلم وأغطشه الله وأخرج ضحاها أي أظهر ضوء الشمس في وقت الضحى وأضاف الضحى والليل إلى السماء من حيث أنهما ظاهران منها وفيها والأرض بعد ذلك دحاها أي بسطها واستدل بها من قال إن الأرض بسيطة غير كروية وقد ذكرنا في فصلت الجمع بين هذا وبين قوله ثم استوى إلى السماء أخرج منها ماءها ومرعاها نسب الماء والمرعى إلى الأرض لأنهما يخرجان منها فإن قيل لما قال أخرج بغير حرف العطف فالجواب أن هذه الجملة في موضع الحال وتفسير لما قبلها قاله الزمخشري والجبال أرساها أي أثبتها ونصب الجبال بفعل مضمر يدل عليه الظاهر وكذلك الأرض متاعا لكم تقديره فعل ذلك كله تمتيعا لكم منه ولأنعامكم لأن بني آدم والأنعام ينتفعون بما ذكر الطامة هي القيامة وقيل النفخة الثانية واشتقاقها من قولك لهم الأمر إذا علا وغلب وبرزت الجحيم لمن يرى أي أظهرت لكل من يرى فهي لا تخفى على أحد مقام ربه ذكر في سورة الرحمن ونهى النفس عن الهوى أي ردها عن شهواتها وأغراضها الفاسدة قال بعض الحكماء إذا أردت الصواب فانظر هواك وخالفه وقال سهل التستري لا يسلم من الهوى إلا الأنبياء

وبعض الصديقين أيان مرساها ذكر في الأعراف فيم أنت من ذكراها أي من ذكر زمانها فالمعنى لست في شئ من ذكر ذلك قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة كثيرا فلما نزلت هذه

الآية انتهى إلى ربك منتهاها أي منتهى علمها لا يعلم متى تكون إلا هو وحده إنما أنت منذر من يغشاها أي إنما بعثت لتنذر بها وليس عليك الإخبار بوقتها وخص الإنذار بمن يخشاها لأنه هو الذي ينفعه الإنذار لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها أخبر أنهم إذا رأوا الساعة ظنوا أنهم لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور إلا عشية يوم أو ضحى يوم وأضاف الضحى كذلك إلى العشية لما بينهما من الملابسة إذ هما في يوم واحد ... 771

(3/281)

---

178 سورة عبس
سبب نزول صدر هذه السورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حريصا على إسلام قريش وكان يدعو أشرافهم إلى الله تعالى ليسلموا فيسلم بإسلامهم غيرهم فبينما هو مع رجل من عظمائهم قيل هو الوليد بن المغيرة وقيل عتبة بن ربيعة وقيل أمية بن خلف وقال ابن عباس كانوا جماعة إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم الأعمى فقال يا رسول الله علمني مما علمك الله وكرر ذلك وهو لا يعلم عنه بتشاغله بالقوم فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع الأعمى كلامه فعبس وأعرض عنه وذهب الرجل الذي كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم بعد ذلك يقول مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويبسط له رداءه وقد استخلفه على المدينة مرتين عبس وتولى أي عبس في وجه الأعمى وأعرض عنه قال ابن عطية في مخاطبته بلفظ الغائب مبالغة في العتب لأن في ذلك بعض الإعراض وقال الزمخشري في الإخبار بالغيبة زيادة في الإنكار وقال غيرهما هو إكرام للنبي صلى الله عليه وسلم وتنزيه له عن المخاطبة بالعتاب وهذا أحسن أن جاءه الأعمى في موضع مفعول من أجله وهو منصوب بتولى أو عبس وذكر ابن أم مكتوم بلفظ الأعمى ليدل أن عماه هو الذي أوجب احتقاره وفي هذا دليل على أن ذكر هذه العاهات جائز إذا كانت لمنفعة أو يشهد صاحبها ومنه قول المحدثين سليمان الأعمش وعبد الرحمن الأعرج وغير ذلك وما يدريك أي أي شئ يطلعك على حال هذا الأعمى لعله يزكى أي يتطهر وينتفع في دينه بما يسمع منك أما من استغنى فأنت له تصدى أي تتعرض للغنى رجاء أن يسلم وما عليك ألا يزكى أي لا حرج عليك أن لا يتزكى هذا الغني وأما من جاءك يسعى إشارة إلى عبد الله بن أم مكتوم ومعنى يسعى يسرع في مشيه من حرصه في طلب الخير وهو يخشى أي يخشى الله أو يخاف الكفار وإذا يتهم له على اتباعك وقيل جاء وليس معه من يقوده فكان

(3/282)

يخشى أن يقع وهذا ضعيف فأنت عنه تلهى أي تشتغل عنه بغيره من قولك لهيت عن الشئ إذا تركته وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأدب بما أدبه الله في هذه السورة فلم يعرض بعدها عن فقير ولا تعرض لغنى وكذلك اتبعه فضلاء العلماء فكان الفقراء في مجلس سفيان الثوري كالأمراء وكان

الأغنياء يتمنون أن يكونوا فقراء كلا ردع عن معاودة ما وقع العتاب فيه إنها تذكرة فيه وجهان أحدهما أن هذا الكلام المتقدم تذكرة أو موعظة للنبي صلى الله عليه وسلم والآخر أن القرآن تذكرة لجميع الناس فلا ينبغي أن يؤثر فيه أحد على أحد وهذا أرجح لأنه يناسبه فمن شاء ذكره وما بعده وأنت الضمير في قوله إنها تذكرة على معنى القصة أو الموعظة أو السورة أو القراءة ... 772

---

179 وذكرها في قوله فمن شاء ذكره على معنى الوعظ أو الذكرى والقرآن في صحف صفة لتذكرة أي ثابتة في صحف وهي الصحف المنسوخة من اللوح المحفوظ وقيل هي مصاحف المسلمين مرفوعة إن كانت الصحف المصاحف فمعناه مرفوعة المقدار وإن كانت صحف الملائكة فمعناه كذلك أو مرفوعة في السماء ومطهرة أي منزهة عن أيدي الشياطين بأيدي سفرة هي الملائكة والسفرة جمع سافر وهو الكاتب لأنهم يكتبون القرآن وقيل لأنهم سفراء بين الله وبين عبيدة وقيل يعني القراء من الناس والأول أرجح وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة أي أنه يعمل مثل عملهم في كتابة القرآن وتلاوته أوله من الأجر على القرآن مثل أجورهم قتل الإنسان دعاء عليه على ما جرت به عادة العرب من الدعاء بهذا اللفظ ومعناه تقبيح حاله وأنه ممن يستحق أن يقال له ذلك وقيل معناه لعن وهذا بعيد ما أكفره تعجيب من شدة كفره مع أنه كان يجب عليه خلاف ذلك من أي شئ خلقه توقيف وتقرير ثم أجاب عنه بقوله من نطفة خلقه يعني المني ومقصد الكلام تحقير الإنسان ومعناه أنه يجب عليه أن يعظم الرب الذي خلقه فقدره أي هيأه لما يصلح له ومنه خلق كل شئ فقدره تقديرا وقيل معناه جعله على مقدار معلوم في إعطائه وأجله ورزقه وغير ذلك
ثم السبيل يسره نصب السبيل بفعل مضمر فسره يسره وفي معناه ثلاثة أقوال أحدها يسر سبيل خروجه من بطن أمه والآخر أنه سبيل الخير والشر لقوله إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا الثالث سبيل النظر السديد المؤدي إلى الإيمان والأول أرجح لعطفه على قوله من نطفة خلقه فقدره وهو قول ابن عباس ثم أماته فأقبره أي جعله ذا قبر يقال قبرت الميت إذا دفنته وأقبرته إذا أمرت أن يدفن ثم إذا شاء أنشره أي بعثه من قبره يقال نشر االميت إذا قام وأنشره الله والإشارة بإذا شاء ليوم القيامة أي الوقت الذي يقدر أن ينشره فيه كلا

ردع للإنسان عما هو فيه لما يقض ما أمره أي لم يقض الإنسان على تطاول عمره ما أمره الله قال بعضهم لا يقضى أحد أبدا جميع ما افترض الله عليه إذ لا بد للعبد من تفريط فلينظر الإنسان إلى طعامه أمر بالاعتبار في الطعام كيف خلقه الله بقدرته ويسره برحمته فيجب على العبد طاعته وشكره ويقبح معصيته والكفر به وقيل فلينظر إلى طعامه إذا صار رجيعا فينظر حقارة الدنيا وخساسة نفسه والأول أشهر وأظهر في معنى الآية على أن القول الثاني

صحيح وانظر كيف فسره بقوله أنا صببنا الماء صبا وما بعده ليعدد النعم ويظهر القدرة وقريء أنا صببنا الماء بفتح الهمزة على البدل من الطعام ثم شققنا الأرض يعني يخرج النبات منها حبا يعني القمح والشعير وسائر الحبوب وقضبا قيل هي الفصفصة وقيل هي علف البهائم واختار ابن عطية أنها البقول وشبهها مما يؤكل رطبا غلبا أي غليظة ناعمة وأبا الأب المرعي عند ابن عباس والجمهور وقيل التبن وقد توقف ... 773

---

180 في تفسيره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما الصاخة القيامة وهي مشتقة من قولك صخ الأذن إذا أصمها بشدة صياحه فكأنه إشارة إلى النفخة في الصور أو إلى شدة الأمر حتى يصخ من يسمعه لصعوبته وقيل هي من قولك أصاخ للحديث إذا استمعه والأول هو الموافق للاشتقاق يفر المرء من أخيه الآية ذكر فرار الإنسان من أحبابه ورتبهم على ترتيبهم في الحنو والشفقة فبدأ فالأقل وختم بالأكثر لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل من تقدم ذكره وإنما يفر منهم لاشتغاله بنفسه وقيل إن فراره منهم لئلا يطالبوه بالتبعات والأول أرجح وأظهر لقوله لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه أي هو مشغول بشأنه من الحساب والثواب والعقاب حتى لا يسعه ذكر غيره وانظر قول الأنبياء عليهم السلام يومئذ نفسي نفسي وجوه يومئذ مسفرة أي مضيئة من السرور وهو من قولك أسفر الصبح إذا أضاء عليها غبرة أي غبار والقترة أيضا الغبار قال ابن عطية الغبرة من العبوس والكرب كما يقتر وجه المهموم والمريض والقترة هي غبار الأرض وقال الزمخشري الغبرة غبار يعلوها والقترة سواد فيعظم قبحها باجتماع الغبار والسواد

سورة التكوير

ذكر الله في هذه السورة أهوال القيامة وما يعتري الموجودات حينئذ من التغيير إذا الشمس كورت قال ابن عباس ذهب ضوءها وأظلمت وقيل رمى بها وقيل اضمحلت وأصله من تكوير العمامة لأنها إذا لفت زال انبساطها وصغر جرمها وإذا النجوم انكدرت أي تساقطت من مواضعها وقيل تغيرت والأول أرجح لأنه موافق لقوله وإذا الكواكب انتثرت وروى أن الشمس والنجوم تطرح في جهنم ليراها من عبدها كما قال إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وإذا الجبال سيرت أي حملت وبعد ذلك تفتت فتصير هباء ثم تتلاشى وإذا العشار عطلت العشار جمع عشراء وهي الناقة الحامل التي مر لحملها عشرة أشهر وهي أنفس ما عند العرب وأعزها فلا تعطل إلا من شدة الهول وتعطيلها هو تركها

سائبة أي ترك حلبها وإذا الوحوش حشرت أي جمعت وفي صفة حشرها ثلاثة أقوال أحدها أنها تحشر أي تبعث يوم القيامة ليقتص لبعضها من بعض ثم تكون ترابا والآخر أنها تحشر بموتها دفعة واحدة عند هول القيامة قاله ابن عباس وقال إنها لا تبعث وأنه لا يحضر القيامة إلا الإنس والجن والثالث أنها تجمع في

أول أهوال القيامة وتفر في الأرض فذلك حشرها وإذا البحار سجرت فيه ثلاثة أقوال أحدها ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرا واحدا والآخر ملئت نيرانا لتعذيب أهل النار والثالث فرغت من مائها ويبست وأصله من سجرت التنور إذا ملأتها ... 774

---

181 فالقول الأول والثاني أليق بالأصل والأول والثالث موافق لقوله فجرت وإذا النفوس زوجت فيه ثلاثة أقوال أحدها أن التزويج بمعنى التنويع لأن الأزواج هي الأنواع فالمعنى جعل الكافر مع الكافر والمؤمن مع المؤمن والثاني زوجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين والثالث زوجت الأرواح والأجساد أي ردت إليها عند البعث والأول هو الأرجح لأنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عمر بن الخطاب وابن عباس وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت الموؤدة هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حية من كراهته لها ومن غيرته عليها فتسأل يوم القيامة بأي ذنب قتلت على وجه التوبيخ لقاتلها وقرأ ابن عباس وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت بضم القاف وسكون اللام وضم التاء واستدل ابن عباس بهذه الآية على أن أولاد المشركين في الجنة لأن الله ينتصر لهم ممن ظلمهم وإذا الصحف نشرت هي صحف الأعمال تنشر ليقرأ كل أحد كتابه وقيل هي الصحف التي تتطاير بالأيمان والشمائل بالجزاء وإذا السماء كشطت الكشط هو التقشير كما يكشط جلد الشاة حين تسلخ وكشط السماء هو طيها كطي السجل قاله ابن عطية وقيل معناه كشفت وهذا أليق بالكشط وإذا االجحيم سعرت أي أو قدت وأحميت وإذا الجنة أزلفت أي قربت علمت نفس ما أحضرت هذا جواب إذا المكررة في المواضع قبل هذا ومعناه علمت كل نفس ما أحضرت من عمل فلفظ النفس مفرد يراد به الجنس والعموم وقال ابن عطية إنما أفردها ليبين حقارتها وذلتها وقال الزمخشري هذا من عكس كلامهم الذي يقصد به الإفراط فيما يعكس عنه كقوله ربما يود الذين كفروا ومعناه التكثير وكذلك هنا معناه أعم الجموع ما أحضرت عبارة عن الحسنات والسيآت

فلا أقسم ذكرت نظائره بالخنس الجوار الكنس يعني الدراري السبعة وهي الشمس والقمر وزحل وعطارد واالمريخ والمشتري والزهرة وذلك أن هذه الكواكب تخنس في جريها أي تتقهقر فيكون النجم في

البرج ثم يكر راجعا وهي جواري في الفلك وهي تنكنس في أبراجها أي تستتر وهو مشتق من قولك كنس الوحش إذا دخل كناسه وهو موضعه وقيل يعني الدراري الخمسة لأنها تستتر بضوء الشمس وقيل يعني النجوم كلها لأنها تخنس في جريها وتنكس بالنهار أي تستتر وتختفي بضوء الشمس وقيل يعني بقر الوحش فالخنس على هذا من خنس الأنف والكنس من سكناها في كناسها والليل إذا عسعس يقال عسعس الليل إذا كان غير مستحكم الظلام فقيل ذلك في أوله وقيل في آخره وهذا أرجح لأن آخر الليل أفضل ولأنه أعقبه بقوله

والصبح إذا تنفس أي استطار واتسع ضوؤه إنه لقول رسول كريم الضمير للقرآن والرسول الكريم جبريل وقيل محمد صلى الله عليه وسلم قال السهيلي لايجوز أن يقال إنه محمد عليه السلام لأن الآية نزلت في الرد على الذين قالوا إن محمدا قال القرآن فكيف يخبر الله أنه قوله وإنما أراد جبريل وأضاف القرآن إليه لأنه جاء به وهو في الحقيقة قول الله تعالى وهذا الذي قال السهيلي لا يلزم فإنه قد يضاف إلى محمد صلى الله عليه وسلم لأنه تلقاه عن جبريل عليه السلام وجاء به إلى الناس ومع ذلك فالأظهر أنه جبريل لأنه وصفه بقوله ذي قوة وقد وصف جبريل ... 775

---

182 بهذا لقوله شديد القوى ذو مرة عند ذي العرش يتعلق بذى قوة وقيل بمكين وهذا أظهر والمكين الذي له مكانة أي جاه وتقريب مطاع ثم أمين هذا الظرف إشارة إلى الظرف المذكور قبله وهو عند ذي العرش أي مطاع في ملائكة ذي العرش وما صاحبكم بمجنون هو محمد صلى الله عليه وسلم باتفاق ولقد رأه بالأفق المبين ضمير الفاعل لمحمد صلى الله عليه وسلم وضمير المفعول لجبريل عليه السلام وهذه الرؤية له بغار حراء على كرسي بين السماء والأرض وقيل الرؤية التي رآه عند سدرة المنتهى في الإسراء ووصف هذا الأفق بالمبين لأنه روى أنه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس وأيضا فكل أفق فهو مبين وما هو على الغيب بضنين الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم ومن قرأ بالضاد فمعناه بخيل أي لا يبخل بأداء ما ألقى إليه من الغيب وهو الوحي ومن قرأ بالظاء فمعناه متهم أي لا يتهم على الوحي بل هو أمين عليه ورجح بعضهم هذه القراءة بأن الكفار لم ينسبوا محمدا صلى الله عليه وسلم إلى البخل بالوحي بل اتهموه فنفى عنه ذلك وما هو بقول شيطان رجيم الضمير للقرآن فأين تذهبون خطاب لكفار قريش أي ليس لكم زوال عن هذه الحقائق وقد تقدم تفسير بقية السورة في نظائره فيما تقدم

سورة الانفطار

إذا السماء انفطرت أي انشقت وإذا الكواكب انتثرت أي سقطت من مواضعها وإذا البحار فجرت أي فرغت وقيل فجر بعضها إلى بعض فاختلط وإذا القبور بعثرت أي نبشت على الموتى الذين فيها وقال الزمخشري أصله من البعث والبحث فضمت إليها الراء والمعنى بحثت وأخرج موتاها علمت نفس ما قدمت وأخرت هذا هو الجواب ومعناه علمت كل نفس جميع أعمالها وقيل ما قدمت في حياتها وما أخرت مما تركته بعد موتها من سنة سنتها أو وصية أوصت بها وأفردت النفس والمراد به العموم حسبما ذكرنا في التكوير يا أيها الإنسان خطاب لجنس بني آدم ما غرك بربك الكريم هذا توبيخ وعتاب

معناه أي شئ غرك بربك حتى كفرت به أو عصيته أو غفلت عنه فدخل في العتاب الكفار وعصاة المؤمنين ومن يغفل عن الله في بعض الأحيان من الصالحين وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ما غرك بربك الكريم

فقال غره جهله وقال عمر غره جهله وحمقه وقرأ إنه كان ظلوما جهولا وقيل غره الشيطان المسلط عليه وقيل غره ستر الله عليه وقيل غره طمعه في عفو الله عنه ولا تعارض بين هذه الأقوال لأن كل واحد ... 776
183 منها مما يغر الإنسان إلا أن بعضها يغر قوما وبعضها يغر قوما آخرين فإن قيل ما مناسبة وصفه بالكريم هنا للتوبيخ على الغرور فالجواب أن الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع شكرا لإحسانه ومقابلة لكرمه ومن لم يفعل ذلك فقد كفر النعمة وأضاع الشكر الواجب فعدلك بالتشديد والتخفيف أي عدل أعضاءك وجعلها متوازنة فلم يجعل إحدى اليدين أطول من الأخرى ولا إحدى العينين أكبر من الأخرى ولا إحداهما كحلى والأخرى زرقاء ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود وشبه ذلك من الموازنة
في أي صورة ما شاء ركبك المجرور يتعلق بركبك وما زائدة والمعنى ركبك في أي صورة شاء من الحسن والقبح والطول والقصر والذكورة والأنوثة وغير ذلك من اختلاف الصور ويحتمل أن يتعلق المجرور بمحذوف تقديره ركبك حاصلا في أي صورة وقيل يتعلق بعدلك على أن يكون بمعنى صرفك إلى أي صورة شاء وهذا بعيد ولا يمكن إلا مع قراءة عدلك بالتخفيف كلا ردع عن الغرور المذكور قبل والتكذيب المذكور بعد بل تكذبون بالدين هذا خطاب للكفار والدين هنا يحتمل أن يكون بمعنى الشريعة أو الحساب أو الجزاء وإن عليكم لحافظين يعنى الملائكة الذين يكتبون أعمال بني آدم يعلمون ما تفعلون يعلمون الأعمال لمشاهدتهم لها وأما مالا يرى ولا يسمع من الخواطر والنيات والذكر بالقلب فقيل إن الله ينفرد بعلم ذلك وقيل إن الملك يجد لها ريحا يدركها به إن الأبرار لفي نعيم في هذه الآية وفيما بعدها من

أدوات البيان المطابقة والترصيع وما هم عنها بغائبين فيه قولان أحدهما أن معناه لا يخرجون منها إذا دخلوها والآخر لا يغيبون عنها في البرزخ قبل دخولها لأنهم يعرضون عليها غدوا وعشيا وما أدراك ما يوم الدين تعظيم له وتهويل وكرره للتأكيد والمعنى أنه من شدته بحيث لا يدري أحد مقدار هوله وعظمته يوم لا تملك نفس لنفس شيأ أي لا يقدر أحد على منفعة أحد وقرئ يوم بالرفع على البدل من يوم الدين أو على إضمار مبتدأ وبالنصب على الظرفية بإضمار فعل تقديره يجاوزون يوم الدين أو النصب على المفعولية بإضمار فعل تقديره اذكر ويجوز أن يفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو في موضع رفع
سورة المطففين
ويل للمطففين
التطفيف في اللغة هو البخس والنقص وفسره بذلك الزمخشري واختاره ابن عطية وقيل هو تجاوز الحد في زيادة أو نقصان واختاره ابن الفرس وهو الأظهر لأن المراد به هنا بخس حقوق الناس في ... 777

---

184 المكيال والميزان بأن يزيد الإنسان على حقه أو ينقص من حق غيره وسبب نزول السورة أنه كان بالمدينة رجل يقال له أبو جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص فالسورة على هذا مدنية وقيل مكية لذكر أساطير الأولين وقيل نزل بعضها بمكة ونزل أمر التطفيف بالمدينة إذ كانوا أشد الناس فسادا في هذا المعنى فأصلحهم الله بهذه السورة الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون معنى اكتالوا على الناس قبضوا منهم بالكيل فعلى بمعنى من وإنما أبدلت منها لما تضمن الكلام من معنى التحامل عليهم ويجوز أن يتعلق على الناس بيستوفون وقدم المفعول لإفادة التخصيص وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون معنى يخسرون ينقصون حقوق الناس وهو من الخسارة يقال خسر الرجل وأخسره غيره إذا جعله يخسر وكالوهم معناه كالوا لهم او وزنوهم معناه وزنوا لهم ثم حذف حرف الجر فانتصب المفعول لأن هذين الفعلين يتعدى كل واحد منهما تارة بنفسه وتارة بحرف الجر يقال كلتك وكلت لك ووزنتك ووزنت لك بمعنى واحد وحذف المفعول الثاني وهو المكيل والموزون والواو التي هي ضمير الفاعل للمطففين والهاء الذي هي ضمير المفعول للناس فالمعنى إذا كالوا أو وزنوا لهم طعاما أو غيره مما يكال أو يوزن يخسرونهم حقوقهم وقيل إن هم في كالوهم أو وزنوهم تأكيد للضمير الفاعل وروى عن حمزة أنه كان يقف على كالوا ووزنوا ثم يبتدئ هم ليبين هذا المعنى وهو ضعيف من وجهين أحدهما أنه لم يثبت في المصحف ألف بعد الواو في كالوا ووزنوا فدل ذلك على أن هم ضمير المفعول والآخر أن المعنى على هذا أن المطففين إذا تولوا الكيل أو الوزن نقصوا وليس ذلك بمقصود لأن الكلام واقع في الفعل لا في المباشر ألا ترى أن اكتالوا على الناس معناه قبضوا منهم وكالوهم ووزنوهم معناه دفعوا لهم فقابل القبض بالدفع وأما على هذا الوجه الضعيف فهو خروج عن المقصود قال ابن عطية ظاهر الآية أن الكيل والوزن على البائعين وليس ذلك بالجلى

قال صدر الآية في المشترين فهم الذين يستوفون أو يشاحون ويطلبون الزيادة وقوله وإذا كالوهم أو وزنوهم في البائعين فهم الذين يخسرون المشتري ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يعني يوم القيامة وهذا تهديد للمطففين وإنكار لفعلهم وكان عبد الله بن عمر إذا مر بالبائع يقول له اتق الله وأوف الكيل فإن المطففين يوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن يوم يقوم الناس لرب العالمين الظرف منصوب بقوله مبعوثون وقيل بفعل مضمر أو بدل من يوم عظيم وقيام الناس يوم القيامة على حسب اختلافهم فمنهم من يقوم خمسين ألف سنة وأقل من ذلك حتى أن المؤمن يقوم على قدر صلاة مكتوبة كلا ردع عن التطفيف أو افتتاح كلام إن كتاب الفجار لفي سجين كتاب الفجار هو ما يكتب من أعمالهم والفجار هنا يحتمل أن يريد به الكفار أو المطففين وإن كانوا مسلمين والأول أظهر لقوله بعد هذا ويل يومئذ للمكذبين وسجين اسم علم منقول من صفة على وزن فعيل للمبالغة وقد عظم أمره بقوله وما أدراك ما سجين ثم فسره بأنه كتاب مرقوم أي مسطور بين الكتابين وهو كتاب جامع يكتب فيه أعمال الشياطين والكفار والفجار وهو مشتق من السجن بمعنى الحبس لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم ولأنه في مكان

الهوان والعذاب كالسجن فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه في الأرض السفلى وروى ... 778

---

185 عنه أنه في بئر هناك وحكى كعب عن التوراة أنه في شجرة سوداء هنالك وقال ابن عطية يحتمل أن يكون معنى الآية أن عدد الفجار في سجين أي كتبوا هنالك في الأزل أساطير الأولين قد ذكر بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون أي غطى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي وفي الحديث أن العبد إذا أذنب ذنبا صارت نكتة سوداء في قلبه فإذا زاد ذنب آخر زاد السواد فلا يزال كذلك حتى يتغطى وهو الرين لمحجوبون حجب الكفار عن الله على أن المؤمنين لا يحجبون وقد استدل بها مالك والشافعي على صحة رؤية المؤمن لله في الآخرة وتأولها المعتزلة أن معناها محجوبون عن رحمته إن كتاب الأبرار لفي عليين عليون اسم علم للكتاب الذي تكتب فيه الحسنات وهذا جمع منقول من صفة على وزن فعيل للمبالغة وقد عظمه بقوله وما أدراك ما عليون ثم فسره بقوله كتاب مرقوم وهو مشتق من العلو لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة أو لأنه مرفوع في مكان على فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تحت العرش وقال ابن عباس هو الجنة وارتفع كتاب مرقوم في الموضعين على أنه خبر مبتدأ مضمر تقديره هو كتاب وقال ابن عطية كتاب مرقوم خبر إن والظرف ملغي وهذا تكلف يفسد به المعنى وقد روى في الأثر ما روى في الآية وهو أن الملائكة تصعد بصحيفة فيها عمل العبد فإن رضيه الله قال اجعلوه في عليين وإن لم يرضه قال اجعلوه في سجين يشهده المقربون يعني الملائكة المقربين الأرائك قد ذكر ينظرون روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ينظرون إلى أعدائهم في النار وقيل ينظرون الى الجنة وما أعطاهم الله فيها نضرة النعيم أي بهجته ورونقه كما يرى في وجوه أهل الرفاهية والعافية والخطاب في تعرف للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب من غير تعيين
يسقون من رحيق مختوم الرحيق الخمر الصافية والمختوم فسره الله بأن ختامه مسك وقرئ

ختامه بألف بعد التاء وخاتمه بألف بعد الخاء وبفتح التاء وكسرها وفي معناه ثلاثة أقوال أحدها أنه من الختم على الشئ بمعنى جعل الطابع عليه فالمعنى أنه ختم على فم الإناء الذي هو فيه بالمسك كما يختم على أفواه آنية الدنيا بالطين إذا قصد حفظها وصيانتها الثاني أنه من ختم الشئ أي تمامه فمعناه خاتم شربه مسك أي يجد الشارب عند آخر شربه رائحة المسك ولذته الثالث أن معناه مزاجه مسك أي يمزج الشراب بالمسك وهذا خارج عن اشتقاق اللفظ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون التنافس في الشئ هو الرغبة فيه والمغالاة في طلبه والتزاحم عليه ومزاجه من تسنيم تسنيم اسم لعين في

الجنة يشرب منها المقربون صرفا ويمزج منه الرحيق الذي يشرب منه الأبرار فدل ... 779

---

186 ذلك على أن درجة المقربين فوق درجة الأبرار فالمقربون هم السابقون والأبرار هم أصحاب اليمين عينا منصوب على المدح بفعل مضمر أو على الحال من تسنيم يشرب بها بمعنى يشربها فالباء زائدة ويحتمل أن يكون بمعنى يشرب منها أو كقولك شربت الماء بالعسل إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون نزلت هذه الآية في صناديد قريش كأبي جهل وغيره مربهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من المؤمنين فضحكوا منهم واستخفوا بهم وإذا مروا بهم يتغامزون أي يغمز بعضهم إلى بعض ويشير بعينيه والضمير في مروا يحتمل أن يكون للمؤمنين أو للكفار والضمير في يتغامزون للكفار لا غير فكهين من الفكاهة وهي اللهو أي يتفكهون بذكر المؤمنين والاستخفاف بهم قاله الزمخشري ويحتمل أن يريد يتفكهون بنعيم الدنيا وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون أي إذا رأي الكفار المؤمنين نسبوهم إلى الضلال وقيل إذا رأى المؤمنون الكفار نسبوهم إلى الضلال والأول أظهر وأشهر وما أرسلوا عليهم حافظين أي ما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم وكأنه قال كلامهم بالمؤمنين فضول منهم فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون يعني باليوم يوم القيامة إذ قد تقدم ذكره فيضحك المؤمنون فيه من الكفار كما ضحك الكفار منهم في الدنيا هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون معنى ثوب جوزى يقال ثوبه وأثابه إذا جازاه وهذه الجملة يحتمل أن تكون متصلة بما قبلها في موضع مفعول ينظرون فتوصل مع ما قبلها أو تكون توقيفا فيوقف قبلها ويكون معمول ينظرون محذوفا حسبما ذكرنا في ينظرون الذي قبل هذا وهذا أرجح لاتفاق الموضعين

سورة الانشقاق

إذا السماء انشقت اختلف في هذا الانشقاق هل هو تشققها بالغمام أو انفتاحها أبوابا وجواب إذا محذوف ليكون أبلغ في التهويل إذ يقدر السامع أقصى ما يتصوره وحذف للعلم به اكتفاء بما في سورة التكوير

والانفطار من الجواب وقيل الجواب ما دل عليه فملاقيه أي إذا السماء انشقت لقى الإنسان ربه وقيل الجواب أذنت على زيادة الواو وهذا ضعيف وأذنت لربها معنى أذنت في اللغة استمعت وهو هنا عبارة عن طاعتها لربها وأنها انقادت لله حين أراد انشقاقها وكذلك طاعة الأرض لما أراد مدها وإلقاء ما فيها وحقت أي حق لها أن تسمع وتطيع لربها أو حق لها أن تنشق من أهوال القيامة وهذه الكلمة من قولهم هو حقيق بكذا أو محقوق به أي يجب عليه أن يفعله فالمعنى يحق على السماء أن تسمع وتطيع لربها أو يحق عليها أن تتشقق ويحتمل أن يكون أصله حققت بفتح الحاء ... 780

187 وضم القاف على معنى التعجب ثم أدغمت القاف التي بعدها ونقلت حركتها إلى الحاء وإذا الأرض مدت أي زال ما عليها من الجبال حتى صارت مستوية وألقت ما فيها وتخلت أي ألقت ما في جوفها من الموتى للحشر وقيل ألقت ما فيها من الكنوز وهذا ضعيف لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال قبل القيامة والمقصود ذكر يوم القيامة وتخلت أي بقيت خالية مما كان فيها ياأيها الإنسان خطاب للجنس إنك كادح إلى ربك الكدح في اللغة هو الجد والاجتهاد والسرعة فالمعنى أنك في غاية الاجتهاد في السير إلى ربك لأن الزمان يطير وأنت في كل لحظة تقطع حظا من عمرك القصير فكأنك سائر مسرع إلى الموت ثم تلاقي ربك وقيل المعنى إنك ذو جد فيما تعمل من خير أو شر ثم تلقى ربك فيجازيك به والأول أظهر لأن كادح تعدى بإلى لما تضمن معنى السير ولو كان بمعنى العمل لقال لربك فأما من أوتى كتابه بيمينه ذكر في الحاقة فسوف يحاسب حسابا يسيرا يحتمل أن يكون اليسير بمعنى قليل أو بمعنى هين سهل وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من نوقش الحساب عذب فقالت عائشة ألم يقل الله فسوف يحاسب حسابا يسيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ذلك العرض وأما من نوقش الحساب فيهلك وفي الحديث أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يدنى العبد يوم القيامة حتى يضع كنفه عليه فيقول فعلت كذا وكذا ويعدد عليه ذنوبه ثم يقول سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حاسب نفسه في الدنيا هون الله عليه حسابه يوم القيامة
وينقلب إلى أهله مسرورا أي يرجع إلى أهله في الجنة مسرورا بما أعطاه الله والأهل زوجاته في الجنة من نساء الدنيا أو من الحور العين ويحتمل أن يريد قرابته من المؤمنين وبذلك فسره الزمخشري وأما من أوتي كتابه وراء ظهره يعني الكافر وروى أن هاتين الآيتين نزلتا في أبي سلمة ابن عبد الأسد

وكان من فضلاء االمؤمنين وفي أخيه أسود وكان من عتاة الكافرين ولفظها أعم من ذلك فإن قيل كيف قال في الكافر هنا أن يؤتي كتابه وراء ظهره وقال في الحاقة بشماله فالجواب من وجهين أحدهما أن يديه تكونان مغلولتين إلى عنقه وتجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه وقيل تدخل يده اليسرى في صدره وتخرج من ظهره فيأخذ بها كتابه يدعو ثبورا أي يصيح بالويل والثبور إنه كان في أهله مسرورا أي كان في الدنيا مسرورا مع أهله متنعما غافلا عن الآخرة وهذا في مقابلة ما حكى عن المؤمن أنه ينقلب إلى أهله مسرورا في الجنة وهو ضد ما حكى عن المؤمنين في الجنة من قولهم إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين إنه ظن أن لن يحور أي لا يرجع إلى الله والمعنى أنه يكذب بالبعث بلى أي يحور ويبعث فلا أقسم ذكر في نظائره بالشفق هي الحمرة التي تبقى بعد غروب الشمس وقال أبو حنيفة هو البياض وقيل هو النهار كله وهذا ضعيف

والأول هو المعروف عند الفقهاء وعند أهل اللغة والليل وما وسق أي جمع وضم ومنه الوسق وذلك أن الليل يضم الأشياء ... 781

---

188 ويسترها بظلامه والقمر إذا اتسق أي إذا كمل ليلة أربعة عشر ووزن اتسق افتعل وهو مشتق من الوسق فكأنه امتلأ نورا وفي الآية من أدوات البيان لزوم مالا يلزم لالتزام السين قبل القاف في وسق واتسق لتركبن طبقا على طبق الطبق في اللغة له معنيان أحدهما ما طابق غيره يقال هذا طبق لهذا إذا طابقه والآخر جمع طبقة فعلى الأول يكون المعنى لتركبن حالا بعد حال كل واحدة منها مطابقة للأخرى وعلى الثاني يكون المعنى لتركبن أحوالا بعد أحوال هي طبقات بعضها فوق بعض ثم اختلف في تفسير هذه الأحوال وفي قراءة تركبن فأما من قرأ بضم الباء فهو خطاب لجنس الإنسان وفي تفسير الأحوال على هذا ثلاثة أقوال أحدها أنها شدائد الموت ثم البعث ثم الحساب ثم الجزاء والآخر أنها كون الانسان نطفة ثم علقة إلى أن يخرج إلى الدنيا ثم إلى أن يهرم ثم يموت والثالث لتركبن سنن من كان قبلكم وأما من قرأ تركبن بفتح الباء فهو خطاب للإنسان على المعاني الثلاثة التي ذكرنا وقيل هي خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم اختلف القائلون بهذا على ثلاثة أقوال أحدها لتركبن مكابدة الكفار حالا بعد حال والآخر لتركبن فتح البلاد شيئا بعد شئ والثالث لتركبن السموات في الاسراء بعد سماء وقوله عن طبق في موضع الصفة لطبقا أو في موضع حال من الضمير في تركبن قاله الزمخشري فمالهم لا يؤمنون الضمير لكفار قريش والمعنى أي شئ يمنعهم من الايمان وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون هذا موضع سجدة عند الشافعي وغيره لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها وليست عند مالك من عزائم السجدات الذين كفروا يعني المذكورين ووضع الظاهر موضع الضمير ليصفهم بالكفر والله أعلم بما يوعون أي بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب أو بما يجمعون في صحائفهم يقال أو عيت المال وغيره إذا جمعته فبشرهم بعذاب إليم وضع البشارة في موضع النذارة تهكما بهم إلا الذين آمنوا يعني من

قضى له بالإيمان من هؤلاء الكفار فالاستثناء على هذا متصل وإلى هذا أشار ابن عطية وقال الزمخشري هو منقطع أجر غير ممنون قد ذكر

سورة البروج

والسماء ذات البروج

البروج هي المنازل المعروفة وهي اثنا عشر تقطعها الشمس في السنة وقيل هي النجوم العظام لأنها تتبرج أي تظهر واليوم الموعود هو يوم القيامة باتفاق وقد ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاهد ومشهود يحتمل الشاهد والمشهود أن يكون من الشهادة على الأمر أو يكون من معنى الحضور وحذف المعمول وتقديره مشهود عليه أو مشهود به أو مشهود فيه وقد اضطرب الناس في تفسير الشاهد والمشهود اضطرابا عظيما ويتلخص من أقوالهم في

الشاهد ستة عشر قولا يقابلها في المشهود اثنان وثلاثون قولا الأول أن الشاهد هو الله تعالى لقوله وكفى بالله شهيدا والمشهود على هذا يحتمل ... 782

---

189 ثلاثة أوجه أحدها أن يكون الخلق بمعنى أنه يشهد عليهم والآخر أن تكون الأعمال بمعنى أنه يشهد بها والثالث أن يكون يوم القيامة بمعنى أنه يشهد فيه أي يحضر للحساب والجزاء أو تقع فيه الشهادة على الناس القول الثاني أن الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم لقوله ويكون الرسول عليكم شهيدا والمشهود على هذا يحتمل أن يكون أمته لأنه يشهد عليهم أو أعمالهم لأنه يشهد بها أو يوم القيامة لأنه يشهد فيه أي يحضر أو تقع فيه الشهادة على الأمة القول الثالث أن الشاهد أمة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله لتكونوا شهداء على الناس والمشهود على هذا سائر الأمم لأنهم يشهدون عليهم أو أعمالهم أو يوم القيامة القول الرابع أن الشاهد هو عيسى عليه السلام والمشهود أمته لقوله وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم أو أعمالهم أو يوم القيامة الخامس أن الشاهد جميع الأنبياء والمشهود أممهم لأن كل نبي يشهد على أمته أو يشهد القول بأعمالهم أيو يوم القيامة لأنه يشهد فيه القول السادس أن الشاهد الملائكة الحفظة والمشهود على هذا الناس لأن الملائكة يشهدون عليهم أو الأعمال لأن الملائكة يشهدون بها أو يوم القيامة أو صلاة الصبح لقوله إن قرآن الفجر كان مشهودا القول السابع أن الشاهد جميع الناس لأنهم يشهدون يوم القيامة أي يحضرونها والمشهود يوم القيامة لقوله فذلك يوم مشهود والقول الثامن أن الشاهد الجوارح والمشهود عليه أصحابها لقوله يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم أو الأعمال لأن الجوارح تشهد بها يوم القيامة لأن الشهادة تقع فيه القول التاسع أن الشاهد الله والملائكة وأولوا العلم لقوله شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم والمشهود به الوحدانية القول العاشر الشاهد جميع المخلوقات والمشهود به وجود خالقها وإثبات صفاته من الحياة والقدرة وغير ذلك القول الحادي عشر أن الشاهد النجم لما ورد في الحديث لا صلاة بعد

العصر حتى يطلع الشاهد وهو النجم والمشهود على هذا الليل والنهار لأن النجم يشهد بانقضاء النهار ودخول الليل القول الثاني عشر أن الشاهد الحجر الأسود والمشهود الناس الذين يحجون القول الثالث عشر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وذلك أن يوم الجمعة يشهد بالأعمال ويوم عرفة يشهده جمع عظيم من الناس القول الرابع عشر أن الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر قاله علي بن أبي طالب القول الخامس عشر أن الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة القول السادس عشر أن الشاهد يوم الاثنين والمشهود يوم الجمعة قتل أصحاب الأخدود الكلام هنا في ثلاثة فصول الأول في جواب القسم وفيه أربعة أقوال أحدها أنه قوله إن بطش ربك لشديد والثاني أنه إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وهذان

القولان ضعيفان لبعد االقسم من الجواب وثالثها أنه قتل أصحاب الأخدود تقديره لقد قتل ورابعها أنه محذوف يدل عليه قتل أصحاب الأخدود تقديره لقد قتل هؤلاء الكفار كما قتل أصحاب الأخدود وذلك أن الكفار من قريش كانوا يعذبون من أسلم من قومهم ليرجعوا عن الإسلام فذكر الله قصة أصحاب الأخدود وعيدا للكفار وتأنيسا للمسلمين المعذبين الفصل الثاني في تفسير لفظها فأما قتل فاختلف هل هو دعاء أو خبر واختلف هل هو بمعنى القتل حقيقة أو بمعنى اللعن وأما الأخدود فهو الشق في الأرض كالخندق وشبهه وأما أصحاب الأخدود فيحتمل أن يريد بهم الكفار الذين كانوا يحرقون المؤمنين في الأخدود أو يريد المؤمنين الذين حرقوا فيه فيكون القتل حقيقة خبر أو الأول أظهر الفصل الثالث في قصة أصحاب ... 783

(3/304)

---

190 الأخدود وفيها أربعة أقوال الأول ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل معناه أن ملكا كافرا أسلم أهل بلده فأمر بالأخدود فخذ في أفواه السكك وأضرم فيها النيران فقال من لم يرجع عن دينه فألقوه فيها ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام يا أماه اصبري فإنك على الحق الثاني أن ملكا زنى بأخته ثم أراد أن يحلل للناس نكاح الأخوات فأطاعه قوم ومنهم أخذ المجوس ذلك وعصاه قوم فحفر لهم الأخدود فأحرقهم فيه بالنار القول الثالث أن نبي أصحاب الأخدود كان حبشيا وأن الحبشة بقية أصحاب الأخدود القول الرابع أن أصحاب الأخدود ذو نواس المذكورة في قصة عبد الله بن التامر التي وقعت في السير ويحتمل أن يكون ذو نواس الملك الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فيتفق هذا القول مع الأول فإن ذا نواس حفر أخدودا فأوقد فيه نيرانا وألقى فيها كل من وحد الله تعالى واتبع العبد الصالح عبد الله بن التامر النار ذات الوقود النار بدل من الأخدود وهو بدل اشتمال والوقود ما توقد به النار والقصد وصف النار بالشدة والعظم إذ هم عليها قعود الضمير للكفار الذين كانوا يحرقون المؤمنين في الأخدود وهم أصحاب الأخدود على الأظهر والعامل في إذ قوله قتل فروى أن النار أحرقت من المؤمنين عشرين ألفا وقيل سبعين ألفا فقتل على هذا بمعنى لعن أي لعنوا حين قعدوا على النار لتحريق المؤمنين وروى أن الله بعث على المؤمنين ريحا فقبضت أرواحهم وخرجت النار فأحرقت الكفار الذين كانوا عليها فقتل على هذا بمعنى القتل الحقيقي أي قتلهم النار وقيل الضمير في إذ هم للمؤمنين والأول أشهر وأظهر لقوله وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود يحتمل أن يكون بمعنى الشهادة أي يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه فعل ما أمره الملك من التحريق أو يشهدون بذلك على أنفسهم يوم القيامة أو يكون بمعنى الحضور

(3/305)

أي كانوا حاضرين على ذلك الفعل وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله أي ما أنكر الكفار على المؤمنين إلا أنهم آمنوا بالله وهذا لا ينبغي أن ينكر فإن قيل لم

قال أن يؤمنوا بلفظ المضارع ولم يقل آمنوا بلفظ الماضي لأن القصة قد وقعت فالجواب أن التعذيب إنما كان على دوامهم على الإيمان ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوهم فلذلك ذكره بلفظ المستقبل فكأنه قال إلا أن يدوموا على الايمان إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات إن كانت هذه الآية في أصحاب الأخدود فالفتنة هنا بمعنى الإحراق وإن كانت في كفار قريش فالفتنة بمعنى المحنة والتعذيب وهذا أظهر لقوله ثم لم يتوبوا لأن أصحاب الأخدود لم يتوبوا بل ماتوا على كفرهم وأما قريش فمنهم من أسلم وتاب وفي الآية دليل على أن الكافر إذا أسلم يغفر له ما فعل في حال كفره لقوله صلى الله عليه وسلم الاسلام يجب ما قبله ولهم عذاب الحريق يحتمل أن يكون في الآخرة فيكون تأكيدا لعذاب جهنم أونوعا من العذاب زيادة إلى عذاب جهنم ويحتمل أن يريد في الدنيا وذلك على رواية أن الكفار أصحاب الأخدود أحرقتهم النار إن بطش ربك لشديد البطش الأخذ بقوة وسرعة إنه هو يبدئ ويعيد أي يبدئ الخلق بالنشأة الأولى ويعيدهم بالنشأة الآخرة للبعث وقيل يبدئ البطش ويعيده أي يبطش بهم في الدنيا والآخرة والأول أظهر وارجح لقوله إنه يبدئ الخلق ثم يعيده وقد ذكرنا ... 784

---

191 الودود في اللغات ذو العرش المجيد أضاف العرش إلى الله وخصه بالذكر لأن العرش أعظم المخلوقات والمجيد من المجد وهو الشرف ورفعة القدر وقرئ المجيد بالرفع صفة لذو العرش وبالخفض صفة للعرش هل أتاك توقيف يراد به التنبيه وتعظيم الأمر والمراد بذكر الجنود تهديد الكفار وتأنيس النبي صلى الله عليه وسلم والله من ورائهم محيط تهديد لهم معناه لا يفوتونه بل يصيبهم عذابه إذا شاء في لوح محفوظ يعني اللوح المحفوظ الذي في السماء وقرئ محفوظ بالخفض صفة للوح وبالرفع صفة للقرآن أي حفظه الله من التبديل والتغيير أو حفظه المؤمنون في صدورهم

سورة الطارق

والسماء والطارق

هذه السماء التي أقسم الله بها هي المعروفة وقيل أراد المطر لأن العرب قد تسميه سماء وهذا بعيد والطارق في اللغة ما يطرق أي يجئ ليلا وقد فسره الله هنا بأنه النجم الثاقب وهو يطلع ليلا ومعنى الثاقب المضئ أو المرتفع فقيل أراد جنس النجوم وقيل الثريا لأنه الذي تطلق عليه العرب النجم وقيل زحل لأنه أرفع النجوم إذ هو في السماء السابعة إن كل نفس لما عليها حافظ هذا جواب القسم ومعناه عند الجمهور أن كل نفس من بني آدم عليها حافظ يكتب أعمالها يعني الملائكة الحفظة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير هذه الآية أن لكل نفس حفظة من الله يذبون عنها كما يذب عن العسل ولو وكل المرء إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الآفات والشياطين وإن صح هذا الحديث فهو المعمول عليه وقرئ لما عليها بتخفيف الميم وعلى هذا تكون إن مخففة من الثقيلة واللام للتأكيد وما زائدة وقريء لما بالتشديد وعلى هذا تكون إن نافية ولما بمعنى الايجاب بعد النفي فلينظر الأنسان مم خلق حذف ألف ما لأنها استفهامية وجوابها خلق من ماء دافق وسمى المني ماء دافقا من

الدفق بمعنى الدفع فقيل معناه مدفوق وصاحبه هو الدافق في الحقيقة قال سيبويه هو على النسب أي ذو دفق وقال ابن عطية يصح

(3/307)

أن يكون الماء دافقا لأن بعضه يدفع بعضا ومقصود الآية إثبات الحشر فأمر الإنسان أن ينظر أصل خلقته ليعلم أن الذي خلقه من ماء دافق قادر على أن يعيده ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله أنه لما أخبر أن كل نفس عليها حافظ يحفظ أعمالها أعقبه بالتنبيه على الحشر حيث تجازى كل نفس بأعمالها يخرج من بين الصلب والترائب الضمير في يخرج للماء وقال ابن عطية يحتمل أن يكون للإنسان وهذا بعيد جدا والترائب عظام الصدر واحدها تريبة وقيل هي الأطراف كاليدين ... 785

(3/308)

---

192 والرجلين وقيل هي عصارة القلب ومنها يكون الولد وقيل هي الأضلاع التي أسفل الصلب والأول هو الصحيح المعروف في اللغة ولذلك قال ابن عباس هي موضع القلادة ما بين ثديي المرأة ويعني صلب الرجل وترائبه وصلب المرأة وترائبها وقيل أراد صلب الرجل وترائب المرأة إنه على رجعه لقادر الضمير في إنه لله تعالى وفي رجعه للإنسان والمعنى أن الله قادر على رجع الإنسان حيا بعد موته والمراد إثبات البعث وقيل إن المعنى رده ماء كما كان أول مرة وقيل رده من الكبر إلى الشباب وقيل الضمير في رجعه للماء الدافق والمعنى رده في الإحليل أو في الصلب وهذا كله ضعيف بعيد والقول الأول هو الصحيح المشهور يوم تبلى السرائر يعني يوم القيامة والسرائر جمع سريرة وهي ما أسر العبد في قلبه من العقائد والنيات وما أخفى من الأعمال وبلاؤها هو تعرفها والاطلاع عليها وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن السرائر الإيمان والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة وهذه معظمها فلذلك خصها بالذكر والعامل في يوم قوله رجعه أي يرجعه يوم تبلى السرائر واعترض بالفصل بينهما وأجيب بقوة المصدر في العمل وقيل العامل قادر واعتراض بتخصيص القدرة بذلك اليوم وهذا لا يلزم لأن القدرة وإن كانت مطلقة فقد أخبر الله أن البعث إنما يقع في ذلك اليوم وقال من احترز من الاعتراضين في القولين المتقدمين العامل فعل مضمر من المعنى تقديره يرجعه يوم تبلى السرائر وهذا كله على المعنى الصحيح في رجعه وأما على الأقوال الأخر فالعامل في يوم مضمر تقديره اذكر فما له من قوة ولا ناصر الضمير للإنسان ولما كان دفع المكاره في الدنيا إما بقوة الإنسان أو بنصرة غيره له أخبره الله أنه يعدمها يوم القيامة والسماء ذات الرجع المراد بالرجع عند الجمهور المطر وسماه رجعا بالمصدر لأنه يرجع كل عام أو لأنه يرجع إلى الأرض وقيل الرجع السحاب الذي فيه المطر وقيل هو مصدر رجوع الشمس والكواكب من منزلة

(3/309)

إلى منزلة والأرض ذات الصدع يعني ما تصدع عنه الأرض من النبات وقيل يعني ما في الأرض من الشقاق والخنادق وشبهها إنه لقول فصل الضمير للقرآن لأن سياق الكلام يقتضيه والفصل معناه الذي فصل بين الحق والباطل كما قيل له فرقان والهزل اللهو يعني أنه جد كله إنهم يكيدون كيدا الضمير لكفار قريش وكيدهم هو ما دبروه في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإضرار به وإبطال أمره وأكيد كيدا هذا تسمية للعقوبة باسم الذنب للمشاكلة بين الفعلين فمهل الكافرين أي لا تستعجل عليهم بالعقوبة لهم أو بالدعاء عليهم وهذا منسوخ بالسيف أمهلهم رويدا أي إمهالا يسيرا قليلا يعني إلى قتلهم يوم بدر أو إلى الدار الآخرة وجعله يسيرا لأن كل آت قريب ولفظ رويدا هذا صفة لمصدر محذوف وقد تقع بمعنى الأمر بالتساهل كقولك رويدا يا فلان وكرر الأمر في قولهم أمهلهم وخالف بينه وبين لفظ مهل لزيادة التسكين والتصبير قاله الزمخشري ... 786

193 سورة الأعلى جل جلاله سبح اسم ربك الأعلى التسبيح في اللغة التنزيه وذكر الاسم هنا يحتمل وجهين أحدهما أن يكون المراد المسمى ويكون الاسم صلة كالزائد ومعنى الكلام سبح ربك أي نزهه عما لا يليق به وقد يتخرج ذلك على قول من قال إن الاسم هو المسمى والآخر أن يكون الاسم مقصودا بالذكر ويحتمل المعنى على هذا أربعة أوجه الأول تنزيه أسماء الله تعالى عن المعاني الباطلة كالتشبيه والتعطيل الثاني تنزيه أسماء الله عن أن يسمى بها صنم أو وثن الثالث تنزيه أسماء الله عن أن تدرك في حال الغفلة دون خشوع الرابع أن المراد قول سبحان الله ولما كان التسبيح باللسان لا بدفيه من ذكر الاسم أوقع التسبيح على الاسم وهذا القول هو الصحيح ويؤيده ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال سبحان ربي الأعلى وأنها لما نزلت قال اجعلوها في سجودكم فدل ذلك على أن المراد هو التسبيح باللسان مع موافقة القلب ولا بد في التسبيح باللسان من ذكر اسم الله تعالى فلذلك قال سبح اسم ربك الأعلى مع أن التسبيح في الحقيقة إنما هو لله تعالى لا لاسمه وإنما ذكر الاسم لأنه هو الذي يوصل به إلى التسبيح باللسان وعلى هذا يكون موافقا في المعنى لقوله فسبح باسم ربك لأن معناه نزه الله بذكر اسمه ويؤيد هذا ما روى عن ابن عباس أن معنى سبح صل باسم ربك أي صل واذكر في الصلاة اسم ربك والأعلى يحتمل أن يكون صفة للرب أو للاسم والأول أظهر الذي خلق فسوى حذف مفعول خلق وسوى لقصد الاجمال الذي يفيد العموم والمراد خلق كل شئ فسواه أي أتقن خلقته وانظر ما ذكرنا في قوله فسواك فعدلك والذي قدر فهدى قدر بالتشديد يحتمل أن يكون من القدر والقضاء أو من التقدير والموازنة بين الأشياء وقرئ بالتخفيف فيحتمل أن يكون من القدرة أو التقدير وحذف المفعول ليفيد العموم فإن كان من التقدير فالمعنى قدر لكل حيوان ما يصلحه فهداه إليه وعرفه وجه

الانتفاع به وقيل هدى ذكور الحيوان إلى وطء الإناث لبقاء النسل وقيل هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي وقيل هدى الناس للخير والشر والبهائم للمراتع وهذه الأقوال أمثلة والأول أعم وأرجح فإن هداية الإنسان وسائر الحيوانات إلى مصالحها باب واسع فيه عجائب وغرائب وقال الفراء المعنى هدى وأضل واكتفى بالواحدة لدلاتها على الأخرى وهذا بعيد والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى المرعى هو النبات الذي ترعاه البهائم والغثاء هو النبات اليابس المحتطم وأحوى معناه أسود وهو صفة لغثاء والمعنى أن الله أخرج ألمرعى أخضر فجعله بعد خضرته غثاء أسود لأن الغثاء إذا قدم تعفن واسود وقيل إن أحوى حال من المرعى ومعناه الأخضر الذي يضرب إلى السواد وتقديره الذي أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء وفي هذا القول تكلف سنقرئك فلا تنسى هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وعده الله أن يقرئه القرآن فلا ينساه وفي ذلك معجزة له عليه الصلاة والسلام ... 787

194 لأنه كان أميا لا يكتب وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام من القرآن وقيل معنى الآية كقوله لا تحرك به لسانك الآية فإنه عليه الصلاة والسلام كان يحرك به لسانه إذا أقرأه جبريل خوفا أن ينساه فضمن الله له أن لا ينساه وقيل فلا تنسى نهى عن النسيان وقد علم الله أن ترك النسيان ليس في قدرة البشر فالمراد الأمر بتعاهده حتى لا ينساه وهذا بعيد لإثبات الألف في تنسى إلا ما شاء الله فيه وجهان أحدهما أن معناه لا تنسى إلا ما شاء الله أن تنساه كقوله أو ننسها ولآخر أنه لا ينسى شيئا ولكن قال إلا ما شاء الله تعظيما لله بإسناد الأمر إليه كقوله خالدين فيها إلا ما شاء الله على بعض الأقوال وعبر الزمخشري عن هذا بأنه من استعمال التقليل في معنى النفي والأول أظهر فإن النسيان جائز على النبي صلى الله عليه وسلم فيما أراد الله أن يرفعه من القرآن أو فيما قضى الله أن ينساه ثم يذكره ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع قراءة عباد بن بشير رحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت قد نسيتها ونيسرك لليسرى عطف على سنقرؤك ومعناه نوفقك للأمور المرضية التي توجب له السعادة وقيل معناه للشريعة اليسرى من قوله عليه الصلاة والسلام دين الله يسر أي سهل لا حرج فيه فذكر إن نفعت الذكرى المراد بهذا الشرط توبيخ الكفار الذين لا تنفعهم الذكرى واستبعاد تأثير الذكرى في قلوبهم كقولك قد أوصيتك لو سمعت وقيل المعنى ذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع واقتصر على أحد القسمين لدلالة الآخر عليه وهذا بعيد وليس عليه الرونق الذي على الأول سيذكر من يخشى أي من يخاف الله ويتجنبها الأشقى يعني الكافر وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة والضمير المفعول للذكرى النار الكبرى هي نار جهنم وسماها كبرى بالنظر إلى نار الدنيا وقيل سماها كبرى بالنظر إلى غيرها من نار جهنم فإنها تتفاضل وبعضها أكبر من بعض

وكلا القولين صحيح إلا أن الأول أظهر ويؤيده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ناركم هذه التي توقدون جزءا من سبعين جزءا من نار جهنم ثم لا يموت فيها ولا يحيى أي لايموت فيستريح ولا يحيا حياة هنيئة وعطف هذه الجملة بثم لأن هذه الحالة أشد من صلى النار فكأنها بعده في الشدة قد أفلح من تزكى يحتمل أن يكون بمعنى الطهارة من الشرك والمعاصي أو بمعنى الطهارة للصلاة أو بمعنى أداء الزكاة وعلى هذا قال جماعة إنها يوم الفطر والمعنى أدى زكاة الفطر وذكر اسم ربه في طريق المصلي إلى أن يخرج الإمام وصلى صلاة العيد وقد روى هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم وقيل المراد أدى زكاة ماله وصلى الصلوات الخمس إن هذا الإشارة إلى ما ذكر من التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة أو إلى ما تضمنته السورة أو إلى القرآن بجملته والمعنى أنه ثابت في كتب الأنبياء المتقدمين كما ثبت في هذا الكتاب ... 788

195 سورة الغاشية
هل أتاك توقيف يراد به التنبيه والتفخيم للأمر وقيل هل بمعنى قد وهذا ضعيف الغاشية هي القيامة لأنها تغشى جميع الخلق وقيل هي النار من قوله وتغشى وجوههم النار وهذا ضعيف لأنه ذكر بعد ذلك قسمين أهل الشقاوة وأهل السعادة خاشعة أي ذليلة عاملة ناصبة هو من النصب بمعنى التعب وفي المراد بهم ثلاثة أقوال أحدها أنهم الكفار ويحتمل على هذا أن يكون عملهم ونصبهم في الدنيا لأنهم كانوا يعملون أعمال السوء ويتعبون فيها أو يكون في الآخرة فيعملون فيها عملا يتعبون فيه من جر السلاسل والأغلال وشبه ذلك ويكون زيادة في عذابهم الثاني أنها في الرهبان الذين يجتهدون في العبادة ولا تقبل منهم لأنهم على غير الإسلام وبهذا تأولها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبكى رحمة لراهب نصراني رآه مجتهدا فعاملة ناصبة على هذا في الدنيا وناصبة إشارة إلى اجتهادهم في العمل أو إلى أنه لاينفعهم فليس لهم منه إلا النصب الثالث أنها في القدرية وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر القدرية فبكى وقال إن فيهم المجتهد تسقى من عين آنية أي شديدة الحر ومنه حميم آن ووزن آنية هنا فاعلة بخلاف آنية من فضة فإن وزنه أفعله ليس لهم طعام إلا من ضريع في الضريع أربعة أقوال أحدها أنه شوك يقال له البشرق وهو سم قاتل وهذا أرجح الأقوال لأن أرباب اللغة ذكروه ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال الضريع شوك في النار الثاني أنه الزقوم لقوله إن شجرة الزقوم طعام الأثيم الثالث أنه نبات أخضر منتن ينبت في البحر وهذا ضعيف الرابع أنه واد في جهنم وهذا ضعيف لأن ما يجرى في الوادي ليس بطعام إنما هو شراب ولله در من قال الضريع طعام أهل النار فإنه أعم وأسلم من عهدة التعيين واشتقاقه عند بعضهم من المضارعة بمعنى المشابهة لأنه يشبه الطعام الطيب وليس به وقيل هو بمعنى مضرع للبدن أي مضعف وقيل إن العرب لا تعرف هذا اللفظ فإن قيل كيف

قال هنا ليس لهم طعام إلا من ضريع وقال في الحاقة ولا طعام إلا من غسلين فالجواب أن الضريع لقوم والغسلين لقوم أو يكون أحدهما في حال والآخر في حال لا يسمن ولا يغني من جوع هذه الجملة صفة لضريع أو لطعام نفى عنه منفعة الطعام وهي التسمين وإزالة الجوع
وجوه يومئذ ناعمة أي متنعمة في الجنة أو يظهر عليها نضرة النعيم لسعيها راضية أي راضية في الآخرة لأجل سعيها وهو عملها في الدنيا في جنة عالية يحتمل أن يكون من علو المكان أو من علو المقدار أو الوجهين لا تسمع فيها لاغية هو من لغو الكلام ومعناه الفحش وما يكره فيحتمل أن يريد كلمة لاغية أو جماعة لاغية فيها عين جارية يحتمل أن يريد جنس العيون أو واحدة شرفها بالتعيين وأكواب ... 789

196 موضوعة) قد ذكرنا أكواب ومعنى موضوعة حاضرة معدة بشرابها وفي قوله مرفوعة وموضوعة مطابقة ونمارق جمع نمرقة وهي الوسادة وزرابي هي بسط فاخرة وقيل هي الطنافس واحدها زربية مبثوثة أي متفرقة وذلك عبارة عن كثرتها وقيل مبسوطة أفلا ينظرون إلى الإبل حض على النظر في خلقتها لما فيها من العجائب في قوتها وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف وصبرها على العطش وكثرة المنافع التي فيها من الركوب والحمل عليها وأكل لحومها وشرب ألبانها وأبوالها وغير ذلك وقيل أراد بالإبل السحاب وهذا بعيد وإنما حمل قائلة عليه مناسبتها للسماء والأرض والجبال والصحيح أن المراد الحيوان المعروف وإنما ذكره لما فيه من العجائب ولاعتناء العرب به إذ كانت معايشهم في الغالب منه وهو أكثر المواشي في بلادهم لست عليهم بمصيطر أي قاهر متسلط وهذا من المنسوخ بالسيف إلا من تولى استثناء منقطع معناه لكن من تولى وكفر فيعذبه الله وقيل هو استثناء من مفعول فذكر والمعنى ذكر كل أحد إلا من تولى حتى يئست منه فهو على هذا متصل وقيل هو استثناء من قوله لست عليهم بمسيطر أي لا تسلط إلا على من تولى وكفر وهو على هذا متصل ولا نسخ فيه إذ لا موادعة فيه وهذا بعيد لأن السورة مكية والموادعة بمكة ثابتة إن إلينا إيابهم أي رجعوهم والآية تهديد
سورة الفجر
والفجر
أقسم الله تعالى بالفجر وهو الطالع كل يوم كما أقسم بالصبح وقيل أراد صلاة الفجر وقيل أراد النهار كله وقيل فجر يوم الجمعة وقيل فجر يوم النحر وقيل فجر ذي الحجة ولا دليل على هذه التخصيصات وقيل أراد انفجار العيون من الحجارة وهذا بعيد والأول أظهر وأشهر وليال عشر هي عشر ذي الحجة عند الجمهور وقيل العشر الأول من المحرم وفيها عاشوراء وقيل العشر الأواخر من رمضان وقيل العشر الأول منه والشفع والوتر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة وروى عنه

عليه الصلاة والسلام أنها الصلوات منها شفع ووتر وقيل الشفع التنفل بالصلاة مثنى مثنى والوتر الركعة الواحدة المعروفة وقيل الشفع العالم والوتر الله لأنه واحد وقيل الشفع آدم وحواء والوتر الله تعالى وقيل الشفع الصفا والمروة والوتر البيت الحرام وقيل الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية والوتر أبواب النار لأنها سبعة وقيل الشفع قران الحج والوتر إفراده وقيل المراد الأعداد منها شفع ووتر فهذه عشرة أقوال وقرئ الوتر بفتح الواو وكسرها وهما لغتان والليل إذا يسر أي إذا يذهب فهو كقوله والليل إذ أدبر وقيل أراد يسرى فيه فهو على هذا كقولهم ليلة ... 790

(3/318)

---

197 قائم والمراد على هذا ليلة جمع لأنها التي يسرى فيها والأول أشهر وأظهر هل في ذلك قسم لذي حجر هذا توقيف يراد به تعظيم الأشياء التي أقسم بها والحجر هنا هو العقل كأنه يقول إن هذا لقسم عظيم عند ذوى العقول وجواب القسم محذوف وهو ليأخذن الله الكفار ويدل على ذلك ما ذكره بعده من أخذ عاد وثمود وفرعون إرم هي قبيلة عاد سميت باسم أحد أجدادها كما يقال هاشم لبني هاشم وإعرابه بدل من عاد أو عطف بيان وفائدته أن المراد عاد الأولى فإن عادا الثانية لا يسمون بهذا الاسم وقيل إرم اسم مدينتهم فهو على حذف مضاف تقديره بعاد عاد إرم ويدل على هذا قراءة ابن الزبير بعاد إرم على الإضافة من غير تنوين عاد وامتنع إرم من الصرف على القولين للتعريف والتأنيث ذات العماد من قال إرم قبيلة قال العماد أعمدة بنيانهم أو أعمدة بيوتهم من الشعر لأنهم كانوا أهل عمود وقال ابن عباس ذلك كناية عن طول أبدانهم ومن قال إرم مدينة فالعماد الحجارة التي بنيت بها وقيل القصور والأبراج التي لم يخلق مثلها في البلاد صفة للقبيلة لأنهم كانوا أعظم الناس أجساما يقال كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع أو صفة للمدينة وهذا أظهر لقوله في البلاد ولأنها كانت أحسن مدائن الدنيا وروى أنها بناها شداد بن عاد في ثلاثمائة عام وكان عمره تسعمائة عام وجعل قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أنواع الشجر والأنهار الجارية وروى أنه سمع ذكر الجنة فأراد أن يعمل مثلها فلما أتمها وسار إليها بأهل مملكته أهلكهم الله بصيحة وكانت هذه المدينة باليمن وروى أن بعض المسلمين مر بها في خلافة معاوية وقيل هي دمشق وقيل الإسكندرية وهذا ضعيف جابوا الصخر بالواد أي نقبوه ونحتوا فيه بيوتا والوادي ما بين الجبلين وإن لم يكن فيها ماء وقيل أراد وادي القرى وفرعون ذي الأوتاد ذكر في سورة داود الذين طغوا في البلاد صفة لعاد وتمود وفرعون

(3/319)

ويجوز أن يكون منصوبا على الذم أو خبر ابتداء مضمر
فصب عليهم ربك سوط عذاب استعارة السوط للعذاب لأنه يقتضي من

التكرار مالا يقتضيه السيف وغيره قاله ابن عطية وقال الزمخشري ذكر السوط إشارة إلى عذاب الدنيا إذ هو أهون من عذاب الآخرة كما أن السوط أهون من القتل إن ربك لبالمرصاد عبارة عن أنه تعالى حاضر بعلمه في كل مكان وكل زمان ورقيب على كل إنسان وأنه لا يفوته أحد من الجبابرة والكفار وفي ذلك تهديد لكفار قريش وغيرهم والمرصاد المكان الذي يترقب فيه االرصد فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه الابتلاء هو الاختبار واختبار الله لعبده لتقوم الحجة على العبد بما يبدو منه وقد كان الله عالما بذلك قبل كونه والإنسان هنا جنس وقيل نزلت في عتبة بن ربيعة وهي مع ذلك على العموم فيمن كان على هذه الصفة وذكر الله في هذه الآية ابتلاءه للإنسان بالخير ثم ذكر بعده ابتلاءه بالشر كما قال في ونبلوكم بالشر والخير وأنكر عليه قوله حين الخير ربي أكرمن وقوله حين الشر ... 791

(3/320)

---

198 ربي أهانني ويتعلق بالآية سؤالان السؤال الأول لم أنكر الله على الإنسان قوله ربي أكرمني وربي أهاني والجواب من وجهين أحدهما أن الإنسان يقول ربي أكرمني على وجه الفخر بذلك والكبر لا على وجه الشكر ويقول ربي أهانني على وجه التشكى من الله وقلة الصبر والتسليم لقضاء الله فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك فإن الواجب عليه أن يشكر على الخير ويصبر على الشر والآخر أن الإنسان اعتبر الدنيا فجعل بسط الرزق فيها كرامة وتضييقه إهانة وليس الأمر كذلك فإن الله قد يبسط الرزق لأعدائه ويضيقه على أوليائه فأنكر الله عليه اعتبار الدنيا والغفلة عن الآخرة وهذا الإنكار من هذا الوجه على المؤمن وأما الكافر فإنما اعتبر الدنيا لأنه لا يصدق بالآخرة ويرى أن الدنيا هي الغاية فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك السؤال الثاني إن قيل قد قال الله فأكرمه فأثبت إكرامه فكيف أنكر عليه قوله ربي أكرمني فالجواب من ثلاثة أوجه الأول أنه لم ينكر عليه ذكره للإكرام وإنما أنكر عليه ما يدل عليه كلامه من الفخر وقلة الشكر أو من اعتبار الدنيا دون الآخرة حسبما ذكرنا في معنى الإنكار الثاني أنه أنكر عليه قوله ربي أكرمني إذا اعتقد أن إكرام الله له باستحقاقه للإكرام على وجه التفضل والانعام كقول قارون إنما أوتيته على علم عندي الثالث أن الإنكار إنما هو لقوله ربي أهاني لا لقوله ربي أكرمني فإن قوله ربي أكرمني اعتراف بنعمة الله وقوله ربي أهانني شكاية من فعل الله فقدر عليه رزقه أي ضيقه وقرئ بتشديد الدال وتخفيفها بمعنى واحد وفي التشديد مبالغة وقيل معنى التشديد جعله على قدر معلوم كلا زجر عما أنكر من قول الإنسان
بل لا تكرمون اليتيم هذا ذم لما ذكر من الأعمال القبيحة ومعنى هذا الاضراب بل كأنه أنكر على الإنسان ما تقدم ثم قال بل تفعلون ما هو شر من ذلك وهو ألا تكرموا اليتيم وما ذكر بعده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب البيوت

(3/321)

إلى الله بيت فيه يتيم مكرم ولا تحضون على طعام المسكين الحض على الأمر هو الترغيب فيه ومن لا يحض غيره على أمر فلا يفعله هو كأنه ذم لترك طعام المسكين والطعام هنا بمعنى الإطعام وقيل هو على حذف مضاف تقديره لا تحضون على بذل طعام المسكين وقرئ تحاضون بفتح الحاء وألف بعدها بمعنى لا يحض بعضكم بعضا وتأكلون التراث أكلا لما التراث هو ما يورث عن الميت من المال والتاء فيه بدل من الواو واللم الجمع واللف والتقدير أكلا ذا لم وهو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره لأن العرب كانوا لا يعطون من الميراث أنثى ولا صغيرا بل ينفرد به الرجال وتحبون المال حباجما أي شديدا كثيرا وهذا ذم للحرص على المال وشدة الرغبة فيه دكت الأرض أي سويت جبالها دكا دكا أي دكا بعد دك كما تقول تعلمت العلم بابا بابا وجاء ربك تأويله عند المتأولين جاء أمره وسلطانه وقال المنذر بن سعيد معناه ظهوره للخلق هنالك وهذه الآية وأمثالها من المشكلات التي يجب الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل والملك هو اسم جنس فإنه روى أن الملائكة كلهم يكونون صفوفا حول الأرض صفا صفا أي صفا بعد صف قد أحدقوا بالجن والإنس وجئ يومئذ بجهنم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى يومئذ بجهنم معها سبعون ألف زمام مع كل زمام ... 792

---

199 سبعون ألف ملك يجرونها يؤمئذ يتذكر الإنسان يومئذ بدل من إذا دكت ويتذكر هو العامل وهو جواب إذا دكت والمعنى أن الانسان يتذكر يوم القيامة لأعماله في الدنيا ويندم على تفريطه وعصيانه والإنسان هنا جنس وقيل يعني عتبة بن ربيعة وقيل أمية بن خلف وأنى له الذكرى هذا على حذف تقديره أنى له الانتفاع بالذكرى كما تقول ندم حين لم تنفعه الندامة يقول يا ليتني قدمت لحياتي فيه وجهان أحدهما أنه يريد الحياة في الآخرة فالمعنى يا ليتني قدمت عملا صالحا للآخرة والآخر أنه يريد الحياة الدنيا فالمعنى يا ليتني قدمت عملا صالحا وقت حياتي فاللام على هذا كقوله كتبت لعشر من الشهر فيومئذ لا يعذب عذابه أحد من قرأ بكسر الذال من يعذب والثاء من يوثق فالضمير في عذابه ووثاقه لله تعالى والمعنى أن الله يتولى عذاب الكفار ولا يكله إلى أحد ومن قرأ بالفتح فالضمير للإنسان أي لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق أحد مثل وثاقه وهذه قراءة الكسائي وروى أن أبا عمر ورجع إليها وهي قراءة حسنة وقد رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيتها النفس المطمئنة أي الموقنة يقينا قد اطمأنت به بحيث لا يتطرق إليها شك في الإيمان وقيل المطمئنة التي لا تخاف حينئذ ويؤيد هذا قراءة أبي بن كعب يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة ارجعي إلى ربك هذا الخطاب والنداء يكون عند الموت وقيل عند البعث وقيل عند انصراف الناس إلى الجنة أو النار والأول أرجح لما روى أن أبا بكر سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له يا أبا بكر إن الملك سيقولها لك عند موتك راضية معناه راضية بما أعطاها الله أو راضية عن الله ومعنى المرضية مرضية عند الله أو أرضاها الله بما أعطاها فادخلي في عبادي أي ادخلي في جملة عبادي الصالحين وقرئ فادخلي في عبدي بالتوحيد معناه ادخلي في جسده وهو خطاب للنفس ونزلت هذه الآية في حمزة وقيل في خبيب بن عدي الذي صلبه

الكفار بمكة ولفظها يعم كل نفس مطمئنة
سورة البلد
لا أقسم بهذا البلد أراد مكة باتفاق وأقسم بها تشريفا لها ولا زائدة وأنت حل بهذا البلد هذه جملة اعتراض بين القسم وما بعده وفي معناها ثلاثة أقوال أحدها أن المعنى أنت حال بهذا البلد أي ساكن لأن السورة نزلت والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة والآخر أن معنى حل تستحل حرمتك ويؤذيك الكفار مع أن مكة لا يحل فيها قتل صيد ولا بشر ولا قطع شجر وعلى هذا قيل لا أقسم يعني لا أقسم بهذا البلد وأنت تلحقك فيه إذاية الثالث أن معنى حل حلال يجوز لك في هذا البلد ما شئت من قتلك الكفار وغير ... 793

200 ذلك مما لا يجوز لغيرك وهذا هو الأظهر لقوله صلى الله عليه وسلم إن هذا البلد حرام حرمه الله يوم خلق السموات والأرض لم يحل لأحد قبلي ولا يحل لآحد بعدي وإنما أحل لي ساعة من نهار يعني يوم فتح مكة وفي ذلك اليوم أمر عليه الصلاة والسلام بقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة فإن قيل إن السورة مكية وفتح مكة كان عام ثمانية من الهجرة فالجواب أن هذا وعد بفتح مكة كما تقول لمن تعده بالكرامة أنت مكرم يعني فيما يستقبل وقيل إن السورة على هذا مدنية نزلت يوم الفتح وهذا ضعيف ووالد وما ولد فيه خمسة أقوال أحدها أنه أراد آدم وجميع ولده الثاني نوح وولده الثالث إبراهيم وولده الرابع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وولده الخامس جنس كل والد ومولود وإنما قال وما ولد ولم يقل ومن ولد إشارة إلى تعظيم المولود كقوله والله أعلم بما وضعت قاله الزمخشري لقد خلقنا الإنسان في كبد أي يكابد المشقات من هموم الدنيا والآخرة قال بعضهم لا يكابد أحد من المخلوقات ما يكابد ابن آدم وأصل الكبد من قولك كبد الرجل فهو أكبد إذا وجعت كبده وقيل معنى في كبد واقفا منتصب القامة وهذا ضعيف والإنسان على هذين القولين جنس وقيل الإنسان آدم عليه السلام ومعنى في كبد على هذا في السماء وهذا ضعيف والأول هو الصحيح
أيحسب أن لن يقدر عليه أحد
فيه قولان أحدهما أن معناه أيظن أن لن يقدر أحد على بعثه وجزائه والآخر أيظن أن لن يقدر أحد أن يغلبه فعلى الأول نزلت في جنس الإنسان الكافر وعلى الثاني نزلت في رجل معين وهو أبو الأشد رجل من قريش كان شديد القوة وقيل عمرو بن عبد ود وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة وقتله على بن أبي طالب يقول أهلكت مالا لبدا أي كثيرا وقرئ لبدا بضم اللام وكسرها وهو جمع لبدة بالضم والكسر بمعنى الكثرة ونزلت الآية عند قوم في الوليد بن المغيرة فإنه أنفق مالا في إفساد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل في الحرث بن

عامر بن نوفل وكان قد أسلم وأنفق في الصدقات والكفارات فقال لقد أهلكت مالي منذ تبعت محمد أيحسب أن لم يره أحد يحتمل أن يكون هذا تكذيبا له في قوله أهلكت مالا لبدا أو إشارة إلى أنه أنفقه رياء وهديناه النجدين أي طريقي الخير والشر فهو كقوله إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا وليس الهدى هنا بمعنى الإرشاد وقيل يعني ثديي الأم فلا اقتحم العقبة الاقتحام الدخول بشدة ومشقة والعقبة عبارة عن الأعمال الصالحة المذكورة بعد وجعلها عقبة استعارة من عقبة الجبل لأنها تصعب ويشق صعودها على النفوس وقيل هو جبل في جهنم له عقبة لا يجاوزها إلا من عمل هذه الأعمال ولا هنا تخصيص بمعنى هلا وقيل هي دعاء وقيل هي نافية واعترض هذا القول بأن لا النافية إذا دخلت على الفعل الماضي لزم تكرارها وأجاب الزمخشري بأنها مكررة في المعنى والتقدير فلا اقتحم العقبة ولا فك رقبة ولا أطعم مسكينا وقال الزجاج قوله ثم كان من الذين آمنوا يدل على التكرار لأن التقدير فلا اقتحم العقبة ولا آمن وما أدراك ما العقبة تعظيم للعقبة ثم فسرها بفك الرقبة وهو اعتاقها وبالإطعام وقرئ فك رقبة بضم الكاف وخفض الرقبة وهو على هذا تفسير للعقبة وبفتح الكاف ونصب الرقبة وهو تفسير لا قتحم وفك الرقبة هو عتقها قال ... 794

201 رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضوا منه من النار وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم دلني على عمل أنجو به فقال فك الرقبة وأعتق النسمة فقال الأعرابي ليس هذا واحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا إعتاق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها وأما فك أساري المسلمين من أيدي الكافرين فإنه أعظم أجرا من العتق لأنه واجب ولو استغرقت فيه أموال المسلمين ولكنه لا يجري في الكفارات عن عتق رقبة أو إطعام من قرأ فك بالرفع قرأ إطعام بالعطف مصدر على مصدر ومن قرأ فك بالفتح قرأ إطعام بفتح االهمزة والميم فعطف فعلا على فعل في يوم ذي مسغبة أي مجاعة يقال سغب الرجل إذا جاع يتيما ذا مقربة أي ذا قرابة ففيه أجر إطعام اليتيم وصلة الرحم أو مسكينا ذا متربة أي ذا حاجة يقال ترب الرجل إذا افتقر وهو مأخوذ من الصدقة بالتراب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه الذي مأواه المزابل ثم كان من الذين آمنوا ثم هنا للتراخي في الرتبة لا في الزمان وفيها إشارة إلى أن الإيمان أعلى من العتق والإطعام ولا يصح أن يكون للترتيب في الزمان لأنه لا يلزم أن يكون الإيمان بعد العتق والإطعام ولا يقبل عمل إلا من مؤمن وتواصوا بالصبر أي وصى بعضهم بعضا بالصبر على قضاء الله وكأن هذا إشارة إلى صبر المسلمين بمكة على إذاية الكفار وتواصوا بالمرحمة أي وصى بعضهم بعضا برحمة المساكين وغيرهم وقيل الرحمة كل ما يؤدى إلى رحمة الله الميمنة جهة اليمين و المشأمة جهة الشمال وروى أن الميمنة عن يمين االعرش ويحتمل أن يكونا من اليمن والشؤم نار مؤصدة أي مطبقة مغلقة يقال أوصدت الباب إذا أغلقته وفيه لغتان الهمزة وترك الهمزة

سورة الشمس
والشمس وضحاها الضحى ارتفاع الضوء وكماله والضحاء بالفتح والمد بعد ذلك إلى الزوال وقيل الضحى النهار كله والأول هو

(3/327)

المعروف في اللغة والقمر إذا تلاها أي تبعها وفي اتباعه لها ثلاثة أقوال أحدها أنه يتبعها في كثرة الضوء لأنه أضوء الكواكب بعد الشمس ولا سيما ليلة البدر والآخر أنه يتبعها في طلوعه لأنه يطلع بعد غروبها وذلك في النصف الأول من الشهر والضمير الفاعل للنهار لأن الشمس تنجلي بالنهار فكأنه هو الذي جلاها وقيل الضمير الفاعل لله وقيل الضمير المفعول للظلمة أو الأرض أو الدنيا وهذا كله بعيد لأنه لم يتقدم ما يعود الضمير عليه والليل إذا يغشاها أي يغطيها وضمير المفعول للشمس وضمير الفاعل لليل ... 795

(3/328)

---

202 على الأصح
والسماء وما بناها قيل إن ما في قوله وما بناها وما طحاها وما سواها موصولة بمعنى من والمراد الله تعالى وقيل إنها مصدرية كأنه قال والسماء وبنيانها وضعف الزمخشري ذلك بقوله فألهمها فإن المراد الله باتفاق وهذا القول يؤدي إلى فساد النظم وضعف بعضهم كونها موصولة بتقديم ذكر المخلوقات على الخالق فإن قيل لم عدل عن من إلى قوله ما في قول من جعلها موصولة فالجواب أنه فعل ذلك لإرادة الوصفية كأنه قال والقادر الذي بناها طحاها أي مدها ونفس وما سواها تسوية النفس إكمال عقلها وفهمها فإن قيل لم نكر النفس فالجواب من وجهين أحدهما أنه أراد الجنس كقوله علمت نفس ما أحضرت والآخر أنه أراد نفس آدم والأول هو المختار فألهمها فجورها وتقواها أي عرفها طريق الفجور والتقوى وجعل لها قوة يصح معها اكتساب أحد الأمرين ويحتمل أن تكون الواو بمعنى أو كقوله إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا قد أفلح من زكاها هذا جواب القسم عند الجمهور وقال الزمخشري الجواب محذوف تقديره ليد مد من الله على أهل مكة لتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم كما دمدم على قوم ثمود لتكذيبهم صالحا عليه الصلاة والسلام قال وأما قد أفلح فكلام تابع لقوله فألهمها فجورها وتقواها على سبيل الاستطراد وهذا بعيد والفاعل بزكاها ضمير يعود على من والمعنى قد أفلح من زكى نفسه أي طهرها من الذنوب والعيوب وقيل الفاعل ضمير الله تعالى والأول أظهر وقد خاب من دساها أي حقرها بالكفر والمعاصي وأصله دسس بمعنى أخفى فكأنه أخفى نفسه لما حقرها وأبدل من السين الأخيرة حرف علة كقولهم قصيت أظفاري وأصله قصصت بطغواها هو مصدر بمعنى الطغيان قلبت فيه الياء واوا على لغة من يقول طغيت والباء االخافضة كقولك كتبت بالقلم أو سببية والمعنى بسبب طغيانها وقال ابن عباس معناه كذبت ثمود بعذابها ويؤيده قوله فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية إذ انبعث

أشقاها العامل في إذ كذبت أو طغواها ومعنى انبعث خرج لعقر الناقة بسرعة ونشاط وأشقاها هو الذي عقر الناقة وهو أحيمر ثمود واسمه قدار بن سالف ويحتمل أن يكون أشقاها واقعا على جماعة لأن أفعل التي للتفضيل إذا أضفته يستوي فيه الواحد والجمع والأول أظهر وأشهر فقال لهم رسول الله يعني صالحا عليه السلام ناقة الله وسقياها منصوب بفعل مضمر تقديره احفظوا ناقة الله أو احذروا ناقة الله وسقياها شربها من الماء فعقروها نسب العقر إلى جماعة لأنهم اتفقوا عليه وباشره واحد منهم فدمدم عبارة عن إنزال العذاب بهم وفيه تهويل بذنبهم أي بسبب ذنبهم وهو التكذيب أو عقر الناقة فسوآها قال ابن عطية معناه فسوى القبيلة في الهلاك لم يفلت أحد منهم وقال الزمخشري الضمير للدمدمة أي سواها بينهم ولا يخاف عقباها ضمير الفاعل لله تعالى والضمير في عقباها للدمدمة والتسوية وهو الهلاك أي لا يخاف عاقبة إهلاكهم ولا درك عليه في ذلك كما يخاف الملوك من عاقبة أعمالهم وفي ذلك احتقار لهم وقيل إن ضمير الفاعل لصالح وهذا بعيد وقرئ فلا يخاف بالفاء وبالواو وقيل في القراءة بالواو أن الفاعل أشقاها والجملة في موضع الحال أي انبعث ولم يخف عقبى فعلته وهذا بعيد ... 796

203 سورة الليل
والليل إذا يغشى أي يغطي وحذف المفعول وهو الشمس لقوله والليل إذا يغشاها أو النهار لقوله يغشى الليل النهار أو كل شئ يستره الليل والنهار إذا تجلى أي ظهر وتبين والنهار من طلوع الشمس واليوم من طلوع الفجر وما خلق الذكر والأنثى ما بمعنى من والمراد بها الله تعالى وعدل عن من لقصد الوصف كأنه قال والقادر الذي خلق الذكر والأنثى وقيل هي مصدرية وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ والذكر والأنثى إن سعيكم لشتى هذا جواب القسم ومعناه إن عملكم مختلف فمنه حسنات ومنه سيئات وشتى جمع شتيت فأما من أعطى أي أعطى ماله في الزكاة والصدقة وشبه ذلك أو أعطى حقوق الله من طاعته في جميع الأشياء واتقى الله وصدق بالحسنى أي بالخصلة الحسنة وهي الاسلام ولذلك عبر عنها بعضهم بأنها لا إله إلا الله أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة وقيل يعني الأجر والثواب على الاطلاق وقيل يعني الخلف على المنفق فسنيسره لليسرى أي نهيؤه للطريقة اليسرى وهي فعل الخيرات وترك السيئات وضد ذلك تيسيره للعسرى ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اعملوا فكل ميسر لما خلق له أي يهيؤه الله لما قدر له ويسهل عليه فعل الخير أو الشر وأما من بخل واستغنى أي بخل بماله أو بطاعة الله على الإطلاق فيحتمل الوجهين لأنه في مقابلة أعطى كما أن استغنى في مقابلة اتقى وكذلك كذب بالحسنى في مقابلة صدق بالحسنى ونيسره للعسرى في مقابلة نيسره لليسرى ومعنى استغنى استغنى عن الله فلم يطعه واستغنى بالدنيا عن الآخرة ونزلت آية المدح في أبي بكر الصديق لأنه أنفق

ماله في مرضات الله وكان يشتري من أسلم من العبيد فيعتقهم وقيل نزلت في أبي الدحداح وهذا ضعيف لأنها مكية وإنما أسلم أبو الدحداح بالمدينة وقيل إن آية الذم نزلت في أبي سفيان بن حرب وهذا ضعيف لقوله فسنيسره للعسرى وقد أسلم أبو سفيان بعد ذلك وما يغني عنه ماله إذا تردى هذا

(3/331)

نفي أو استفهام بمعنى الإنكار واختلف في معنى تردى على أربعة أقوال الأول تردى أي هلك فهو مشتق من الردي وهو الموت أو تردى أي سقط في القبر أو سقط في جهنم أو تردى بأكفانه من الرداء إن علينا للهدى أي بيان الخير والشر وليس المراد الارشاد عند الأشعرية خلافا للمعتزلة
فأنذرتكم نارا تلظى خطاب من الله أو من النبي صلى الله عليه وسلم على تقدير قل لا يصلاها إلا الأشقى استدل المرجئةبهذه الآية على أن النار لا يدخلها إلا الكفار لقوله الذي كذب وتولى وتأولها الناس بثلاثة أوجه أحدها أن المعنى لا يصلاها صلى خلود إلا الأشقى والأخر أنه أراد نارا مخصوصة الثالث أنه أراد بالأشقى كافرا معينا وهو أبو جهل وأمية ... 797

(3/332)

---

204 ابن خلف وقابل به الأتقى وهو أبو بكر الصديق فخرج الكلام مخرج المدح والذم على الخصوص لا مخرج الإخبار على العموم يتزكى من أداء الزكاة أو من الزكاة أي يصير زكيا عند الله أو يتطهر من ذنوبه وهذا الفعل بدل من يؤتى ماله أو حال من الضمير وما لأحد عنده من نعمة تجزى أي لا يفعل الخير جزاء على نعمة أنعم بها عليه أحد فيما تقدم بل يفعله ابتداء خالصا لوجه الله وقيل المعنى لا يقصد جزاء من أحد في المستقبل على ما يفعل والأول أظهر ويؤيده ما روى أن سبب الآية أن أبا بكر الصديق لما أعتق بلالا قالت قريش كان لبلال عنده يد متقدمة فنفى الله قولهم إلا ابتغاء وجه ربه استثناء منقطع ولسوف يرضى وعد بأن يرضيه الله في الآخرة
سورة والضحى
والضحى ذكر في الشمس وضحاها والليل إذا سجى فيه أربعة أقوال
إذا أقبل وإذا أدبر وإذا أظلم وإذا سكن أي استقر واستوى أو سكن فيه الناس والأصوات ومنه ليلة ساجية إذا كانت ساكنة الريح وطرف ساج أي ساكن غير مضطرب النظر وهذا أقرب في الاشتقاق وهو اختيار ابن عطية ما ودعك ربك وما قلى بتشديد الدال من الوداع وقرئ بتخفيفها بمعنى ما تركك والوداع مبالغة في الترك وما قلى أي ما أبغضبك وحذف ضمير المفعول من قلى وآوى وهدى وأغنى اختصارا لظهور المعنى ولموافقة رؤس الآي وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوحي فقالت قريش إن محمدا ودعه ربه وقلاه فنزلت الآية تكذيبا لهم وقيل رمى علية الصلاة والسلام بحجر في أصبعه فدميت فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم فقالت امرأة ما أرى شيطان محمد إلا قد تركه فنزلت الآية ولا الآخرة خير لك من الأولى أي الدار الآخرة خير لك من الدنيا قال ابن عطية ويحتمل أن يريد بالآخرة حاله بعد نزول هذه

السورة ويريد بالأولى حاله قبل نزولها وهذا بعيد والأول أظهر وأشهر ولسوف يعطيك ربك فترضى روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال

لما نزلت إذا لا أرضى أن يبقى واحد من أمتي في النار قال بعضهم هذه أرجى آية في القرآن وقال ابن عباس رضاه أن الله وعده بألف قصر في الجنة بما يحتاج إليه من النعم والخدم وقيل رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره والصحيح أنه وعد يعم كل ما أعطاه الله في الآخرة وكل ما أعطاه في الدنيا من النصر والفتوح وكثرة المسلمين وغير ذلك
ألم يجدك يتيما فآوى عدد الله نعمه عليه فيما مضى من عمره ليقيس عليه ما يستقبل فتطيب نفسه ويقوى رجاءه ووجد في هذه المواضع تتعدى إلى مفعولين وهي بمعنى علم فالمعنى ألم تكن يتيما فآواك وذلك أن والده عليه السلام توفى وتركه في بطن أمه ثم ماتت أمه وهو ابن خمسة أعوام وقيل ثمانية فكفله جده عبد المطلب ثم مات وتركه ابن اثني عشر عاما فكفله عمه أبو طالب وقيل لجعفر الصادق لم نشأ النبي صلى الله عليه وسلم يتيما فقال لئلا يكون عليه حق ... 798

---

205 لمخلوق
ووجدك ضالا فهدى فيه ستة أقوال أحدها وجدك ضالا عن معرفة الشريعة فهداك إليها فالضلال عبارة عن التوقيف في أمر الدين حتى جاءه الحق من عند الله فهو كقوله ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان وهذا هو الأظهر وهو الذي اختاره ابن عطية وغيره ومعناه أنه لم يكن يعرف تفصيل الشريعة وفروعها حتى بعثه الله ولكنه ما كفر بالله ولا أشرك به لأنه كان معصوما من ذلك قبل النبوة وبعدها والثاني وجدك في قوم ضلال فكأنك واحد منهم وإن لم تكن تعبد ما يعبدون وهذا قريب من الأول والثالث وجدك ضالا عن الهجرة فهداك إليها وهذا ضعيف لأن السورة نزلت قبل الهجرة الرابع وجدك خامل الذكر لا تعرف فهدى الناس إليك وهداهم بك وهذا بعيد عن المعنى المقصود الخامس أنه من الضلال عن الطريق وذلك أنه صلى الله عليه وسلم ضل في بعض شعب مكة وهو صغير فرده الله إلى جده وقيل بل ضل من مرضعته حليمة فرده الله إليها وقيل بل ضل في طريق الشام حين خرج إليها مع أبي طالب السادس أنه بمعنى الضلال من المحبة أي وجدك محبا لله فهداك إليه ومنه قول إخوة يوسف لأبيهم تالله إنك لفي ضلالك القديم أي محبتك ليوسف وبهذا كان يقول شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير ووجدك عائلا فأغنى العائل الفقير يقال عال الرجل فهو عائل إذا كان محتاجا وأعال فهو معيل إذا كثر عياله وهذا الفقر والغنى هو في المال وغناؤه صلى الله عليه وسلم هو أن أعطاه الله الكفاف وقيل هو رضاه بما أعطاه الله وقيل المعنى وجدك فقيرا إليه فأغناك به فأما اليتيم فلا تقهر أي لا تغلبه على ماله وحقه لأجل ضعفه أو لا تقهره بالمنع من مصالحه ووجوه القهر كثيرة والنهي يعم جميعها وأما السائل

فلا تنهر النهر هو الانتهار والزجر والنهي عنه أمر بالقول الحسن والدعاء للسائل كما قال تعالى فقل لهم قولا ميسورا ويحتمل السائل أن يريد به سائل الطعام والمال وهذا هو الأظهر والسائل عن العلم

(3/335)

والدين وفي قوله تقهر وتنهر لزوم مالايلزم من التزام الهاء قبل الراء وأما بنعمة ربك فحدث قيل معناه بث القرآن وبلغ الرسالة والصحيح أنه عموم في جميع النعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التحدث بالنعم شكر ولذلك كان بعض السلف يقول لقد أعطاني الله كذا ولقد صليت البارحة كذا وهذا إنما يجوز إذا كان على وجه الشكر أو ليقتدي به فأما على وجه الفخر والرياء فلا يجوز وانظر كيف ذكر الله في هذه السورة ثلاث نعم ثم ذكر في مقابلتها ثلاث وصايا فقابل قوله ألم يجدك يتيما بقوله فأما اليتيم فلا تقهر وقابل قوله ووجدك ضالا بقوله وأما السائل فلا تنهر على قول من قال إنه السائل عن العلم وقابله بقوله وأما بنعمة ربك فحدث على القول الآخر وقابل قوله ووجدك عائلا فأغنى بقوله وأما السائل فلا تنهر على القول الأظهر وقابله بقوله وأما بنعمة ربك فحدث على القول الآخر

سورة ألم نشرح

ألم نشرح لك صدرك

هذا لصدره توقيف معناه إثبات شرح صدره صلى الله عليه وسلم وتعديد ما ذكر ... 799

(3/336)

---

206 بعده من النعم وشرح صدره صلى الله عليه وسلم هو اتساعه لتحصيل العلم وتنويره بالحكمة والمعرفة وقيل هو شق جبريل لصدره في صغره أو في وقت الإسراء حين أخرج قلبه وغسله ووضعنا عنك وزرك فيه ثلاثة أقوال الأول قول الجمهور أن الوزر الذنوب ووضعها هو غفرانها فهو كقوله ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وهذا على قول من جوز صغائر الذنوب على الأنبياء أو على أن ذنوبه كانت قبل النبوة الثاني أن الوزر هو أثقال النبوة وتكاليفها ووضعها على هذا هو إعانته عليها وتمهيد عذره بعد ما بلغ الرسالة الثالث أن الوزر هو تحيره قبل النبوة إذ كان يرى أن قومه على ضلال ولم يأته من الله أمر واضح فوضعه على هذا هو بالنبوة والهدى للشريعة الذي أنقض ظهرك عبارة عن ثقل الوزر االمذكور وشدته عليه قال الحارث المحاسبي إنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل وهي صغائر مغفورة لهم لهمهم بها وتحسرهم عليها فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله وهي خفيفة عند الله وهذا كما جاء في الأثر إن المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يقع عليه والمنافق يرى ذنوبه كالذبابة تطير فوق أنفه واشتقاق أنقض ظهرك من نقض البنيان وغيره أو من النقيض وهو الصوت فكأنه يسمع لظهره نقيض كنقيض ما يحمل عليه شئ ثقيل ورفعنا لك ذكرك أي نوهنا باسمك وجعلناه شهيرا في المشارق والمغارب وقيل معناه اقتران ذكره بذكر الله في الأذان والخطب والتشهد وفي مواضع من القرآن وقد روى

في هذا حديث أن الله قال له إذا ذكرت ذكرت معي فإن قيل لم قال لك ذكرك ولك صدرك مع أن المعنى مستقل دون ذلك فالجواب أن قوله لك يدل على الاعتناء به والاهتمام بأمره
فإن مع العسر يسرا هذا وعد لما يسر بعد العسر وإنما ذكره بلفظ مع التي تقتضي المقاربة ليدل على قرب اليسر من العسر فإن قيل ما وجه ارتباط هذا مع ما قبله فالجواب أنه صلى الله عليه وسلم كان بمكة هو وأصحابه في عسر من إذاية الكفار ومن ضيق الحال ووعده الله

(3/337)

باليسر وقد تقدم تعديد النعم تسلية وتأنيسا لتطيب نفسه ويقوى رجاؤه كأنه يقول إن الذي أنعم عليك بهذه النعم سينصرك ويظهرك ويبدل لك هذا العسر بيسر قريب ولذلك كرر إن مع االعسر يسرا مبالغة وقال صلى الله عليه وسلم لن يغلب عسر يسرين وقد روى ذلك عن عمر وابن مسعود وتأويله أن العسر االمذكور في هذه السورة واحد لأن الألف واللام للعهد كقولك جاءني رجل فأكرمت الرجل واليسر اثنان لتنكيره وقيل إن اليسر الأول في الدنيا والثاني في ا لآخرة فإذا فرغت فانصب هو من النصب بمعنى التعب والمعنى اذا فرغت من أمر فاجتهد في آخر ثم اختلف في تعيين الأمرين فقيل إذا فرغت من الفرائض فانصب في النوافل وقيل إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء وقيل إذا فرغت من شغل دنياك فانصب في عبادة ربك وإلى ربك فارغب قدم الجار والمجرور ليدل على الحصر أي لا ترغب إلا إلى ربك وحده
سورة التين
والتين والزيتون
فيها قولان الأول أنه التين الذي يؤكل والزيتون الذي يعصر أقسم الله بهما لفضيلتها ... 800

(3/338)

---

207 على سائر الثمار روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل مع أصحابه تينا فقال لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوه فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس وقال صلى الله عليه وسلم نعم السواك الزيتون فإنه من الشجرة المباركة هي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي القول الثاني أنهما موضعان ثم اختلف فيهما فقيل هما جبلان بالشام أحدهما بدمشق ينبت فيه التين والآخر بإيلياء ينبت فيه الزيتون فكأنه قال ومنابت التين والزيتون وقيل التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس وقيل التين مسجد نوح والزيتون مسجد إبراهيم والأظهر أنهما الموضعان من الشام وهما اللذان كان فيهما مولد عيسى ومسكنه وذلك أن الله ذكر بعد هذا الطور الذي كلم عليه موسى والبلد الذي بعث منه محمد صلى الله عليه وسلم فتكون الآية نظير ما في التوراة أن الله تعالى جاء من طور سيناء وطلع من ساعد وهو موضع عيسى وظهر من جبال باران وهي مكة وأقسم الله بهذه المواضع التي ذكر في التوراة لشرفها بالأنبياء المذكورين

وطور سينين هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى وهو بالشام وأضافه الله إلى سينين ومعنى سينين مبارك فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة وقيل معناه ذو الشجر واحدها سينه قاله الأخفش وقال الزمخشري ويجوز أن يعرب إعراب الجمع المذكر بالواو والياء وأن يلزم الياء وتحريك النون بحركات الإعراب
وهذا البلد الأمين هو مكة باتفاق والأمين من الأمانة أو من الأمن لقوله اجعل هذا بلدا آمنا لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم فيه قولان أحدهما أن أحسن التقويم هو حسن الصورة وكمال العقل والشباب والقوة وأسفل سافلين الضعف والهرم والخرف فهو كقوله تعالى ومن نعمره ننكسه في الخلق وقوله وجعل من بعد قوة ضعفا وشيبة وقوله إلا الذين آمنوا بعد هذا غير متصل بما قبله والاستثناء على هذا القول منقطع بمعنى لكن لأنه خارج عن معنى الكلام الأول والآخر أن

حسن التقويم الفطرة على الإيمان وأسفل سافلين الكفر أو تشويه الصورة في النار والاستثناء على هذا متصل لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يردوا أسفل سافلين غير ممنون قد ذكر فما يكذبك بعد بالدين فيه قولان أحدهما أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والدين شريعته والمعنى أي شئ يكذبك بالدين بعد هذه الدلائل التي تشهد بصحة نبوتك والآخر أنه خطاب للإنسان الكافر والدين على هذا الشريعة أو الجزاء الأخروى ومعنى يكذبك على هذا يجعلك كاذبا لأن من أنكر الحق فهو كاذب والمعنى أي شئ يجعلك كاذبا بسبب كفرك بالدين بعد أن علمت أن الله خلقك في أحسن تقويم ثم ردك أسفل سافلين ولا شك أنه يقدر على بعثك كما قدر على هذا فلأى شئ تكذب بالبعث والجزاء أليس الله بأحكم الحاكمين تقرير ووعيد للكفار بأن يحكم عليهم بما يستحقون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأها بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ... 801

---

208 سورة العلق
(نزل صدرها بغار حراء وهو أول ما نزل من القرآن حسبما ورد عن عائشة في الحديث الذي ذكرناه في أول الكتاب اقرأ باسم ربك فيه وجهان أحدهما أن معناه اقرأ القرآن مفتتحا باسم ربك أو متبركا باسم ربك وموضع باسم ربك نصب على الحال ولذا كان تقديره مفتتحا فيحتمل أن يريد ابتدإ القراءة بقول بسم الله الرحمن الرحيم أو يريد الابتداء باسم الله مطلقا والوجه الثاني أن معناه اقرأ هذا اللفظ وهو باسم ربك الذي خلق فيكون باسم ربك مفعولا وهو المقروء الذي خلق حذف المفعول لقصد العموم كأنه قال الذي خلق كل شئ ثم خصص خلقة الإنسان لما فيه من العجائب والعبر ويحتمل أنه أراد الذي خلق الإنسان كما قال الرحمن علم القرآن خلق الإنسان ثم فسره بقوله خلق الإنسان من علق والعلق جمع علقة وهي النطفة من الدم والمراد بالإنسان هنا

جنس بني آدم ولذلك جمع العلق لما أراد الجماعة بخلاف قوله فإنا خلقناكم من نطفة ثم من علقة لأنه أراد كل واحد على حدته ولم يدخل آدم في الإنسان هنا لأنه لم يخلق من علقة وإنما خلق من طين اقرأ وربك الأكرم كرر الأمر بالقراءة تأكيدا والواو للحال والمقصود تأنيس النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يقول افعل ما أمرت به فإن ربك كريم وصيغة أفعل للمبالغة الذي علم بالقلم هذا تفسير للأكرم فدل على أن نعمة التعليم أكبر نعمة وخص من التعليمات الكتابة بالقلم لما فيها من تخليد العلوم ومصالح الدين والدنيا وقرأ ابن الزبير علم الخط بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم يحتمل أن يريد بهذا التعليم الكتابة لأن الإنسان لم يكن يعلمها في أول أمره أو يريد التعليم لكل شئ على الإطلاق وقيل إن الإنسان هنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والأظهر أنه جنس الإنسان على العموم كلا إن الإنسان ليطغى نزل هذا وما بعده إلى آخر السورة في أبى جهل بعد نزول صدرها بمدة وذلك أنه كان يطغى بكثرة ماله ويبالغ

في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وكلا هنا يحتمل أن تكون زجرا لأبي جهل أو بمعنى حقا أو استفتاحا أن رآه استغنى في موضع المفعول من أجله أي يطغى من أجل غناه والرؤية هنا بمعنى العلم بدليل إعمال الفعل في الضمير ولا يكون ذلك إلا في إفعال القلوب والمعنى رأى نفسه استغنى واستغنى هو المفعول الثاني
إن إلى ربك الرجعى هذا تهديد لأبي جهل وأمثاله أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى اتفق المفسرون أن العبد الذي صلى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن الذي نهاه أبو جهل لعنه الله وسبب الآية أن أبا جهل جاء إلي النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في المسجد الحرام فهم بأن يصل إليه ويمنعه من الصلاة وروى أنه قال لئن رأيته يصلى لأطأن عنقه فجاءه وهو يصلي ثم انصرف عنه مرعوبا ... 802

---

209 فقيل له ما هذا فقال لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار وهول وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرأيت في الموضع الذي قبله والذي بعده بمعنى أخبرني فكأنه سؤال يفتقر إلى جواب وفيها معنى التعجيب والتوقيف والخطاب فيها يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل مخاطب من غير تعيين وهي تتعدى إلى مفعولين وجاءت بعدها إن الشرطية في موضعين وهما قوله إن كان على الهدى وقوله إن كذب وتولى فيحتاج إلى الكلام في مفعول أرأيت في المواضع الثلاثة وفي جواب الشرطين وفي الضمائر المتصلة بهذه الأفعال وهي إن كان على الهدى وأمر بالتقوى وكذب وتولى على من تعود هذه الضمائر فقال الزمخشري إن قوله الذي ينهى هو المفعول الأول لقوله أرأيت الأولى وأن الجملة الشرطية بعد ذلك في موضع المفعول الثاني وكررت أرأيت بعد ذلك للتأكيد فهي زائدة لا تحتاج إلى مفعول

وإن قوله ألم يعلم بأن الله يرى هو جواب قوله إن كذب وتولى فهو في المعنى جواب للشرطين معا وأن الضمير في قوله إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى الذي نهى عن الصلاة وهو أبو جهل وكذلك الضمير في قوله إن كذب وتولى وتقدير الكلام على هذا أخبرني عن الذي ينهى عبدا إذا صلى إن كان هذا الناهي على الهدى أو كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى جميع أحواله من هداه وضلاله وتكذيبه ونهيه عن الصلاة وغير ذلك فمقصود الآية تهديد له وزجر وإعلام بأن الله يراه وخالفه ابن عطية في الضمائر فقال إن الضمير في قوله إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى للعبد الذي صلى وأن الضمير في قوله إن كذب وتولى للذي نهى عن الصلاة وخالفه أيضا في جعله أرأيت الثانية مكررة للتأكيد وقال إنها في المواضع الثلاثة توقيف وأن جوابه في المواضع الثلاثة قوله ألم يعلم بأن الله يرى فإنه يصلح مع كل واحد منها ولكنه جاء في آخر الكلام اختصارا

وخالفهما أيضا الغزنوى في الجواب فقال إن جواب قوله إن كان على الهدى محذوف فقال إن تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أليس هو على الحق واتباعه واجب والضمير على هذا يعود على العبد الذي صلى وفاقا لابن عطية لئن لم ينته لنسفعا بالناصية أو عد أبا جهل إن لم ينته عن كفره وطغيانه أن يؤخذ بناصيته فيلقى في النار والناصية مقدم الرأس فهو كقوله فيؤخذ بالنواصي والأقدام والسفع هنا الجذب والقبض على الشئ وقيل هو الإحراق من قولك سفعته النار وأكد لنسفعا باللام والنون الخفيفة وكتبت في المصحف بالألف مراعاة للوقف ويظهر لي أن هذا الوعيد نفذ عليه يوم بدر حين قتل وأخذ بناصيته فجر إلى القليب ناصية كاذبة خاطئة أبدل ناصية من الناصية ووصفها بالكذب والخطيئة تجوزا والكاذب الخاطئ في الحقيقة صاحبها والخاطئ الذي يفعل الذنب متعمدا والمخطئ الذي يفعله بغير قصد فليدع نادية النادي والندى المجلس الذي يجتمع فيه الناس وكان أبو جهل قد قال أيتوعدني محمد فوالله ما بالوادي أعظم ناديا منى فنزلت الآية تهديدا وتعجيزا له والمعنى فليدع أهل نادية لنصرته إن قدروا على ذلك ثم أوعده بأن يدعو له زبانية جهنم وهم الملائكة الموكلون بالعذاب والزبانية في اللغة الشرط واحدهم زبنية وقيل زبنى وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو دعا نادية لأخذته الزبانية عيانا ... 803

---

210 واسجد واقترب أي تقرب إلى الله بالسجود كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاجتهدوا في الدعاء وهذا موضع سجدة عند الشافعي وليست عند مالك من عزائم السجود

سورة القدر

اختلف الناس في ليلة القدر على ستة عشر قولا وهي أنها ليلة إحدى وعشرين من رمضان وليلة ثلاث وعشرين وليلة خمس وعشرين وليلة سبع وعشرين وليلة تسع وعشرين فهذه خمسة أقوال في ليالي الأوتار من العشر الأواخر

من رمضان على قول من ابتدأ عدتها من أول العشر وقد ابتدأ بعضهم عدتها من آخر الشهر فجعل ليالي الأوتار ليلة ثلاثين لأنها الأولى وليلة ثمان وعشرين لأنها الثانية وليلة ستة وعشرين لأنها الخامسة وليلة أربع وعشرين لأنها السابعة وليلة اثنين وعشرين لأنها التاسعة فهذه خمسة أقوال أخر فتلك عشرة أقوال والقول الحادي عشر أنها تدور في العشر الأواخر ولا تثبت في ليلة واحدة منه الثاني عشر أنها مخفية في رمضان كله وهذا ضعيف لقوله صلى الله عليه وسلم التمسوها في العشر الأواخر الثالث عشر أنها مخفية في العام كله الرابع عشر أنها ليلة النصف من شعبان وهذان القولان باطلان لأن الله تعالى قال إنا أنزلناه في ليلة القدر وقال شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن فدل ذلك على أن ليلة القدر في رمضان القول الخامس عشر أنها رفعت بعد النبي صلى الله عليه وسلم وهذا ضعيف القول السادس عشر أنها ليلة سبعة عشر من رمضان لأن وقعة بدر كانت صبيحة هذه الليلة وأرجح الأقوال أنها ليلة إحدى وعشرين من رمضان أو ليلة ثلاث وعشرين أو ليلة سبع وعشرين فقد جاءت في هذه الليالي الثلاث أحاديث صحيحة خرجها مسلم وغيره والأشهر أنها ليلة سبع وعشرين إنا أنزلناه في ليلة القدر الضمير في أنزلناه للقرآن دل على ذلك سياق الكلام وفي ذلك تعظيم للقرآن من ثلاثة أوجه أحدها أنه ذكر ضميره دون اسمه الظاهر دلالة على شهرته والاستغناء عن تسميته والثاني أنه

(3/345)

اختار لإنزاله أفضل الأوقات والثالث أن الله أسند إنزاله إلى نفسه وفي كيفية إنزاله في ليلة القدر قولان أحدهما أنه ابتدأ إنزاله فيها والآخر أنه أنزل القرآن فيها جملة واحدة إلى السماء ثم نزل به جبريل إلى الأرض بطول عشرين سنة وقيل المعنى أنزلناه في شأن ليلة القدر وذكرها وهذا ضعيف وسميت ليلة القدر من تقدير الأمور فيها أو من القدر بمعنى الشرف ويترجح الأول بقوله فيها يفرق كل أمر حكيم وما أدراك ما ليلة القدر هذا تعظيم لها قال بعضهم كل ما قال فيه ما أدراك فقد علمه النبي صلى الله عليه وسلم وما قال فيه ما يدريك فإنه لا يعلمه ليلة القدر خير من ألف شهر معناه أن من قامها كتب الله له أجر العبادة في ألف شهر قال بعضهم يعني في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا فغفر له ما تقدم من ذنبه وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا ممن تقدم عبد الله ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك ورأوا أن أعمارهم تنقص عن ذلك فأعطاهم الله ليلة القدر وجعلها خيرا من العبادة في تلك المدة الطويلة ... 804

(3/346)

---

211 وروى أن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما عوتب حين بايع معاوية فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المنام بني أمية ينزون على منبره نزو القردة وأعلمه أنهم يملكون أمر الناس ألف شهر

فاهتم لذلك فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير من ملك بني أمية ألف شهر ثم كشف الغيب أنه كان من بيعة الحسن لمعاوية إلى قتل مروان الجعدي آخر ملوك بني أمية بالمشرق ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم الروح هنا جبريل عليه السلام وقيل صنف من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة وتنزلهم هو إلى الأرض وقيل إلى السماء الدنيا وهو تعظيم لليلة القدر ورحمة للمؤمنين القائمين فيها من كل أمر هذا متعلق بما قبله والمعنى أن الملائكة ينزلون ليلة القدر من أجل كل أمر يقضى الله في ذلك العام فإنه روى أن الله يعلم الملائكة بكل ما يكون في ذلك العام من الآجال والأرزاق وغير ذلك ليمتثلوا ذلك في العام كله وقيل على هذا المعنى أن من بمعنى الباء أي ينزلون بكل أمر وهذا ضعيف وقيل إن المجرور يتعلق بعده والمعنى أنها سلام من كل أمر أي سلامة من الآفات قال مجاهد لا يصيب أحد فيها داء والأظهر أن الكلام تم عند قوله من كل أمر ثم ابتدأ قوله سلام هي واختلف في معنى سلام فقيل إنه من السلامة وقيل إنه من التحية لأن الملائكة يسلمون على المؤمنين القائمين فيها وكذلك اختلف في إعرابه فقيل سلام هي مبتدأ وخبر وهذا يصح سواء جعلناه متصلا مع ما قبله أو منقطعا عنه وقيل سلام خبر مبتدأ مضمر تقديره أمرها سلام أو القول فيها سلام وهي مبتدأ خبره حتى مطلع الفجر أي هي دائمة إلى طلوع الفجر ويختلف الوقف باختلاف الإعراب وقال ابن عباس إن قوله هي إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين لأن هذه الكلمة هي السابعة والعشرين من كلمات السورة

سورة لم يكن

ذكر الله الكفار ثم قسمهم إلى صنفين أهل الكتاب والمشركين وذكر أن جميعهم لم يكونوا

منفكين حتى تأتيهم البينة وتقوم عليهم الحجة ببعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى منفكين منفصلين ثم اختلف في هذا الانفصال على أربعة أقوال أحدها أن المعنى لم يكونوا منفصلين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة لتقوم عليهم الحجة الثاني لم يكونوا منفصلين عن معرفة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله الثالث اختاره ابن عطية وهو لم يكونوا منفصلين عن نظر الله وقدرته حتى يبعث الله إليهم رسولا يقيم عليهم الحجة الرابع وهو الأظهر عندي أن المعنى لم يكونوا لينفصلوا من الدنيا حتى بعث الله لهم سيدنا محمد ص فقامت عليهم الحجة لأنهم لو انفصلت الدنيا دون بعثه لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فلما بعثه الله لم يبق لهم عذر ولا حجة فمنفكين على هذا كقولك لا تبرح أو لا تزول حتى يكون كذا وكذا رسول من الله يعني سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وإعرابه بدل من البينة أو خبر ابتداء مضمر يتلوا صحفا مطهرة يعني ... 805

فيها كتب قيمة أي قيمة بالحق مستقيمة المعاني ووزن قيمة فيعلة وفيه مبالغة قال ابن عطية هذا على حذف مضاف تقديره فيها أحكام كتب ولا يحتاج إلى هذا الحذف لأن الكتب بمعنى المكتوبات وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة أي ما اختلفوا في نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا من بعد ما علموا أنه حق ويحتمل أن يريد تفرقهم في دينهم كقوله ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه وإنما خص الذين أوتوا الكتاب بالذكر هنا بعد ذكرهم مع غيرهم في أول السورة لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بما يجدون في كتبهم من ذكره وما أمروا الآية معناها ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بعبادة الله ولكنهم حرفوا وبدلوا ويحتمل أن يكون المعنى ما أمروا في القرآن إلا بعبادة الله فلأى شئ ينكرونه ويكفرون به مخلصين له الدين استدل المالكية بهذا على وجوب النية في الوضوء وهو بعيد لأن الإخلاص هنا يراد به التوحيد وترك الشرك أو ترك الرياء وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال وهذا الاخلاص في التوحيد هو الشرك الجلي وهذا الاخلاص في الأعمال هو الشرك الخفي وهو الرياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرياء الشرك الأصغر وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه تعالى يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشريكه) واعلم أن الأعمال ثلاثة أنواع مأمورات ومنهيات ومباحات فأما المأمورات فالاخلاص فيها عبارة عن خلوص النية لوجه الله بحيث لا يشوبها بنية أخرى فإن كانت كذلك فالعمل خالص مقبول وإن كانت النية لغير وجه الله من طلب منفعة دنيوية أو مدح أو غير ذلك فالعمل رياء محض مردود وإن كانت النية مشتركة ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال وأما المنهيات فإن تركها دون نية خرج عن عهدتها ولم يكن له أجر في تركها وإن تركها بنية وجه الله حصل له

الخروج عن عهدتها مع الأجر وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك فإن فعلها بغير نية لم يكن له فيها أجر وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة ويقصد بالجماع التعفف عن الحرام حنفاء جمع حنيف وقد ذكر وذلك دين االقيمة تقديره الملة القيمة أو الجماعة القيمة وقد فسرنا القيمة ومعناه أن الذي أمروا به من عبادة الله والإخلاص له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هو دين الإسلام فلأي شئ لا يدخلون فيه البرية الخلق لأن الله برأهم وأوجدهم بعد العدم وقرئ بالهمز وهو الأصل وبالياء وهو تخفيف من المهموز وهو أكثر استعمالا عند العرب رضي الله عنهم ورضوا عنه اختلف هل هذا في الدنيا أو في الآخرة فرضاهم عن الله في الدنيا هو الرضا بقضائه والرضا بدينه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا ورضاهم عنه في الآخرة وهو رضاهم بما أعطاهم الله فيها أو رضا الله عنهم ... 806

213 لما ورد في الحديث أن الله يقول يا أهل الجنة هل تريدون شيئا أزيدكم فيقولون يا ربنا وأي شئ نريد وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين فيقول عندي أفضل من ذلك وهو رضواني فلا أسخط عليكم أبدا ذلك لمن خشى ربه أي لمن خافه وهذا دليل على فضل الخوف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الله رأس كل حكمة
سورة الزلزلة
إذا زلزلت الأرض أي حركت واهتزت زلزالها مصدر وإنما أضيف أليها تهويلا كأنه يقول الزلزلة التي تليق بها على عظم جرمها وأخرجت الأرض أثقالها يعني الموتى الذين في جوفها وذلك عند النفخة الثانية في الصور وقيل هي الكنوز وهذا ضعيف لأن إخراجها للكنوز وقت الدجال وقال الإنسان مالها أي يتعجب من شأنها فيحتمل أن يريد جنس الإنسان أو الكافر خاصة لأنه الذي يرى حينئذ مالا يظن يومئذ تحدث أخبارها هذه عبارة عما يحدث فيها من الأهوال فهو مجاز وحديث بلسان الحال وقيل هو شهادتها على الناس بما عملوا على ظهرها فهو حقيقة وتحدث يتعدى إلى مفعولين حذف المفعول منهما والتقدير تحدث الخلق أخبارها وانتزع بعض المحدثين من قوله تحدث أخبارها أن قول المحدث حدثنا وأخبرنا سواء وهذه الجملة هي جواب إذا زلزلت وتحدث هو العامل في إذا ويومئذ بدل من إذا ويجوز أن يكون العامل في إذا مضمر وتحدث عامل في يومئذ بأن ربك أوحى لها الباء سببية متعلقة بتحدث أي تحدث بسبب أن الله أوحى لها ويحتمل أن يكون بأن الله أوحى لها بدلا من إخبارها وهذا كما تقول حدثت كذا وحدثت بكذا والمعنى على هذا تحدث بحديث الوحي لها وهذا الوحي يحتمل أن يكون الهاما أو كلاما بواسطة الملائكة ولها بمعنى إليها وقيل معناه أوحى إلى الملائكة من أجلها وهذا بعيد يومئذ يصدر الناس أشتاتا معنى أشتاتا مختلفين في أحوالهم وواحد الأشتات شت وصدر الناس هو انصرافهم من موضع وردهم فقيل الورد هو الدفن في القبور والصدر هو القيام للبعث وقيل

الورد القيام للحشر والصدر الانصراف إلى الجنة والنار وهذا أظهر وفيه يعظم التفاوت بين أحوال الناس فيطهر كونهم أشتاتا
فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره
المثقال هو الوزن والذرة هي النملة الصغيرة والرؤية هنا ليست برؤية بصر وإنما هي عبارة عن الجزاء وذكر الله مثقال الذرة تنبيها على ما هو أكثر منه من طريق الأولى كأنه قال من يعمل قليلا أو كثيرا وهذه الآية هي في المؤمنين لأن الكافر لا يجازى في الآخرة على حسناته إذ لم تقبل منه واستدل أهل السنة بهذه الآية أنه لا يخلد مؤمن في النار لأنه إذا خلد لم ير ثوابا على إيمانه وعلى ما عمل من الحسنات وروى عن عائشة أنها تصدقت بحبة عنب فقيل لها في ذلك فقالت كم فيها من مثقال ذرة وسمع رجلا هذه الاية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حسبي الله لا أبالي أن أسمع غيرها ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره هذا على عمومه في حق الكافر وأما المؤمنون فلا يجازون بذنوبهم إلا بستة شروط وهي أن تكون ذنوبهم كبائر وأن يموتوا قبل التوبة منها

وأ لا تكون لهم حسنات أرجح في الميزان منها وأن لا يشفع فيهم وأن لا يكون ممن استحق ... 807

---

214 المغفرة بعمل كأهل بدر وأن لا يعفو الله عنهم فإن المؤمن العاصي في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له
سورة العاديات
اختلف في العاديات والموريات والمغيرات هل يراد بها الخيل أو وعلى القول بأنها الخيل اختلف هل يعني خيل المجاهدين أو الخيل على الإطلاق وعلى القول بأنها الإبل اختلف هل يعني إبل غزوة بدر أو إبل المجاهدين مطلقا أو إبل الحجاج أو الإبل على الإطلاق ومعنى العاديات التي تعدو في مشيها والضبح هو تصويت جهير عند العدو الشديد ليس بصهال وهو مصدر منصوب على تقدير يضبحن ضبحا أو هو مصدر في موضع الحال تقديره العاديات في حال ضبحها والموريات من قولك أوريت النار إذا أوقدتها والقدح هو صك الحجارة فيخرج منها شعلة نار وذلك عند ضرب الأرض لأرجل الخيل أو الإبل وإعراب قدحا كإعراب صبحا والمغيرات من قولك أغارت الخيل إذا خرجت للإغارة على الأعداء وصبحا ظرف زمان لأن عادة أهل الغارة في الأكثر أن يخرجوا في الصباح فأثرن به نقعا هذه الجملة معطوفة على العاديات وما بعده لأنه في تقدير التي تعدو والنقع الغبار والضمير المجرور للوقت المذكور وهو الصبح فالباء ظرفية أو لكان الذي يقتضيه المعنى فالباء أيضا ظرفية أو للعدو وهو المصدر الذي يقتضيه العاديات فالباء سببية ومعنى أثرن حركن والضمير الفاعل للإبل أو للخيل أي حركن الغبار عند مشيهن فوسطن به جمعا معنى وسطن توسطن وجمعا اختلف هل المراد به جمع من الناس أو المزدلفة لأن اسمها جمع والضمير المجرور للوقت أو للمكان أو للعدو أو للنقع إن الانسان لربه لكنود هذا جواب القسم والكنود الكفور للنعمة فالتقدير إن الانسان لنعمة ربه لكفور والانسان جنس وقيل الكنود العاصي وقال بعض الصوفية الكنود هو الذي يعبد الله على عوض وإنه على ذلك لشهيد الضمير للانسان أي هو شاهد على نفسه بكنوده وقيل هو لله تعالى على معنى التهديد والأول أرجح لأن الضمير الذي بعده

للإنسان باتفاق فيجري الكلام على نسق واحد وإنه لحب الخير لشديد الخير هنا المال كقوله إن ترك خيرا والمعنى أن الإنسان شديد الحب للمال فهو ذم لحبه والحرص عليه وقيل الشديد البخيل والمعنى على هذا أنه بخيل من أجل حب المال والأول أظهر إذا بعثر ما في القبور أي بحث عند ذلك عبارة عن البعث وحصل ما في الصدور أي جمع ما في الصحف وأظهر محصلا أو ميز خيره من شره إن ربهم بهم يومئذ لخبير الضمير في ربهم وبهم يعود على الإنسان لأنه يراد به الجنس وفي هذه الجملة وجهان أحدهما أن هذه الجملة معمول أفلا يعلم فكان الأصل أن تفتح إن ولكنها كسرت من أجل اللام التي في خبرها

والثاني أن تكون هذه الجملة مستأنفة ويكون معمول أفلا يعلم محذوفا ويكون الفاعل ضميرا يعود على الإنسان والتقدير أفلا يعلم الإنسان حاله وما يكون منه إذا بعثر ما في القبور وهذا هو الذي قاله ابن عطية ويحتمل عندي أن يكون فاعل أفلا يعلم ضميرا يعود على الله والمفعول محذوف والتقدير أفلا يعلم الله أعمال ... 808

---

215 الإنسان إذا بعثر ما في القبور ثم استأنف قوله إن ربهم بهم يومئذ لخبير على وجه التأكيد أو البيان للمعنى المتقدم والعامل في إذا بعثر على هذا الوجه هو أفلا يعلم والعامل فيه على مقتضى قول ابن عطية هو المفعول المحذوف وإذا هنا ظرفية بمعنى حين ووقت وليست بشرطية والعامل في يومئذ خبير وإنما خص ذلك بيوم القيامة لأنه يوم الجزاء بقصد التهديد مع أن الله خبير على الإطلاق
سورة القارعة
القارعة من أسماء القيامة لأنها تقرع القلوب بهولها وقيل هي النفخة في الصور لأنها تقرع الأسماع ما القارعة مبتدأ وخبر في موضع خبر القارعة والمراد به تعظيم شأنها وكذلك وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث العامل في الظرف محذوف دل عليه القارعة تقديره تقرع في يوم والفراش هو الطير الصغير الذي يشبه البعوض ويدور حول المصباح والمبثوث هو المنتشر المتفرق شبه الله الخلق يوم القيامة به في كثرتهم وانتشارهم وذلتهم ويحتمل أنه شبههم به لتساقطهم في جهنم كما يتساقط الفراش في المصباح قال بعض العلماء الناس في أول قيامهم من القبور كالفراش المبثوث لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام ثم يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر فيكونون حينئذ كالجراد المنتشر لأن الجراد يقصد إلى جهة واحدة وقيل الفراش هنا الجراد الصغير وهو ضعيف وتكون الجبال كالعهن المنفوش العهن هو الصوف وقيل الصوف الأحمر وقيل الصوف الملون ألوانا شبه الله الجبال يوم القيامة به لأنها تنسف فتصير لينة وعلى القول بأنه الملون يكون التشبيه أيضا من طريق اختلاف ألوان الجبال لأن منها بيضاء وحمراء وسوداء من ثقلت موازينه هو جمع ميزان أو جمع موزون وميزان الأعمال يوم القيامة له لسان وكفتان عند الجمهور وقال قوم هو عبارة عن العدل
في عيشة راضية معناه ذات رضا عند سيبوية وثقل الموازين بكثرة الحسنات وخفتها بقلتها ولا يخف ميزان مؤمن خفة

موبقة لأن الإيمان يوزن فيه فأمه هاوية فيه ثلاثة أقوال أحدها أن الهاوية جهنم سميت بذلك لأن الناس يهوون فيها أي يسقطون وأمه معناه مأواه كقولك المدينة أم فلان أي مسكنه على التشبيه بالأم الوالدة لأنها مأوى الولد ومرجعه الثاني أن الأم هي الوالدة وهاوية ساقطة وذلك عبارة عن هلاكه كقولك أمه

ثكلى إذا هلك الثالث أن المعنى أم رأسه هاوية في جهنم أي ساقطة فيها لأنه يطرح فيها منكوسا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل لا أم لك فقال يا رسول الله تدعوني إلى الهدى وتقول لي لا أم لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أردت لانار لك قال الله تعالى فأمه هاوية وهذا يؤيد القول الأول وما أدراك ما هية الهاء للسكت والضمير لجهنم على القول بأنها الهاوية وهو للفعلة والخصلة التي يراد بها العذاب على القول الثاني والثالث والمقصود تعظيمها ثم فسرها بقوله نار حامية ... 809

---

216 سورة التكاثر
ألهاكم التكاثر هذا خبر يراد به الوعظ والتوبيخ ومعنى ألهاكم شغلكم والتكاثر المباهاة بكثرة المال والأولاد وأن يقول هؤلاء نحن أكثر ويقول هؤلاء نحن أكثر ولما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم قال يقول ابن آدم مالي مالي وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت حتى زرتم المقابر فيه ثلاثة أقوال أحدها أن معناه حتى متم فأراد بزيارة المقابر الدفن فيها الثاني أن معناه حتى ذكرتم الموتى الذين في المقابر فعبر بزيارتها عن التفاخر بمن فيها لأن بعض العرب تفاخر بآبائها الموتى فالمعنى ألهاكم التكاثر حتى بلغتم فيه إلى ذكر الموتى الثالث أن معناه زيارة المقابر حقيقة لتعظيم أهلها والتفاخر بهم فيقال هذا قبر فلان ليشهر ذكره ويعظم قدره كلا سوف تعلمون زجر وتهديد ثم كرره للتأكيد وعطفه بثم إشارة إلى أن الثاني أعظم من الأول وقيل الأول تهديد للكفار والثاني تهديد للمؤمنين وحذف معمول تعلمون وتقديره تعلمون ما يحل بكم أو تعلمون أن القرآن حق أو تعلمون أنكم كنتم على خطأ في اشتغالكم بالدنيا وإنما حذفه لقصد التهويل فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله لو تعلمون علم اليقين جواب لو محذوف تقديره لو تعلمون لازدجرتم واستعددتم للآخرة فينبغي الوقف على اليقين ومعمول لو تعلمون محذوف أيضا وعلم اليقين مصدر ومعنى علم اليقين العلم الذي لا يشك فيه قال بعضهم هو من إضافة الشئ إلى نفسه كقولك دار الآخرة وقال الزمخشري معناه علم الأمور التي تتيقنونها بالمشاهدة لترون الجحيم هذا جواب قسم محذوف وهو تفسير لمفعول لو تعلمون تقديره لو تعلمون عاقبة أمركم ثم فسرها بأنها رؤية الجحيم والتفسير بعد الابهام يدل على التهويل والتعظيم والخطاب لجميع الناس فهو كقوله وإن منكم إلا واردها وقيل للكفار خاصة فالرؤية على هذا يراد بها الدخول فيها
ثم لترونها عين اليقين هذا تأكيد للرؤية

المتقدمة وعطفه بثم للتهويل والتفخيم والعين هنا من قولك عين الشئ نفسه وذاته أي لترونها الرؤية التي هي نفس اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم هذا إخبار بالسؤال في الآخرة عن نعيم الدنيا فقيل النعيم الأمن والصحة وقيل الطعام والشراب وهذه أمثلة والصواب العموم في كل ما يتلذذ به قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم بيت يكنك وخرقة تواريك وكسرة تشد قلبك وما سوى ذلك فهو نعيم وقال صلى الله عليه وسلم كل نعيم فمسئول عنه إلا نعيم في سبيل الله وأكل صلى الله عليه وسلم يوما مع أصحابه رطبا وشربوا عليه ماء فقال لهم هذا من النعيم الذي تسئلون عنه
سورة العصر
والعصر فيه ثلاثة أقوال
الأول أنه صلاة العصر أقسم الله بها لفضلها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله الثاني أنه العشى أقسم به كما أقسم بالضحى ويؤيد ... 810

---

217 هذا قول أبي بن كعب سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العصر فقال أقسم ربكم بآخر النهار والثالث أنه الزمان إن الانسان لفي خسر الانسان جنس ولذلك استثنى منه الذين آمنوا فهو استثناء متصل وتواصوا بالحق أي وصى بعضهم بعضا بالحق وبالصبر فالحق هو الاسلام وما يتضمنه وفيه إشارة إلى كذب الكفار وفي الصبر إشارة إلى صبر المؤمنين على إذاية الكفار لهم بمكة
سورة الهمزة
ويل لكل همزة لمزة هو على الجملة الذي يعيب الناس ويأكل أعراضهم واشتقاقه من الهمز واللمز وصيغة فعلة للمبالغة واختلف في الفرق بين الكلمتين فقيل الهمز في الحضور واللمز في الغيبة وقيل بالعكس وقيل الهمز باليد والعين واللمز باللسان وقيل هما سواء ونزلت السورة في الأخنس بن شريق لأنه كان كثير الوقيعة في الناس وقيل في أمية بن خلف وقيل في الوليد بن المغيرة ولفظها مع ذلك على العموم في كل من اتصف بهذه الصفات وعدده أي أحصاه وحافظ على عدده ألا ينقص فمنعه من الخيرات وقيل معناه استعده وادخره عدة لحوادث الدهر أيحسب أن ماله أخلده أي يظن بفرط جهله واغتراره أن ماله يخلده في الدنيا وقيل يظن أن ماله يوصله إلى دار الخلد كلا رد عليه فيما ظنه
لينبذن في الحطمة هذا جواب قسم محذوف والحطمة هي جهنم وإنما سميت حطمة لأنها تحطم ما يلقى فيها وتلتهبه وقد عظمها بقوله وما أدراك ثم فسرها بأنها نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة أي تبلغ القلوب بإحراقها قال ابن عطية يحتمل أن يكون المعنى أنها تطلع على ما في القلوب من االعقائد والنيات بإطلاع الله إياها مؤصدة مغلقة في عمد ممددة العمد جمع عمود وهو عند سيبويه اسم جمع وقرئ عمد بضمتين والعمود هو المستطيل من حديد أو خشب والممددة الطويلة وفي المعنى قولان أحدهما أن أبواب جهنم أغلقت عليهم ثم مدت على أبوابها عمد تشديدا في الإغلاق والثقاف كما تثقف أبواب البيوت بالعمد وهو

على هذا متعلق بمؤصدة والآخر أنهم موثوقون مغلولون في العمد فالمجرور على هذا في موضع خبر مبتدأ مضمر تقديره هم موثوقون في عمد
سورة الفيل
نزلت هذه السورة منبهة على العبرة في قصة الفيل التي وقعت في عام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تدل على كرامة الله للكعبة وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم فكان يجب عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به وفيها مع ذلك عجائب من قدرة الله وشدة عقابه وقد ذكرت القصة في كتب السير وغيرها ... 811

(3/360)

---

218 واختصارها أن أبرهة ملك الحبشة بني بيتا باليمن وأراد أن يحج الناس إليه كما يحجون إلى الكعبة فذهب أعرابي وأحدث في البيت فغضب أبرهة وحلف أن يهدم الكعبة فاحتفل في جموعة وركب الفيل وقصد مكة فلما وصل قريبا منها فر أهلها إلى الجبال وأسلموا له الكعبة وأخذ لعبد المطلب مائتي بعير فكلمه فيها فقال له كيف تكلمني في الإبل ولا تكلمني في الكعبة وقد جئت لهدمها وهي شرفك وشرف قومك فقال له أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه فبرك الفيل بذي الغميس ولم يتوجه إلى مكة فكانوا إذا وجهوه إلى غيرها هرول وإذا وجهوه إليها توقف ولو بضعوه بالحديد فبينما هم كذلك أرسل الله عليهم طيورا سودا وقيل خضرا عند كل طائر ثلاثة أحجار في منقاره ورجليه فرمتهم الطيور بالحجارة فكان الحجر يقتل من وقع عليه وروى أنه كان يدخل في رأسه ويخرج من دبره ووقع في سائرهم الجدري والأسقام وانصرفوا فماتوا في الطريق متفرقين في المراحل وتقطع أبرهة أنملة أنملة ألم تر كيف معناه ألم تعلم وكيف في موضع نصب بفعل ربك لا بألم تر والجملة معمول ألم تر في تضليل أي إبطال وتخسير أبابيل معناه جماعات شيئا بعد شئ قال الزمخشري واحدها أبلة وقال جمهور الناس هو جمع لا واحد له من لفظه بحجارة روى أن كل حجر منها كان فوق العدسة ودون الحمصة قال ابن عباس إنه أدرك عند أم هانئ نحو قفتين من هذه الحجارة وأنها كانت مخططة بحمرة وروى أنه كان على كل حجر اسم من يقع عليه مكتوبا سجيل قد ذكر كعصف مأكول العصف ورق الزرع وتبنه والمراد أنهم صاروا رميما وفي تشبيههم به ثلاثة أوجه الأول أنه شبههم بالتين إذا أكلته الدواب ثم راثته فجمع التلف والخسة ولكن الله كنى عن هذا على حسب أدب القرآن الثاني أنه أراد ورق الزرع إذا أكلته الدود الثالث أنه أراد كعصف مأكول زرعه وبقي هو لا شئ
سورة قريش
لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف قريش هم حى من عرب

(3/361)

الحجاز الذين هم من ذرية معد بن عدنان إلا أنه لا يقال قريشي إلا لمن كان من ذرية النضر بن كنانة وهم ينقسمون إلى إفخاذ وبيوت نحو بني هاشم وبني أمية وبني مخزوم وغيرهم وإنما سميت القبيلة قريشا لتقرشهم والتقرش التكسب

وكانوا تجارا وعن معاوية أنه سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشا قال لدابة في البحر تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى وكانوا ساكنين بمكة وكان لهم رحلتان في كل عام للتجارة رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى الشام وقيل كانت الرحلتان جميعا إلى الشام وقيل كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل فيقيمون بها ويرحلون في الشتاء إلى مكة لسكناهم بها والإيلاف مصدر من قولك آلفت المكان إذا ألفته وقيل هو منقول منه بالهمزة يقال ألف الرجل الشئ وألفه إياه غيره فالمعنى على القول الأول أن قريشا ألفوا رحلة الشتاء والصيف وعلى الثاني أن الله ألفهم الرحلتين واختلف في تعلق قوله لإيلاف قريش على ثلاثة أقوال
أحدها أنه يتعلق بقوله فليعبدوا والمعنى فليعبدوا الله من أجل إيلافهم الرحلتين فإن ذلك نعمة من الله عليهم الثاني أنه يتعلق بمحذوف تقديره اعجبوا لإيلاف قريش الثالث أنه ... 812

---

219 يتعلق بسورة الفيل والمعنى أن الله أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش فهو يتعلق بقوله فجعلهم أو بما قبله من الأفعال ويؤيد هذا أن السورتين في مصحف أبي بن كعب سورة واحدة لا فصل بينهما وقد قرأهما عمر في ركعة واحدة من المغرب وذكر الله الإيلاف أو لا مطلقا ثم أبدل منه الايلاف المقيد بالرحلتين تعظيما للأمر ونصب رحلة لأنه مفعول بإيلافهم وقال رحلة وأراد رحلتين فهو كقول الشاعر (كلوا في بعض بطنكم تعفوا) فليعبدوا رب هذا البيت هذا إقامة حجة عليهم بملاطفة واستدعاء لهم وتذكير بالنعم والبيت هو المسجد الحرام الذي أطعمهم من جوع يحتمل أن يريد إطعامهم بسبب الرحلتين فقد روى أنهم كانوا قبل ذلك في شدة وضيق حال حتى أكلوا الجيف ويحتمل أن يريد أطعامهم على الاطلاق فقد كان أهل مكة ساكنين بواد غير ذي زرع ولكن الله أطعمهم مما يجلب إليهم من البلاد بدعوة أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو قوله وارزقهم من الثمرات وآمنهم من خوف يحتمل أن يريد آمنهم من خوف أصحاب الفيل ويحتمل أن يريد آمنهم في بلدهم بدعوة إبراهيم في قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا وقد فسرناه في موضعه أو يعني آمنهم في أسفارهم لأنهم كانوا في رحلتهم آمنين لا يتعرض لهم أحد بسوء وكان غيرهم من الناس تؤخذ أموالهم وأنفسهم وقيل آمنهم من الجذام فلا يرى بمكة مجذوما قال الزمخشري التنكير في جوع وخوف لشدتهما
سورة الماعون
أرأيت الذي يكذب بالدين قيل إن هذا نزل في أبى جهل وأبى سفيان بن حرب وقيل هو مطلق والدين هنا الملة أو الجزاء فذلك الذي يدع اليتيم أي يدفعه بعنف وهذا الدفع يحتمل أن يكون عن إطعامه والاحسان إليه أو عن ماله وحقوقه وهذا أشد والذي لا يحض على طعام المسكين لا يطعمه من باب أولى وهذه الجملة هي جواب أرأيت لأن معناها أخبرني فكأنه سؤال وجواب والمعنى انظر الذي كذب بالدين تجد فيه هذه الأخلاق القبيحة والأعمال السيئة وإنما

ذلك لأن الدين يحمل صاحبه على فعل الحسنات وترك السيئات فمقصود الكلام ذم الكفار وأحوالهم
فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون قيل إن هذا نزل في عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق والسورة على هذا نصفها مكي ونصفها مدني قاله أبو زيد السهيلي وذلك أن ذكرى أبي جهل وغيره من الكفار أكثر ما جاء في السور المكية وذكر السهو عن الصلاة والرياء فيها إنما هو من صفة الذين كانوا بالمدينة لاسيما على قول من قال إنها في عبد الله بن أبي وقيل إنها مكية كلها وهو الأشهر ونزل آخرها على هذا في رجل أسلم بمكة ولم يكن صحيح الايمان وقيل مدنية والسهو عن الصلاة هو تركها أو تأخيرها تهاونا بها وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال الذين يؤخرونها عن وقتها وقال عطاء بن يسار الحمد لله الذي قال عن صلاتهم ساهون ولم يقل في صلاتهم الذين هم يراؤن هو من الرياء أي صلاتهم رياء للناس لا لله ويمنعون الماعون وصف لهم ... 813

220 بالبخل وقلة المنفعة للناس وفي الماعون أربعة أقوال الأول أنه الزكاة الثاني أنه المال بلغة قريش الثالث أنه الماء الرابع أنه ما يتعاطاه الناس بينهم كالآنية والفأس والدلو والمقص وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الشئ الذي لا يحل منعه فقال الماء والنار والملح وزاد في بعض الطرق الإبرة والخميرة
سورة الكوثر
إنا أعطيناك الكوثر هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والكوثر بثاء مبالغة من الكثرة وفي تفسيره سبعة أقوال الأول حوض النبي صلى الله عليه وسلم الثاني أنه الخير الكثير الذي أعطاه الله في الدنيا والآخرة قاله ابن عباس وتبعه سعيد بن جبير فإن قيل إن النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله فالمعنى أنه على العموم الثالث أن الكوثر القرآن الرابع أنه كثرة الأصحاب والأتباع الخامس أنه التوحيد السادس أنه الشفاعة السابع أنه نور وضعه الله في قلبه ولا شك أن الله أعطاه هذه الأشياء كلها ولكن الصحيح أن المراد بالكوثر الحوض لما ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتدرون ما الكوثر هو نهر أعطانيه الله وهو الحوض آنيته عدد نجوم السماء فصل لربك وانحر فيه خمسة أقوال الأول أنه أمره بالصلاة على الاطلاق وبنحر الهدى والضحايا الثاني أنه صلى الله عليه وسلم كان يضحي قبل صلاة العيد فأمره أن يصلي ثم ينحر فالمقصود على هذا تأخير نحر الأضاحي عن الصلاة الثالث أن الكفار يصلون مكاء وتصدية وينحرون للأصنام فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم صل لربك وحده وانحر له أي لوجهه لا لغيره فهو على هذا أمر بالتوحيد والاخلاص الرابع أن معنى انحر ضع يدك اليمنى على اليسرى عند صدرك في الصلاة فهو على هذا من النحر وهو الصدر الخامس أن معناه ارفع يديك عند نحرك في افتتاح الصلاة إن شانئك هو الأبتر الشانئ هو

المبغض وهو من الشنآن بمعنى العداوة ونزلت هذه الآية في العاصي بن وائل وقيل في أبي جهل

على وجه الرد عليه إذ قال إن محمدا أبتر أي لا ولد له ذكر فإذا مات استرحنا منه وانقطع أمره بموته فأخبر الله أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد لأنه مبتور من رحمة الله أي مقطوع عنها ولأنه لا يذكر إذا ذكر إلا باللعنة بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر مرفوع على المنابر والصوامع مقرون بذكر الله والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهو كوالدهم

سورة الكافرون

سبب هذه السورة إن قوما من قريش منهم الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاصي بن وائل وأبو جهل ونظراؤهم قالوا يا محمد اتبع ديننا ونتبع دينك اعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فقال معاذ الله أن نشرك بالله شيئا ونزلت السورة في معنى البراءة من آلهتهم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأها فقد برئ من الشرك لا أعبد ما تعبدون هذا إخبار أنه لا يعبد أصنامهم فإن قيل لم كرر هذا المعنى بقوله ولا أنا عابد ما عبدتم فالجواب من وجهين أحدهما قاله الزمخشري وهو أن قوله لا أعبد ما تعبدون يريد في الزمان المستقبل وقوله ... 814

---

221 ولا أنا عابد ما عبدتم يريد به فيما يضي أي ما كنت قط عابدا ما عبدتم فيما سلف فكيف تطلبون ذلك مني الآن الثاني قاله ابن عطية وهو أن قوله لا أعبد ما تعبدون لما كان يحتمل أن يراد به زمان الحال خاصة قال ولا أنا عابد ما عبدتم أي أبدا ما عشت لأن لا النافية إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال بقوله لا أعبد لا يحتمل أن يراد به الحال ويحتمل عندي أن يكون قوله لا أعبد ما تعبدون يراد به في المستقبل على حسب ما تقتضيه لامن الاستقبال ويكون قوله ولا أنا عابد ما عبدتم يريد به في الحال فيحصل من المجموع نفي عبادته للأصنام في الحال والاستقبال ومعنى الحال في قوله ولا أنا عابد ما عبدتم ثم أظهر من معنى المضي الذي قاله الزمخشري ومن معنى الاستقبال فان قولك ما زيد بقائم بنفي الجملة الاسمية يقتضي الحال ولا أنتم عابدون ما أعبد هذا إخبار أن هؤلاء الكفار لا يعبدون الله كما قيل لنوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن إلا أن هذا في حق قوم مخصوصين ماتوا على الكفر وقد روى أن هؤلاء الجماعة المذكورين هم أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف وأبى بن خلف وابن الحجاج وكلهم ماتوا كفارا فإن قيل لم قال ما أعبد بما دون من التي هي موضوعة لمن يعقل فالجواب من ثلاثة أوجه أحدها أن ذلك لمناسبة قوله لا أعبد ما تعبدون فإن هذا واقع على الأصنام التي لا تعقل ثم جعل ما أعبد على طريقته لتناسب اللفظ الثاني أنه أراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا

تعبدون الحق قاله الزمخشري الثالث أن ما مصدرية والتقدير لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي وهذا ضعيف فإن قيل لم كرر هذا المعنى واللفظ فقال بعد ذلك ولا أنتم عابدون ما أعبد مرة أخرى فالجواب من وجهين أحدهما قول الزمخشري وهو أن الأول في المستقبل والثاني فيما مضى والآخر قاله ابن عطية وهو أن الأول في الحال والثاني في الاستقبال فهو حتم عليهم

(3/367)

أن لا يؤمنوا أبدا لكم دينكم ولي دين أي لكم شرككم ولي توحيدي وهذه براءة منهم وفيها مسالمة منسوخة بالسيف
سورة النصر
سأل عمر بن الخطاب جماعة من الصحابة رضي الله عنهم عن معنى هذا السورة فقالوا إن الله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والاستغفار عند النصر والفتح وذلك على ظاهر لفظها فقال لابن عباس بمحضرهم يا عبد الله ما تقول أنت قال هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله بقربه إذا رأى النصر والفتح فقال عمر ما أعلم منها إلا ما علمت وقد قال بهذا المعنى ابن مسعود وغيره ويؤيده قول عائشة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وأسلم العرب جعل يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم إني أستغفرك يتأول القرآن أي هذه السورة وقال لها مرة ما أراه إلا حضور أجلي وقال ابن عمر نزلت هذه السورة بمعنى أيام التشريق في حجة الوداع وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوما أو نحوها وقال ابن مسعود هذه السورة تسمى سورة التوديع إذا جاء نصر الله والفتح يعني بالفتح فتح مكة والطائف وغيرهما من البلاد التي فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس إن النصر صلح الحديبية والفتح فتح مكة وقيل النصر إسلام أهل ... 815

(3/368)

---

222 اليمن والإخبار بذلك كله قبل وقوعه إخبار بغيب فهو من أعلام النبوة ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا أي جماعات وذلك أنه أسلم بعد فتح مكة بشر كثير فقد روى أن رسول صلى الله عليه وسلم كان معه في فتح مكة عشرة آلاف وكان معه في غزوة تبوك سبعون ألفا وقال أبو عمر بن عبد البر لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي العرب رجل كافر وقد قيل إن عدد المسلمين عند موته مائة ألف وأربعة عشر ألفا فسبح بحمد ربك واستغفره قد ذكر التسبيح والاستغفار ومعنى بحمد ربك فيما تقدم فإن قيل لم أمره الله بالتسبيح والحمد والاستغفار عند رؤية النصر والفتح وعند اقتراب أجله فالجواب أنه أمر بالتسبيح والحمد ليكون شكرا على النصر والفتح وظهور الإسلام وأمره بذلك وبالاستغفار عند اقتراب أجله ليكون ذلك زاد للآخرة وعدة للقاء الله
سورة أبي لهب
سببها أنه لما نزل قوله تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين صعد رسول الله صلى

الله عليه وسلم على الصفا فنادى بأعلى صوته يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقال لهم إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ثم أنذرهم عموما وخصوصا فقال له أبو لهب تبا لك لهذا جمعتنا فنزلت السورة تبت يد أبي لهب معنى تبت خسرت والتباب هو الخسران وأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أشد الناس عداوة له فإن قيل لم ذكره الله بكنيته دون اسمه فالجواب من ثلاثة أوجه أحدها أن كنيته كانت أغلب عليه من اسمه كأبي بكر وغيره ويقال إنه كنى بأبي لهب لتلهب وجهه جمالا الثاني أنه لما كان اسمه عبد العزى عدل عنه إلى الكنية الثالث أنه لما كان من أهل النار واللهب كناه أبا لهب ولينا سب ذلك قوله سيصلى نارا ذات لهب
ما أغنى عنه ماله وما كسب يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية يراد بها النفي وماله هو رأس ماله وما كسب الربح أو ماله ما ورث وما كسب هو ما اكتسبه لنفسه وقيل ماله

جميع ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب هذا حتم عليه بدخول النار ومات بعد ذلك كافرا وامرأته حمالة الحطب اسم امرأته أم جميل بنت حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان وعمه معاوية وفي وصفها بحمالة الحطب أربعة أقوال أحدها أنها كانت تحمل حطبا وشوكا فتلقيه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم لتؤذيه الثاني أن ذلك عبارة عن مشيها بالنميمة يقال فلان يحمل الحطب بين الناس أي يوقد بينهم نار العداوة بالنمائم الثالث أنه عبارة عن سعيها بالمضرة على المسلمين يقال فلان يحطب على فلان إذا قصد الإضرار به الرابع أنه عبارة عن ذنوبها وسوء أعمالها في جيدها حبل من مسد الجيد العنق والمسد الليف وقيل الحبل المفتول وفي المراد به ثلاثة أقوال الأول أنه إخبار عن حملها الحطب في الدنيا على القول الأول وفي ذلك تحقير لها وإظهار لخساسة حالها والآخر أنه حالها في جهنم يكون كذلك أي يكون في عنقها حبل الثالث أنها كانت لها قلادة فاخرة فقالت لأنفقنها على عداوة محمد فأخبر عن قلادتها بحبل المسد على جهة التفاؤل والذم لها بتبرجها ويحتمل قوله وامرأته وما بعده وجوها من الإعراب ... 816

---

223 يختلف الوقف باختلافها وهي أن يكون امرأته مبتدأ أو حمالة الحطب خبره أو يكون حمالة الحطب نعت والخبر في جيدها حبل من مسد أو يكون امرأته معطوفا على الضمير في يصلى وحمالة الحطب نعت أو خبر ابتداء مضمر
سورة الإخلاص
سبب نزول هذه السورة أن اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد صف لنا ربك وانسبه فإنه وصف نفسه في التوراة ونسبها فارتعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خر مغشيا عليه ونزل

عليه جبريل بهذه السورة وقيل إن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنسب لنا ربك فنزلت وعلى الرواية الأولى تكون السورة مدنية لأن سؤال اليهود بالمدينة وعلى الرواية الثانية تكون مكية واختلف في معنى قوله صلى الله عليه وسلم قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن فقيل إن ذلك في الثواب أي لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن وقيل إن ذلك فيما تضمنته من المعاني والعلوم وذلك أن علوم القرآن ثلاثة توحيد وأحكام وقصص وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار وهذا أظهر وعليه حمل ابن عطية الحديث ويؤيده أن في بعض روايات الحديث إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قل هو الله أحد جزءا من أجزاء القرآن وخرج النسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقرؤها فقال أما هذا فقد غفر له وفي رواية أنه قال وجبت له الجنة وخرج مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية فكان يقرأ لأصحابه في الصلاة قل هو الله أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوه لأي شئ يصنع ذلك فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه أن الله يحبه وفي رواية خرجها الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال للرجل حبك إياها أدخلك الجنة وخرج الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرأ قل هو الله أحد مائة مرة كل يوم

غفرت له ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين قل هو الله أحد الضمير هنا عند البصريين ضمير الأمر والشأن والذي يراد به التعظيم والتفخيم وإعرابه مبتدأ وخبره الجملة التي بعده وهي المفسرة له والله مبتدأ وأحد خبره وقيل الله هو الخبر وأحد بدل منه وقيل الله بدل وأحد هو الخبر وأحد له معنيان أحدهما أن يكون من أسماء النفي التي لا تقع إلا في غير الواجب كقولك ما جاءني أحد وليس هذا موضع هذا المعنى وإنما موضعه قوله ولم يكن له كفوا أحد والآخر أن يكون بمعنى واحد وأصله وحد بواو ثم أبدل من الواو همزة وهذا هو المراد هنا واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى الأول أنه واحد لا ثاني معه فهو نفي للعدد والثاني أنه واحد لا نظير ولا شريك له كما تقول فلان واحد عصره أي لا نظير له والثالث أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض والأظهر أن المراد في السورة نفي الشريك لقصد الرد على المشركين ومنه قوله تعالى وإلهكم إله واحد قال الزمخشري أحد وصف بالوحدانية ونفى الشركاء قلت وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته وذلك في القرآن كثير جدا وأوضحها أربعة براهين الأول قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق لأنه إذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات لم يكن أن يكون واحد منها شريكا له والثاني قوله لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا والثالث قوله قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغو ... 817

---

224 إلى ذى العرش سبيلا والرابع قوله وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض وقد فسرنا هذه الآيات في مواضعها وتكلمنا على حقيقة التوحيد في قوله وإلهكم إله واحد الله الصمد في معنى الصمد ثلاثة أقوال أحدها أن الصمد الذي يصمد إليه في الأمور أي يلجأ إليه والآخر أنه الذي لا يأكل ولا يشرب فهو كقوله وهو يطعم ولا يطعم والثالث أنه الذي لا جوف له والأول هو المراد هنا على الأظهر ورجحه ابن عطية بأن الله موجد الموجودات وبه قوامها فهي مفتقرة إليه أي تصمد إليه إذ لا تقوم بأنفسها ورجحه شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير بورود معناه في القرآن حيثما ورد نفى الولد عن الله تعالى كقوله في مريم وقالوا اتخذ الله ولدا ثم أعقبه بقوله إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا وقوله بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد وقوله وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض وكذلك هنا ذكره مع قوله لم يلد فيكون برهانا على نفي الولد قال الزمخشري صمد فعل بمعنى مفعول لأنه مصمود إليه في الحوائج لم يلد هذا رد على كل من جعل لله ولدا فمنهم النصارى في قولهم (عيسى ابن الله واليهود في قولهم (عزيز ابن الله والعرب في قولهم (الملائكة بنات الله) وقد أقام الله البراهين في القرآن على نفي الولد وأوضحها أربعة أقوال الأول أن الولد لا بد أن يكون من جنس والده والله تعالى ليس له جنس فلا يمكن أن يكون له ولد وإليه الإشارة بقوله تعالى ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام فوصفهما بصفة الحدوث لينفي عنهما صفة القدم فتبطل مقالة الكفار والثاني أن الوالد إنما يتخذ ولدا للحاجة إليه والله لا يفتقر إلى شئ فلا يتخذ ولدا وإلى هذا أشار بقوله قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني الثالث أن جميع الخلق عباد الله

والعبودية تنافي النبوة وإلى هذا أشار بقوله تعالى إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا الرابع أنه لا يكون له ولدا إلا لمن له زوجة والله تعالى لم يتخذ زوجة فلا يكون له ولد وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى أني يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ولم يولد هذا رد على الذين قالوا انسب لنا ربك وذلك أن كل مولود محدث والله تعالى هو الأول الذي لا افتتاح لوجوده القديم الذي كان ولم يكن معه شئ غيره فلا يمكن أن يكون مولودا تعالى عن ذلك ولم يكن له كفؤا أحد الكفؤ هو النظير والمماثل قال الزمخشري يجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح فيكون نفيا للصاحبة وهذا بعيد والأول هو الصحيح ومعناه أن الله ليس له نظير ولا شبيه ولا مثيل ويجوز في كفؤا ضم الفاء وإسكانها مع ضم الكاف وقد قرئ بالوجهين ويجوز أيضا كسر الكاف وإسكان الفاء ويجوز كسر الكاف وفتح الفاء والمد ويجوز فيه الهمزة والتسهيل وانتصب كفوا على أنه خبر كان وأحد اسمها قال ابن عطية ويجوز أن يكون كفوا حالا لكونه كان صفة للنكرة فقدم عليها فإن قيل لم قدم المجرور وهو له على اسم كان وخبرها وشأن الظرف إذا وقع غير خبر أن يؤخر فالجواب من وجهين أحدهما أنه قدم للاعتناء به والتعظيم لأنه ضمير الله تعالى وشأن العرب تقديم ما هو أهم وأولى والآخر أن هذا المجرور به يتم معنى الخبر وتكمل فائدته فإنه ليس المقصود نفى الكفؤ مطلقا إنما المقصود نفي الكفؤ عن الله

تعالى فلذلك اعتنى بهذا المجرور الذي يحرز هذا المعنى فقدم فإن قيل إن قوله قل هو الله أحد يقتضي نفي الولد والكفؤ فلم نص على ذلك بعده فالجواب أن هذا من التجريد وهو تخصيص الشئ بالذكر بعد دخوله في عموم ما تقدم كقوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال ... 818

---

225 ويفعل ذلك لوجهين يصح كل واحد منهما هنا أحدهما الاعتناء ولا شك أن نفي الولد والكفؤ عن الله ينبغي الاعتناء به للرد على من قال خلاف ذلك من الكفار والآخر الإيضاح والبيان فإن دخول الشئ في ضمن العموم ليس كالنص عليه فنص على هذا بيانا وإيضاحا للمعنى ومبالغة في الرد على الكفار وتأكيدا لإقامة الحجة عليهم
سورة الفلق
قل أعوذ برب الفلق تقدم معنى أعوذ في التعوذ ومعنى رب في اللغات والفاتحة وفي الفلق ثلاثة أقوال الأول أنه الصبح ومنه فالق الإصباح قال الزمخشري هو فعل بمعنى مفعول الثاني أنه كل ما يفلقه الله كفلق الأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك الثالث أنه جب في جهنم وقد روى هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من شر ما خلق هذا عموم في جميع المخلوقات وشرهم على أنواع كثيرة أعاذنا الله منها وما هنا موصولة أو موصوفة أو مصدرية ومن شر غاسق إذا وقب فيه ثمانية أقوال الأول أنه الليل إذا أظلم ومنه قوله تعالى إلى غسق الليل وهذا قول الأكثرين وذلك لأن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ولذلك قال في المثل الليل أخفى للويل الثاني أنه القمر خرج النسائي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب ووقوبه هذا كسوفه لأن وقب في كلام العرب يكون بمعنى الظلمة والسواد وبمعنى الدخول فالمعنى إذا دخل في الكسوف أو إذا أظلم به الثالث أنه الشمس إذا غربت والوقوب على هذا المعنى الظلمة أو الدخول الرابع أن الغاسق النهار إذا دخل في الليل وهذا قريب من الذي قبله الخامس أن الغاسق سقوط الثريا وكانت الأسقام والطاعون تهيج عنده وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال النجم هو الغاسق فيحتمل أن يريد الثريا السادس أنه الذكر إذا قام حكى النقاش هذا القول عن ابن عباس السابع قال

الزمخشري يجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات ووقبه ضربه الثامن أنه إبليس حكى ذلك السهيلي ومن شر النفاثات في العقد النفث شبه النفخ دون تفل وريق قاله ابن عطية وقال الزمخشري هو النفخ مع ريق وهذا النفث ضرب من السحر وهو أن ينفث على عقد تعقد في خيط أو نحوه على اسم مسحور فيضره ذلك وحكى ابن عطية أنه حدثه ثقة أنه رأى عند بعض الناس بصحراء المغرب خيطا أحمر قد عقدت فيه عقد على فصلان وهي أولاد الإبل

فمنعها بذلك رضاع أمهاتها فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه فرضع في الحين قال الزمخشري إن في الاستعاذة من النفاثات ثلاثة أوجه أحدها أن يستعاذ من مثل عملهن وهو السحر ومن ائتمن في ذلك والثاني أن يستعاذ من خداعهن للناس وفتنتهن والثالث أن يستعاذ مما يصيب من الشر عند نفثهن والنفاثات بناء مبالغة والموصوف محذوف تقديره النساء النفاثات والجماعة النفاثات أو النفوس النفاثات والأول أصح لأنه روى أنه إشارة إلى بنات لبيد بن الأعصم اليهودي وكن ساحرات سحرن هن وأبوهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقدن له أحدى عشر عقدة فأنزل الله المعوذتين إحدى عشر آية بعدد العقد وشفى الله رسوله صلى الله عليه وسلم فإن قيل لم عرف ... 819

---

226 النفاثات بالألف واللام ونكر ما قبله وهو غاسق وما بعده وهو حاسد مع أن الجميع مستعاذ منه فالجواب أنه عرف النفاثات ليفيد العموم لأن كل نفاثة شريرة بخلاف الغاسق والحاسد فإن شرهما في بعض دون بعض من شر حاسد أذا حسد الحسد خلق مذموم طبعا وشرعا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال بعض العلماء الحسد أول معصية عصى الله بها في السماء والأرض أما في السماء فحسد إبليس لأدم وأما في الأرض فقتل قابيل لأخيه هابيل بسبب الحسد ثم إن الحسد على درجات الأولى أن يحب الإنسان زوال النعمة عن أخيه المسلم وإن كانت لا تنتقل إليه بل يكره إنعام الله على غيره ويتألم به الثانية أن يحب زوال تلك النعمة لرغبته فيها رجاء انتقالها إليه الثالثة أن يتمنى لنفسه مثل تلك النعمة من غير أن يحب زوالها عن غيره وهذا جائز وليس بحسد وإنما هو غبطة والحاسد يضر نفسه ثلاث مضرات أحدها اكتساب الذنوب لأن الحسد حرام الثانية سوء الأدب مع الله تعالى فإن حقيقة الحسد كراهية إنعام الله على عبده واعتراض على الله في فعله الثالثة تألم قلبه من كثرة همه وغمه فنرغب إلى الله أن يجعلنا محسودين لا حاسدين فإن المحسود في نعمة والحاسد في كرب ونقمة ولله در القائل (وإني لأرحم حسادي لفرط ما ضمت صدورهم من الأوغار) (نظروا صنيع الله بي فعيونهم في جنة وقلوبهم في نار) وقال آخر (إن يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدو) (فدام لي ولهم مابي وما بهم ومات أكثرنا غيظا بما يجد) ثم إن الحسود لا تزال عداوته ولا تنفع مداراته وهو ظالم يشاكي كأنه مظلوم ولقد صدق القائل (كل العداوة قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد) وقال حكيم الشعراء (وأظلم خلق الله من بات حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب) قال ابن عطية قال بعض الحذاق هذة السورة خمس آيات وهي مراد الناس

بقولهم للحاسد الذي يخاف منه العين الخمسة على عينك فإن قيل لم قال إذا وقب وإذا حسد فقيد بإذا التي تقتضى تخصيص بعض الأوقات فالجواب أن شر

الحاسد ومضرته إنما تقع إذا أمضى حسده فحينئذ يضر بقوله أو بفعله أو بإصابته بالعين فإن عين الحسود قاتلة وأما إذا لم يمض حسده ولم يتصرف بمقتضاه فشره ضعيف ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا ينجو منهن أحد الحسد والظن والطيرة فمخرجه من الحسد أن لا يبقى ومخرجه من الظن أن لا يحقق ومخرجه من الطيرة ألا يرجع فلهذا خصه بقوله إذا وقب فإن قيل إن قوله من شر ما خلق عموم يدخل تحته كل ما ذكر بعده فلأى شئ ذكر ما بعده فالجواب أن هذا من التجريد للاعتناء بالمذكور بعد العموم ولقد تأكد ما ذكر في هذه السورة بعد العموم بسبب السحر الذي سحر اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حسدهم له

سورة الناس

قل أعوذ برب الناس إن قيل لم أضاف الرب إلى الناس خاصة وهو رب كل شئ فالجواب أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فخصهم بالذكر لأنهم المعوذون بهذا التعويذ والمقصودون هنا دون غيرهم ملك الناس إله الناس هذا عطف بيان فإن قيل لم قدم وصفه تعالى برب ثم يملك ثم بإله فالجواب أن هذا على الترتيب في الارتقاء إلى الأعلى وذلك أن الرب قد يطلق على كثير من الناس فيقال فلان رب الدار وشبه ذلك فبدأ به لاشتراك معناه وأما الملك فلا يوصف به إلا أحد من الناس وهم الملوك ولا شك

820 ...

(3/378)

---

227 أنهم أعلى من سائر الناس فلذلك جاء به بعد الرب وأما الإله فهو أعلى من الملك ولذلك لا يدعى الملوك أنهم الهة فإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير فلذلك ختم به فإن قيل لما أظهر المضاف إليه وهو الناس في المرة الثانية والثالثة فهلا أضمره في المرتين لتقديم ذكره في قوله برب الناس أو هلا اكتفى بإظهاره في المرة الثانية فالجواب أنه لما كان عطف بيان حسن فيه البيان وهو الإظهار دون الإضمار وقصد أيضا الإعتناء بالمكرر ذكره كقول الشاعر (لا أرى لموت يسبق الموت شيء يغص الموت ذا الغني والفقير) الوسواس هو مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي فيحتمل أن يكون الوسواس بمعني الموسوس فكأنه اسم فاعل وهذا يظهر في قول ابن عطية والوسواس من أسماء الشيطان ويحتمل أن يكون مصدرا وصف به الموسوس على وجه المبالغة كعدل وصوم أو على حذف مضاف تقديره ذي الوسواس وقال الزمخشري إنما المصدر وسواس بالكفر الخناس معناه الراجع على عقبه المستمر أحيانا وذلك متمكن في الشيطان فإنه يوسوس فإذا ذكر العبدالله وتعوذ به منه تباعد عنه ثم رجع إليه عند الغفلة عن الذكر وهو يخنس في تباعده ثم في رجوعه بعد ذلك الذي يوسوس في صدور الناس وسوسة الشيطان في صدر الإنسان بأنواع كثيرة منها إفساد الإيمان والتشكيك في العقائد فإن لم يقدر على ذلك أمره بالمعاصي فإن لم يقدر على ذلك ثبطه عن الطاعات فإن لم يقدر على ذلك أدخل عليه الرياء في الطاعات ليحبطها فإن سلم من ذلك أدخل عليه العجب بنفسه واستكثار عمله ومن ذلك أنه يوقد في القلب نار الحسد والحقد والغضب حتى يقود الإنسان إلى شر الأعمال وأقبح الأحوال وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء واحدها الإكثار من ذكر الله وثانيها الإكثار

من الإستعاذة بالله منه ومن أنفع شيء في ذلك قراءة هذه السورة وثالثها مخالفته والعزم على عصيانه فإن قيل لما قال في صدور الناس ولم يقل في قلوب الناس فالجواب أن ذلك إشارة إلى

عدم تمكن الوسوسة وأنها غير حالة في القلب بل هي محومة في الصدر حول القلب من الجنة والناس هذا بيان لجنس الوسواس وإنه يكون من الجن ومن الناس ثم إن الموسوس من الإنس يحتمل أن يريد من يوسوس بخدعه وأقواله الخبيثة فإنه شيطان كما قال تعالى شياطين الإنس والجن أو يريد به نفس الإنسان إذ تأمره بالسوء فإنها أمارة بالسوء والأول أظهر وقيل من الناس معطوف على الوسواس كأنه قال أعوذ من شر الوسواس من الجنة ومن شر الناس وليس الناس على هذا ممن يوسوس والأول أظهر وأشهر فإن قيل لم ختم القرآن بالمعوذتين وما الحكمة في ذلك فالجواب من ثلاثة أوجه الأول قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير لم كان القرآن أعظم النعم على عباده والنعم مظنة الحسد فختم بما يطفىء الحسد من الإستعاذة بالله الثاني يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما أنزلت على آيات لم ير مثلهن قط كما قال في فاتحة الكتاب لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها واختتم بسورتين لم ير مثلهما ليجمع حسن الإفتتاح والإختتام ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام إنما ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها الوجه الثالث يظهر لي أيضا أنه لما أمر القارىء أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعن آخر ما يقرأ من القراءة فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء وليكون القارىء محفوظا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره وبالله التوفيف لا رب غيره ... 821